



لورانس جيمس

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

ترجمة وتقديم: عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة: شوقي عطا الله الجمل

(المجلد الثاني)

كتاب موسوعى شامل يعرض تاريخ العالم من خلال مراحل تطور الإمبراطورية سواء فى الأمريكتين أو فى أوروبا أو فى آسيا أو فى أفريقيا عبر أكثر من ثلاثة قرون، وبالتالي فهو مرجع كامل يناقش قضايا دولية وتاريخية لواحدة من أعرق الإمبراطوريات وعوامل ازدهارها وتطورها ثم مراحل الانهيار، والتركيز على حرب السويس باعتبارها من أهم عوامل انهيار هذه الإمبراطورية، ودور الزعيم جمال عبد الناصر فى مصر. إنه كتاب لا غنى عنه لأى دارس لتاريخ العالم من خلال صعود الإمبراطورية البريطانية وسقوطها، خصوصاً أنه لمؤرخ وكاتب أمريكى قام بجولات وأجرى مقابلات واستمع إلى أقوال الساسة والمؤرخين، واعتمد على الكثير من الوثائق والدراسات والتحليلات التى جعلت من كتابه هذا ركيزة أساسية وموسوعة تاريخية سياسية لإمبراطورية غيرت مجرى تاريخ العالم خاصة فى قارتى آسيا وأفريقيا.

شروق الإمبراطورية
البريطانية وغروبها
(المجلد الثانى)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2564
- شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (الجزء الثاني)
- لورانس جيمس
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- شوقي عطا الله الجمل
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

The Rise & Fall of the British Empire

By: Lawrence James

Copyright © Lawrence James

by permission of the Andrew Lownie Literary Agency Ltd.

Arabic Translation © 2016, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة.
ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (المجلد الثاني)

تأليف: لـورانس جـيمس
ترجمة وتقديم: عبد الله عبد الرازق إبراهيم
مراجعة: شوقي عطا الله الجمل



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جيمس، لورانس.
شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (المجلد الثاني) /
تأليف: لورانس جيمس، ترجمة وتقديم: عبد الله عبد الرازق
إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل. .
ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥١٦ ص ، ٢٤ سم
١ - بريطانيا - تاريخ
(أ) إبراهيم، عبد الله عبد الرازق (مترجم ومقدم)
(ب) الجمل، شوقي عطا الله (مراجع)
(ج) العنوان
٩٤٢

رقم الإيداع ٥٤٥٦ / ٢٠١٢

الترقيم الدولي : 4-004-216-977-978-I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات
أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

الجزء الرابع: انتهاء عصر الاستعمار (١٩١٤-١٩٤٥)

- 9 الإمبراطورية التي يجب أن نموت من أجلها (١٩١٤ - ١٩١٨)
- 39 التخلي أو الحكم والاضطرابات الأيرلندية (١٩١٩ - ١٩٣٩)
- 55 كرامة وطنهم: مصر (١٩١٩ - ١٩٤٢)
- 69 السيادة العليا في الشرق الأوسط (١٩١٩ - ١٩٤٢)
- 93 قوة جديدة وسلطة جديدة: الهند (١٩١٩ - ١٩٤٢)
- لصالح الجميع: المفاهيم المرتبطة بالإمبراطورية خلال الفترة
من (١٩١٩ - ١٩٣٩) 119
- 135 ميثاق الروح الواحدة والرأى العام في الإمبراطورية (١٩١٩ - ١٩٣٩) ...
- 149 لا أمل في الوعيد - حدود النفوذ الإمبريالي من (١٩١٩ - ١٩٣٦)
- 169 الإمبراطورية تتحول إلى الحرب (١٩٣٧ - ١٩٣٩)
- 211 رفاق مخلصون - ضغوط الحرب
- 235 الدفاع عن امتياز قديم - استرداد الإمبراطورية (١٩٤٢ - ١٩٤٥)

الجزء الخامس: الشمس الغاربة (١٩٤٥-١٩٩٣)

- الاستعماريون يثورون: الإمبراطورية في عالم ما بعد الحرب
255 العالمية الثانية

285	العلاقات الودية: الهند وتصفية الإمبراطورية (١٩٤٥ - ١٩٤٧)
313	العالم كما هو: المصائب الآتية من الشرق الأوسط (١٩٤٥ - ١٩٥٦) ..
337	اضرب مؤخراتهم: حرب السويس وما بعدها
363	العالم القديم: ردود فعل إمبراطورية تحتضر
393	الحرية: تضيق الخناق (١٩٥٩ - ١٩٨٠)
417	مهمة لم تنته
428	الهوامش
443	ملحق الصور
493	البليوجرافيا

الجزء الرابع

انتهاء عصر الاستعمار

(١٩١٤ - ١٩٤٥)

(١)

الإمبراطورية التي يجب أن نموت من أجلها

(١٩١٤-١٩١٨)

جعلت موارد الإمبراطورية من بريطانيا- القوة الأكبر المشاركة في الحرب، وقد كانت الإمبراطورية تغطي ما يقارب من ربع سطح الكرة الأرضية، وكان عدد السكان الذين يعيشون في إطارها ٤٢٥ مليوناً منهم ٣٦٦ من الملونين، منهم ٣١٦ يعيشون في الهند. وهذه القوة العاملة تم استغلالها بقسوة؛ وذلك لتوفير الأيدي العاملة والمقاتلين والحمالين الذين كانوا يدعمون جيوش الإمبراطورية على كل الجبهات.

وعند نهاية الحرب فإن إجمالي الجنود والبحارة والطيارين في الإمبراطورية بلغ ٥,٨ ملايين - منهم ٧,٥ ملايين قدموا من المملكة المتحدة (أربعة أخماسهم من إنجلترا)، و٤,١ ملايين من الهند و٦٣٠,٠٠٠ من كندا و٤٢٠,٠٠٠ من أستراليا و١٣٦,٠٠٠ من جنوب أفريقيا، و ١٢٩,٠٠٠ من نيوزيلندا. والرقم الأخير كان مؤثراً للغاية؛ لأنه يمثل نصف عدد الرجال القادرين على تقديم الخدمة العسكرية^(١). والمستعمرات الأفريقية قدمت ٥٧,٠٠٠ من الجنود، والأكثر أهمية أنها قدمت ٩٣٢,٠٠٠ من العتالين والعمال، وكانوا هم المسؤولين عن تقديم أغلب الخدمات في معسكر شرق أفريقيا الألمانية^(٢). وقد كان هناك أيضاً ٣٣٠,٠٠٠ من العمال المصريين

الذين يعملون في فرنسا والشرق الأوسط، و٣٠٠٠ من السود من جنوب أفريقيا الذين كانوا يعملون في الأعمال النظامية خلف الخطوط في شرق أفريقيا وفي شمال فرنسا، وبعض الفيالق من العمال الصينيين الذين تم تجنيدهم للعمل أيضا في فرنسا. وبحلول عام ١٩١٨م كان هناك ما يقارب ثلث المليون من الصينيين والأفارقة والمصريين في فرنسا وحدها. ومن خلال قيامهم بالأعمال الشاقة وأعمال العتالة لخدمة الحرب فإن هؤلاء الرجال، مثل رفاقهم في الجبهات الأخرى، قد أقاموا للرجال البيض للتفرغ لخطوط النار. وهذا الرقم استند لأحد التقديرات الرئيسية للعاملين في مجال الخدمات؛ من أن مسألة قيام بريطانيا بتسخير كل القوى العاملة في الإمبراطورية هو ادعاء سخيف فقد قامت نياسالاند بتقديم ١٥٠٠٠ من العسكريين، و٢٠٠٠٠٠ من العمال في الفترة من ١٩١٤ وحتى ١٩١٨، وهو ما يمثل ثلثي عدد سكانها الرجال البالغين^(٣). والجزء الخاص بالجنود السود قد يكون أكبر، ولكن وزارة المستعمرات كانت متضايقة من فكرة قيام رجال سود بمحاربة رجال بيض، وقد تخيل كبار المسؤولين بها أن الزنوج يفكرون إلى الثبات والإقدام اللذين يتمتع بهما ما الأوروبيون^(٤).

وقد أظهرت الحرب بشكل قوى التوجيهات والأحكام ذات الطابع العرقي التي كانت مخفية والتي كانت تنتشر تحت سطح الإمبراطورية. والسير جيمس ويلكوكس الذي قام بقيادة القوات الهندية في فرنسا في الفترة ما بين أكتوبر من عام ١٩١٤ حتى سبتمبر من عام ١٩١٥م، مدح بشكل علني المقاتلين الهنود، وقال إنهم جنود من الطبقة الأولى وإنهم رجال متحضرين، ولكن في السر كان يشمئز من فكرة أن هؤلاء الرجال كانت تتم رعايتهم بواسطة ممرضات بيض^(٥). وقد كان اللورد لوجارد مرعوباً من فكرة أن تعالج زوجته بواسطة أطباء سود، وفي عام ١٩١٨م فإن أحد

مسئولى وزارة المستعمرات أصابه الرعب من احتمالية أن يقوم الجنود المنتمون إلى غرب الهند بقضاء فترة النقاهاة فى مستشفى ليفربول تحت رعاية ممرضات إنجليزيات^(٦).

وفى مارس من عام ١٩١٥م تلقت قوات الماورى فى مصر الأوامر بأن يقوموا بأداء مهام حامية مالطة بدلا من القيام بمشاركة زملائهم البيض فى شن الهجوم على منطقة الدردنيل، وهو ما أدى إلى إصابتهم بخيبة الأمل^(٧). وقد كان من البدهى بين كبار القادة أن مكانة الإمبراطورية فى الشرق الأوسط من الأفضل أن يتم الحفاظ عليها بواسطة جنود بيض. وهذا لم يكن حكما مسبقا عرقيا بالكامل، بل للتدفق المفاجئ للوحدات الهندية والسوداء على هذه المنطقة فى يونيه من عام ١٩١٨م، وقد أدى نقل الجنود البيض إلى فرنسا إلى انتشار شائعات فى مصر أن بريطانيا على وشك الهزيمة، وأن القادمين الجدد كانوا جنودا ضعفاء سريعا ما سيتم اكتساحهم بواسطة الأتراك والألمان^(٨). ولكن ما أثار أقاويل المصريين من هذه الأحداث هى خبرتهم بالتوجهات العرقية للبريطانيين.

وقد كان هذا واضحا فى كل مكان فى جيش الشرق الأوسط الذى كان يضم بريطانيين، وهنودا والقوات الاستعمارية، ورجال الكتيبتين الملكيتين الحاملتين للبنادق الذين تم تجنيدهم من اليهود القاطنين فى لندن، وقد اعترضوا أن يكون هناك رئيس عليهم ممن ينتمون إلى غرب الهند، وكانوا هم أنفسهم غاضبين من أن يتم وضعهم فى مستشفى تتم حراسته من الآسيويين والأفارقة غير الصالحين لحياة الجندية، "حيث كانوا جاهلين باللغة الإنجليزية والعادات الغربية"^(٩). والمنتمين إلى غرب الهند كانوا أكثر سخطا من تكليفهم بأداء أعمال الأحمال فى السكك الحديدية، وهى المهمة التى كان الجنود الأنزاك (Anzac) قد رفضوها للتو^(١٠).

وقد كان الحادث الذى وقع فى عام ١٩١٨م مثالا آخر لسمعة الجنود الأستراليين العنيدة والسيئة، والتى أصبحت تمثل صداغا بالنسبة لكبار الضباط، وهو ما كان يُقارن دائما بتومى البريطانى سهل الانقياد. فالمحارب الأسترالى كان مخلوقا ذا عقل مستقل، وكان ارتباطه الأول والدائم بوحدة الموجود فيها. أما الضباط الأستراليون، والذين كان أغلبهم قادما من خلفية ترجع إلى الطبقة الوسطى، فكانوا يقومون بقضاء بعض من وقتهم بين جنودهم، وعلاقتهم معهم كانت منفتحة وبسيطة. وامتدادا لروح الزمالة، قام أحد الضباط الأستراليين بمشاركة زجاجة الويسكى الخاصة به مع بعض قوات (NOC) البريطانية، وقد تم توجيه اللوم له من جانب المحكمة العسكرية البريطانية، وهو ما تم تفسيره بأن سلوكه هذا يُنقص من انضباطه العسكرى. ومثل هذه النظرة للانضباط العسكرى، بل أيضا لكامل مفهوم الطبقة الذى قصد منه الدعم، كان مبهما تماما بالنسبة للجندى الأسترالى، ففي البداية شعر الأستراليون بالارتباط بالطاعة التى تشبه طاعة العبيد التى يظهرها الجنود الإنجليز لضباطهم (وقد كان الأسكتلنديون أقل خضوعا) ولكن توجههم أصبح لاحقا، وأحد مظاهر الإذلال التى كانت موجهة لمن رفض أن يلزم نفسه بمثل هذه الطاعة^(١١).

كان القادة البريطانيون، خاصة الجنرال هايج، منزعجين من أن روح العصيان الموجودة لدى الأستراليين يمكن أن تؤثر على طبيعة الجنود البريطانيين. ولكن فى الواقع كانت هناك غيرة غير مفهومة شعر بها الكثيرون من الجنود البريطانيين نحو الأستراليين؛ لأن الجندى الأسترالى كان يدفع له خمسة شلنات (٢٥ قرشا) فى اليوم مقابل شلن واحد للجندى البريطانى^(١٢). وفى مصر، وفى فرنسا، فإن هذه الزيادة فى الرواتب كان يتم إنفاقها على شرب الخمر وعلى العاهرات، وقد كان هناك معارضون فى

الصحافة الأسترالية حول تعريض الشباب الغضب لفساد الدولة السابقة^(١٣). وقد كان هناك ما يشبه الوباء من الأمراض التناسلية منتشرة فيما بين الجنود الأستراليين الأنزاك في بداية عام ١٩١٥م وهو ما أدى إلى حالة من الشغب في القاهرة أدت إلى نهب الكثير من المواخير وحرقها. والمؤشرات اللاحقة لتمرد الأستراليين شملت حالتى تمرد فردى فى فرنسا فى عام ١٩١٨م وتدمير إحدى القرى العربية وقتل العديد من سكانها كانتقام لقتل أحد الجنود النيوزيلانديين.

وعلى العكس من ذلك فإن الجنود الهنود المحترفين كانوا يعرفون أن واجبهم هو الحفاظ على النظام، أو كذلك كان يعتقد ضباطهم. ولكن ضغط الحرب قد برهن على أنهم يخطئون، فبالنسبة للروح القتالية للقسمين الهنديين اللذين تم إرسالهما إلى فرنسا فى خريف عام ١٩١٤م، فقد تبخرت هذه الروح بسرعة. وعلى الرغم من الإصلاحات الداخلية التى تمت خلال العقد السابق فإن الجيش الهندى والضباط الرئيسيين فيه كانوا غير مجهزين بدنيا وعقليا لخوض حرب أوربية حديثة. فاجتماع كل من البرد والطقس الرطب والإصابات الثقيلة غير العادية (بعض الوحدات نقص عددها إلى النصف فى عملية واحدة) التى عانوا منها فى المعركة؛ فإن هذا أدى إلى تدهور معنوياتهم وهو ما انعكس فى شكل قيام بعضهم بإصابة نفسه بنفسه أو ادعاء المرض خلال شتاء ١٩١٤، ١٩١٥م^(١٤). وفى مايو عام ١٩١٥م فإن خطابات مراقبي الجنود الهنود قد أظهرت أن عددا كبيرا منهم كان مصابا باليأس من الحياة، وخاف الجنرال هايج أن لا يكون هناك أى مانع من قيام تمرد^(١٥). والحكومة الهندية التى حاولت عبثا أن تظل على علم بمدى سخط جنودها حاولت التعاون، وفى سبتمبر تم سحب البعثة الهندية من فرنسا وإرسالها إلى بلاد ما بين النهرين.

وكانت عملية نقل القوى العاملة الخاصة بالإمبراطورية فى عام ١٩١٤ قد تمت وفق مراحل بطيئة وبدون خطة سوى الحاجة إلى إيجاد جنود ليحلوا محل الحاميات الإمبراطورية المكونة من الجنود النظاميين البريطانيين؛ هناك حاجة ماسة لهم فى فرنسا. وقد كانت هناك أحداث أثناء شتاء ١٩١٤، ١٩١٥ أدت إلى تخفيض شكل المجهود الحربى واتجاهه فى الإمبراطورية. فمع نهاية العام كان الصراع مع فرنسا قد تطور إلى ما يمكن وصفه بأنه حصار ممتد. وقد كانت هناك جبهتان محصنتان جيداً، وكل منهما تبلغ فى العمق عدة أميال وتمتد من القناة الإنجليزية حتى جبال الألب. وطوال السنوات الثلاث والنصف سنة التالية فإن الجيوش الإنجليزية والفرنسية والألمانية حاولت القيام بكسر التحصينات المكونة من الخنادق والأسلاك الشائكة والمتاريس واختراقها. وفى نفس الوقت فإن المناورات المضادة من القادة الكبار لاكتشاف صيغة عن طريقها يمكن الجمع بين كل آلات الحرب الحديثة مثل المدافع الرشاشة والقذائف عالية الانفجار وقاذفات القنابل والطائرات والغازات السامة والدبابات واللاسلكى فى فتح الحصار، ولكن هذا الإجراء أصبح أكثر صعوبة عن طريق التحسينات المستمرة فى تقنيات الدفاع.

وكانت عملية محاولة اكتشاف طريقة لإنهاء حالة الفشل التام فى الغرب كانت بطيئة للغاية. وقد اتصفت بوجود عدد من أعمال الهجوم الضخم فى الفترة ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨ مع إصابات فى الرجال بلغت مئات الآلاف، ولم تحقق إلا أهدافاً تكتيكية ضئيلة للغاية. وقد كان الجنرال هايج، الذى تسلم قيادة القوات الخاصة البريطانية فى ديسمبر من عام ١٩١٥، قد برر هذه الإستراتيجية على أنها ستؤدى إلى إيصال الجيش الألمانى إلى حالة إجهاد مادى ومعنوى. وقد كانت هذه مسألة مشكوكاً فيها.

وقد كان ما يحتاج إليه الحلفاء هو استمرار تدفق المحاربين لتعويض الخسائر التي كانت نتيجة لا يمكن تجنبها من الإنهاكات التي سببتها الحرب. وحتى يتم ذلك، مع الإيمان بأن المعارضة سوف تنتهي قريبا، فإن البريطانيين قد اعتمدوا على المتطوعين.

وقد تم النظر إلى التجنيد الإجباري على أنه غير مقبول من أولئك المشبعين بأفكار تتعلق بالحرية الفردية التي تم اكتسابها في بريطانيا. ومبادئ هذا النوع من الأفكار، كانت تعتبر بمثابة كماليات في وقت الحرب ولأن تدفق المتطوعين قد ضعف: فإن الحكومة البريطانية أجبرت على العمل بالتجنيد الإلزامي منذ عام ١٩١٦. وقد اتبع النيوزيلنديون نفس الأسلوب في مايو، أما في أستراليا فكانت هناك مقاومة كبيرة للخدمة الإجبارية في الجيش.

وقد كانت المشكلة مزدوجة، ولكن الجماهير صوتت ضد الإجباري في التجنيد في استفتاءين تما في أكتوبر عام ١٩١٦ وفي ديسمبر عام ١٩١٧. وفي إحدى المرات كانت هناك معارضة قوية من جانب الأستراليين المنحدرين من أصل أيرلندي الذين كرهوا ما قام به البريطانيون في دبلن الشرقية في عام ١٩١٦، وقد كانت الحكومة البريطانية مترددة في أن تسمح بالحكم الذاتي لهم. وقد فتح التجنيد الإجباري أيضا الباب أمام الاختلافات العرقية في كندا؛ حيث عارض الكنديون الفرنسيون تشريع التجنيد الإجباري الذي تمت الموافقة عليه في أغسطس عام ١٩١٧م. وقد أدى تنفيذه أثناء الشتاء والربيع من عامي ١٩١٧، ١٩١٨م إلى تصاعد أعمال العصيان في إقليم كويبك. وكان الخوف من حدوث صدام فيما بين من لهم أصول بريطانية الذين كانوا يدعمون الحرب بشكل كامل، وذوى الأصول الأفريقية الذين كانت هناك أقلية منهم في السابق قد أحبطت محاولات حكومة جنوب

أفريقيا عن أن تقوم بفرض التجنيد الإجبارى. وكانت ردود الفعل على تجنيد الأستراليين ذوى الأصول الأيرلندية والكنديين والبوير تذكر أنها داخل الحلف الأبيض، وكانت هناك مجتمعات جعلت الذاكرة الجماعية لها من المستحيل أن يكون لديهم أى تعاطف طبيعى مع بريطانيا أو أى ارتباط عاطفى مع فكرة الإمبراطورية.

فى حين قامت الدول المتحالفة بوضع الكلمة الفاصلة فى أنها ستقوم بتطبيق التجنيد الإجبارى أم لا، فإن السيطرة الكلية على المجهود الحربى فى الإمبراطورية وتوزيع الموارد الإمبراطورية كانت مسئولية وزارة الحرب البريطانية والقادة الكبار. وقد عمل كل منهم بجد وبتجانس مع رفقاتهم الفرنسيين، وكانوا ملتزمين بأن يأخذوا فى اعتبارهم احتياجات حلفائهم. ولكن المؤامرات والجدالات السياسية الداخلية لم تنته بنشوب الحرب، بل إنها أصبحت أشد وأقوى؛ لأنه أصبح من الواضح أن الحكومات المتتالية قد فشلت فى تحقيق انتصارات. وحكومة الحرب الليبرالية التى كان يرأسها إسكيث، والتى حصل فيها بطل الإمبراطورية كتنشر على وزارة الحرب - قد حلت محلها حكومة ائتلافية فى عام ١٩١٥م. وقد بقى إسكيث فى المنصب حتى ديسمبر عام ١ٹ١٦م، عندما أطيح به بواسطة مؤامرة قام بها أصحاب الصحف والسياسيون الذين اعتقدوا أنه لا يملك القدرة والإرادة اللازمتين للفوز فى هذه الحرب. وقد حصل لويد جورج على منصبين بالإضافة إلى الحضور الكاريزمى. وقد خلف إسكيث فى رئاسة الحكومة الائتلافية التى ظلت برغم أنها كانت غير مستقرة، لعامين آخرين.

جعلت عملية قيام الوزارات وسقوطها كلا من الوزراء وبالطبع لواءات الجيش والبحرية يجدون فى ذلك دليلاً على وجود نزاع وانقسامات بين أولئك المسئولين عن تقرير إستراتيجية الحرب. ومع حلول عام ١٩١٥ كانت

هناك وجهتا نظر متميزتين ظهرتتا بخصوص طبيعة سير الحرب وكيف يمكن الفوز بها. فقد كانت هناك وجهة نظر الغربيين الذين رأوا، وكان يدعمهم في ذلك الفرنسيون أيضا، أنه يجب تركيز الموارد في فرنسا على الأراضي الوحيدة التي يمكن بها هزيمة الجيش الألماني وتحقيق النصر. ومن جهة أخرى كان هناك الشرقيون الذين كانوا يرون أن الحرب في فرنسا قد أصبحت في مأزق شديد، كما كان يظهر ذلك من قوائم الإصابات اليومية، وهم الذين كانوا يرون أن تحقيق تقدم في هذه الجبهة لا يؤدي إلا إلى خسائر في الأرواح. وبدلا من ذلك لا بد من الهجوم على حلفاء ألمانيا، وهي بمثابة الأوعية الأضعف التي يمكن أن تنكسر بسهولة وتدميرها يؤدي إلى إضعاف ألمانيا ذاتها.

وقد كانت تركيا هي الهدف الأول لتيار الشرقيين؛ فالهجوم على منطقة المضائق التركية قد يؤدي إلى هزيمة تركيا وفتح الباب أمام روسيا التي يبدو أنها تعاني بشدة من الحرب. بالإضافة إلى أن هذا المشروع كان ذا جاذبية للاستعماريين أنصار الإمبراطورية من أمثال تشرشل وكتشنر، فبإمكان بريطانيا أن تأخذ نصيبها من الأقاليم التركية. وقد كان الزحف نحو تركيا قد بدأ بالفعل من قبل في نوفمبر عام ١٩١٤م؛ حيث قامت القوات الخاصة الهندية باحتلال البصرة، وقد كانت تتقدم بتردد نحو الشمال، بينما كان الروس يقومون بغزو شرق الأناضول. وقد كانت الاتصالات الدبلوماسية لتقسيم الغنائم فيما بعد الحرب ممكنة. ومع نهاية العام فإن روسيا كانت قد منحت منطقة المضائق، وبعد أن تم توقيع اتفاقية (سايكس بيكو) في مايو من عام ١٩١٦م حددت هذه الاتفاقية الحدود الرسمية وغير الرسمية للإمبراطورية البريطانية والفرنسية في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق.

ولذلك فإنه طبقا لرأى الشرقيين فإن العمليات ضد تركيا سوف تؤدي إلى اختراق البطن الرخو لألمانيا، وهو ما يقود إلى جبهة البلقان ضد

الإمبراطورية النمساوية المجرية ويقدم فرصة لتوسيع الإمبراطورية. وكما كان يبدو في الفترة ما بين عامي (١٩١٥-١٩١٧م)، كان من المستحيل كسر الحصار المفروض على فرنسا، ففي هذا الحالة فإن محادثات السلام مع ألمانيا سوف تؤدي إلى تحقيق الهدف. ولذلك فإن بريطانيا كان يجب عليها أن تقوم بمساومات مضادة، وأن تكون لديها نظرة للمستقبل. وقد ذكر السير مارك سايكس، وهو عضو برلماني عن يوركشاير متخصص ولديه خبرة كبيرة بالشرق الأوسط، في عام ١٩١٦ أنه عن طريق تضيق الخناق على جنوب العراق، فإن بريطانيا سوف تكون في وضع أفضل لمقاومة تعديلات الروس في المنطقة بعد الحرب، وهو مثل آخرين كثيرين مثله، يعتقد أنه بعد انتهاء الحرب، فإن القوى العظمى بعد أن تنتهي الحرب سوف تستمر صراعاتها حول النفوذ واحتلال الأقاليم.

وقد سادت آراء الشرقيين داخل وزارة الحرب، وكانت النتيجة هي حملة الدردنيل في ربيع عام ١٩١٥م. والداعمون لهذه الحملة قد ادعوا أنها لن تؤدي فقط إلى إخراج تركيا من الحرب، ولكنها سوف يكون لها أيضا تأثير كبير على القوة العسكرية للإمبراطورية البريطانية وفرنسا. ولكن هذه الثقة الزائدة في قوة الإمبراطورية قد تبين خطأها بسرعة. فقد كان عدد القوات التي تم إنزالها ١٢٩٠٠٠ كان ثلثهم من الأنزاك، ولكن المقاومة التركية كانت عنيدة. وقد استمرت الحملة حتى الخريف، وعندما كان من الواضح أنه لن يكون هناك نصر فإن وزارة الحرب قامت بشكل متردد بالموافقة على الانسحاب.

وعملية الجلاء من شبه جزيرة جاليبولي في ديسمبر من عام ١٩١٥م بمثابة عملية إذلال للقوى الاستعمارية، خاصة بريطانيا.

والحكمة الاستعمارية التقليدية، التي تم ذكرها بعد فترة قصيرة من أحد كبار الضباط الهنود، تقول "إننا نحتل المكانة الأساسية وإننا ورثة سيادة الأوربيين باعتبارهم رجال حرب على الآسيويين"^(١٤). ولكن هذه الحكمة لم تعد حقيقة فقد هزم الجيش التركي جيش البيض، وأثبت أن الأوربيين يمكن هزيمتهم. وقد كانت معركة جاليبولى قد أكدت للشعوب الموجودة في آسيا وفي الشرق الأوسط أن درس هزيمة روسيا على أيدي اليابان منذ عشر سنوات مضت تعنى أن جيوش البيض ليست هي الجيوش التي لا تقهر. ومصطفى كمال باشا، الذي قام بالتخطيط والتنفيذ لعملية الدفاع عن الدردنيل والمعروف باسم كمال أتاتورك، صار مركز الحركة القومية التركية وقائدها وأصبح مثالا يحتذى به للقوميين الآخرين في الشرق الأوسط. وقد كانت هناك انتكاسة أخرى للسيادة الأوربية في أبريل من عام ١٩١٦م، عندما أجبر جيش مكون من الهنود والإنجليز على أن يستسلم عند كوت الأمهرة على نهر دجلة.

وقد أدت الانتكاسات في غاليبولى وكوت إلى تدمير هيبة بريطانيا. وأكدت الأخيرة عدم صلاحية الجيش الهندي لاستخدام معدات الحرب الحديثة، أو على الأقل عدم صلاحيتهم لاحتلال المناصب القيادية في الجيش، والزحف على تركيا قد اتضح أنه مهمة أكثر صعوبة من تلك المهمات المماثلة التي تمت في كل من أفريقيا والصين. وفيما يتعلق بالفوز في الحرب فإن حملتي جاليبولى والعراق كانتا، كما كان يؤكد التيار الغربي قبل ذلك، أقامتا عروضاً جانبية لا تؤدي إلا إلى فقد الرجال الذين نحتاج لهم لخوض الحرب الحقيقية في فرنسا.

وقد مثلت حملة جاليبولى الأساس الذي بنى عليه جون بوشان روايته (Green mantle)، التي نشرت في أكتوبر من عام ١٩١٦. وتطور أحداث الرواية

تدور حول محاولة القيادة التركية الألمانية العليا إشعال ثورة فيما بين المسلمين في شمال أفريقيا وفي منطقة الصحراء الكبرى وفي الشرق الأوسط والهند باسم رجل مسيحي مقدس. وقد تم منع قيام الحرب المقدسة الوهمية في آخر لحظة، ولكن احتمالية قيام حرب حقيقية كانت مصدراً لا ينتهي لقلق الحكومات البريطانية والهندية طوال فترة الحرب. وفي نوفمبر من عام ١٩١٤م، تحدث باعتباره خليفة المسلمين (أى الرئيس الروحي لجميع المسلمين السنة في العالم) وقد أعلن الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا. هذه القوى الثلاث كانت بمثابة العدو الذى لا يرحم للإسلام، فقد قاموا بمحاربة المسلمين لقرون عديدة، وقاموا بانتزاع أراضيهم منهم فى أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا. والآن فإن المسلمين يمكنهم أن يتوحدوا ويقاوموا تحت راية الإيمان، لاسترجاع ما أخذوه منهم.

وأصبح الكابوس حقيقة. فقبل ثلاث سنوات ذكر اللورد فيشر أن "العالم لا يعلم بعد ما الذى يمكن أن يفعله المسلمون إذا تملك الحماسة المقدسة منهم"^(١٦). وقد شاركه هذا الفهم الحكام البريطانيون الذين حكموا مناطق إسلامية. فإعلان الجهاد يمكن أن تكون له آثار ضارة كبيرة خاصة فى الهند؛ حيث هناك سبعة وخمسون مليون مسلم، وهم يشكلون المصدر الأساسى للمجندين فى الجيش. وكانت عاطفة الجهاد أقوى فى الحدود الشمالية الغربية، وكان الشباب القادمون من هذه المنطقة ميالين بشكل أكبر لوضع العقيدة قبل الولاء لملك الإمبراطورية، ويمكن أن يهجروا الجيش. وهناك عدد من سكان صحراء باتان كان من المعروف أنهم يعملون مع المخابرات التركية والألمانية أثناء الفترة من ١٩١٥، ١٩١٦م، وبعض منهم قد يرجع إلى موطنه الأصلي لإشعال الثورات ضد بريطانيا. والأكثر خطورة هو العضيان الذى حدث فى عام ١٩١٤، عندما رفض ١٣٠ رجلاً من البلقان الحرب ضد

تركيا، حيث كان هناك تمرد آخر أكثر دموية في فبراير من عام ١٩١٥م من كتيبة المشاة الخفيفة الخامسة في سنغافورة، وفيه قام المتمرّدون بقتل ضباط ومدنيين أوروبيين. وفي كلتا الحالتين فإن المتمرّدون، كانوا يحاصرون ويصابون بالإرهاق ويتم إعدام زعماء الثورة علنًا. وقد أجرى تحقيق رسمي بعد أحداث سنغافورة أظهر أنه كانت هناك آثار مدمرة لفكرة الوحدة الإسلامية، وأن هناك انتشارًا لعدم الارتياح لدى كثير من الجنود بسبب ما يُنشر في التقارير عن الخسائر الثقيلة التي تحدث بين القوات الهندية في فرنسا.

وقد شعرت الإدارة الهندية بصدمة كبيرة من هذه الأحداث؛ توقعت حدوث المزيد من القلاقل. وقد أخبر اللورد هاردينج نائب الملك كتشنر في مارس من عام ١٩١٥ "إنني أحتاج لكل جندي أبيض في الهند يمكنني الحصول عليه"^(١٧). وقد كان الذعر المصاب به معديًا ففي أبريل من عام ١٩١٦، فإن وزارة الحرب قد قامت بتحويل قسمين كانا في مصر في ذلك الوقت إلى الهند؛ حيث كانت هناك في هذه اللحظة علامات على وجود ثورات جهادية أو حدوث غزو أفغانى^(١٨). وبعد شهرين فإن ونجت كان يطلب من القاهرة ولندن باستمرار قوات من أجل مواجهة ثورة على دينار. وقد كانت ذكريات تمرد عام ١٨٥٧ في الهند والمهدية في السودان لا تزال حية، وأدت إلى زيادة المرارة في خلق المسؤولين، ولكن سلوكياتهم أيضا كانت تشير إلى وجود اعتقاد راسخ بأن السلطة البريطانية في العالم الإسلامى سريعة الزوال.

ولأنه قد اتضح فيما بعد أن هذه الإنذارات كان مبالغًا فيها. فإن البرنامج الطموح الذي قد تكون له خطورة محتملة للوحدة الإسلامية الذى

كانت تخطط له المخابرات التركية والألمانية فى سرية قد فشل بسبب سوء الإدارة والنزاعات الداخلية وتباعد خطوط الاتصال. فانفجار التعصب والتمرد والانقسامات التى تمت هناك قد أثبتت أنها عوامل مثبطة. فهجوم السنوسيين الليبيين على مصر فى عام ١٩١٦م وثورة على دينار فى السودان فى عام ١٩١٦م، وسلسلة الثورات التى تمت فى الصحراء الفرنسية كانت تحركها جميعها قوى داخلية. والثورات التى تمت فى منطقة الصحراء الكبرى فوجئت بوجود عساكر نيجيريين، تمت إعارتهم لفرنسا فى الفترة من عام ١٩١٦-١٩١٧، وهو ما يعطى مثالا على التعاون بين القوتين الاستعمارييتين المتنافستين سابقا^(١٩).

وساعد على إحباط هذه الثورة الاسلامية هؤلاء الأمراء المسلمون فى الهند وفى أفريقيا الذين كانوا يدينون بسلطاتهم لبريطانيا. فكل من أغاخان وسليمان زنجبار وأمراء شمال نيجيريا (الذين قاموا بالتبرع بمبلغ ١٨٨.٠٠٠ جنيه إسترليني لصالح صندوق الحرب البريطانى) قد ظلوا متمسكين بولائهم وقاموا بإصدار دعاوى جهادية مضادة لمشاركين لهم فى الدين، وتلك الدعاوى كانت، من بين عوامل أخرى، تقول بأن فكرة الجهاد ليست أكثر من خدعة مكررة من الألمان. والتأثير الروحى للشريف حسين، شريف مكة، أيضا أضاف كثيرا من النقل إلى الدعاية البريطانية بعد يونيو من عام ١٩١٦م عندما قام رسميا بإعلان انفصاله عن الإمبراطورية العثمانية وتحالف مع البريطانيين.

وقد كان الشريف حسين هو الزعيم القوى لما أطلق عليه فيما بعد الثورة العربية، وما بدا فى البداية خدعة إمبريالية بارعة هو ما قام بوضعه مجموعة من المتخصصين فى وزارة الحرب والخارجية والمخابرات الموجودين فى القاهرة ومنهم كان الكابتن، الذى أصبح فيما بعد الكولونيل،

ت. إ. لورانس (لورانس العرب) الذى أصبح مشهوراً جداً. فمن خلال جهود الشريف حسين أمّلوا أن يقوموا بحصار الجهاد وفصل كامل للعرب عن الأتراك ومنعهم من التحالف معهم. ومن الناحية السياسية، فإن رأس العائلة الهاشمية المحافظ بشكل زائد كان شريكاً مثاليًا، ولكن دعوة الشريف حسين أدت أيضًا إلى جذب القوميين العرب الأكثر راديكالية، الذين كانوا يبحثون عن زعيم للدولة العربية التى سوف تنشأ بعد الحرب عن انهيار الإمبراطورية العثمانية. والمشكلة كانت، وقد أصبح ذلك واضحًا فى الفترة من ١٩١٧، ١٩١٨ حيث قامت القوات العربية التى يقودها لورانس بالتحرك صوب الشمال من الحجاز، وقد كانت لكل من بريطانيا وفرنسا مطامع سابقة فى الأراضى التى كان العرب يأملون أن يأخذوها لأنفسهم. بالإضافة إلى أن الحكومة الهندية كانت تقوم بوضع الخطط لكى يتم إلحاق العراق بها فيما بعد الحرب، وهذا ليس فقط إجراء دفاعيًا، ولكنه أيضًا يجعل من العراق مستعمرة يمكن للمهاجرين الهنود الإقامة فيها. ومن خلال رعاية القومية العربية فإن الحكومة البريطانية قامت بصنع ما وصفه اللورد هاردينج فى نبوءة له "وحش فرانكشتاين"^(٢٠).

أدت قدرة بريطانيا على القيام بهجوم على الدردنيل؛ أدت إلى إمكانية تقديم مساعدات بحرية للعرب فى البحر الأحمر ونقل القوات من الهند ودول الحلف إلى أى مكان يرغبون فيه؛ وذلك بالاعتماد على السيطرة على المياه الدولية. وقد تحقق ذلك مع نهاية عام ١٩١٤. لقد كان ذلك مختلفًا تمامًا عما حدث عندما تحطم الأسطول البريطانى الضعيف بواسطة أسطول ألمانيا فى الشرق الأقصى عند كورونيل القريبة من ساحل تشيلى فى نوفمبر. وفى خلال شهرين تمت استعادة الهيبة والسيطرة على المنطقة من خلال معركة جزر فولكلاند؛ حيث هزمت السفن الألمانية بواسطة ضربة حظ؛ أمطرتها القوات البريطانية بوابل من القذائف.

وقد كان الأسطول يتحرك منفردًا ويحارب بالقرب من جوتلاند مع نهاية مايو عام ١٩١٦ ، وقد نتج عن ذلك استنتاج أن الألمان لن يعودوا مرة أخرى إلى الميناء بعد الخسائر الضخمة التي تكبدوها في جراندي فليت. ومع ذلك فإن ميزان القوة البحرية ظل لصالح بريطانيا.

وقد كانت البحرية الملكية حرة في الاستمرار في تضيق الحصار البحري على الأراضي الألمانية، وقد بدأ هذا الحصار في أغسطس من عام ١٩١٤. وقد كانت مقاومة الألمان، والتي أجهضت بسرعة في عام ١٩١٥، قائمة على استخدام قوارب الحرب التي أعيد استخدامها مرة أخرى في فبراير عام ١٩١٧. وقد توقع القيصر انهيار بريطانيا، وقد كان على حق تقريبًا فقد كان الهجوم الذي شنه على السفن البريطانية والسفن المحايدة المتجهة من الموانئ البريطانية، والذي يقصد منه تجويع البلاد وتحطيم اقتصادها خلال ستة شهور. وبيتى الذي كان يشغل منصب الأسطول الكبير، قد خمن ما هو مخبوء قبل يومين من بداية الحملة الألمانية فقد استنتج ما قد يحدث بقوله:

"لقد أصبحت فرنسا مجيدة". "إيطاليا متعبة". "وكل منهما لا يستطيع الحفاظ على استمرار عمل مصانعه بسبب النقص فى الفحم، ونحن لا نستطيع الحفاظ على الإمدادات لأن كل سفننا قد أغرقت". وقد تكون جيوشنا قد تقدمت وكبدت جيوش العدو آلاف الخسائر، ولكن السباق الحقيقي هو هل نستطيع هزيمتهم من خلال الحصار المضروب عليهم قبل أن يهزمونا عن طريق إغراق السفن التجارية الخاصة بنا^(٢١)؟".

وعلى ذلك فقد كانت هناك حربان واحدة فى البحر وأخرى على البر، وقد كان الحلفاء يخشون كثيرًا من نتائج كلتا الحربين. وفى الحرب البحرية فإن الغوصات الألمانية قد أصبحت لها اليد العليا بحلول شهر أبريل من

عام ١٩١٧ عندما بدأ كائن التجارة البريطانية عبر البحار كلها قد أصيبت بالشلل. ولكن الوضع المأساوى انعكس فى اللحظة الأخيرة عن طريق تطبيق نظام القوافل فى يونيه بعد أن اتجه لويد جورج لعدم الالتفات إلى نصيحة المتخصصين فى البحرية الذين صرحوا بأن الخطة التى يتبعها لن تتجح. وقد كان المتخصصون العسكريون قد أصيبوا بالإحباط، وأدركوا أن طريقهم فى فرنسا مسدود، وأن إمكانية الوصول إلى نتائج تؤدى لنصر نهائى ليست قريبة التحقيق. فالهجوم البريطانى على السلوم فى يوليو عام ١٩١٦ وعلى أراس فى أبريل عام ١٩١٧ وعلى باسندال فى يوليو ١٩١٧، قد فشل وقد فشل الهجوم الفرنسى على أسين فى ١٩١٧ فى كسر خط الهجوم الألمانى وانتهى بأن عانى المهاجمون تحمل الإجهاد والخسائر الثقيلة. بالإضافة إلى أن المعركة الدامية التى حدثت فى أسين أدت إلى انتشار أعمال العصيان فى مختلف أجزاء الجيش الفرنسى.

وعندما كان الهدف الذى تحارب من أجله فرنسا قد بدأ يتلاشى، انهارت روسيا تمامًا. فقد انهيار حكم القيصر فى فبراير من عام ١٩١٧ ورأت الحكومة المؤقتة التى خلفته أنه من المستحيل الاستمرار فى الحرب. وفى نوفمبر من عام ١٩١٧ استولى البلاشفة على السلطة فى روسيا، وفى خلال ستة أسابيع قاموا بتوقيع هدنة عسكرية مع كل من ألمانيا وتركيا. وكان دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب فى أبريل من عام ١٩١٧ قد أعاد الاطمئنان إلى الحلفاء، ولكن كانت هناك حاجة لسنة على الأقل لحشد القوات الأمريكية المسلحة وتجنيد وإرسالها لفرنسا؛ حيث كانوا يعتقدون أنه المكان الذى يمثل رأس الحربة فى إعادة التوازن. وقد رحبت بريطانيا بالبحرية الأمريكية ولكنها لم ترحب بالتدخل الأمريكى فى توجيه الحرب. وقد لخص الضيق البريطانى روبرت فانستريت وهو أحد الدبلوماسيين المبرزين بقوله:

"إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال لها هيبتها أكثر منا، وإنها تصر على القفز على الإمبريالية البريطانية، ولذلك دخلت الحرب وقد تسألنا إن كانت الدولة المحاربة الجديدة لها احتياجات تتشابه مع احتياجاتنا أم لا؟"^(٢٢).

وإذا نظرنا من المنظور المجرد لأحداث عام ١٩١٧، يبدو أن الحلفاء لن يستطيعوا أبدًا هزيمة الجيش الألماني مهما قال الجنرال هايج (Haig) وزملاؤه بخلاف ذلك. وهذا الاستنتاج بأن الحرب قد تنتهي بتسوية سلبية قد سيطر على عقول الوزراء ومستشاريهم. وإذا كان لا بد من عقد معاهدة، أعتقد أنها لا بد أن تكون على نسق تسوية فيينا في عام ١٩١٥ مع إعادة توزيع الأقاليم ومناطق النفوذ. وعلى ذلك فسوف يكون من الضروري عندما يتوقف القتال أن يكون البريطانيون في موقف يمكنهم من الحصول على أى مما يحتاجون إليه لحماية إمبراطوريتهم القائمة أو ربما لتوسيعها.

ومن جوانب عدة فإن هذه النظرة للحرب البريطانية كانت تهدف إلى توسيع نطاق فلسفة التيار الشرقى، وأنهم يعارضون التخلي عن أفكار الاستعماريين الذين سيطروا على وزارة الحرب التى ترأسها لويد جورج. ورئيس الوزراء الذى كان فى السابق أحد البوير، وكان مناهضًا للإمبريالية قد غير مبدأه فى أغسطس عام ١٩١٨، وأظهر إعجابه بكل من دزرائيلى وتشابرين وموافقته على ما كان يقوم به ليو أمري، على الرغم من أن معلوماته عن الإمبراطورية كانت لا تزال مشوشة، لأنه تحدث عن نيوزلندا ذات مرة، وذكر أنها موجودة فى مكان ما غرب أستراليا^(٢٣). ولا شك أن جهله بالطبيعة الجغرافية للإمبراطورية كانت تعوضه الخبرة الاستعمارية لرفقائه المقربين وهم ملنر وكورزون. وقد انضموا بعد مارس ١٩١٧ بواسطة رؤساء وزارات دول الكومنولث أو نوابهم؛ حيث سمح لهم بحضور اجتماعات وزارة الحرب من وقت لآخر. ومن هؤلاء القادمين الجدد فإن

الأكثر ذكاءً وقدرة منهم كان المقدم جان إسموتس، وقد كان وزير الحرب فى حكومة جنوب أفريقيا. وهو من قاطنى أفريقيا، وقد تعلم فى جامعة كامبريدج وعمل محامياً، وقد قاد قوات الكومندوس أثناء حرب البوير، ثم بعد ذلك أصبح مسانداً للاستعمار ومن أنصار ارتباط جنوب أفريقيا بإنجلترا. وقد كان إسموتس مثله مثل باقى وزراء الحرب يتلقى تحليلات أسبوعية عن وضع العالم، وهذه التحليلات كان يقوم بها استعماريون أنكباء مثل ليوامرى والسير مارك سايكس.

وقد كان الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية ورفاهيتها المعيار الحاسم لتحديد أهداف بريطانيا من الحرب. وقد أوضح كيف يمكن تحقيق هذه الأهداف فى مذكرة بتاريخ ديسمبر عام ١٩١٦ اقترح فيها أن تسمح بريطانيا لألمانيا بالاحتفاظ بمستعمراتها مقابل حصول البريطانيين على السيطرة المطلقة على كتلة من الأقاليم تمتد من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسى. "والجرمانية النقية" كانت هى رد اللورد روبرت سيسل، سكرتير وزارة الخارجية^(٢٤). ولكن فيما يتعلق بالأمن الإمبراطورى المستقبلى فإن سياسة امرى كانت تتميز بأنها ذات حس ممتاز. ففى غضون أشهر قليلة أصبح لويد جورج ملتزماً باستعادة العراق وفلسطين بعد الحرب، وفى يونيه قام بتعيين السير جنرال إدمون اللنبى ليقوم بقيادة القوات الخاصة المصرية مع إصدار أوامر له بالاستيلاء على القدس بحلول أعياد الميلاد. وقد كان رئيس الوزراء يأمل أن يقوم هذا النصر بدعم سمعة وزارته، وأن يكون بمثابة العلاج للإرهاق من الحرب الذى كان قد أصاب العديد من قطاعات المجتمع البريطانى.

وقد سقطت القدس وفقاً للجدول المحدد، وتم توزيع التسجيل الرسمى لدخول اللنبى القدس على شاشات العرض كافة فى أنحاء الإمبراطورية كنوع

من الدعم المعنوى. وقد ذكر لويد جورج فى إحدى المناقشات التى جرت فى مجلس العموم قبل أعياد الميلاد، وأشار فى حديثه إلى سقوط القدس، وأن بغداد بعد أشهر قليلة سوف تخضع للغزو الاستعمارى:

"أنا أعرف أن هناك من تحدث عن صفقة جيدة تحدث فى الأروقة الجانبية. والإمبراطورية البريطانية تدين للصفقة الجيدة التى تتم فى الأروقة الجانبية. فخلال السنوات السبع من الحرب، التى كانت أيضاً حرباً أوروبية عظمى... فإن الأحداث التى يذكرها جميع الإنجليز ليست هى المعارك الكبيرة على أرض القارة الأوروبية ولكن المعارك التى تمت على الأراضى المقدسة وعلى جبال إبراهيم^(٢٤).."

ودلالات هذه الإشارات كانت واضحة، وهى أن تحتفظ بريطانيا بكل من كندا والبنغال، وقد تحتفظ بكل من فلسطين والعراق بعد الحرب. وتحول لويد جورج نحو تأييد الإمبريالية لا بد أنه قد جلب السرور لضباط الجيش ذوى المراتب العليا الذين كانوا دائماً مهتمين لوجود حدود آمنة يمكن الدفاع عنها للإمبراطورية. وتقسيم أراضى الشرق الأوسط قد يؤدى إلى خلق مسار واسع يمكن أن يربط مصر والهند، ويعمل كدرع ضد أى عدوان قادم من الشمال. والاستعماريون الكبار مثل سيسل وروندس كانوا يفكرون على نطاق واسع. وأحدهم، وهو عضو مسئول له سجل طويل فى خدمة الحدود فى آسيا، إنه لم يوجد شيء يعادل تقدم الجيوش البريطانية فى كل من فلسطين والعراق منذ ما يقارب ألفى عام. والسكان الأصليون - كما كان يعتقد - سوف يخضعون لإصرار عرقنا على البقاء. فجنسنا قد فتح عينيه على ما لم يقم أوربى بفتح عينيه عليه منذ أيام الإمبراطورية الرومانية^(٢٥).

هل ما كان يرتب لحدوثه فى أوربا بعد هذا التوجه الإمبريالى الجديد سوف يؤسس على رمال الشرق الأوسط؟ ولكن الأمور أصبحت معقدة بشدة

بسبب توجهات الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون والنقاط الأربعة عشر التى وضعها وقدمها للكونجرس الأمريكى فى يناير من عام ١٩١٨ باعتبارها الأهداف التى يسعى لها الحلفاء من خوض الحرب. وبرنامج السلام الذى اقترحه كان عبارة عن مزيج مقدم؛ كرد على المطالب التى قُدمت أخيراً إلى البلاشفة من جانب الألمان؛ حيث ذكروا لهم بشكل واضح أن ثمن السلام هو سيطرة ألمانيا على جزء من الإقليم الروسى. وقد كان ويلسون مشبعاً بالمثالية. والقائمة التى قدمها للحلفاء كانت تتضمن الاعتراف فى فترة ما بعد الحرب بحق تقرير المصير لشعوب وسط أوروبا وجنوبها، الذين كانوا يخضعون إما لحكم الألمان أو لحكم الإمبراطورية النمساوية المجرية. والمادة الخامسة وسعت نطاق هذا المبدأ ليشمل مناطق بخلاف أوروبا. والقرارات الخاصة بالمستعمرات التى سوف تحرر مستقبلاً من سلطة الألمان، وكذلك الأقاليم العثمانية: كان سيتم التوصل لها بعد مراعاة مصالح الشعوب ذات الصلة، تلك الشعوب التى كانت القوة الاستعمارية تطالب بأراضيها. وقد كان ويلسون متردداً للغاية فيما يتعلق بهذا الاقتراح خوفاً من أن يواجه بمعارضة بريطانيا، ولكنه استخدم أسلوباً فى صياغة النص أمل منه ألا يؤدى إلى تصدع التحالف الأمريكى البريطانى^(٢٧).

ولكنه لم ينجح، فعقبة ويلسون وطريقته فى التفكير دمرت كل أمل فى إحلال السلام على طول الحدود التقليدية فى أوروبا التى قاىضت بريطانيا المستعمرات مقابل إعادة رسم الحدود فى القارة. وقد كان هذا مزعجاً للويد جورج والحكومة ولكنهم كانوا مضطرين للتعامل معه للحفاظ على المساعدات المادية والمالية الأمريكية. وقد علق فانستريت على شروط السلام التى قدمها ويلسون بقوله: "إن الطبقة الحاكمة لدينا لن تستمتع بحكم جون بول وهو يضع خاتماً فى أنفه". وقبل تسعة شهور من نشر اقتراحات

ويلسون، فإن رئيس الوزراء المحافظ السابق آرثر بلפור حذر الحكومة بالألا تسمح للإحسان لدول وسط أوروبا بأن تقف فى سبيل تحقيق الأمن الاستعماري فيما بعد الحرب^(٢٨). فمصالح البولنديين والتشيك والرومانيين واليوغسلافيين الذين قاموا بالقليل أو لم يقوموا بشيء مطلقاً: يجب أن تظل أقل فى الأهمية من مصالح بريطانيا. بالإضافة إلى أن كلاً من أستراليا ونيوزلندا، اللتين حصلتا على الجزر الألمانية فى المحيط الهادى، وجنوب أفريقيا والتي قامت باحتلال جنوب غرب أفريقيا رفضت أن تتخلى عنها مرة أخرى، وبالمثل فإن الحكومة البريطانية لم تكن ترغب فى التخلي عن توجو والكاميرون اللتين استولت عليهما فى الفترة من (١٩١٤ - ١٩١٦) ولا شرق أفريقيا الألمانية، تلك المنطقة التي احتلت بشكل نهائى بعد القيام بحملة دامية ومطولة فى ديسمبر من عام ١٩١٧.

كانت كل الأفكار التي تتعلق بالسلام ذات طبيعة أكاديمية خالصة حتى يناير من عام ١٩١٨. وقد تحولت القوات الألمانية، التي تحررت أخيراً من الجبهة الروسية إلى جهة الغرب للتحضير لهجوم ساحق للفوز بالحرب؛ حيث توقعت أنه سوف يكون نصراً غير مسبوق. وأولئك الذين ظلوا فى الخلف قد كانوا قد بدأوا التقدم نحو الشرق جهة البحر الأسود، بينما كان جيش الإسلام التركي المكون حديثاً يستعد للانطلاق نحو بحر قزوين. ولم تكن هناك أى قوات روسية تستطيع مجابهتهم. ومع انتهاء العام فإن موقف الحلفاء قد تحسن فى كل مكان وأصبح آمناً فى البحار، حيث ضعف تهديد الغواصات الألمانية.

وقد قامت ألمانيا بثلاث هجمات متعاقبة على فرنسا فى الفترة من مارس وحتى يوليو ١٩١٨، تلك التي اخترقت جزءاً من خط الحلفاء، ولكن فى كل مرة كانت القوات قادرة على إعادة التجمع والحفاظ على مواقعها

الدفاعية. وقد بدأت الهجوم المضاد فى أغسطس واستمر حتى نهاية أكتوبر. وقد فقد الجيش الألماني الهدف والرغبة فى الاستمرار فى الحرب. وجاءت النهاية على غير ما كان الحلفاء يتوقعون، فقد كانت القيادات العليا لهم تحضر لعمليات يتم القيام بها فى عام ١٩١٩ على احتمال أن يتم تحقيق النصر فى العام التالى. وأثناء الأسبوع الأول من نوفمبر قررت عدم القدرة على الحفاظ على النظام فى ألمانيا، وتنازل القيصر عن العرش، والتمرد الذى قام به البحارة فى أسطول أعالي البحار؛ كل هذا جعل الحكومة مجبرة على طلب شروط للصلح. والمعاهدات التى سجلت استسلام الألمان دخلت حيز التنفيذ فى ١١ نوفمبر. وعلى الجبهات الأخرى كان هناك نفس القصة من اضطرابات قوية يتبعها انهيار سريع. وفى الشرق الأوسط فإن الهجوم الذكى والسريع الذى قام به اللبى قد أدى لسحق الجيش التركى - الألمانى وقد تم تحرير دمشق بواسطة القوات الأسترالية فى ٣٠ سبتمبر. وخلال شهر، فإن كلاً من ألبو وأنتيوك قد أسقطا الحكومة التركية وأجبراهما على الاستسلام. وبالمثل فإن هجوم الحلفاء على شمال إيطاليا وجنوب شرق أوروبا أدى لتوقيع كل من النمسا والمجر وبلغاريا.

لقد ظلت الإمبراطورية البريطانية قائمة وانتصرت. ولاحقاً بعد احتلال ألمانيا تحدث كرزون، مدفوعاً بالحماسة؛ تحدث عن مستقبل تكون فيه للإمبراطورية السلطة العليا وقال:

"العلم البريطانى لم يرفرف من قبل على إمبراطورية أقوى وأكثر توحداً من الإمبراطورية فى الوقت الحالى. فالبريتون لم يكن لديهم ما يدفعهم للنظر فى وجه العالم، ولم يكن لنا صوت مسموع بين الأمم ولم تكن نقوم بتحديد مستقبل الجنس البشرى ومصيره" (٢٩).

وهذا الحماس هو ما طغى على أقوال وأقلام رجال الدولة والسياسيين والصحفيين طوال الأشهر القليلة التالية. وأغلب هذه الأقوال كانت مبررة، فقد قامت الإمبراطورية بجهد خارق ودفعت ثمنًا باهظًا. وقد كانت الأعداد الكلية للقتلى والجرحى كالآتي:

الجرحى	القتلى	
سبعة وستون ألفاً	أربعمائة وستون ألفاً	بريطانيا العظمى
١,٦٧ مليون	سبعمائة وألفان	الهند
١٥٢٠٠٠	٥٩٣٠٠	أستراليا
١٥٠٠٠٠	٥٦٧٠٠	كندا
٤١٣٠٠	١٦٧٠٠	نيوزيلاندا
١٢٠٠٠	٧٠٠٠	جنوب أفريقيا
٢٢٠٠	١٢٠٠	نيوفونلاند

وأغلب الإصابات قد حدثت على الجبهة الفرنسية؛ حيث فى نوفمبر ١٩١٨، كان هناك ما يقارب مليونى جندى بريطانى بجانب ١٥٤٠٠٠ كندى و ٩٤٠٠٠ أسترالى و ٢٥٠٠٠ نيوزيلاندى. وقد كان هناك أيضا ٣٠٦٠٠٠ من قوات الإمبراطورية؛ منهم ٩٢٠٠٠ هندى و ٢٠٠٠٠ أسترالى يعملون فى مصر وفلسطين وسوريا. وقد كان هناك ٢٢٢٠٠٠ جندى يخدمون فى العراق؛ منهم ١٢٠٠٠٠ هندى و ١٠٢٠٠٠ بريطانى. وقد كان هناك ما يزيد على ثلث مليون من سكان البلاد الأصليين يعملون كعمال على خطوط الاتصال الممتدة فى أنحاء الشرق الأوسط كافة^(٣٠).

وبالنسبة لدول الكومنولث، فإن خبرة الحرب كانت بمثابة الطريق نحو الوطنية. فعيد الأنزاك، الذكرى السنوية لإنزال الجنود في جاليبولي، أصبح هو العيد الوطني في كل من أستراليا ونيوزلندا. وقد كانت المعاني العاطفية قد لعبت جزءاً في تكوين صورة لأولئك الذين ماتوا في سبيل الواجب الوطني، وهو ما كان واضحاً في الاحتفالات الصغيرة التي كانت تقام في الاجتماعات الصباحية في مدارس نيوزيلندا أثناء فترة العشرينيات. وقد وقف صبي أمام صورة لجورج الخامس وقال: "ملكنا يدعونا للولاء والتضحية من أجل بلادنا وقوانينها التي صار يحكمها برضاء من شعبها. فليحفظ الرب الملك". بعد ذلك تلا الصبي هذه الأبيات:

لقد برهنت الحرب العظمى على أن هناك آلافاً من النيوزيلانديين

يؤمنون بأن بلدنا الجميل يستحق الموت من أجله

ومثلهم فإتانا نتعهد لأنفسنا بالحياة أو الموت من أجل بلادنا

ومن أجل قادتنا في كل أنحاء الإمبراطورية^(٣١).

ولكن هل مات فعلاً الرجال من أجل الإمبراطورية؟ فحشد الشعارات والملصقات قد ضخّم من فكرة الإمبراطورية.

والنشيد الوطني الخاص بالجنود الكنديين المرتب على شكل حروف أبجدية، قد نص على أن حرف الـ E يعني الإمبراطورية التي نستعد للموت من أجلها، وقد كانت هناك وفرة من البيانات والنشرات التي تظهر الأسد البريطاني يزأر ويداعب أشباله (دول الدمنيون)^(٣٢). وكيث فالت، وهو ابن أحد رجال الدين وكان عمره تسعة عشر عاماً عندما تم إلحاقه بالجيش الكندي، آمن أنه - وقد كان ذلك شائعاً بالنسبة للآخرين أيضاً - قد تعرض لعملية غسيل مخ بواسطة الدعاوى الإمبراطورية في فترة ما قبل الحرب.

وقد ذكر "أنا لم أشك أبداً" ثم أضاف: "فى أن ما كنا نقوم به هو الصواب، وأن الألمان كانوا على خطأ تام، وأتينا كنا نحارب من أجل عالم أكثر أمناً وديموقراطية"^(٣٣). والجبته لم تكن فى مكان للتلويح بالأعلام؛ لأن عقول الجنود كانت مركزة بالكامل على البقاء أحياء أو تجنب الإصابة فى المعارك. والجنود البريطانيون المنتمون للطبقة العاملة فى فرنسا كانوا لا يتأثرون بكلمة إمبراطورية، على الرغم من أن بعضاً منهم كان يثار منها معتقداً بشكل خاطئ أنها تشير إلى صالة الموسيقى الإمبراطورية^(٣٤). وأثناء المحادثات التى قامت بها وزارة الحرب فيما يتعلق بمستقبل تنظيم الإمبراطورية فى يوليو ١٩١٨ فى ذلك الوقت كان رئيس الوزراء الأسترالى العمالى ببلى هيجز قد أشار إلى أن ثلاثة أرباع الرجال المنتمين لبلده والعاملين فى فرنسا لم يكونوا يريدون عمل شىء مع الإمبراطورية^(٣٥).

ولم يكن معرفة دافع الجنود السود للقتال من السهل فى جميع الأحوال؛ فمن النادر أن نجد أحداً منهم قد ترك أى تسجيل لخبراته. وعندما تطرح عليه أسئلة حول سبب الحرب فإنه كان يركز على احتمالية قيام الألمان باحتلال بلاده. وهذا ما كان يسمعه المجندون فى نياسلاند فى عام ١٩١٤^(٣٦). والنيجيرى الذى عمل حمالاً أثناء الفترة من (١٩١٦ - ١٩١٨) فى حملات الكامبيرون قيل له إننا سوف ندخل الحرب العظمى من أجل مساعدة جنود الملك الذين يحاولون منع الألمان من القدوم لبلادنا وحرقت^(٣٧).

ومنذ بداية الحرب كانت هناك معطيات رسمية خاطئة فيما يتعلق بالتجنيد الضخم للجنود السود. وأحد المسؤولين فى وزارة المستعمرات ذكر أن وزارة حرب فى عام ١٩١٥ ذكرت:

"يجب ألا ننسى أن سكان غرب أفريقيا الأصليين الذين تم تدريبهم على استخدام الأسلحة وتعبئتهم بمقدار كبير من الثقة بالنفس عن طريق العمليات الناجحة التي كانت تقوم بها القوات المسلحة التي كان يقودهم فيها الأوربيون، يبدو أنهم لن يكونوا سهلي الانقياد في فترة السلم^(٣٨).

لقد تم فهم هذه المسألة من جانب آخر وفق الحاجز العرقي. وفي جنوب أفريقيا اعترف أيضًا سولمون بلاتيج بخطر أن يقوم السود بمحاربة البيض. وعلى الإمبراطورية أن تطبق مبدأ ينص على أن الرجل الملون لا بد ألا يقوم برفع يده ضد الرجل الأبيض إذا كان هناك أى قانون أو أمر صادر له سواء في الهند أو في أفريقيا أو أى جزء من الإمبراطورية^(٣٩).

لم يكن أتباعه من السود يطلبون قتل الرجال البيض، ولكن يقومون بأعمالهم الروتينية، أو كما قال جورج الخامس عنهم عندما وصلوا لفرنسا في يوليو عام ١٩١٧: "من دون توفير الذخيرة فإن جيوشى لا تستطيع القتال، وبدون الطعام فإنهم لا يستطيعون الحياة. إنك تساعد على إرسال هذه الأشياء إليهم يوميًا، وبذلك فإنك تصوب رماحك تجاه العدو"^(٤٠). وكان تأثير حديثه هذا على مستمعيه غير معروف. والكثير كان مندهشًا من مقابلة رجال سود متعلمين، يظهرون بوضوح على أنهم مساوون للبيض، عندما كانوا ينزلون لفترة قصيرة في فرى تاون في سيراليون. وقد كانوا أيضًا مندهشين من رؤية رجال بيض يعملون في أحواض السفن في ليفربول والطرق المفتوحة والسهلة لدخول النساء للميناء^(٤١).

ترك السود القادمون من جنوب أفريقيا خلفهم بلدًا فيه يدفع الرجل الأسود إلى قاع المجتمع. والهنود المنتمون لغرب الهند كانوا قادمين من مجتمع يتمتع فيه الرجل الأسود بميزات أكبر، فقد كان يتعلم على يد الإرساليات التبشيرية ويحكم بأسلوب عصرى من خلال الإدارة الاستعمارية.

على الرغم من بسالتهم فى القتال أثناء الحملة على فلسطين، فإن المتطوعين من غرب الهند، المتحمسين لخدمة بريطانيا، قد واجهوا بعض التمييز العرقى وهو ما أصابهم بالاستياء والغضب. وقد انفجر استيائهم فى شكل تمرد فى تورنتو فى ديسمبر عام ١٩١٨. وأثناء اجتماع مع المحتجين فإن أحد الرقباء صرخ قائلاً: "الرجل الأسود يجب أن يُمنح الحرية، وأن يحكم نفسه بنفسه فى غرب نهر السند". وقد حذر السير جورج فيتس وهو سكرتير دائم فى وزارة المستعمرات المسؤولين فى غرب نهر السند من أن الطبقة البيضاء لا تقدر العادات المختلفة للرجال السود^(٤٢).

وقد نظر القوميون الهنود للمجهود الحربى الذى قامت به بلادهم كخطوة على طريق الحكم الذاتى. وقائدهم هو مهندس غاندى، خدم فى إحدى الوحدات الميدانية فى حرب البوير، وأثناء تمرد قبائل الزولو فى عام ١٩٠٦، عرض خدماته مرة أخرى، ولكن إصابته بمرض ذات الجنب منعه من الذهاب إلى العراق. وقد كان مقتنعاً برؤية الرئيس ويلسون للحرب، وأن على المرء أن يتحدث بالنيابة عن القوميات الضعيفة والأقل عدداً، وفى يونيو عام ١٩١٨ طلب من تابعيه أن يقوموا بالالتحاق بالجيش. والمتطوعون القوميون، كما ذكر لجمهور مستمعيه فى بومباى، سوف يُشكلون جيشاً وطنياً للحكام الوطنيين. وقال "إنهم سوف يذهبون للقتال من أجل الإمبراطورية ويجب عليهم أن يقوموا بهذا القتال على أمل أن يصبحوا شركاء فيها"^(٤٣).

ولم تكن هناك أيديولوجية تربط المقاتلين فى الإمبراطورية. والحماسة الاستعمارية، خاصة فى بريطانيا، ساعدت على التعاون فى فترة الحرب وأعطت مثلاً مبهراً عن نتائج الوحدة الإمبراطورية، وقدمت الأساس الذى يمكن الحفاظ به مستقبلاً على ترابطها. فهى الحالة الطارئة التى جعلت بريطانيا ودول الكومنولث تترابط بعضها مع بعض، على الرغم من أن هذه الدول فى عام ١٩١٤ كانت مهددة بالهيمنة الألمانية على أوروبا.

وقد حارب الجنود البريطانيون وجنود دول الكومنولث بشكل جيد، ولكن فيما بعد خاصة بالنسبة للأستراليين والكنديين، فإنهم قد شعروا بالضيق والاستياء بسبب جمود النظام الاجتماعي البريطاني، وهو ما فسروه على أنه يشبه حياة العبيد. والكثير كان مسروراً أنهم أو أسلافهم قد هاجروا من بريطانيا. واكتشف الرجال السود والملونون؛ اكتشفوا عوامل جديدة، وكانوا معرضين لتلقى أفكار جديدة، وأصبحوا أكثر وعياً بموقعهم داخل الإمبراطورية؛ ثم عادوا إلى أوطانهم وهم يشكون في كثير من قناعاتهم السابقة.

برغم ذلك فإن الحلم الفيكتوري والإندوردي المتأخر بأن يتم جمع الأجزاء المختلفة للإمبراطورية بعضها مع بعض لتشكل جبهة قتالية واحدة قد تحقق. وما فشل الاستعماريون في ذلك الوقت وبعده في أن يكتشفوا أهميته، هو أن أولئك الذين طلب منهم عمل توضيحات لا بد أن يتوقعوا أن يحصلوا على تعويض عن هذه التوضيحات. بالإضافة إلى أنه، فيما كانت الموجة الأخيرة من بناء الإمبراطورية، فإن بريطانيا قد استغلت الحرب في الاستيلاء على أقاليم الشرق الأوسط بالتحالف مع القوميين العرب. وفي عام ١٩١٨. بقى: كيف أن تبنى الإمبريالية يمكن أن يؤدي إلى أن يتوافق مع حقوق القوميات الأضعف والأقل عدداً، كما نكر غاندى، والتي كانت مصالحهم هي ما حاربت من أجله بريطانيا طوال الأحد عشر شهراً الأخيرة من الحرب.

(٢)

التغلى أو الحكم والاضطرابات الإيرلندية

(١٩١٩ - ١٩٣٩)

كان النفوذ الإسبانى مسئولاً عن تغيير الأوضاع، وينعكس ذلك فى التأثير على آراء الدول الأخرى، حيث إن الأسباب فى تطور الوضع كانت تتمثل فى النقاش العام بين المسئولين، وكذلك تتجاوز قدرات المسئولين مثل آرثر بلفور الذى يمثل وزير الخارجية الذى أرسل خطاباً خاصاً إلى رينالد وينجت المفوض البريطانى فى مصر؛ فى نهاية ١٩١٩ كانت تعود الاضطرابات المصرية إلى حركة الاضطرابات الدولية التى اتخذت أشكالاً عديدة فى الدول والقرارات المختلفة، وأن بداية هذه الاضطرابات تشير إلى حركات التمدن الحضرى من أجل التخلص من الانقسامات الدولية والاجتماعية^(١). ويتضح ذلك إلى الإيمان بضرورة التمدن الإنسانى؛ حيث إن القوة المتمدنة كانت تؤيد النظام العالمى القديم والسعى العام نحو التخلص من الفوضى والاضطرابات، إلى جانب وجود البراهين على ذلك، ووجود العديد من القوة المحتجة من هذا النظام الدولى الذى كان يمثل خطراً على الإمبراطورية بالكامل.

خلال الشهور الثلاثة الماضية فإن بلفور كان يشهد على الإعلان عن جمهورية إيرلندا والاضطرابات العامة فى مصر؛ نظراً إلى الرعاع والمخربين من أجل القضاء على الاستعمار الإنجليزى؛ حيث كان بلفور

يخشى من تدهور الأوضاع، وخلال شهر أبريل ومايو أعلن غاندى عن الاحتجاج من هذا الانقسام ومن القوانين التى أدت إلى هذه الاضطرابات، إلى جانب أحداث الشغب فى جاميكا والهندوراس، بينما أعلن الأكراد الثورة على الاضطراب البريطانى فى هذه المنطقة، وفى العراق وفى مايو ١٩٢٠ ظهرت أحداث الشغب ضد اليهود فى فلسطين، مع حرب العصابات من جانب الجيش الجمهورى الإيرلندى.

كانت بريطانيا تشهد أحداث الشغب؛ نظراً إلى عدم التعبئة العامة فى شتاء ١٩١٩ وربيعه، وفى يوليو فإن إحدى الكتائب قد رفضت الرحيل عن الهند، بينما شهد صيف هذا العام العديد من الاضطرابات من جانب الشرطة^(٢). مع الدور العظيم من المسؤولين فى النقابة التجارية، الذى ينعكس عن مجموعة من الإضرابات فى عامى ١٩١٩ و ١٩٢٠، بينما كان بلفور يسعى للحصول على الدعم من هذه الهجمات المستمرة على النظام القائم، بينما أعلن السير إدوارد كارسون على مجلس العموم فى يوليو ١٩٢٠ عن الاعتقاد الراسخ فى وجود المؤامرة من أجل خروج الإنجليز من الهند ومصر^(٣). إلى جانب خروج الصين من زعيم الحزب الإمبريالى الذى أشار إلى الأسباب العديدة والظروف التى أدت إلى الاستياء العام لدى القوميين فى مصر وتركيا وروسيا والهند^(٤). ولكن لم يشر إلى التنسيق بين هذه الجهود، بينما أعلن المسئولون فى المخابرات العامة أن روسيا هى السبب فى هذا العداء لبريطانيا فى الشرق الأوسط^(٥). بينما أشار السير موريس هانكى السكرتير العام للجنة الدفاع إلى أسباب الحرب والصراع، وأعلن عن الوعد بالحق فى تقرير المصير^(٦).

وبحيث إن التخلص من هذا الاستياء العام فى بريطانيا هو الذى يعود فى الأصل إلى انتشار الشيوعية والعداء العام للقوة الاستعمارية

فى موسكو عام ١٩١٧، حيث إن الروس كانوا يقدمون الدعم إلى الرجال العسكريين خاصة فى الهند وقد تأسست اللجنة الدولية الشيوعية عام ١٩١٩ وذلك من أجل السعى إلى نشر هذه الثورة العامة على الشيوعية، ومن أجل إيقاف المشاعر لدى الشعوب المستعمرة وهوما يمثل الهدف الثانى الذى يعتمد كثيرًا على جهود الطبقة العاملة والصناعية فى أوروبا وأمريكا، حيث إن اتحاد التجارة الاستعمارية كان يمثل الهدف الطبيعى لدى هذه اللجان إلى جانب وجود الأعضاء الشيوعيين فى الهند قبل العشرينيات، الذين حصلوا على الأوامر من أجل نشر الشيوعية فى التعاملات التجارية، ويعود ذلك إلى المقاييس المتخذة من جانب هيئة المخابرات الهندية^(٧). وكذلك الاحتياطات من دور النقابات التجارية فى مصر فى ١٩٢٠^(٨)، كما أن أقسام الشرطة المختلفة كان لها دور فى هذا المجال خاصة فى فلسطين عام ١٩٢١ كما يتضح من تقارير الشرطة المختلفة والتاريخ الطويل عن الأحداث المختلفة بين اليهود فى فلسطين^(٩). إلى جانب بعض التفاصيل التى تشير إلى المخاوف من جانب المخابرات الإنجليزية، وفى عام ١٩٢٧ فإن القائد العام للحزب الإمبريالى أجرى التحليل على الجهود الشيوعية فى الهند^(١٠)، والذى يتضح من التقارير الأساسية من الوكلاء الروس فى الصين؛ وذلك من أجل القضاء على الحركة القومية الهندية والمعلومات السرية التى تشير إلى دور هذه الشخصيات، والمثاليات العليا التى أعلن عنها هؤلاء الوكلاء إلى جانب الحرب بين بريطانيا وأفغانستان عام ١٩١٩، حيث إن المخابرات البريطانية قد أدركت أن الأفغان يتطلعون إلى الدعم الروسى^(١١). إن الأشباح القديمة التى ظهرت من جديد فى محاور دلهى وخطط الدفاع عن أفغانستان ضد غزو روسى قد أخرجت من جديد وتم تحديثها^(١٢).

وفى عام ١٩٤٣ فإن بريطانيا تحالفت مع روسيا، بينما كان على المخابرات العسكرية أن تواجه المحرضين الروس وزعماء القبائل عند

الحدود الشمالية والغربية^(١٣). حيث إن الخطر الحقيقي يتضح من الآراء المختلفة التي انتشرت عام ١٩١٩، وهي التي يمكن أن تعلق لنا الاضطرابات المختلفة في ذلك العام، إلى جانب السعى إلى الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية نظرًا إلى ظاهرة العولمة اعتبارًا من عام ١٩١٩، وكذلك الإعلان عن قواعد صهيون من جانب الصحافة التابعة للجناح اليميني، إلى جانب العداء ضد السامية، والاتجاه الروسي خاصة مع الحكم القيصري والثورة الروسية، وكذلك الاضطرابات الشيوعية تعود إلى تطبيق هذه الخطة، التي كانت تمثل أحد الأهداف التي تسعى إلى القضاء على الإمبراطورية البريطانية إلى جانب النظرية العامة التي أعلنت عنها المخابرات البحرية في تحديد هذه الإمبراطورية نظرًا إلى التآمر في موسكو، والإعلان عن هذه القواعد عام ١٩٢٠ لم يؤد إلى زعزعة هذه العقيدة، ومن بعد منتصف العشرينيات تم اتخاذ العديد من الحركات الفاشية البريطانية، والسعى إلى المصادر المشتركة للمشكلات العديدة ينعكس من تصريحات جون بوشين التي تعتمد على استعداد الشعب من أجل التعامل مع الدسائس والخطط الموضوعية من أجل التخلص من الحكومات، إلى جانب العديد من المكاييد التي أدت إلى الفوضى العامة في الأحداث؛ حيث إن الحرب أدت إلى التصدعات في هذه النظم وظهور العديد من الاحتجاج عام ١٩١٩، وبحيث أصبح من الأفضل إلى للمدافعين عن النظام القديم التصدي الهجمات المختلفة على النظام الدولي الجديد.

هذه الآراء المختلفة تلازمت مع المخاوف من انتشار الشيوعية في العديد من الدول؛ خاصة بين أبناء الطبقة الحاكمة في بريطانيا، والاتجاه العام من جانب الجهود في تصنيف المشاركين على أنه من الخونة الذين يتطلعون إلى تحقيق الأهداف الشخصية أو الخاصة، وأن الأسباب التي أدت إلى

الاستياء العام جعلت التدريب من الصعب على رجال السياسة والمسؤولين في هذه الحكومات^(١٤).

يعود حدوث الأزمات والكوارث في إيرلندا إلى وجود الغالبية من الكاثوليك والغاليين الذين لم يكن لديهم إيمان في الطرق البريطانية المتبعة في تحقيق الوفاق السياسى، إلى جانب الفشل في بعض القوانين والمعاهدات المختلفة بين الدول حول الأوضاع العديدة، وعدم الاعتماد على البرلمان الإنجليزى من أجل تحقيق الأهداف العامة للشعب البريطانى، وبعد عام ١٩١٤ فإن العديد من هؤلاء الزعماء القوميين تحولوا إلى الحزب الجديد الذى كان يسعى إلى التحول من حزب الشين فبين، والذى يطالب الإيرلنديين الرجال والنساء بالحصول على الحرية لأنفسهم، حتى على حساب حياتهم، وإذا اعتمدنا بشدة على مثاليات الوطن القومى مازانى، فإن الشين فبين شجعت الإيرلنديين على اكتشاف إحساسهم بالشخصية القومية التى تعطىهم وحدة الهدف والقوة الداخلية الضرورية للنضال الوطنى ضد الإنجليز.

هذه المخاوف العديدة تشير أن فيست هو أفضل مثال على التضحية الشخصية فى إيرلندا، عندما قامت إحدى المجموعات بالانقلاب فى عاصمة هذه الدولة، ولكنه تمكن من إحباط هذا الانقلاب.

الجنرال ماكسويل الذى أدرك كيفية التعامل مع أعداء الإمبراطورية القومية فى السودان، والذى كان يبرر أفعاله فى عدم الاعتماد على الرحمة فى التعامل مع الخونة، ولكن نظرًا إلى وجود لا مبالاة من معظم أفراد شعب إيرلندا، وشجاعة الشهداء، والإحباط العام من الحكومة الحليفة التى لم تؤيد رأى الشعبى، إلى جانب النفوذ البريطانى فى جنوب إيرلندا الذى قد زال كثيرًا؛ نظرًا إلى اهتمام الحكومة بالحرب ضد ألمانيا، بينما الإدارة العامة فى العاصمة كان عليها أن تحافظ على الأجزاء العديدة من هذه الدولة، خاصة

فى أبريل ١٩١٨، وإن الرأى الداعم العام إلى فيست، وكذلك نفوذ الحكومة البريطانية كان يتمثل فى تصويت الشعب على الانتخابات العامة عام ١٩١٨، حيث إن فيست قد تمكن من دعوة الأعضاء المختلفين فى يناير ١٩١٩ من أجل الإعلان عن جمهورية إيرلندا، ومع وجود اثنتين من الحكومات فى هذه الدولة كانتا تتنافسان وتتازعان فى الآراء؛ حيث إن فريق اللواء لورد فرنش قد تمكن من احتلال قلعة دبلن التى كانت تابعة إلى الرئيس فليرا الذى كان مشغولاً بالأجهزة الإدارية، وكذلك الدفاع الخاص، مع وجود أكثر من ١٠٠٠٠٠ من المتطوعين، وإن الهدف الرئيسى لدى فيست كان يتمثل فى أن يثبت للحكومة البريطانية أن الحكومتين أهم من الحكومة الأخرى، ويتضح ذلك من الاضطرابات العديدة عام ١٩١٩ مع الحملة العامة واغتيال عدد من رجال الشرطة الذين كانوا يتعاملون مع أحداث الشغب، وفى نهاية هذا العام فإن الحكومة البريطانية كان عليها أن تواجه الحملات الإرهابية فى إيرلندا وتقضى على اضطرابات الثوار وتؤكد أن الطرق التى كانت تنجح فى الماضى قد لا تنجح فى المستقبل.

كان على الحكومة البريطانية أن تتصدى إلى الحملة الإرهابية فى إيرلندا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وكان عليها أن تتكيف مع الاضطرابات المدنية والاضطرابات خلال ١٧٩٨ وأواخر العشرينيات والأربعينيات والستينيات من القرن التاسع عشر.

كما يتضح من منظور وايت هول الذى يؤكد أن أساليب الماضى قد لا تنجح فى المستقبل، خاصة فى مجال السياسة الخارجية، وحتى منتصف ١٩١٩ فإن تفكير الوزراء كان يتناول المفاوضات السابقة على توقيع معاهدة فرساي؛ حيث إن مجلس رئاسة الوزراء فى إيرلندا أشار إلى وجود العديد من العقبات السياسية التى تحتاج إلى الحل، وضرورة توافر الجهود من أجل

تحقيق هذا الحل، وخلال العامين التاليين فإن مكتب رئاسة الوزراء كان عليه قبول رأى لويد جورج عن الولايات المتحدة؛ حيث إن الولايات الجنوبية قد انسحبت من هذا الاتحاد، بينما إيرلندا كانت جزءاً، من المملكة المتحدة، بينما الأحداث التالية فى النصف الأول من عام ١٩١٩ تشير إلى الاستياء العام، ووجود مجموعة من المتعصبين الذين يعملون على تحقيق أهدافهم من خلال العمليات الإرهابية.

قد أخطأ مكتب رئاسة الوزراء فى تقييم رأى الغالبية فى جنوب إيرلندا، مع وجود العقبة الإضافية أمام الاستيطان، وهى التى تتمثل فى عدم الميل إلى أبناء المذهب الكاثوليكى، مع وجود تراث من الدعاية السياسية والدينية، وعجز المسؤولين الإنجليز، وكيفية التخلص من ذلك، والرأى الخاص من زعيم الحزب المحافظ الذى أعلن عن شعب إيرلندا أنه يمثل الجنس المتدننى عن الشعوب الأخرى، وأن ذلك قد يشير إلى إحساس بالمرح، وهذا يجعلنا نضحك كثيراً^(١٥). وكلما اشتدت الحملة الإرهابية فى إيرلندا وجد الغضب البريطانى مخرجاً فى التعسف العنصرى^(١٦)، حيث إن بريطانيا كانت ترعى المخرج من هذا التعسف العنصرى، كما يتضح من الخطاب الذى يؤكد إلى القراء هذا الرأى فى مجلة السبت، وذلك يشير إلى الآراء الأخرى من جانب المسؤولين فى الحكومة الذين يعملون على وقف أعمال القتل والاعتقال فيما بينهم وبين جهود الإنجليز، وفى ديسمبر ١٩١٩ فإن مكتب رئيس الوزراء كان يؤيد البيان العام الذى يوضح بعض القواعد الموجودة منه والتى تهدف إلى الحفاظ على القومية.

كان لا بد من تقسيم إيرلندا مع وجود الغالبية من المحتجين الذين يدافعون عن هذه القضية عام ١٩١٢، ولا يقبلون رئاسة المسؤولين من جانب الشعب الإيرلندى، بينما أولستر لن يدعن إلى حكومة إيرلندا والكنيسة

الرومانية واجتماع المسؤولين في بلفاست في ١٢ يوليو ١٩٢٠ من أجل احتفال بانتظار المحتجين، وانتصار البروتستانت عام ١٦٩٠ إلى جانب وجود العديد من المسؤولين من الكاثوليك في المناصب المختلفة في أوروبا.

مع وجود عدد من أبناء إيرلندا فإن الحكومة البريطانية قد أعلنت إليهم، خاصة المقيمين في الجنوب، عن قيام البرلمان في دبلن، وكذلك المقيمين في الشمال، عن تكوين بعض الجمعيات المسؤولة عن جمع الضرائب وإنفاقها، وكذلك تولى شئون الدفاع والشئون الخارجية على ضوء القانون الجديد والانتخابات في مايو ١٩٢١ والأمل المعقود على الجيش البريطاني في القضاء على العناصر المنشقة من إيرلندا، وأن فيست قد أعلن عن رفض رأى من ليودل من أجل تقييم الدعم إلى المبعدين إلى بريطانيا والإمبراطورية البريطانية، والمفهوم العام والمخاوف من إيرلندا المنشقة، والاعتقاد في أهمية التعاون بين الأطراف المسؤولة خاصة من الحزب الجمهوري الذي له اليد العليا على الخصوم، والذي أعلن عن الخطاب العام إلى الشعب الإنجليزي نظرًا إلى المخاوف والتعاطف عن إيواء هؤلاء المنشقين كما كان يؤيد هذا الجيش من الرجال والشباب، وأن استمرار حرب العصابات طوال عام ١٩١٧ يعود إلى الحكام الذين أصدروا الأوامر إلى الجنود من أجل القدرة على التعرف على مشاعر الغضب العام من جانب اللواء مكريدي الذي أشار إلى رأى الحكومة البريطانية التي لا تعترف بحرب العصابات.

كما أعلن عن المهمة المطلوبة من الجنود، وكذلك تعبئة الرجال من أجل إقامة هذا الجيش^(١٧)، كما أن مكريدي تمكن من تعيين القائد العام في أيرلندا خلال أبريل ١٩٢٠، وتمكن من القضاء على بعض الثوار؛ حيث إنه كان خبيرًا في العلاقات العسكرية الميدانية، كما كانت لديه الخبرة في حل النزاعات الصناعية في عام ١٩١٩، وعندما تولى هذا المنصب فإنه قد أعلن

عن ضرورة التصدى إلى الدعاية لحرب العصابات، والاعتماد على القضاء على الإرهاب من خلال دور الشرطة والشرطات المسؤولة، والناجمة عن ذلك تتمثل في وجود عدد من السود في إيرلندا الذين يقدمون الخدمات العديدة في لندن خلال يناير ١٩٢٠، والذين كانوا يرتدون الزي الرسمي ويعملون على الحصول على الرجال من خارج إيرلندا؛ وبحيث إن هذه الفرق اكتسبت الشهرة والسمعة عن أعمال الوحشية ضد الشعب المدني ومع وجود السود في إيرلندا الذى يمثل نهاية السياسة المدنية في هذه الدولة. وفى صيف ١٩٢٠ فإن نموذج الحرب قد أصبح ثابتاً وواضحاً نظراً إلى أحداث الشغب فى الشوارع والقتل العشوائى فى قوات حزب السلام والمتطوعين من الوطنيين الذين كانوا يدافعون عن هذه القضية، بينما كان الأعداء يمثلون القتل ضد الشعب المدني والمسؤولين عن الأعمال الانتقامية التى أدت إلى مقتل اثنى عشر من رجال الشرطة فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٠، ويتضح ذلك من استمرار أحداث الشغب والفوضى العامة.

تمثل الأشكال المختلفة من الأعمال الانتقامية النتيجة من الجيش المسئول عن احتواء حرب العصابات، دون وجود المصادر الموثوق فيها من أجل الكشف عن هؤلاء الأعضاء، ومع اشتداد هذه الأعمال وانتقاد الحكومة من جانب الصحافة اليسارية والمتحررة التى كانت تقارن بين سلوك القوات الإنجليزية فى إيرلندا مع سلوك الألمان فى بلجيكا المحتلة، واتساع الفجوة بين رجال السياسة والمسؤولين فى الجيش، وفرض قانون الطوارئ الذى يمثل الحل الوحيد من أجل التصدى لهذه الأعمال.

كان السير هنرى ويلسون يواجه المشكلة الصعبة؛ حيث كان يرغب فى توقيع العقوبة على أعمال الانتقام وإعدام جميع القادة الجمهوريين^(١٨)، وفى مايو ١٩٢٠ أشار إلى أن لويد جورج قد وقع ضحية لذلك؛ نظراً إلى تعامله

مع التجار من إيرلندا، وأن هذه الظروف كانت تمثل الخطر على الإمبراطورية البريطانية؛ لأن هنرى كان يعتقد فى غياب الإرادة الحكومية^(١٩)، بينما كان تشرشل يعمل على تحقيق العدالة فى توزيع الامتيازات فى مصر وإيرلندا، التى أسهمت فى ضعف هذه الإمبراطورية^(٢٠).

فى النصف الثانى من عام ١٩٢٠، فإن الوزراء كانوا يشكون من الاستمرار فى الحرب ضد إيرلندا، وأن هذه المشكلة تشير إلى تصميم بريطانيا على الحفاظ على المسئولية البريطانية، وبحيث يتمكن رجال السياسة من السيطرة على الأحداث، بينما أشار ملنر المسئول عن المستعمرات إلى جنوب أفريقيا التى كانت لا تواجه هذه الصعوبات العملية فى تطبيق قانون الطوارئ فى إيرلندا، ولكنه كان يشكك فى حصول الضباط الشباب على السلطات العريضة^(٢١)، وفى أبريل ١٩١٩ فإن مأمور الشرطة دابر قد اعتمد على قانون الطوارئ من أجل تبرير فتح النار على المتظاهرين فى أمريستار، مما أدى إلى مقتل أربعمئة شخص، وأن نظام دابر فى توقيع العقوبات على المنشقين يمثل النتيجة من المباحثات فى مجلس العموم خلال يوليو ١٩٢٠، بينما لم ير كارزون أى سبب لعدم تطبيق الأساليب التقليدية على إيرلندا من أجل الحصول على الطاعة^(٢٢)، كما أن رجال السياسة قد تنازلوا عن موقفهم، بينما كان على مكريدى تطبيق قانون الطوارئ فى ديسمبر ١٩٢٠ على أربع من الدول.

يشير نقل المعدات العسكرية والدوريات المتحركة إلى الاتصال على هذا الوضع فى منتصف ١٩٢٢، وأن هذا التفاؤل قد واجه الإحباط؛ نظراً إلى اشتداد العمليات الإرهابية فى ربيع ١٩٢١، والانتخابات فى إيرلندا خاصة فى الجنوب فى بداية مايو؛ حيث إن مكريدى كان يحذر من القهر^(٢٣)،

بينما أدى هذا الإجراء المتبع من المحاكم العسكرية إلى اعتقال ٤٤٠٠ من المشتبه فيهم خلال ٦ أشهر، إلى جانب عمليات البحث عن السلاح، وإن مايكل كولنز الذى يمثل القائد العام لهذه المنظمات أشار أنه لم يكن فى وسعه أن يستمر فى ذلك أكثر من ثلاثة أسابيع، ولكنه قد أخطأ فى تقدير قوة الخصم حيث إن الجيش الإنجليزى لن يحل العديد من المشكلات مع غياب المخابرات المركزية. وفى بداية يونيو فإن الطرفين قد توصلا إلى ما يمثل الطريق المسدود^(٢٤). بعد المفاوضات العديدة من جانب جورج الخامس، عندما افتتح البرلمان الإنجليزى فى ٢٣ يوليو واتفق على الهدنة بين فيست والحكومة فى ١٢ يوليو، بينما جاء الممثلون عن إيرلندا إلى بريطانيا من أجل المشاركة فى المفاوضات بعد ثلاثة أشهر.

أشار العقيد لورانس المسئول عن إطلاق فرق العصابات الدولية ضد الأتراك إلى عدم إمكانية شن الحرب على الثوار، بينما فى مناسبة أخرى أعلن التحذير إلى الحكومة من أن الإنجليز لم يتمكنوا من الحفاظ على الإنجليزىة من خلال الاعتماد فقط على القوات المسلحة^(٢٥) وفرض قانون الطوارئ، ومن الواضح أن إيرلندا لم تتمكن من إعادة الانتخابات فى الجنوب، وأن البديل الوحيد يتمثل فى استعمار ست وعشرين من المستعمرات من خلال تطبيق قوانين الطوارئ، بينما ماكريدى كان يشك فى هذه السياسة.

تردد مجلس رئاسة الوزراء فى تقديم جنوب إيرلندا إلى فرق العصابات وأن العاميين الماضيين كانا يشهدان ارتفاع عدد المحتجين من رجال الدين والحزب العمالي والنقابات التجارية التى كانت تطالب بجلاء القوات البريطانية فى يوليو ١٩٢٠، وأن أحد الصحفيين تمكن من وصف هذه السياسة الرادعة والانتقام العشوائى مع القلق العام فى الخارج، خاصة بعد انقلاب الأحداث فى إيرلندا، وبعد زيارة فليرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال عام ١٩١٩، حيث كان يمثل أحد الزعماء القوميين مثل غاندى وسون ياتسن.

وقد حدث الاستقبال الحار من المجموعات الأمريكية والإيرلندية التى قدمت خمسة ملايين دولار من أجل مساعدة ضحايا الحرب إلى جانب المعونات الغذائية والأسلحة الخفية، والتى مارست الضغط السياسى على مجلس الشيوخ، والذى يشير إلى النجاح فى حل بعض المشكلات، وأن الرئيس الجديد هاردينج قد استبعد التدخل الرسمى فى هذه المشكلة الاقتصادية^(٢٦)، بينما كانت إيرلندا تضم عددًا من الأستراليين، حيث إن اللواء جون سموتس كان يتوقع بأن الطرق المتبعة مع أيرلندا يمكن أن تؤثر على العلاقات بين الإنجليز وبين الحكام عن هذه المستعمرات فى يونيو ١٩٢١، وقد تردد بالزيارة إلى دبلن التى تمثل العدو إلى بريطانيا، كما تمكن من إقناع فيست من أجل البحث عن الحل الوسط^(٢٧) وقبول الحكم الذاتى على أيرلندا.

بدأت المباحثات بين فيست والحكومة الإيرلندية فى أكتوبر، واستمرت شهرين على مائدة المفاوضات، مع التوقيع على هذه المعاهدة فى بداية ديسمبر، وأن كلاً من الطرفين يرى هذه المعاهدة على أنها تمثل المتنفس، بينما حصلت المقاومة الأيرلندية على خمسة وأربعين ألفاً من المتطوعين بين يوليو وديسمبر، وأعلن إليود جورج عن الخطة الموضوعة من أجل الاستمرار فى الحرب عند عدم التوصل إلى الاتفاق^(٢٨). وفى ٢ ديسمبر فإن تشرشل قد حصل على التهديد من جون بول، وبعد أربعة أيام عند التوقيع على المعاهدة أعلن أن الجيش على استعداد من أجل استئناف العمليات^(٢٩)، وأن ذلك قد أقتنع العديد من الإيرلنديين بأن هذه المعاهدة قد اعتمدت على التهديد، وأن كولنز وزملاءه يمثلون الضحايا لهذه الخدعة، مع وجود الأسباب الرئيسية فى دعوة هؤلاء إلى المفاوضات تمثل الحجة من أجل استمرار الحرب.

ظهرت الآراء المختلفة حول الظروف العديدة التى أحاطت بهذه المعاهدة بين المسؤولين فى شمال إيرلندا: فى الحصول على السلطات واعتبارها تمثل الدولة الحرة؛ حيث إن هذه المعاهدة جاءت فى مصلحة الأقلية من الكاثوليك فى المملكة المتحدة، إلى جانب تجدد الأمل والحلم لدى أبناء إيرلندا فى التحرر، وفى حق تقرير المصير، على الرغم من وجود الفاصل بين الشمال والجنوب.

تأثرت الحركة القومية فى إيرلندا كثيرًا بهذه المعاهدة التى حصلت على التصديق من ديل ومن ٧ من المصوتين، بينما اعترض المعارضين على ذلك، ولكن مع هذا تمكنوا من الإعلان عن المثاليات فى الحرب المدنية فى عام ١٩٢٣، والخديعة التى أدت إلى مقتل كولنز، والاتصال الأخير يعود إلى فليرا وأتباعه عام ١٩٥٧، فإنه أعلن عن الحلم فى اعتبار إيرلندا الجمهورية، ومع ذلك فإن القوميين قد تمكنوا من التوصل إلى الحل الوسط عام ١٩٢١، واعتبار من ١٩٣١ فإن الحاكم العام على إيرلندا حصل على الحرية الكاملة فى إدارة الشؤون الداخلية والخارجية، ولكن فقد هذه الحرية فى سبتمبر ١٩٣٩ عندما أعلن فليرا عن موقف إيرلندا المحايد فى حرب بريطانيا على ألمانيا.

انقسمت الآراء المختلفة داخل بريطانيا عن المعاهدة الإنجليزية الإيرلندية والعواقب المترتبة والرغبة فى طرد الإيرلنديين من الإمبراطورية، مع حصولهم على بعض الامتيازات^(٣٠)، ولكن الحكومة لم تكن على استعداد إلى التضحية بهذه الأهمية الإستراتيجية، نظرًا أن القواعد الإيرلندية لم تكن لها القيمة أثناء الحملة فى جنوب إيرلندا^(٣١).

اعترض هنرى ويلسون وكذلك الأتباع بشدة على هذا الوضع، وأعلن عن أن ذلك يمثل الانسحاب الجبان أمام تهديد السلاح، وأن بريطانيا قد بادلت

السلطة دون أن تستغلها^(٣٢)، وويلسون كان قد أصر في مايو ١٩٢١ على مجلس رئاسة الوزراء الذي اختار الطرق القديمة في إيرلندا، عندما استقال ثم شارك في الانتخابات؛ حيث إن ويلسون لم يكن مختلفاً عن المحافظين والعاملين في الصحف اليمينية، وأنه سوف يستمر في هذا المنصب طوال فترة بريطانيا على أن تمثل القوة العليا، بينما رجال السياسة ليس لديهم الحل؛ نظراً لتضارب المصالح وعدم التفاهم فيما بينهم إلى جانب الآراء المعلنة في الصحف ووجود العديد من المستعمرات في بريطانيا، حيث إن ويلسون كان يبالغ في اعتبار أهميته الخاصة حول دوره في شكله المنقذ للإمبراطورية القومية. ولكنه لم يتمكن من أن يلعب دور المحدد لمصير بريطانيا، وفي يوليو ١٩٢٢ فإنه قد تعرض للاغتيال خارج داره في إيتون على يد اثنين من المسلحين الإيرلنديين، والذين تم القبض عليهما بينما ويلسون الذي كان يشعر بالمرارة من ذلك قد تمكن من جمع بعض الرجال العسكريين على مدى أربع سنوات حتى يتمكن من إنقاذ الإمبراطورية التي تعرضت للخيانة من رجال السياسة الضعفاء والمترددين والذين أعلنوا عن قدرة هؤلاء الرجال في التصدي إلى المحتجين في الإمبراطورية، مع وجود الأقلية التي لا تحصل على التمثيل من بعض المتسببين في المشكلات، كما أن ويلسون من أولئك الذين يتخذون نفس هذا الرأي، حيث أعلنوا عن ذلك إلى الصحافة، واتخذوا العديد من الإجراءات من أجل التغلب على المحتجين والمعارضين في الإمبراطورية، بينما الأقلية التي لم تحصل على التمثيل لم تتمكن من تحقيق أهدافها، وأن غاندي الذي أعلن عن التوقعات حول العواقب المترتبة من هذه المعاهدة، تمكن من الإشارة إلى الظروف التي أدت إلى هذه الاتفاقية، والتي تشير إلى تأكيد المبادئ الأخلاقية التقليدية، وأن الخوف من خسارة الأرواح هي التي جعلته متردداً، عندما أعلن عن ذلك في ديسمبر ١٩٢١، وأشار كذلك إلى تطبيق الوكالة على الأفراد عند تطبيق الحرية،

وحتى تقرير المصير^(٣٣)، وأعلن عن ذلك إلى أحد المؤرخين الذى يمثل رئيس إحدى المؤسسات التعليمية، عن الامتيازات القومية المقدمة إلى إيرلندا من أجل الإشارة إلى الإنجازات العظيمة من التحريريين^(٣٤)، وهى التى تمثل السر الذى لا يمكن أن يحدده تبعاً إلى الحزب والاتحاد التجارى، قبل الدخول فى عمل المباحثات حول المعاهدة نحو بريطانيا وإيرلندا^(٣٥). ومن أجل تقرير المعاهدة فإن هذه التصريحات المختلفة كانت تتقاسم العديد من العناصر المشتركة إلى جانب التصريحات من المعارضين للحرب الأمريكية والتناقضات العديدة خلال القرن العشرين بين آراء المسؤولين عن الإمبراطورية البريطانية، والرغبة فى تحقيق الديمقراطية مع وجود الإقطاعيين والمعارضين، كما أعلن أيضاً عن الطلب ومن أجل التخلص من الثوار.

كانت بريطانيا مثل اليونان فخورة بهذه الديمقراطية والحرية التى يتمتع بها الشعب البريطانى من بعد القرن السابع فى المستعمرات المختلفة، وفى عام ١٩١٩ فإن هذه الإمبراطورية قد حصلت على مخرج جديد حيث أصبحت مجموعة من الدول والأمم، وكانت تمثل الإمبراطورية القادرة على الحكم على المستعمرات، وكان يشير العديد من الكتاب السياسيين فى القرن السادس عشر إلى تحقيق المساواة والعدالة والسعى إلى المصالح المشتركة من أجل تحقيق الصالح العام للجميع، إلى جانب التعلق العاطفى بهذه الإمبراطورية؛ على أنها تمثل الحاكم المطلق عن الملكية البريطانية التى كانت تشهد نفس هذه الدورة الثورية من المستعمرات المحتلة، وحتى الدول التى لها حق تقرير المصير، ومن خلال جميع هذه المراحل التى شهدت العديد من التطورات فى الأوضاع، والافتراض العام أن بريطانيا لديها جميع الحقوق السياسية، وبين عام (١٩١٩ - ١٩٢٢) فإن بريطانيا قد تمكنت من القضاء

على هذا النموذج؛ نظرًا لأنها كانت مترددة فى الخضوع للحكومة البريطانية، وأن الثورة الإيرلندية كانت تمثل بداية النهاية، حيث إن إيرلندا عليها أن تخضع إلى الجو الإنجليزى. بينما الاضطرابات الإيرلندية كانت تمثل بداية الأحداث المريرة، والتي كانت تعتمد على نمو هذه الإمبراطورية.

(٣)

كرامة وطنهم

مصر (١٩١٩ - ١٩٤٢)

لقد كان المشير فسكونت النبي القائد العام للجيش - والذي قلب في النهاية الإمبراطورية العثمانية، وجعل بريطانيا السلطة العليا في الشرق الأوسط- متشائما فيما يتعلق بمستقبل الإمبراطورية التي وسعها، وأبقى هذه الشكوك لنفسه؛ لأنه صار المندوب السامي في مصر في مارس ١٩١٩، وهو تعيين يدين كثيرا إلى قوة شخصيته المعروفة وإراثته الحديدية- لكنه كان ينقصه الإقناع الداخلي لمساعدى القناصل المحاربين، لأنه كان رجلاً واسع الأفق الفكرى وله عقل مستتير، ولقد ساعده هذا على دراسة القوى التاريخية التى بدأت تتجمع فى تلك اللحظة وربما تؤثر حالا على الإمبراطورية البريطانية، ولاحظ بعد وجبة غداء مع صديق حميم فى إحدى أمسيات عام ١٩٢٠، أن الإمبراطورية سوف تتأثر حين يصبح رعاياها على درجة من التعليم^(١).

وكان قلقاً من أن ما يتعلمونه لن يساعدهم على القيام بمسئولياتهم وتكسبهم وحدة القيادة التى تعد أساسية لهؤلاء الذين يمارسون السلطة على الآخرين، لقد جعلته الأحداث التى وقعت فى الأشهر الثمانية الماضية يشعر ويدرك بشكل غير مريح أن التلاميذ فى المدارس المصرية يتعلمون كيف يكرهون بريطانيا وكل شئ ترمز إليه، وكان أحدهم هو جمال عبد الناصر

الذى ولد فى عام ١٩١٨، وبعد ذلك تذكر أنه عندما كان طفلاً صغيراً، كلما شاهد طائرة تحلق فوق رأسه كان قد تعود الصباح، يا إلهى ربنا يأخذ الإنجليز وتحل بهم مصيبة^(٢).

كما أن قائداً مصرياً فى المستقبل وهو أنور السادات المولود عام ١٩٢١، تذكر العداء البغيض عند والده؛ الذى كان مثله الأعلى كمال أتاتورك الزعيم الوطنى التركى الذى استطاع التغلب بنجاح على الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين وبعدها تفوق على البريطانيين، ففى عام ١٩٣٢ كان السادات الشاب متأثراً بما قرأه فى الصحف عن حياة الزعيم غاندى الذى مر على مصر فى طريقه لمناقشة القضية الهندية أمام الحكومة البريطانية^(٣).

ومع ذلك وبشكل متناقض يشارك الوطنيون من الشباب مع اللبى إحساساً بأنهم أيضاً يقاومون قوى عنيدة، وكان عبد الناصر الذى وصل إلى مرحلة الدراسة العليا قد استعاد الهتاف بصوت عال فى المظاهرات ضد بريطانيا عام ١٩٣٥، ولكن دون جدوى، لقد ماتت هتافاتها فى رد فعل ضعيف لم يحرك أى جبال، ولم يحرق أى صخور، ويبدو أن الإمبراطورية لم تتحرك، كما حدث لشباب آخرين رفعوا شعارات وألقوا بالحجارة وتشاحنوا مع البوليس والجنود، وعلاوة على ذلك فقد اكتشف المصريون بمرارة أن الطائرات التى كانت تحلق من حين لآخر فوق مدنهم وعواصمهم يمكن أن تسقط قنابل.

لقد كان الشباب أمثال ناصر والسادات بين آلاف المصريين الذين خرجوا إلى الشوارع بالنظام بين الحروب يطلبون وضع نهاية للتدخل البريطانى فى إدارة شئون وطنهم، وقد توجت احتجاجاتهم بظهور الوفد الذى كان أكبر حزب سياسى فى مصر، وبالنسبة للسادات وغيره من الشباب صار رمزاً للنضال بين الشعب المصرى والبريطانيين.

وبالنسبة لبريطانيا كان الوفد مصدر إزعاج لا بد أن ينتهى فى النهاية، وللتعجيل برحيله قاموا بالتجسس على أنشطته دون نجاح وقبضوا على زعمائه ونفوذهم، عندما ظهر أنهم أقوىاء جدًا، وفى مرات أخرى حاولوا التظاهر بعدم وجوده.

لقد بدأ الوفد حياته بشكل سلمى، وبعد بضعة أيام من نهاية الحرب اتصل وفد من السياسيين المصريين المحترمين بالمندوب السامى السير ريجنالد ونجت، وبكل أدب وإصرار طالبوا بوضع نهاية للحماية البريطانية واستعادة الاستقلال، وكان زعيمهم سعد زغلول، وهو رجل وصفه اللورد كرومر بأنه الرجل ذو المنفعة العامة الكبرى، حيث لفت اهتمام ونجت بوعود بريطانيا الحديثة لتقرير المصير للعرب، واقترح أن المصريين الذين أصبحوا مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم يستحقون نفس المعاملة، وعرف أن البريطانيين المحبين للحرية سيكونون متعاطفين معهم، وكان خوف ونجت من أن مصر على استعداد لعرض قضيتها أمام الرئيس الأمريكى وليس فى مؤتمر فرساي القادم^(٤).

وعامل المندوب السامى الوفد بكل صرامة- لكنه لم يحطم آمالهم، وكانت مصر تعاني من التضخم والتمزق بسبب الحرب، والتأديب العام سيشغل بسهولة القلق الشعبى، وهناك بعيدًا فى لندن كان اللورد كيرزون وزير الخارجية مندهشًا من محاولة التوفيق، وأمره بالعودة إلى الوطن، وكان كل ما يحتاج إليه يد قوية وليس الكلام المعسول، وكان على الوفد أن يقضى عليه بعد البداية، قبل أن تنتشر الجرثومة القومية التى أصابت الهند، وفى مارس ١٩١٩، وبناءً على تعليمات اللورد كيرزون قبض الرسمىون على زغلول وزملائه وأرسلوهم إلى المنفى فى جزيرة مالطة، وبانتهاج سياسة الهجوم لم يقدر كيرزون طبيعة المصريين، وعلى الفور لو أن الإدارة

البريطانية فى القاهرة أخطأت تقدير الموقف؛ لأنهم توقعوا بعض الرؤيا فى العقل المصرى، لكن لم يحدث هذا، وإلى حد ما بقى الموظفون المدنيون البريطانيون على حالهم، وظلوا بعيدين عن الطبقة المصرية العليا التى نظروا إليها بمزيج من التسلية والاحتقار، وقبل ذلك الموقف بعام واحد شرح مسئول بريطانى كان يخدم فى السودان إلى زملائه إلى السيد ليو أمرى (Amery) الوضع بقوله " إننى أخشى أن نظام المدرسة العامة التى لا تشجع حب الاستطلاع الفكرى، وتجعل كل شخص ينضم إلى الآخرين لأجل ألعاب جماعية وتسلية هو دون شك يعمل كحاجز كبير بيننا وبين الطبقة المتعلمة فى بلد مثل مصر^(٥)".

وهناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة، فقد حاول السير رونالد ستورز (Storrs) أكثر الرياضيين بين الحكام الاستعماريين أن يسلم الأمر لزميل فى علم المصارعة الرجولى، ولكن على العموم التزم البريطانيون بلعبة التنس واجتماعات السباق ولم يجازفوا بالبعد عن نواديهم وفندق شبرد. وكما لاحظ ستورز أن عددًا قليلًا من المصريين اهتم بتعلم اللغة الإنجليزية، ولكن واصلوا الحديث باللغة الفرنسية حتى بعد ثلاثين عامًا من السيطرة البريطانية الغربية^(٦).

وفى بداية الاضطرابات؛ طرد الرسمىون الجنود الأساسيين من الوطنيين وقطيعًا من الدهماء ومن الطلاب الذين لا يعملون والعاطلين من المتقنين الغوغاء الذين لا يجدون أفضل من ضياع ساعاتهم فى المقاهى يخططون للتحرير على الفتنة، وأثناء محادثات ملنر مع المصريين فى نهاية ١٩١٩، أصيب بدهشة من غزو طبقة الأفندية ووصفهم هم ومؤيديهم فى الشوارع بأنهم أقلية تتحدث فقط عن نفسها^(٧).

إن الوقت الذى يضيع فى النقاش مع المصريين الأذكىاء قد ضاع فعلاً حسب رأى الجنرال ولتر كونجريف القائد العام فى مصر بعد عام ١٩٢٠^(٨).

عندما نتحدث عن السياسة إلى الرجل الشرقى فتأكد أنك ستحصل على الأسوأ منها، وعندما تركله فإنه يحبك ويحترمك^(٩).

وقد اتفق هؤلاء الذين يركلون مع الجنرال، فالقوات التى تم استدعاؤها لاستعادة النظام عام ١٩١٩، استمتعوا بالمهمة حتى التسريح من الخدمة فالبريطانيون والهنود ورجال خدمة الأنزاك (Anzac أو Gyppe) على أنه مخلوق منحرف، وعلى هذا كانوا سعداء لهذه الفرصة لاسترداد ظهورهم خلال الاضطرابات التى جاءت بعد نفى سعد زغول.

واكتشف المسئول عن الجنود رأى جون بوليش (John Bullish) فى الخارج والغضب على نطاق واسع بين المصريين^(١٠)، واستمر ذلك بعد ثورة ١٩١٩ وكانت هزيمة المصريين الذين يحتفلون بامتيازات اللبى من الجنود البريطانيين والأستراليين الذين يتوقون للحفاظ على كرامة الإمبراطورية، وخلال عشرينيات القرن العشرين كان على المندوب السامى أن يواجه سيلاً من الشكاوى من المصريين من كل الطبقات والذين أهينوا من رجال الخدمة^(١١).

وكان الاحتقار العنصرى وراء كل هذه الحوادث، برغم أن الجنود الواعين سياسيًا بسبب اضطرابات ١٩١٩، لاموا أنفسهم بسبب النقاط الأربع عشرة للرئيس الأمريكى ويلسون^(١٢).

لقد كانت ثورة ١٩١٩ احتجاجًا تلقائيًا ضد المعاملة الحسنة للوفد، وكانت هناك إضرابات فى المدن الكبرى ومحاولات منهجية للاضطرابات

وأعمال التدمير لنشل طرق السكك الحديدية فى الدولة وشبكة التليفون والتلغراف، واستجاب الجنرال السير إدوارد بولسفين بسرعة، باستخدام إجراءات مناسبة، وكان يتم إطلاق النار على الجماهير، وفى بعض المناسبات قصفت بعض المناطق بالطائرات، وكان المشكوك فيهم بالإثارة يحاكمون ويضربون بعد محاكمات حسب قوانين الطوارئ، وكان عدد من رجال الخدمة البريطانيين قد أثار موجة من الغضب، ولفترة ما شعرت القيادة العليا أن رجالها خارج نطاق السيطرة، ومات على الأقل نحو ١٥٠٠ مصرى خلال ثمانية أسابيع من القتال فى حملة تشبه فى قسوتها القضاء على التمرد الهندى.

وظهر اللبى فى هذه المرحلة قائدًا باسم مستعار "الثور: The Bull" وتوقع كيرزون منه أمرًا عنيفًا سوف يعيد المصريين إلى صوابهم، ومرة ثانية أخطأ الماركيز الحسابات، وكان اللبى نفعيًا بدرجة خيال كافية لفهم أنه لن يستطيع حكم مصر بالقوة إلى الأبد، خصوصًا أن الرجال المتأحين له صاروا متمردين بسبب تأجيل إلغاء تعيينهم، وأن مصر فى حاجة إلى وزارة مدنية لوزراء مصريين يستطيعون التعاون مع المندوب السامى بالطريقة القديمة، ومن أجل الوصول إلى هذا قدم اللبى غصنًا من الزيتون فى شكل إنهاء عزل زعماء الوفد.

وبدأت امتيازات اللبى فى توسيع اللعبة السياسية بين نفسه وخلفائه والوفد، وبالنسبة لبريطانيا فإن (Stake) كان مهتمًا للحفاظ على أمن قناة السويس التى كانت أحيانًا تسمى حلقة وصل كلاهام (Clapham) الإمبراطورية. وفى أوائل عشرينيات القرن العشرين سجلت السفن البريطانية المارة بالقناة ما بين الثلاثين من حمولات كل السفن التى تمر بالقناة، وصارت الأهمية الإستراتيجية للقناة أكثر مما كانت من قبل بعد عام ١٩٣٥، عندما كان على

بريطانيا أن تتفق مع الادعاءات اليابانية في الشرق الأقصى، وإيطاليا في البحر المتوسط، وإذا كان على الأسطول الملكي أن يركز جهوده ضد أى من القوتين فإنه لا بد أن يستخدم القناة، وتعتمد سلامة الممر المائي على حامية بريطانية مدعومة، وقوات تمركز بالقرب من القاهرة والإسكندرية، ولكن كما توقع النبي فإن القناة ستكون في خطر دائم إذا انشغلت القوات البريطانية بصفة مستمرة في سحق الاضطرابات المصرية، ولن يتوقف الرأي العام عن التسامح مع حالة لا تنتهي من الطوارئ في مصر، وتعليقاً على الحاجة إلى معاهدة مصرية بريطانية دائمة في عام ١٩٢٠، ادعت جريدة الديلي ميل (Daily Mail) أن الشعب البريطاني لا يحب أبداً أن يتمسك بشعب في حالة دائمة من الاضطرابات، وأن أفضل وسيلة لتدعيم الإمبراطورية طوال الوقت هي كسب حب الشعوب التي صارت تحت مسئوليتنا وثقتنا"^(١٣).

وعبرت كثيراً عن هذا الرأي في جارديان الحزب الليبرالي والأوبسيرفر والديلي نيوز برغم أن الموريتج بوست والديلي تلغراف تبنت آراء المحافظين من جناح اليمين الذي أراد وضع أنف المصريين أرضاً بجرعة أكثر من الأحكام العرفية.

وتم استخدام القوة من حين لآخر ضد المصريين، وكان ذلك في عام ١٩١٩، وأيضاً خلال الأزمات السياسية في عامي ١٩٢٤، ١٩٢٥ وعام ١٩٣٦ عندما ظهرت البوارج الحربية البريطانية بعيداً عن الإسكندرية وبورسعيد، ومسيرة القوات البريطانية إلى القاهرة، وفي كلتا الحالتين كانت الحكومة البريطانية تسيطر بشكل غير مباشر على السلطة لدى الناج المصري، وهو أمير له قيمته في لعبة السيطرة على رعاياه، وتولى السلطة فؤاد الذي حمل لقب الملك في عام ١٩٢٢، وكان وطنياً حسب أهوائه

الخاصة وضد الوفد بشكل مكثف، وهذا ما جعله يعمل لصالح البريطانيين طالما أنه دائما يكسب أى مناورة سوف تؤذى الوفد، وذات مرة وهو فى حالة الغضب انقطعت كلماته بنباح غريب نتيجة جرح فى الحنجرة كان يعانى منه^(١٤).

وأخبر فؤاد اللبى أن زعماء الوفد كانوا جماعة من الثوريين والأوغاد، على أن ما كان يثير فؤاد هو أن الوفد يمثل ثورة بديلة للعاطفة الوطنية، ويستمد قيادته من طبقة الأفندية من ملاك الأرض ورجال المهن؛ بمن فيهم بطرس بطرس غالى، الأمين العام للأمم المتحدة، وكانت ثرواتهم تؤهلهم للحصول على مقاعد فى البرلمان المصرى وتعطيهم الفرصة لتمويل تنظيم الوفد، ولم يكن غريبا أن تكون سياسات الوفد الاجتماعية والاقتصادية محافظة، ولكن وطنيته التى لا نساوم عليها كسبت له تأييد الاتحادات التجارية والطلاب وأطفال المدارس والفلاحين، برغم أنه كما خمن المواطنون الرسميون البريطانيون: أن صوت الفلاحين يمكن كسبه بسهولة من خلال الرشوة والإجبار القسرى خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، وتصرف الوفد وكأنه يمتلك احتكار الرأى العام، وكان يرفض باستمرار توفيق أوضاعه لاستكمال الاستقلال عن بريطانيا.

وكان هذا العناد والتصلب حيويًا؛ إذ كان الوفد يربط معًا قطاعاته المختلفة، ويقاوم الضغوط من الجماعات الراديكالية مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة التى ظهرت فى ثلاثينيات القرن العشرين، وأما خارج الوفد فكانت هناك مجموعة من السياسيين المصريين الذين كانوا على استعداد للوصول إلى اتفاق مع بريطانيا، ومنهم الملك فؤاد والمندوبون السامون القادمون بعد ذلك والذين يستطيعون اختيار الوزراء.

إن تولى السلطة من خلال الموافقة البريطانية عمل خطير؛ لأنه كانت هناك فى الوفد خلايا صغيرة من الإرهابيين، والذين اتخذوا أسماء مثل

عصابة المسدس الأسود، أو مجموعة الضحايا السرية، وقاموا باغتيال الرسميين البريطانيين ورجال الخدمة من المصريين والذين كانوا يعملون مع المندوب السامى أو من أجله.

وانتهت الجولة الأولى بين الوفد وبريطانيا فى عام ١٩٢٢، عندما هالها الإرهاب وعدم مرونة سعد زغلول وعناد إليود جورج فى التخلي عن الحماية، وتشرشل والنبى، حينما طالب زغلول وقيادة الوفد بإجراءات أكثر لإعطاء مصر حرية كاملة من القيود البريطانية، ومر عام من التشاحن؛ حيث تم نفي سعد زغلول، وظهرت روح جديدة من النضال فى عام ١٩٢٤ بخصوص امتلاك السودان، ومرة ثانية أظهرت بريطانيا عضلاتها، وكانت الحكومة الليبرالية مستعدة لأن تظهر للناخبين أنها هشة ورفضت حتى إقرار تغيير وضع السودان.

وأخيرا جاء مصرع السير لى ستاك الحاكم العام للسودان فى شوارع القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ لتنتهى سياسة اللنبى، وصار الثور متوحشا، واتهم زغلول والوفد بأنهم القتل، وطالبت بريطانيا بشروط مهينة من مصر وهددت باتخاذ إجراءات أخرى وقتل الرهائن إذا استمر العنف السياسى، وكان هذا كثيرا على حكومة منتخبة حديثا لستانلى بولدين، والتي استدعت اللنبى وعينت مكانه اللورد إليود الاستعماري الذى يميل إلى العنف ومعه (تكنيك) أعظم.

لقد وضع إليود حكما بريطانيا مثاليا فى مصر، وهو، كرومانسى من الحزب الثوري، تصور أن الفلاح رجل قوى القلب وشخص وديع، وهو من داخل قلبه يعرف أن البريطانيين كانوا أصدقاءه المخلصين، لكن خدعهم الثائرون الأشرار، وأن الكثير مما تحقق من خلال الإشراف البريطانى على

الحكومة المصرية، وحتى اليوم يستخدم المصريون تعبير "الممر الإنجليزي: - English Path - ليدل على طريق السير بأمانة وعدالة^(١٥).

وخشى إليود وبدون أية أسباب، أن شكل الحكومة الذى تأسس عام ١٩٢٢ سوف يعيد إلى الخلف أيام ما قبل ١٨٨٢، لهذا السبب لم يكن الرجل (Cutting Losses) ويرفض الاختفاء خلف القيمة الأخلاقية التى هى سياسة تقرير الحكم الذاتى والتى ظهر أنها خداعة^(١٦).

وفى عام ١٩٢٩ سحبت حكومة العمال الجديدة إليود، وهو رجل يبدو أن أفكاره تنتمى إلى عصر آخر، وأرسلت دبلوماسيًا محترفًا كمنسوب سام.

وانسأقت للعبة بين بريطانيا والوفد إلى ما بين أعوام (١٩١٩ - ١٩٣٥) وتم عقد ثمانية مؤتمرات رسمية لتسوية مسألة السيادة العليا فى مصر دون نجاح، وخلال نفس الفترة كانت هناك عشرون حكومة مختلفة، لكن الوفد لم يخرج بعيدًا عن السلطة.

وفى عام ١٩٣٥ تنظيم موجة جديدة من المظاهرات الشعبية والاضطرابات التى كان لا بد من اتخاذ إجراءات جديّة ضدها أكثر من السابقة؛ لأن وضع بريطانيا فى مصر صار تحت تهديد خارجى، ودعم مؤسولين قبضته الوحشية على ليبيا وأحلامه عن بحر أبيض متوسط؛ بحر لهم، وأيضًا طموحاته الحديثة فى الحبشة، فكان من الضرورى على بريطانيا أن تحل المسألة المصرية، وإذا فشلت فى القيام بذلك، وحدثت أزمة بين بريطانيا، وإيطاليا فإنه من المستحيل أن تقاوم من ليبيا وفى نفس الوقت تحتل مصر، وكانت القناة نهم أكثر من الكرامة والوقار، وكانت النتيجة توقيع معاهدة بريطانية مصرية فى عام ١٩٣٦، وهى التى أعطت لتاريخ السبعين عامًا الماضية انتصارًا دبلوماسيًا، واكتفت بريطانيا بحمايتها وقواعدها الجوية

فى مصر؁ واستمرت فى التمتع بالتسهيلات الملاحية فى الإسكندرية؁ ودخلت فى تحالف مع مصر التى حصلت على استقلالها التام؁ وصار للسفارة البريطانية مقر فى القاهرة وصار المندوب السامى السير مايلز لامبسون أول سفير بريطانى فى مصر منذ ١٨٨٢؁ وأثبتت الشهور التى أعقبت اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أهمية مصر فى نضال إنجلترا ضد قوى المحور؁ وفى سبتمبر ١٩٣٩ رفضت الوزارة المصرية إعلان حرب ضد ألمانيا؁ ولكن ادعت أنها سوف تلتزم بشروط المعاهدة وتقدم المساعدة لبريطانيا؁ وخلال الشهور القليلة التالية كانت مصر على الحياد؁ ولكن انقطعت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا؁ وتمت مصادرة الممتلكات الألمانية؁ وواصلت بريطانيا سياستها فى تحويل مصر إلى قاعدة أساسية للدفاع عن القناة والشرق الأوسط كله.

وارتعدت الحكومة المصرية عندما دخلت إيطاليا الحرب فى يونيه ١٩٤٠ وقطعت العلاقات الرسمية بها؁ حول احتكار لستين ألفاً من المجتمع الإيطالى القوى فى مصر؁ وشك لامبسون - وله أسباب وجيهة فى ذلك - وفى أن الحياد الكريم كان واجهة؁ وأن الملك فاروق والكثيرين من المقربين إليه يتمنون انتصار المحور؁ وكان فاروق قد صار ملكاً فى عام ١٩٣٩؁ وهناك من الأسباب ما يدل على أنه ربما ينتهج سياسة والده؁ وأن ينسحب من الخط البريطانى لأنه كان قد تربى كضابط فى سندهرست (Sandhurst) حيث من المأمول أن يكون قد امتص القيم البريطانية؁ ولكن كان عام ١٩٣٦ عامًا سيئًا للملك وورث فاروق عدم انسجام والده مع الوفد؁ وآماله فى أن يكون مركز اهتمام شعبه وآماله الوطنية؁ وكان الملك المتوقع أن يكون وطنياً؁ جامعاً لكتابات الصور الداعرة؁ وكانت له أكبر مجموعات منها فى العالم؁ وكان يطارد النساء؁ ومدمن شراء السيارات؁ وكشف تصرفه السريع أثناء الحرب أن ارتباطه ببريطانيا هش مثل طبعه الأخلاقى؁ واعتقد مع عدد كبير من

قيادات الجيش والوزراء أن بريطانيا ستخسر الحرب^(١٨)، وهو رأى مفهوم بسبب الخسائر التى عانت منها بريطانيا خلال عامى ١٩٤٠ و ١٩٤١ فى الصحراء الغربية واليونان وكريت، وكان المصريون العاديون منزعين من الغزو وقاذفات قتال الغارات التى أحياناً عانت منها القاهرة فى عام ١٩١٧ ووجدت الطبقات العليا فى الفاشية والنازية أفكاراً جذابة^(١٩).

وفى نهاية عام ١٩٤١ اضطر لامبسون إلى الاختيار بين الأعظم والأقل شراً فاروق أم الوفد، وكان فاروق متأرجحاً أكثر وأكثر ناحية المحور، ولا يمكن الوقوف معه، وقرر لامبسون أن الوقت قد حان إما أن يدوس عليه أو يعزله من منصبه.

وخلال ليلتى الثالث والرابع من فبراير ١٩٤٢ اقتربت سرّاً قوة من البريطانيين والنيوزيلنديين وقوات جنوب أفريقيا حاملة بنادق آلية من قصر عابدين وحاصرته بينما اندفع عدد من الدبابات إلى ميدان عابدين، وفى الساعة التاسعة صباحاً دخل لامبسون القصر وقدم للملك فاروق المندesh وثنائى بتعيين النحاس باشا رئيساً للوزراء، وطلب من الملك أن يوقع عليها، وكان فاروق قد استجاب بتردد شديد، كما ادعى أنه احتج بقوة، وعلل ذلك بأن الورقة التى قدمت إليه كانت مكسورة وقرنة وحقيرة، بل إهانة إلى كرامته الملكية، وبعد ذلك انتشرت الشائعات أن دبابة قد اقتربت وأخذت تضرب بوابات القصر، وأن اثنين من المرافقين للامبسون من جنوب أفريقيا قد رفعوا المسدسات على الملك الغاضب.

ولقد حافظ لامبسون على الأمن فى مصر كقاعدة للعمليات البريطانية، وقد فاق هذا الهدف كل الاعتبارات الأخرى، وكان مستعداً لعزل فاروق إذا ثبت أنه مكابر وعنيد، لكن هذا الاستعراض للقوة قد أزعج وأفرع

المصريين، وذكرهم أنهم لا يزالون شعبًا ضعيفًا يستطيع البريطانيون أن يفعلوا معهم ما يشاءون^(٩).

ولكن ما الحيلة الآن، وماذا يمكن عمله والكارثة قد حلت عليهم؟ وتسائل عبد الناصر وهو الآن ضابط صغير في الجيش: إذا عاش المصريون الذين كانوا على استعداد لمحاربة الاستعمار، الذي سوف ينسحب مثل المرأة الباغية؟

برغم هذا فقد استمرت مظاهرات شعبية في المعارضة، لكن عدم الانتقام في وقتها قد ترك أثرًا عميقًا لقد كان لهذه الحادثة تأثير جديد على روح الجيش ومشاعره وأنفسنا" كما يذكر عبد الناصر؛ ومن ثم لم يتحدث الضابط عن الفساد واللذة، ولكن عن التضحية واستعدادهم لبذل أرواحهم فداء لإنقاذ كرامة وطنهم^(١٠).

(٩) هذا كلام المؤلف وهو عكس الحقيقة. (المراجع).

(٤)

السيادة العليا فى الشرق الأوسط

(١٩١٩ - ١٩٤٢)

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بخمس سنوات بدأت المستكشفة جيرترود بيل مراسم الحج إلى الشرق الأوسط، فقد كانت تريد اكتشاف أهمية آسيا من أجل تحقيق الثورة، وبعد عامين من التجوال فى سوريا والعراق القديمة توصلت إلى أن الإخاء والمساواة تمثلان أهم المفاهيم فى المنطقة التى تضم العديد من الأجناس والديانات المختلفة، ولكن غياب تحمل المسؤولية من إنجلترا وألمانيا كان يمثل أهم العقبات التى واجهت شعوب الشرق الأوسط التى اعتمدت على بعض أشكال الديمقراطية^(١).

تتضح الاختلافات فى الأحداث بعد عام ١٩١٨ من رأى هذه المستكشفة الذى أشار إلى الأوضاع، وكذلك العقيد جونوارد زعيم حزب العمال ومؤسس نقابة المهن البحرية؛ نظراً إلى وجوده فى السودان عام ١٨٨٤ عندما أعلن إلى مجلس العموم البريطانى عام ١٩٢٢ أهمية الأفكار السياسية الأوربية المسئولة عن الكوارث العديدة لهذه الشعوب الشرقية، وتصورات عامة حول صورة الفلاح الهندى الذى لا يختلف عنه فى كولومبيا، والذى ينتمى إلى الطبقة العاملة فى الدولة^(٢). بينما المثاليات التحررية تمكنت من تحقيق قدر من الرخاء ومن تحديد مصير الشعوب الشرقية^(٣).

الأحداث العديدة على مدى أربع سنوات أشارت أن حكومة لويد جورج كانت تضم العديد من الرجال الذين اكتسبوا العديد من الحقوق والامتيازات التي تمكنت من تحديد الأوضاع المستقبلية في الشرق الأوسط.

يشير التجاهل العام للواقع إلى هذه الدبلوماسية من جانب الحكومة التي اعتمدت على سياسة العداء والإمبريالية التوسعية والعمل على ضم الدول المجاورة، يتضح من جهود وزير الخارجية كارسون الذي كان في الستينيات والذي كان يسعى إلى تحقيق الأمن في الهند، في حين أنه في نوفمبر ١٩١٨ فإن تركيا وروسيا قد أصبحتا عدوتين لبعضهما، في حين كان بريطانيا كان لديها أكثر من ثلث مليون من الجنود الموزعين في الشرق الأوسط خلال هذه الفترة وفي سوريا وفلسطين المحتلة، مع وجود عشرة آلاف من المحاربين في إيران من أجل حماية آبار البترول والأملاك البريطانية في السواحل الجنوبية لبحر قزوين، إلى جانب العديد من القوارب المحملة بالأسلحة في هذا البحر، وكذلك في شرق تركيا مع وجود العديد من الوحدات التي تضم القوات الهندية والبريطانية في الحاميات، والتي تعتمد على خطوط السكك الحديدية، إلى جانب السفن الحربية البريطانية في البحر الأسود والقسطنطينية التي كانت تخضع إلى النفوذ البريطاني.

إن النفوذ البريطاني هو الذي أتاح كارستون تحقيق حلمه؛ حيث إن بريطانيا كان عليها توفير المعبر الأمن من قناة السويس إلى حدود الهند في وسط آسيا، وكذلك العمل على إبعاد الروس من إيران وأفغانستان، هذه الإمبراطورية التي قويت نظراً إلى التوسع في الأراضي ومن خلال الاتصالات التي اعتمدت على قناة السويس والرحلات بين القاهرة والهند في بداية ١٩١٩، بينما شهر نوفمبر فإن روثميس قد سافر على رأس عدد من السفن الحربية من إنجلترا إلى أستراليا عن طريق مصر والهند وسنغافورة،

وفى منتصف الرحلة فإنه تردد على جنوب فلسطين والعراق وإيران، وبعد عدة سنوات فإن هذه المنطقة شهدت شق الطرق البرية بين دمشق وبغداد.

تحولت توقعات كارسون عن الأوضاع فى الشرق الأوسط إلى كابوس؛ حيث إن هذا الجيش العريق فى المنطقة خلال نوفمبر ١٩١٨ كان يضم المتطوعين والمجندين الذين شاركوا فى الحرب ضد ألمانيا وتركيا وليس من أجل توسع الإمبراطورية، وفى النصف الأول من عام ١٩١٩ عاد هؤلاء الجنود إلى الديار بعد أداء هذه المهمة، فى حين كان على الحكومة البريطانية أن تحصل على مزيد من الرجال من أجل المهام الأخرى بين ١٩١٩، ١٩٢٠ من أجل الحاميات فى ألمانيا وسيليسيا البلشفيك فى روسيا وإيرلندا وكذلك شمال غرب الحدود مع الهند.

لقد بنى الجنود الذين بقوا فى بريطانيا والذين كانوا يعملون فى المجالات الصناعية مثل عمال المناجم والسكة الحديد حيث إن الهند قدمت ١٨٠ ألفاً من الرجال إلى الشرق الأوسط، وأعلنت عن الشكوى إلى لندن حول تكلفة هؤلاء الرجال على الأمن الداخلى، فى حين أشارت نيوزيلندا إلى أنها ليست لها مصالح فى الشرق الأوسط مع استثناء قناة السويس^(٤). حتى إذا كان من الممكن الحصول على الرجال فإن الحكومة البريطانية لم يكن لديها المال لذلك، وإن الطفرة عام ١٩١٩ والتى جاء بعدها الفساد والبطالة واللتين ارتفعا ٣% عما كانتا قبل الحرب ثم إلى ١٧% عام ١٩٢١ نظراً إلى ارتفاع الديون من الدخول فى الحروب المختلفة، وكذلك من ارتفاع حجم الإنفاق الداخلى الذى بلغ ثلاثين مليون إسترليني، من أجل بقاء بريطانيا فى إيران، الذى اعتمدت فيه على وزارة المالية والدافعين للضرائب إلى جانب تمويل الجيش والوزراء الحاكمين لهذه الجيوش والقائد العام فيليب شيتود الذى أعلن فى أغسطس ١٩٢١ عن التدخل فى شئون الشعوب الأخرى من أجل السلام الإنجليزى^(٥).

كانت المصاريف الخاصة لهؤلاء الجنود في جنوب روسيا خلال العشرينيات الثقّل من أجل الدفاع عن البلشفيك في ربيع هذا العام؛ نظراً للعواقب الضارة على العظمة البريطانية واتخاذ القرار من مجلس رئاسة الوزراء من أجل حل بعض الوحدات في شمال إيران في مايو ١٩٢٠^(٦). بينما أشار كارسون إلى عدد من الكوارث الأخرى من الثورة البلشفية في إيران، كما أن القائد العام إيدmond أيرنسايد كان يُشير بالفضل إلى الشيوعية من أجل إنقاذ الطبقات العليا^(٧).

لم تكن روسيا في الوضع المثالي من أجل الدخول في هذا الصراع نحو الشرق الأوسط، على الرغم من أن الحكومة الشيوعية قد أعلنت عن نفوذ الإمبريالية البريطانية، وفي عام ١٩٢١ أعلنت عن توقيع معاهدات الصداقة مع حكومات تركيا وإيران وأفغانستان.

جاءت مقاومة الطموحات الإنجليزية من الداخل وليس من خارج الشرق الأوسط، وهو الذي يعود إلى طبقة النبلاء في بريطانيا الذين كانوا يرون هذه المنطقة على أنها تبدو مثل أفريقيا في القرن الماضي، والتي يمكن تقسيمها من أجل سهولة غزوها، بينما أصبحت الحركة القومية التي استيقظت عند نهاية الحكم العثماني قوية نتيجة تشجيع بريطانيا للدول الأخرى من أجل الدخول في الحرب.

كانت الاضطرابات التي أصابت القومية العربية تمثل أحد أبعاد سياسة بريطانيا في زمن الحرب في الشرق الأوسط، واتضح ذلك من اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ من أجل تقسيم المنطقة إلى الأملاك الفرنسية والإنجليزية، وكذلك وعد بلفور عام ١٩١٧ من أجل إقامة دولة اليهود في منطقة فلسطين البريطانية، إلى جانب التفاصيل التي أعلن عنها الرئيس ويلسون في ١٤ نقطة التي توضح سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط؛ وهي

التي تختلف عن معاهدة سايكس المعروفة للعرب، وأن فرنسا وبريطانيا كان عليهما التخلي عن طموحات الإمبريالية في الأيام الأخيرة من الحرب، عندما أعلنت هذه الحكومات عن تطبيق مبادئ ويلسون عن الإمبراطورية العثمانية وكذلك الأكراد الذين أعلنوا الترحيب بالإنجليز، والجنود لأنهم يمثلون المحاربين المنقذين عام ١٩١٨، وإن القائد الشيخ محمود البرتاني كان يؤيد المعاهدة الإنجليزية الفرنسية من أجل تحويل هذا الشعب إلى الأمة العريضة وخلال ستة أشهر ظل مشغولاً في دولة الأكراد التي تقع شمال العراق.

اعتمدت كردستان المستقلة على الحكومة الذاتية داخل العراق، وبحيث إن العقيد أرنولد ويلسون، الذي كان يمثل البطل العسكري السابق والذي يؤيد الفاشية، كان يرغب في استقلال العراق عن الهند نظراً إلى وجود العديد من المهاجرين الهنود^(٨). وفي مايو ١٩١٩ أصدر الأوامر من أجل القضاء على مقاطعة الأكراد من خلال الاعتماد على القوات البريطانية والهندية، ولكن حركة المقاومة الكردية قد تمكنت من مواجهة هذا الاعتداء، وبحيث إن المسؤولين قد استفسروا من تشرشل وزير الحربية حول استخدام الغازات السامة^(٩). وقد وافق على ذلك، ولكن لم يتم استخدامها، وفي أقل من عام فإن بريطانيا قد أعلنت عن روح التعاون والود حتى تكفي الأطماع العديدة في هذه المنطقة.

وفي ديسمبر ١٩١٨ فإن التجارة بين الرئيس الفرنسي كليمانصو وإليود جورج في شمال العراق كانت تعتمد على نقل البترول من الآبار؛ حيث إن فرنسا تحصل على ربع الكمية في سوريا ولبنان، وفي شتاء ١٩١٨ فإن القوات الفرنسية بدأت في الرحيل عن بيروت، كما أن القوميين العرب أشاروا إلى الأمل في معاهدة فرساي ومبادئ الرئيس ويلسون على غرار

القوميين في مصر، الذين أشاروا إلى الخلاف في الرأي مع بريطانيا التي لم تكن لها مصلحة في سوريا ولبنان اللتين كانتا تخضعان للحكم الفرنسي بناء على قرارات الأمم المتحدة، مع اعتبار الجزء البريطاني في فلسطين والعراق، ويتضح ذلك من العلاقة بين هذه الدول العظمى في تقسيم هذه الأراضي، بناءً على قرارات الأمم المتحدة، والواجب المطلوب منهم في حماية الرعايا الإنجليز والفرنسيين في هذه الدول العربية، إلى جانب الاتفاقات التي جرت في مايو ١٩٢٠ في سان ريمو في الشرق الأوسط.

لم يكن لدى القوميين العرب إيمان في هذه الإمبريالية المستتيرة التي أدت إلى انحصار دورهم، وبحيث إن الأمير فيصل الهاشمي الذي كان في صف الحلفاء قد وقع في الاعتقاد الزائف بأنه سوف يحصل على مكافأة في إقامة مملكة سوريا التي حصلت على الاستقلال عام ١٩٢٠، وأن هذا الإجراء أدى إلى غضب القوميين العرب في القدس وكذلك الأعضاء في جيش فيصل، والذي أدى إلى أحداث الشغب في العديد من المدن العربية التي أعلنت عن رفض وعد بلفور والهجوم الجماعي على اليهود والرغبة بـبين الدول العربية في استعادة فلسطين وطرد اليهود منها^(١٠).

جاءت الثورة العربية التالية في العراق بعد هذه الأحداث وبناء على توقيع معاهدة سان ريمو، وخلال شهر مايو الذي كان يوافق رمضان فإن القادة من الشيعة والسنة انضموا إلى القوات في الجيش الهاشمي التابع إلى الملك فيصل من أجل الاحتجاجات العامة ضد الحكم البريطاني،^(١١) والتي تحولت إلى الثورة الأهلية في بداية يوليو؛ حيث إن المسئول السياسي البريطاني قد اعتقل الشيخ المسئول عن هذه المقاومة العربية، في حين تمكن النظام السياسي لويلسون من استعادة المصاريف التي ذهبت على الجنود الذين تدخلوا في هذه الحرب. وقد أدت أعمال الدعم والتحصينات في الهند

إلى إعفاء الجنود التابعين للشيخ، والذين كانوا يحصلون على مائة روبية تعادل ١٦ جنيهًا إسترلينيًا^(١٢).

فى شهر سبتمبر كان القائد العام إلمار هودين اكتسب اليد العليا، على الرغم من أنه كان يائسًا من الحصول على الغازات السامة^(١٣) من أجل استخدامها فى الحرب، ولكنه لم يكن فى حاجة إليها، حيث إن الحكومة البريطانية قدمت إليه الأسلحة الأخرى والقوات، وفى نهاية هذا العام صدرت الأوامر من القيادة العليا من أجل اتباع التكتيك الحربى؛ حيث كان مساعد وزير الحربية سعيدًا؛ نظرًا إلى المشاعر القومية من الشعب البريطانى من الأعمال الوحشية من السود فى إيرلندا، ولكنه لم يشر إلى الأحداث الجارية فى العراق^(١٤).

أعلن الجمهور والصحافة ومجلس العموم البريطانى عن السياسات الحكومية فى الشرق الأوسط التى لم تحقق الأهداف المطلوبة منها، وأدت إلى ضياع الأموال الضخمة والأرواح؛ حيث إن الإدارة الهندية للعقيد وىلسون كانت المسؤولة عن تدهور الأوضاع؛ حيث إن العراقيين قد وجدوا أن دورهم منحصر من جانب الضباط الذين تدخلوا فى جميع الشئون، وإن الاعتماد على التكنولوجيا الحديثة أتاح للفرنسيين القضاء على العرب فى سوريا وتكمن الإنجليز من القضاء عليهم فى القدس والعراق، وكان من المستحيل التصدى لهذه المخاطر باستخدام الغاز السام ضد القبائل العربية، نظرًا إلى خوف فرنسا وإنجلترا من إثارة الغضب العالمى من استخدام هذه الأسلحة غير المشروعة فى الحرب على العرب فى هذه المدن العربية.

أشار لورانس عام ١٩٢٠ أنه سوف يجرى الحملة الصحفية التى يعلن فيها عن حق العرب فى تقرير المصير واتخاذ القرار والحكم الذاتى، والإعلان عن القبر من الإمبراطورية البريطانية، وكذلك استياء العراقيين

من الحكم البريطاني، والإعلان عن الميزانية من أربعين مليون إسترليني من أجل حرب العراق، وفي بداية ١٩٢١ فإن المجلس الحربى التابع إلى تشرشل شارك فى المفاوضات حول الاستيطان، ومن أجل العمل على خفض هذه التكاليف العسكرية، وذلك من خلال مؤتمر القاهرة فى مارس ١٩٢١ فإن التحالف فى زمن الحرب بين السعودية وبريطانيا قد تجدد مرة أخرى حيث حصل فيصل على عرش العراق مع أخيه عبد الله، وذلك من أجل إقامة المملكة الأردنية الهاشمية التى كانت تضم الضفة الشرقية لنهر الأردن، وكان الملوك فى هذه الدول قد حصلوا على المشورة من المسؤولين الإنجليز من أجل الانتداب البريطانى على فلسطين وتحقيق الأمن الداخلى لليهود فى فلسطين، إلى جانب الحفاظ على الأجناس الأخرى من الزواج والجنسيات الآسيوية.

كان السلام بين العراق والأردن يعتمد على الرقابة الجوية وعلى الأوامر الصادرة من تشرشل ولورانس وليو إمري القائد العام للقوات الجوية، مع استخدام الطائرات الحربية فى حفظ السلام فى السودان وفى الحدود الشمالية الغربية، وبحيث إن هزيمة المهدي عام ١٩٢٠ جاءت بعد قصف المواقع الحصينة فى السودان، والتكلفة الإجمالية لهذه الغارات بلغت سبعين ألف جنيه إسترليني وهى التى تمثل الحرب القصيرة والرخيصة.

اعتمد ملوك الأردن والعراق على المدرعات والطائرات الحربية المقدمة من بريطانيا، إلى جانب الكتائب من الجنود الإنجليز، وأدت الاضطرابات الناتجة عن أعمال القصف إلى القضاء على أعداد كبيرة من الأرواح والمواشى فى قرى المملكة، وفى ديسمبر ١٩٣٨ حصل المقيمون فى المنطقة الشمالية الغربية على تعليمات عن مواعيد هذه الغارات؛ وذلك من أجل الاختباء فى المغارات التى كانت تعتمد أيضاً على القوات البرية

فى المواقع الخفية^(١٥)، والتى أدت إلى هذه الغارات على العراق خلال الفترة بين (١٩٣٠ - ١٩٣٢) من أجل منع القرويين من المقاومة الشعبية، ومن خلال هذه الغارات التى اعتمدت على النقل الجوى، وكذلك على عدد من الاحتياطات فإن الرقابة الجوية قد تمكنت من خفض حجم الميزانية الحربية التى أدت إلى الجدل بين المسؤولين عن هذه الحرب فى الاعتماد على الأساليب الحربية والتكتيكات من أجل هذه الغارات التى انتهت إلى إبراز دور الأبطال فى هذه الغارات الدولية^(١٦).

شهدت الفترة التالية سياسة الحرص والحظر وتوقيع العقوبات الدولية والجهود المبذولة من أجل الوقاية من وفاة المدنيين، وكذلك الحملات التى تهدف إلى توقيع العقوبات على قتل المدنيين والمواشى وأعمال الدمار الشامل، إلى جانب الخصوم المعارضين للرقابة الجوية، والذين يشملون الجنود والفنيين فى الإصلاح الفنى للطائرات، والعقيد فرنسيس همفرى المسئول عن تطبيق السياسة الإنجليزية عند الحدود الشرقية الشمالية الذى اكتشف أن الرقابة الجوية سوف تؤدى إلى ارتفاع عدد الضحايا، إلى جانب الأعمال الوحشية ضد زعماء القبائل، وذلك على سبيل الرغبة فى الانتقام.

وكان عدم الاعتماد على القواعد المشروعة فى الحرب من جانب بريطانيا^(١٧). التى كانت تمارس الأعمال الانتقامية ضد زعماء القبائل من خلال الغارات الجوية على العراق، وبعد عدة شهور من المؤتمر أصدر تشرشل خطاباً رسمياً يوضح فيه وصفاً عاماً للغارات الجوية، ويشير إلى مقتل النساء والأطفال فى القرى المختلفة من العراق^(١٨). ويشير أن هذا الشعب قد خرج من الدرس المستفاد من هذه الوقائع، مع استبعاد القائد الجوى جون سالمون الذى تمكن من الرقابة الجوية على العراق بين (١٩٢١ - ١٩٢٥) وأشار إلى الفضل فى هذه الرقابة الجوية من أجل لم شمل زعماء القبائل، من خلال المقاومة الشعبية ضد الغارات البريطانية^(١٩).

كان الاستقرار السياسى فى العراق، والاعتماد على طائرات سالمون مصيرياً فى التصدى إلى الغزو التركى من الموصل فى شتاء ١٩٢٢، وإن هذا الهجوم يعيد إلينا الفكرة عن حكومة لويد جورج التى فشلت فى الاستيلاء على تركيا، وبين (١٩٢٠ - ١٩٢٣) فإن التشجيع المقدم إلى الفرنسيين والإيطاليين واليونانيين من أجل الحصول على أجزاء من آسيا الصغرى كان يواجه القوات الكبيرة من أتاتورك، وقد جاء الدور على بريطانيا فى خريف ١٩٢٢ عندما قاد هذا الزعيم التركى إلى التحول إلى القوات الإنجليزية على الساحل الآسيوى فى الدردنيل، ولكن على الرغم من هذه الإجراءات كان مجلس رئاسة الوزراء قد أعلن عن الرغبة فى البقاء عن تركيا التى التمسست المساعدة من جميع الدول مع استثناء نيوزيلندا.

كان حزب المحافظين يرفض هذا التحالف، حيث إن لويد جورج قد تخلف عن منصبه مع بقاء القوات البريطانية فى الأراضى التركية خلال فترة قصيرة، وهو ما أدى إلى القلق العام وانخفاض الموارد البشرية والمالية من أجل الجنود المحاربين، بحيث اضطرت بريطانيا إلى التخلي عن هذه الطموحات، وبعد عام ١٩٢٢ فإن المجد البريطانى كان يعتمد على الماضى القديم، وإن الاتفاقية مع تركيا فى مدينة لوزان فى سويسرا خلال فبراير ١٩٢٣ أتاحت إلى الموصل فى العراق أن تحكم نفسها، بينما أتاتورك قد خالف وعده عام ١٩٢٥ عندما اعتمد على تعديل الخطة الموضوعة من أجل الحفاظ على الموصل فى العراق، والاعتماد كذلك على القوات البحرية والجوية التى تهاجم المضائق والحفاظ على آبار البترول فى الموصل والعراق^(٢٠).

احتياطى البترول فى الشرق الأوسط لم يكن يمثل العامل الأساسى فى الشؤون الدولية بعد عام ١٩٤٥، وخلال العشرينيات؛ فالولايات المتحدة

والمكسيك كانتا تتجان أربعة أخماس البترول في العالم؛ بحيث إن المعاهدة الكبرى كانت تستهدف الاستهلاك المحلي الأمريكي، ومع ارتفاع حجم الطلب قبل عام ١٩١٤ من أجل التحضير للتعامل مع إيران والعراق، فإن الحكومة الفارسية قد منحت الشركة الإنجليزية الفارسية للبترول، الامتياز الذي يشمل نصف مليون ميل مربع، والذي ينتهي عام ١٩٦١، وأعمال الحفر والتنقيب عام ١٩٠٩ أدت إلى إقامة محطة تكرير الوقود في جزيرة أبادان، وإن حجم الإنتاج بلغ ٧٥ مليون برميل عام ١٩١٩ و ٧ ملايين عام ١٩٣٤، وفي أوقات السلم فإن هذه الآبار كانت تعتمد على السياسة الحسنة من الحكومة الإيرانية وقدرتها على الحفاظ على السلام الداخلي، والتي كانت تعتمد على بهلوى الذي حصل على الاعتماد من بريطانيا، والذي تمكن من حركة انقلاب عام ١٩٢٠، وجعل نفسه شاه إيران بعد خمس سنوات؛ حيث اعتمد على الجيش الخاص الذي تمكن من تكوينه من خلال التعاون مع أصحاب المصالح الأجنبية، إلى جانب الحقول البترولية في كركوك عام ١٩٢٧، والذي اعتمد على الشركة التركية للبترول التي حصلت على التوكيل من فرنسا وبريطانيا وأمريكا من أجل إقامة أنابيب البترول التي تمتد من ميناء حيفا في فلسطين حتى الحدود العراقية.

كان بترول العراق يخضع للإمبراطورية البريطانية، وفي عام ١٩٣٠ فإن بريطانيا قد تخلت عن الانتداب، وحصلت العراق على الاستقلال، ولكن كانت تخضع للرقابة من الأعمار الصناعية البريطانية، بحيث إن بريطانيا كانت تعمل على تجهيز الجيش العراقي من أجل الاستعداد لأوقات الحرب، وأدت المعاهدة الإنجليزية العراقية التي تعادل الاتفاقية المصرية الموقعة بعد ٦ سنوات إلى السخط القومي.

تعمل هاتان الاتفاقيتان على تقديم الضمان إلى بريطانيا من أجل ممارسة النفوذ في الشرق الأوسط، حتى على الدول التي حصلت على الاستقلال والتي تضم المصالح البريطانية، وإن بريطانيا لم تتمكن من تمهيد الطريق نظراً إلى أحداث العصيان المدني في مصر عام ١٩١٩، والشرق الأوسط، التي قد أجبرت الحكومة على التوفيق مع القومية العربية، وإن الأحداث المختلفة خلال هذه الفترة قد أشارت أيضاً إلى الوعي السياسي لدى العرب في بريطانيا؛ حيث إن إدوار عطية اللبناني الذي أقام في الإسكندرية قد أعلن عن أن رجال التجارة والاستثمار كانوا يعتقدون في الشرف البريطاني والنزاهة والعدالة، ولكن الدبلوماسية الإنجليزية الفرنسية في أوقات الحرب وخلال معاهدات سايكس بيكو... ويمثل وعد بلفور ومؤتمر سان ريمو الصدمة لرجال التجارة^(٢١).

إن الذي زرع إعجاب عطية (Atiyah) واحترامه لبريطانيا هو سلوك ممثليها، وكان خجولا من زملائه البريطانيين في كلية غوردون في الخرطوم؛ حيث كان مدرسا في منتصف العشرينيات. وإن الحاكم العام عندما زار هذه الجامعة كان يعمل على تفقد الأوضاع من أجل التعرف على مشاعر العرب تجاه بريطانيا، وكان يدافع عنها، عندما أشار إلى الإصلاح التجاري والاقتصادي والتعليمي، ولكن أشار إلى استحالة مواجهة الشكاوى من السودانيين والمصريين والعرب حول أعمال الإهانة من الإنجليز، وهو الذي يشير إلى ضرورة الشراكة والتعاون والمساواة بين جميع الأجناس والحكام^(٢٢). حيث إن القراء الذين يتعرفون على خطة لورانس ورواتبه أعمدة الحكمة السبعة، سوف يدركون وجود العديد من الرجال والقوميين العرب مثل عطية الذين حصلوا على التعليم الغربي والذين يرون أنفسهم على قدم المساواة مثل الأوروبيين.

لورانس كان يُشير إلى العرب الذين لم يتأثروا بالمؤثرات الخارجية، والذين يعتمدون على الحياة التقليدية والقيم القومية من البدو، إلى جانب النظام الاجتماعي الطبقي الذي يعتمد على التسلسل الهرمي؛ بحيث إن هذه الحياة القبلية قد استمرت وهي غير ملوثة بالطبع البريطاني في منطقة الخليج العربي خلال القرن العشرين، مع وجود العديد من الشيوخ الذين يحكمون هذه المواقع ويحصلون على المعونات الإنجليزية والصداقة مع بريطانيا، ولكن عندما قام الزعماء القبليون السعوديون بتهديد حدود الكويت عام ١٩٢٩ من خلال استخدام عدد من الطائرات التي دخلت من العراق عاد الغزاة بسرعة، وهذا الأسلوب في الحياة هو الذي يتضح من وجود جيل من القادة الإنجليز مثل العقيد فريدريك بيك القائد العام للكتيبة العربية الأردنية، الذي أعلن عن تقرير إلى العرب يُشير فيه إلى الوصف الخاص عن المصالح البريطانية في الأردن وعمان ودول الخليج العربي.

الإرادة الحسنة - من جانب العرب خاصة بعد عام ١٩٣٦ مع احتكار بريطانيا للسلطة في الشرق الأوسط الذي كان يعاني من الضغط؛ حيث إن إيطاليا كانت تسعى إلى السيطرة على البحر الأبيض وشرق أفريقيا مع ظهور موسوليني وهتلر وإجراء العديد من الترتيبات الدبلوماسية، أدت إلى إعادة اهتمام بريطانيا لمنطقة الشرق الأوسط.

كان لهتلر تأثير على الشعوب في الدول العربية المختلفة؛ حيث كان يمثل نموذجًا للقوة والنفوذ؛ بحيث إن الشعوب كانت ترى فيه صورة البطل كما في الأفلام الأمريكية القديمة، ويمثل على نموذج الديكتاتور الألماني من وجهة نظر الشعوب البسيطة، والتي تراه المنقذ من الدول المعادية في الحرب العالمية الأولى والثانية، خاصة بعد أن تمكن من تحرير العديد من الدول من النفوذ البريطاني، ولكنه لم يحصل على نفس هذا الرأي الإيجابي في إنجلترا نظرًا إلى العداء القديم والمعروف بين بريطانيا وألمانيا^(٣٣).

هذا الكلام من الممكن أن يكون مبالغاً فيه، فما كان مهماً بحق هو أن انتصارات موسوليني وهتلر في الفترة بين عامي (١٩٣٦ - ١٩٣٩) تزامنت مع محاولات بريطانيا قمع الثورة العربية في فلسطين. وقد يكون من الصعب المبالغة في تقدير أثر أحداث فلسطين على الرأي العربي؛ فقد أصبحت الثورة ومحاولات بريطانيا لإخمادها بؤرة اهتمام العرب القوميين في الشرق الأوسط. وقد مثلت فلسطين العقم العربي وتبذل الإنجليز تجاه مشاعر العرب، ولم يكن هناك ما يدعو للمفاجأة عندما اعتبر العرب بشكل تلقائي، أعداء بريطانيا العالميين أصدقاء لهم.

أدى الوضع المعقد في فلسطين إلى إرباك الحكومات البريطانية التالية وإغضابها، حيث كان الوضع كذلك غالباً عندما وجدت بريطانيا نفسها مسئولة عن مقاطعة مقسمة عرقياً ودينياً، وكانت المشكلة هي كيف يمكن موازنة الحساسيات والمصالح بين الفرق المتنازعة. ووفقاً لإعلان بلفور؛ تعهدت بريطانيا بالترحيب بالمهاجرين اليهود إلى فلسطين. وبهذا؛ تحالفت مع حركات الصهيونية العالمية التي كانت تبحث عن مأوى لليهود أوروبا. كانت الصهيونية رد فعل عملياً لعداوة السامية برعاية الدولة والكنيسة في الإمبراطورية الروسية وازدياد عدد المذابح هناك. وكانت هناك أيضاً عداوة السامية الخطيرة والتدرجية وغير المصرح بها التي بدأت تظهر في دول من تلك التي تدعى الانفتاح والتتوير مثل فرنسا والنمسا. وبشكل أبسط، قبل عام ١٩١٤، واجه كثير من يهود أوروبا تهديد إنهاء وجودهم دون الاعتماد على الحماية الطبيعية التي تكفلها الدولة لرعاياها. أصبحت الأمور أسوأ أثناء الحرب وبعدها؛ أي بين عامي (١٩١٧ - ١٩٢٢)، حيث عادت إلى الذاكرة أحداث المجازر في منطقتين كانت عداوة السامية فيهما أكثر وأشرس ما تكون: بولندا وأوكرانيا.

كسب الموقف اليهودى دعم العديد من رجال الدولة البريطانيين الإنسانيين والليبراليين مثل بلفور وتشرشل وليو أمرى، وكان الأخيران من أشد مؤيدى الصهيونية بين الحروب. ولكن نشأ من تلك اللحظة، وبما أن وعد بلفور قد تم إعلانه، حدث إحساس من الشك بين العرب، وقد تساءلوا بشكل طبيعى عن الوضع الذى يجب أن يكون عليه اللاجئون اليهود الذين دخلوا فلسطين وعن الأعداد التى من الممكن أن تأتى.

شارك ت إ لورانس - الذى تحول فيما بعد إلى الصهيونية- العرب مخاوفهم وقلقهم تجاه تدفق أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا من الفقراء، على الرغم من ترحيبه بيهود أمريكا وبريطانيا من الطبقة الوسطى المتعلمة، وهى الطبقة التى تعرف عليها فى أكسفورد^(٢٤). كانت أفكاره شائعة؛ حيث عكست عداوة السامية التى وجدت فى بريطانيا فى الحقبة الإدواردية، التى أدى فيها وصول أعداد كبيرة من يهود الطبقة العاملة من الإمبراطورية الروسية إلى زيادة مفاجئة فى العداء تجاه "الغرباء". كان هناك شعور بالاضطهاد بين الطبقات العليا تجاه اليهود الذين انتعشت أعمالهم وتجارتهم، وكانت هناك إحياءات من عداوة السامية صعبة الملاحظة فى أعمال التقليديين الكاثوليكين، مثل هيلير بيلوك وج. ك. تشسترتون. شجعت التوقعات المنزرة عن ارتباطات بين اليهود والشيوعيين وشائعة "بروتوكولات صهيون" عام ١٩١٩ عداوة السامية بين اليمينيين. وفى عام ١٩٢٠ اقترح الكولونيل ريتشارد ماينزهاجن - وهو شديد التأييد للصهيونية- أن معظم إخوانه من الضباط الذين كانوا يخدمون فى فلسطين قد تم تدريبهم بعداوة للسامية، ومن ثم فهم غير قادرين على الحكم بشكل محايد فى تعاملاتهم مع اليهود والعرب^(٢٥).

بالتأكيد كان هناك شيء من الحقيقة في هذا، ولكن أيضا كان هناك الكثير من الرجال المحتكين بالأحداث، وفي وايت هول، الذين كانوا يؤمنون أن الحقوق العربية كانت في خطر وفي حاجة للدفاع عنها. كان المستعمرون اليهود يتمتعون بتمويل جيد، وكانوا يملكون وسائل شراء مساحات كبيرة من الأراضي من أجل مستوطناتهم، التي كان ملاكها يفضلون توظيف رجال ونساء من ذوي جلدتهم. وبدأ العرب يقارنون فلسطين بالجزائر، التي سلمت فيها الحكومة الفرنسية معظم الأراضي المنثرة إلى المستعمرين الفرنسيين والإسبان، وليبيا التي كانت خاضعة لسياسة الاستعمار الخاصة بموسوليني، وكان المستوطنون الإيطاليون يقصون العرب. وبالإضافة إلى هذا شعر الفلسطينيون العرب أن الصهاينة والمتعاطفين معهم كانوا يملكون أن الحكومة البريطانية.

الأهم من ذلك يتمثل في انتصارات هتلر وموسوليني بين ١٩٣٦، ١٩٣٩ التي جاءت مع مشاعر بريطانية من أجل قمع الثروة العربية في فلسطين، ومن الصعب علينا أن نبالغ في تقدير الأثر على الرأي العربي عن الأحداث التي جرت في فلسطين، وجهود بريطانيا من أجل التغلب على النزعة القومية العربية في الشرق الأوسط؛ حيث إن فلسطين كانت ترمز إلى القوة العربية وعدم اهتمام بريطانيا بالحس العربي، وليس من الغريب أن العرب لهم خصوم وأصدقاء من الإنجليز. كانت الأحداث الفلسطينية تمثل العبء على الحكومات البريطانية المتتالية؛ بحيث إن بريطانيا وجدت نفسها مسئولة عن التمييز الديني، إلى جانب المشكلة التي تتمثل في التوازن بين المصالح والأضرار، وفي ظل وعد بلفور، فبريطانيا كانت ترحب بالمهاجرين اليهود في فلسطين، وتحالفت مع الحركة الصهيونية من جانب يهود أوروبا. التي تمثل رد الفعل المنطقي للنزاعات المعادية للكنيسة في الإمبراطورية

الروسية، إلى جانب النزعة المعادية للسامية التي ازدهرت في الدول المتقدمة مثل فرنسا والنمسا، وقبل عام ١٩١٤ كانت هناك أعداد كبيرة من اليهود المهددين من حيث البقاء، والذين لا يمكنهم الاعتماد على الحماية من الدول الأوروبية، والذي أدى إلى تفاقم الأحداث أثناء الحرب التي جرت بين أعوام ١٧ و ١٩ و ١٩٢٢ خاصة مع معاداة السامية في بولندا وأوكرانيا.

انحصرت المعضلة اليهودية في تأييد المسؤولين الإنجليز المتحاربين مثل بلفور، وتشرشل وليو أمري الذين يمثلون أهم المؤيدين للصهيونية بين الحربين العالميتين، كما أن الإعلان عن الوعد أدى إلى تضارب الآراء بين العرب الذين يتسائلون عن وضع اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين.

وكان لورانس الذي تحول إلى الصهيونية يتقاسم الخشية العربية من اليهود القادمين من أوروبا الشرقية، مع أنه كان يرحب بالأمريكان المتعلمين من الطبقة المتوسطة أو يهود بريطانيا.

كانت أفكار لورانس ذات أهمية خاصة؛ لأنها كانت تعكس معاداة السامية في بريطانيا مع قدوم أعداد كبيرة من روسيا، مما أدى إلى العداء نحو الغرباء، ومن بين أبناء الطبقة العليا كانت هناك الفئة التي تتحامل على اليهود من رجال الاستثمار، إلى جانب بروتوكولات صهيون المعلنة عام ١٩١٩، والتي أدت إلى معاداة السامية من حزب اليمين، وفي عام ١٩٢١ فإن العقيد ريتشار مانيرهاجن الصهيوني الشرس كان على اقتناع مثل مجموعة من الضباط في فلسطين، بضرورة معاداة السامية، وكذلك الرأي الخاص في الصراع الطويل بين العرب واليهود.

هناك قدر من الحقيقة في الآراء التي تحدث عنها وايت بول، والذي كان يعتقد في حقوق العرب في الدفاع عن أنفسهم من المستعمرين اليهود الممولين جيدًا والقادرين على شراء مساحات شاسعة من الأراضي؛ وبحيث

تحولوا إلى الإقطاعيين الذين يتمكنون من توظيف العرب في فلسطين؛ حيث إن العرب بدأوا في المقارنة بين أحداث فلسطين والجزائر، حيث إن الحكومة الفرنسية تمكنت من تقديم الأراضي إلى المستعمرين الفرنسيين والإسبان. وكذلك الأوضاع في ليبيا من خلال السياسة الاستعمارية من موسوليني بينما المستوطنون الإيطاليون كانوا يحرصون على طرد العرب من ليبيا؛ بحيث إن عرب فلسطين استشعروا الخطر من الصهاينة الحاصلين على التعاطف من الحكومة البريطانية.

أدى الإحباط والتوتر العرقيين والعنصري إلى اندلاع المظاهرات ضد اليهود في الأعوام ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩، والتي أدت إلى مقتل ٩٠٠ من اليهود؛ حيث إن هذه الأحداث المأساوية قد أعادت الذكرى لدى الحكومة البريطانية التي كان عليها أن تتخذ القرار المصيري من أجل التوازن العرقي بين اليهود والعرب، ولم يكن الوقت كافياً من أجل سد هذه الثغرة؛ نظراً إلى عدم استعداد أى من الطرفين للتفاهم أو الحل الوسط؛ حيث إن ذلك سوف يمثل للعرب التنازل عن الأرض، بينما يمثل لليهود اغتصاب الأرض من العرب مع أنهم ليست لهم نفس هذه الرؤية، ولكن مع ذلك فإن احتلال الأراضي من اليهود كان يشير أن ذلك سوف يمثل المستقبل الدائم الذي يجب على العرب التكيف معه في الطريق نحو إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، بينما المستعمرون اليهود كانوا يرون أنهم الورثة الشرعيون لأرض الميعاد المقدمة إليهم من الذات الإلهية، ويرون أنهم ينتزعون هذا الحق من العرب المغتصبين، وفي عام ١٩٢٢ أصبح من الواضح للجميع أن مستقبل كينيا سوف يتحدد بناء على مصالح الأجناس الأصلية وليس المستعمرون البيض؛ حيث إن الحكومة الإنجليزية كانت ترى أنه من الأفضل أن تنتظر حتى نهاية هذه الأحداث في فلسطين.

هذه الفترة أشارت أن هذه المشكلة سوف تحل من نفسها بسين أعوام (١٩٢٧ - ١٩٣٢) وأن معدل تزوج المهاجرين اليهود قد ارتفع كثيراً، وهو الذي جاء في مصلحة الانتداب البريطاني، على الرغم من ارتفاع المواليد العرب؛ حيث إن عام ١٩٣٣ كان يشهد وجود ٨٠٠٠٠٠ من العرب و ٢٠٠٠٠٠ من اليهود في فلسطين.

أمّا الأحداث في أوروبا فقد تبدلت كثيراً، وهو الذي أدى إلى تغيير النظرة الأوروبية إلى مشكلة فلسطين مع وجود ١٠٠٠٠٠٠ يهودى في ألمانيا، عندما حصل هتلر على السلطة في يناير ١٩٣٣، وبعد خمس سنوات فإن السلطات النازية تمكنت من طرد ١٥٠٠٠٠ من اليهود خارج ألمانيا، وذلك بالاتفاق مع السلطة اليهودية في فلسطين من أجل التيسير من عملية الهجرة؛ حيث إن أعداد اليهود ارتفعت في وجود الحكم النازي مع ضم النمسا عام ١٩٣٨ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ إلى ألمانيا؛ حيث إن النظام النازي كان يعادى السامية اليهودية في أوروبا، وهو الذي أدى إلى انشقاق وإتساع الفجوة واتساعها مع اضطهاد اليهود في بولندا والمجر ورومانيا ودول البلطيق والطرده الجماعى لليهود من شرق أوروبا، كما أن الحكومة النازية عملت على تنظيم لحركات الهجرة والترحيل لعدد ٥٠٠٠٠ من بريطانينا، والحركة الثانية لليهود من شرق أوزبا، التى تمثل هجرة ٧٤٠٠٠ من بولندا إلى فلسطين وبحيث إن ستة الأعوام قد شهدت هجرة ٢١٥٠٠٠ من اليهود إلى فلسطين؛ بحيث إن العدد الإجمالى بلغ ٧٥٠٠٠؛(٢٦).

أمّا الإسلام الذى يتناقض مع آراء الكنائس الكاثوليك والأرثوذكس فقد أعلن عن تسامح المسلمين مع اليهود، ولكن مع ذلك فإن الهجرات الكبيرة لليهود أدت إلى إعلان العرب عن الشروط الصعبة لحركات الهجرة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية؛ حيث إن هذه الاستجابة أدت إلى الثورة

العربية فى أبريل ١٩٤٦، وأدت إلى ضعف الأمن الداخلى فى المنطقة، على الرغم من ١٩١٨ من ثمانى عشرة سنة من الحكم البريطانى، بينما تشير الأوضاع فى الأراضى الجنوبية عام ١٩١٩ إلى عجز الشرطة عن التصدى إلى الكمائن وعمليات القتل والتخريب لوسائل الاتصالات والإضرابات العامة، كما أن الجهود المبذولة من الحكومة كانت ضعيفة؛ بحيث إن الآلاف من القوات لم تتضمن للدفاع عن فلسطين فى سبتمبر ١٩٣٦، وعلى الجانب الآخر فإن جميع العرب لم يعلنوا إلا عن مشاعر التعاطف فقط دون تقديم المساعدة الحقيقية^(٢٧).

الجهود المستمرة من أجل التوفيق كان عليها الاعتماد على المقاييس السلمية، وهو الذى يعكس التخبط فى القرار من مجلس رئاسة الوزراء الذى أدان قصف القرى والقواعد وتطبيق قانون الطوارئ والأحكام العرفية^(٢٨)، بحيث إن اللواء أرثر وانشوب المفوض العام كان يرفض تطبيق السياسة السلمية، وهو الذى أعاق عملية تصحيح الأوضاع أو التفاوض والتفاهم على الحل خلال الأعوام الثلاثة التالية^(٢٩)، فإن الجيش والبحرية والدفاع الجوى قد أعلنوا الحرب على أجزاء عريضة تشمل القدس ونابلس من أجل الرقابة على توسعات العدو، والأمل فى التوصل إلى حل الوسط من خلال الملكية الإنجليزية والحكومة البريطانية التى تجنبت التدخل السياسى، وأدت إلى اشتداد الصراع، كما أن الأعضاء فى مجلس العموم أعلنوا فى سبتمبر ١٩٣٧ عن الالتماس من أجل خفض عدد المهاجرين اليهود، ولكن الجانبين رفضا هذا الحل.

أمّا المشكلات المحلية فى فلسطين فقد أصبحت تمثل الإزعاج الدولى فى بريطانيا، والحاج أمين الحسينى مفتى القدس والمتحدثون العرب الذى عملوا على إقناع رؤساء الدول العربية المجاورة من أجل الضغط على

بريطانيا، إلى جانب الحملة المناهضة للإنجليز من عرب فلسطين والمؤيدين لهم، والتي أدت إلى إزعاج وزارة الخارجية وأنطوني إيدن، والعديد من المسؤولين عن النفوذ البريطاني في العالم العربي.

جاء العداء العربي تجاه بريطانيا في مصلحة بريطانيا وألمانيا اللتين تتنافسان على المواقع البحرية في فلسطين، وبين عام ١٩٣٨، ١٩٣٩ فإن هذه الدول أعلنت عن الأعمال الوحشية البريطانية ضد العرب، وبعض هذه الروايات صحيحة، وتأتى من المصادر العربية خارج فلسطين^(٣٠)، وفي بداية ١٩٣٩ فإن المخابرات الإنجليزية كانت تطارد اثنين من الوكلاء النازيين الذين يعملون على جمع العتاد من أجل القوات الإنجليزية التي تواجه حرب الشوارع العربية، مع وجود الدليل على أن روسيا ترسل الوكلاء من بين العرب إلى موسكو من أجل التدريب^(٣١).

وعلى الرغم من الدعاية المقابلة من إذاعة الـ.بى.بى. سى فإن الممثلين الإنجليز في الدول العربية كان عليهم أن يلتمسوا من الحكومة اتخاذ بعض الإجراءات المخففة في فلسطين، وأن حرب الكلمات لم تؤد إلا إلى الإزعاج والتوتر ومزيد من المشكلات، والصعوبة في حل هذه المشكلات الدولية وتدهور العلاقات مع إيطاليا بعد غزو ألبانيا عام ١٩٣٥، إلى جانب العداء بين اليابان والصين الذى انتهى في يوليو عام ١٩٥٧، بينما في ١٩٣٨ اكتشفت بريطانيا أنها يمكن أن تحقق التوازن في القوى داخل أوروبا من خلال تقديم الامتيازات إلى ألمانيا؛ وذلك من أجل الحصول على الأراضي في المقابل، كما أن الظروف والتوقيت الذى كان يشهد الصدام مع اليابان والدول الآسيوية أديا إلى عدم تأثير القضية الفلسطينية على بريطانيا، وفي حالة نشوب حرب مع اليابان أو ألمانيا أو إيطاليا فإن الانحياز العربى والاضطرابات في المنطقة على ضفاف قناة السويس أصبحا يمثلان الخطورة

الشديدة، واتخذت الحكومة القرار السريع من أجل تهدئة الأوضاع فى فلسطين، ومن خلال اتفاقية ميونخ التى تهدف إلى التّحصين فى فلسطين، ومن خلال^(٣٢) صعيد العمليات فى بداية صيف ١٩٣٩، التى أدت إلى إعادة النظام العام، بينما فى مايو تم الإعلان عن البيان الدولى الذى يشير إلى السياسة البريطانية على مدى السنوات الخمس التالية، وذلك من أجل خفض عدد المهاجرين اليهود إلى ٢٥٠٠٠ فى السنة، والاستعداد إلى إقامة هذه الدولة المستقلة التى تضم الغالبية من العرب، والمساعى نحو نقل اللاجئين اليهود إلى مستعمرات أخرى، بينما فكر حاكم كينيا فى أن منطقة يهودية لم يكن مرغوبا فيها رغم أنه لم يعارض فى الوضع الصحيح لليهود (أى ألماني أو نمساوي) وكان المستقرون فى روديسيا الشمالية فى منتهى البرود، وكانت غينيا البريطانية مشجعة^(٣٣).

مع هذه الضرورة الإستراتيجية التى اكتسبت الأهمية على مدى عشرين سنة، فإن جميع اليهود قد اكتشفوا هذا الوهم الزائف؛ لأن الاستيطان الاستعماري والعسكري والسياسي عامي (١٩٣٨، ١٩٣٩) أشار أن بريطانيا سوف تكشف عن القسوة فى حالات الطوارئ أو عند وقوع المشكلات، وأن هذه البشائر قد اتضحت فى الأعوام الأولى من خلال الرأى العام العربى الذى كان يأمل فى الظفر العربى فى الشرق الأوسط والتخلص من السيادة البريطانية، بينما الأوضاع فى العراق تمثل انعكاسات من أحداث فلسطين والحس المعادى لبريطانيا من الضباط والفئات المسؤولة؛ حيث إن رقابة بريطانيا على جيش العراق لم تمنع من إدراك الصفة لأهمية التعاون من أجل تحرير العراق وتشجيع بعض السياسات؛ نظراً إلى عدم استقرار الأوضاع بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٢، كما أن الأعوام الثمانية التالية كانت تشهد الحكومات المدنية التى كانت تمثل العقبة الكئود أمام القوى الاستعمارية.

مع أن العراق كانت متحالفة مع بريطانيا بشكل فني فإن الحكومة العراقية كانت تسعى إلى المساندة التي قدمتها إلى المجهود الحربي البريطاني وعلى غرار مصر التي كانت تخفي تعاطفها مع الدول التي تمثل المحور وفي مارس ١٩٤٠؛ فإن الوضع قد أشار أن القيادة العليا في القاهرة كانت تستعد من أجل وضع الخطط وتطبيقها؛ التي تهدف إلى احتلال حقول البترول في الموصل والذي يمثل الإجراء الاحتياطي أو الحذر، ولكن لم تكن تترك من أين يمكن أن تحصل على الرجال، وبعد مرور ثمانية أشهر من ذلك فإن ألمانيا قد أعلنت عن التهديد بغزو العراق من جانب الخطة العليا من برلين، وأن النفوذ الألماني في البلقان واليونان في ربيع ١٩٤١ يشير إلى احتمالات في قدرة سلطات فيشي في دمشق على بناء القواعد الألمانية في سوريا من خلال الدعم من جانب بريطانيا للتدخل في العراق، بينما اثنان من الفيالق الهندية هبطا على البصرة من أجل تنفيذ الأوامر للرقابة على حقول البترول من الشمال.

لم تخالف هذه المناورات المعاهدة الإنجليزية العراقية، ولكن القوميين اعتقدوا أنها تمثل المقدمة أو الحجة من أجل النفاذ إلى بغداد؛ حيث إن رشيد على نائب رئيس الوزراء الذي تولى السلطة بمساندة الجيش في الثالث من أبريل التمس من المحور المساعدة، بينما استغل الإنجليز هذه الدسيصة من خلال الاتصالات اللاسلكية بين ألمانيا وإيطاليا، والأوامر الصادرة من القوات في فلسطين من أجل الدخول إلى العراق، بينما هاجم العراقيون؛ مطار الحبانية والمدرعات البريطانية، وقد وصلت بغداد في منتصف مايو إلى أجل إحداث النتيجة المتوقعة من هذه الحملة التي استمرت في الستة الأسابيع، والتي أدت إلى مقتل ثلاثة آلاف من أفراد القوات العراقية مع فصل ثلاثة آلاف من الضباط من الجيش، وبناء على أوامر الحكومة البريطانية في

عهد نوري السعيد الذي كان يحارب في صف لورانس منذ خمس وعشرين سنة ماضية، بينما تمكن رشيد على من الفرار إلى برلين.

أمّا حركة الانقلاب ضد العراق، وكذلك حركة قلب نظام الحكم في قصر الرئاسة في القاهرة، فقد استمرت تسعة أشهر، على الرغم من مرور أكثر من عشرين عامًا على القومية، وكذلك النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط الذي كان لا يزال صارمًا، وباقي الإجراءات الاستثنائية في حالات الطوارئ من جانب هذه الدولة التي كانت تحارب من أجل البقاء، مع اختلاف النظرة تجاه العرب والمصريين، وحيث إن استعراض القوة أدى إلى مشاعر الإحباط والمرارة من جانب الضحايا المستضعفين، حيث إن بريطانيا ظلت لفترة طويلة القوة السائدة في المنطقة والتي تفعل أي شيء من أجل تحقيق جميع أهدافها.

(٥)

قوة جديدة وسلطة جديدة

الهند (١٩١٩-١٩٤٢م)

كانت الإمبراطورية الهندية دائما كيانًا متعددًا. وخريطتها السياسية عبارة عن فسيفساء من الإمارات (لقد كانت الإمارات تزيد على ٥٠٠ إمارة في عام ١٩١٩م) والأقاليم تحكم مباشرة من قبل المسؤولين البريطانيين. وهذه الإمارات كانت تشكل نحو خمسي مساحة شبه القارة الهندية، وتحتوي على ربع عدد السكان بها. وقد كان من المستحيل أن يتم رسم خريطة عرقية ودينية دقيقة للهند، على الرغم من أنه - كقاعدة عامة - كان المسلمون يتركزون في المناطق الشمالية الغربية وفي البنغال. وقد كان المسلمون يشكلون أقلية تمثل نحو سبع عدد السكان البالغ عددهم نحو ٢٨٠ مليون نسمة في عام ١٩٤٠م.

وقد كان التسامح العرقي والديني نادرًا في الهند، فجنود الجوركا (Ghurka) الذين قاموا بإطلاق النار على الجماهير في عام ١٩١٩م - اعترفوا فيما بعد أنهم كانوا يستمتعون بقتل الناس الذين في السهول^(١). وفي عام ١٩٢٣م أظهرت مصادر المخابرات أن الهندوس كانوا يشعرون بالسعادة من الغارات الجوية التي تم تنفيذها على قرى باثان (Pathan) على الحدود الشمالية الغربية^(٢). وفي التحقيق العسكري الذي تم في عام ١٩٤٣م كان هناك جنود ملائمون للقيام بخدمات الشرطة، وظهر أن "السيخ لا يجدون شيئاً

عندهم أكثر متعة من قتل المسلمين^(٣). ولا يوجد أى سبب لتكذيب هذه الأحكام، ولا يجعلنا أيضا ننفي أن بريطانيا قامت عن طريق غرس التمايزات القومية والتلاعب بالاختلافات العرقية والدينية من أجل أن تقوم بتطبيق قاعدة "فرق تسد".

ومن ناحية أخرى فإن السياسيين المتطرفين الذين أرادوا لحكم الإمارات أن يستمر بأى وسيلة، ادعوا أن بريطانيا وحدها هى القادرة على حفظ السلام، وأن تكون حاكما غير منحاز، وأن تقوم بالموازنة بين الحقوق المتعارضة لديانة معينة مقابل ديانة أخرى. وهذه المقولة قد قويت للغاية أثناء فترة العشرينيات عندما ازدادت الاضطرابات الطائفية بشكل غير مسبوق. وأغلب الحوادث العادية التافهة كان يمكن أن تسبب عمليات قتل وسلب ونهب، وعلى سبيل المثال فقد أدت حادثة شجار فيما بين طالبين فى المدرسة أحدهما هندوسى والآخر مسلم إلى عشرة أيام من أعمال الشغب والسلب والنهب فى دكا فى عام ١٩٢٩م^(٤).

وقد كان قادة المؤتمر الهندى المهيمن على الهند يصابون بالرعب من مثل هذه الحوادث ومن أحداث العنف الطائفى بشكل عام. وقد كانت هذه الأحداث تمثل العائق الرئيسى الذى يمنع الهنود من أن يفكروا فى أنفسهم على أنهم هنود أولا ثم مسلمون أو هندوس ثانيًا، وأن يتصرفوا بناء على ذلك. وقد كان جواهر لال نهرو (Jawahrlal Nehru) يرى أن الدين يمثل اللعنة الكبرى فى الهند، وقد كان يرى أنه يودى إلى تغذية التعصب وضيق الأفق^(٥). وقد كان جواهر لال نهرو قد تلقى تعليمه فى هارو وكمبريدج، قادمًا من عالم فيه الذبح العلنى لبقرة، أو القصص المثيرة عن القيام باغتصاب النساء العذراوات من الهندوس، يجعل الهندوسى يغضب لدرجة أن يقوم بقتل جيرانه من المسلمين وحرق منازلهم.

وأغلب الهنود، أيا كانت عقيدتهم، كانوا شديدي الفقر، ويعيشون فى القرى ويعيشون على العمل فى الأرض. وكان غاندى (Gandhi)، الذى كان منذ عام ١٩١٩م هو ضمير المؤتمر الهندى، يرغب فى أن يظل جميع الهنود شعبًا بسيطًا، وقد قام بتشجيع الهنود على زراعة الأراضى القابلة للزراعة التى كان يعتقد أنها سوف تقوم بإعادة خلق الهند من جديد. ولهذا السبب فإنه كان يقوم بغزل القطن، وقضى وقتًا كبيرًا فى تعليم الآخرين كيف يقومون بذلك. وقد كان يرى أن المركزية غير الموثوق بها والتحول الصناعى فى العالم الحديث سوف يؤدىان إلى تآكل كل ما هو خير فى الهند التقليدية. وقد كان غاندى يرغب أيضا فى أن يستبدل باللغة الإنجليزية كلغة تعليم باللغة الجواراتى (Gujarati) إلا أنه هو والصف الأول من حزبه قد تلقوا تعليمهم باللغة الإنجليزية، فقد كان محاميا ينتمى للطبقة الوسطى، وقد كانت جل مبادئهم السياسية فى جوهرها هى مبادئ بريطانية.

وهذا يعنى أن نخبة حزب المؤتمر ذات التعليم البريطانى، كانوا هم نتاج مثاليات العمال الهنود فى القرن التاسع عشر، الذين كانوا يعتقدون أن التعليم هو الذى سوف ينهض بالهند. فمعرفة الفلسفة والعلوم الغربية سوف تؤدى إلى انفتاح العقلية الهندية، وتؤدى إلى تكوين طبقة من الرجال المتنورين القادرين على إدارة شئون بلادهم. وقد انتشر التعليم وفق الأسلوب البريطانى فى كل مكان فى الهند، ولكن لم يكن هذا الانتشار بالتساوى فيما بين أنحاء الهند المختلفة. ففي "ترافانكور: Travancore" (الولاية الأساسية) كان ٦٨ فى المائة من السكان أميين، ولكن كانت هناك مناطق أخرى فيها النسبة أقل من ٢٠%. وقد كانت هناك محاولة منظمة لتلقين أبناء الأمراء ورجال الأعمال والأعمال المهنية مثاليات الحكم البريطانى من خلال المدارس الهندية العامة. وقد كانت هذه المدارس بمثابة إعادة إنتاج لأصولها

من المدارس البريطانية، ومثلها مثل المدارس البريطانية، فإنها كانت تسعى لتَهذيب الشخصية. والفتيان القدامى الذين التحقوا بهذه المدارس لم يكوّنوا بنفس براعة نظرائهم من البريطانيين وفقا لتقرير رسمى صادر عام ١٩٤٢م نص على الآتى:

النتاج قد يكون محدودًا فى بعده الفكرى فالطلاب كانوا ضيقى الأفق ولكنهم كانوا شديدي الطموح، ولكن فى نفس الوقت فإنهم أظهرُوا قدرة على التعليم والالتزام بمعايير السلوك والاستعداد لتحمل المسؤولية^(١).

وقد أخفقت المدارس الثانوية الحكومية فى هذا المجال، لأنه على خلاف المدارس العامة الهندية فإنها لم تَكرس نفس الوقت للعب الألعاب الجماعية.

لقد كانت علاقات الكشميريين مثل صرير الأسنان هذا ما ذكره تيندال-بريسكو (Tyndale-Briscoe) مدير مدرسة إرسالية الكنيسة فى سرينجار (Srinagar) فى الفترة ما بين عام (١٨٩٠ - ١٩٤٧م) وهو ما يعنى أنه قد قضى معظم حياته هناك. فالمسيحيون النشطون ذوو التفكير المستقل والبنية الجسمية القوية من طلبة كامبريدج بالزى الأزرق، هم فقط الذين كانوا مؤهلين لأداء المهمة. فلعِب الكريكت والرَجَبى وكرة القدم والملاكمة (حيث اعتقد أنها تمثل الترياق ضد اللواط الذى كان منتشرًا فيما بين المراهقين الكشميريين) كانت تمثل العمود الفقرى للمنهج الذى تقدمه المدرسة. وقد كان تيندال-بريسكو يقوم أيضًا، بنفس القوة، بتشجيع الإحساس بالواجب العام، وقد كان الفتيان الذين تعلموا عنده يمثلون فرقة عسكرية تعلمت أن تساعد الضعفاء والفقراء، وقد كانوا يتعلمون كيف يُعاملون الحيوانات بلطف، وقد قاموا بعمل أقصى ما يمكن من عمليات الإنقاذ أثناء انتشار وباء الكوليرا^(٢). وقد كان هناك آخرون مثلهم متفرقون فى أنحاء الهند، ليس فى المدارس فقط، ولكن فى كل مكان استطاعوا اكتساب القيم المطلوبة.

وفى الجامعة، فإن طلبة المدارس الثانوية الهندية وجدوا أنفسهم فى أجواء يمكن لهم فيها البحث ومناقشة الأفكار السياسية بحرية، وكذلك تطبيق ما قد تعلموه على الهند المعاصرة. وعلى سبيل المثال فإن أولئك الذين كانوا يدرسون التاريخ فى جامعة ميسورى تم سؤالهم فى أحد الاختبارات فى عام ١٩٢٤م السؤال الآتى: "الديمقراطية هى اختراع أوربى، وربما تكون مناسبة فقط للجنس والثقافة الأوربيتين. قم بمناقشة ذلك فى ظل دراستك للتاريخ الهندى، وقم بالتعليق على تغيير الاسم من الإمبراطورية إلى الكومنولث- كيف يمكن أن يؤثر هذا التغيير على الهنود وسكان سيلان وجنوب أفريقيا؟"^(٨). وقد كانت خطب برك (Burke) التطورية حول فرض الضرائب فى أمريكا من بين النصوص التى كان يقوم طلاب اللغة الإنجليزية بدراساتها فى كالكتا (Calcutta) فى عام ١٩٢٢م.

وعلى ذلك فإن أجيالا من الشباب الهندى كانت قد تشبعت بتقاليد الفكر السياسى التى تؤكد حقوق الفرد والقيود التى يجب أن نتقيد بها السلطة الشرعية الدولية. وأولئك الذين تعلموا أن يفكروا بالطريقة البريطانية تخيلوا أنهم متساوون فكريا بمن يحكمونهم، ومن الطبيعى أن يرغبوا فى أن يتعامل معهم البريطانيون على نحو متساو. ولم يكن هذا سهلا على الرجال والنساء الذين اعتادوا النظر لأنفسهم على أنهم ممثلون لثقافة أعلى، وأن يكونوا متساوين مع النخبة المتعلمة فى الهند التى كانت تمثل قسما ضئيلا للغاية من المجتمع الهندى. وإذا نظرنا للموضوع نظرة شاملة فإن تقدم الهنود كان تقدما واضحا، ولكنه كان عملية بطيئة للغاية. واكتمالها، وكذلك ساعة الحكم الذاتى، كانت بعيدة للغاية.

وفى بعض الأحيان فإن الأمر كان يحتاج إلى العديد من العقود. والنظرة الإدارية الرسمية لهذا الموضوع عبر عنها فى عام ١٩١٦م الجنرال

السير إدموند بارو (Edmund Barrow)، وهو أحد المسؤولين العسكريين الكبار وقد بدأ الخدمة في الهند قبل ما يقارب أربعين عاما من هذا التاريخ بقوله:

من خلال منح الحرية والعدالة والتعليم في الهند، فإننا نكون قد قدمنا الكثير لتحريرها من قيود النظام الطبقي والأحكام المسبقة، ولكن الأمر لا يزال يحتاج إلى عقود لكي نصل إلى المثاليات التي قال بها الفلاسفة ومحبو الخير، ولإرضاء أشواق الهند المتحفزة^(٩).

وبعد عام ١٩١٩م فإن مشوار الهند نحو الحكم الذاتي بدأ يتسارع وأدى إلى تجمع الزخم الذي أدى تلقائيا إلى عدم صبر القوميين الهنود والمحافظين المرتعدين في كل من الهند وبريطانيا. وقد كانت الحرب هي المحرك الدافع للتغيير. فقد شهدت الهند إصرارًا غير عادي خلال الفترة ما بين عام ١٩١٤م وعام ١٩١٨م، حيث قام شعبها بمقاومة الدمار الألماني وقدموا ما يزيد على ٥٠٠٠٠٠ محارب وقدمت ١٠٠ مليون جنيه إسترليني لخزانة الحرب الإمبراطورية^(١٠). والجهود التي تم بذلها على هذا النحو كانت تستحق رداً كريماً من البريطانيين، ففي عام ١٩١٧م ألزمت الحكومة البريطانية الكريمة نفسها بسياسات تم وضعها من أجل وضع الهند على الطريق لكي تكون مسئولة عن الحكم في الإمبراطورية. وقد كان الوعد في الأساس بمنح "الحكم الذاتي" ولكن اعترض كرزون (Curzon) على ذلك^(١١).

فمن جانب معين نجد أن هذه الإشارة، مثل التعهدات التي تم منحها للعرب في السنة التالية- قد عكست رغبة الحكومة في قبول مبدأ تقرير المصير من الناحية النظرية لا يقتصر الأمر على أعراق بعينها. ومن ناحية أخرى، هو جانب أقل وضوحاً، فإن هذا الإعلان كان بمثابة اعتراف بأن حكومة الهند كانت تحتاج إلى عملية إصلاح شامل؛ حيث لاحظ قبل ذلك إدوين مونتاجو (Edwin Montagu)، الذي كان لويد جورج (Lloyd George)

قد عينه وزير دولة لشئون الهند فى عام ١٩١٧م، أن الحكومة الهند هى حكومة متخسبة ومقيدة للغاية وجامدة للغاية وبدائية للغاية، بحيث لا تصلح للأغراض الحديثة التى نريدها لها". وما كان يفكر فيه هو الجمود والافتقار للخيال بالنسبة للبيروقراطية الهندية، كما ظهر فى التحقيق فى الهزائم التى شهدتها الجيش الهندى فى بلاد ما بين النهرين، فقد كان الجيش الهندى عبارة عن عضلات فقط دون عقل، وفى حالة كهذه فإنه ليس من المتوقع أن تدعم وضع بريطانيا باعتبارها قوة آسيوية.

وقد قام مونتاجو بزيارة الهند فى عام ١٩١٨م، وهو ما جعله أول وزير دولة يهتم للتعرف على البلد الذى يقوم بالإشراف عليه. وقد قام بالاجتماع مع نائب الملك الجديد، اللورد شيلمسفورد (Chelmsford)، لوضع سلسلة من الإصلاحات التى أصبحت قانونا فى مارس من عام ١٩١٩م.

(وكان شيلمسفورد أكثر من حاكم عادى؛ فقد كان ابن جنرال حرب الزولو سيئ الحظ، وقد خدم فى مجلس مقاطعة لندن، ثم بعد ذلك، مثل بطل قصص بيلوك (Belloc) أرسل لى يحكم جنوب وليمز الجديدة) وقد رغبوا فى أن يمنحوا الهنود أول جرعة من مسؤولية الحكم من خلال إنشاء أحد عشر إقليمًا تتمتع بالحكم الذاتى، والمؤسسات العامة، فيها مثل مؤسسات الصحة العامة والتعليم والزراعة، يمكن أن تدار بواسطة وزراء هنود منتخبين، والشئون المالية وشئون النظام العام قد تم وضعها فى يد وزراء يتم اختيارهم بواسطة نائب الملك، سواء كانوا من الهنود أم البريطانيين.

وقد أراد المؤتمر أن تخطو الهند خطوة أوسع من ذلك وبحذر نحو الحكم الذاتى، وعلى ذلك فإن أعضاءه قد أصيبوا بالإحباط من هذا الإجراء ووجدوا فيه روح البخل. وبجانب إعلان إصلاحات مونتاجو شيلمسفورد فقد تزامن معها إصدار قوانين رولات (Rowlatt)، وهى مجموعة من القوانين

المتابعة كان الهدف منها التقليل من حالة التدهور. وقد مثل هذا التشريع رمزاً لأوتوقراطية الراج (raj) ولذلك فإنه كان سبباً في إثارة المؤتمر الهندي.

وكان الكفاح ضد قوانين روليت أول صراع كبير فيما بين الراج والمؤتمر. وقد قدم أيضاً أرضية لاختبار مبادئ المقاومة الشعبية التي كان غاندى قد وضعها فى أثناء حملته من أجل الحصول على حقوق الهنود فى ناتال (Natal) قبل عشرين عاماً. وقد كان السلاح الذى استخدمه غاندى هو الساتيجراها (satyagraha)، التى ترجمها بمعنى "قوة الروح" أو "قوة الحب". وكما كان يشرح لأتباعه خلال مارس من عام ١٩١٩م فإنهم يجب أن يستغلوا الميتافيزيقيا فى المعارضة السياسية. والساتيجراها كانت هى حالة روحية يتم الوصول إليها بواسطة الرجال والنساء، وتؤدى إلى منحهم الاستقرار الداخلى والصبر والإيمان بالإله، وهو ما يحتاجونه من أجل المقاومة السلبية ضد السلطة غير الأخلاقية، ودرجة المعاناة البدنية التى يتحملها كاهن الساتيجراها - كانت تسير كمقياس على درجة استقامته وسعيه من أجل قضيته^(١٢). ومن الناحية السطحية فإن الساتيجراها كانت هى أداة مثالية لتحدى الراج. وقد كان يستهدف ضمير البريطانيين. فلأجيال عديدة كان الشعب البريطانى يؤكد أنهم يحكمون الهند بموافقة أهلها، وهو الافتراض الذى كان يعنى أنهم كانوا يقبلون بفكرة أن الإمبراطورية لها ضمير خير. وكما قصد غاندى، عبر آلاف أو ربما ملايين من الهنود بالطف طريقة ممكنة، أن هذا غير حقيقى فإن الأساس الأخلاقى للراج يتم نسفه، هذا إلى جانب أنه كان يقوم بتقديم الأسرار الغامضة للساتيجراها لتابعيه، فقد اقترح غاندى إقامة مسيرة عامة للاحتجاج على قوانين روليت. وكانت هذه عبارة عن مسيرة تقليدية عامة للحداد أو عدم الموافقة، وأثناءها كانت جميع المحلات والأعمال والمدارس تغلق وتعطل المواصلات العامة تاركة أعدادا كبيرة حرة فى الشوارع.

وقد كانت هناك مجموعة من أعضاء المؤتمر المتقنين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، وكانوا قادرين على فهم جوهر الساتجراها واستخدامها في الغرض الذى يطالبون به. وأغلب الذين انضموا إلى المسيرة لم يقنروا أأذا. والمسيرات تحولت إلى أعمال شغب؛ حيث قام المتظاهرون بالقتال مع قوات الشرطة ومهاجمة الأوربيين وقتلهم وسرقة ممتلكاتهم وإحراقها. وحتى غاندى نفسه قد ارتعب من عمق الشعور المضاد للبريطانيين وقوته؛ الذى بدأ أنه انطلق وأصبح خارجاً عن قدرته على السيطرة عليه^(١٣).

وقد وصلت الثورة إلى ذروتها فى البنجاب، حيث كان السير مايكل أودوير (Michael O'Dwyer) هو الحاكم. وقد كان رجلاً إيرلندياً صريحاً وقوياً ولديه إحساس قوى بالعدالة، وقد كان يحكم بقبضة من حديد. وقد واجه أودوير تحريضا على العصيان أثناء الحرب وتغلب عليه، وفى أبريل عام ١٩١٩م كان يرغب فى عمل ذلك مرة أخرى. وأكثر أعمال الشغب تدميراً كانت فى أمريتسار (Amritsar)، حيث تم ذبح الأوربيين، وحيث فقدت الحكومة أى سيطرة على الناس، لفترة من الزمن. وفى هذه الأثناء وصل العميد رينالد دير (Reginald Dyer) مع تعليمات بفرض الأحكام العرفية واستعادة الهدوء المدنى. ولكنه لم يكن الرجل المناسب لأداء هذه المهمة، فطوال عشرين عاما سابقة على ذلك، عندما كان ضمن هيئة تدريس الجامعة- فإن أخاه الضابط قد وصفه بأنه كان أكثر الجنود سعادة عندما زحف إلى حظيرة بورميس (Burmese) للماشية وهو يضع مسدسا فى فمه، وفى عام ١٩١٩م فإن مرضا شديدا أدى إلى شحذ حبه الفطرى للقتال.

وعندما قام قادة المؤتمر المحليون بتحدى الحظر الذى فرضه على الاجتماعات العامة، وبعد أن حصل على منشور ملتهب المشاعر يحرض الجنود الهنود على العصيان، فإن دير قرر أن يقوم بعرض للقوة. فقد قام

بقيادة كتيبة صغيرة إلى أمريتسار حيث كانت المظاهرات جارية فى جاليانوالا باغ (Jallianwala Bagh)، وأمر رجاله بإطلاق النار على الجماهير. ووابل الرصاص الذى تم إطلاقه وتوجيهه بعناية استمر لمدة عشر دقائق وأدى إلى قتل ٣٧٩ من الهنود وجرح المئات، وبعد ذلك عبر دير عن أسفه من أنه كان غير قادر على استخدام المدافع الرشاشة التى كانت منصوبة على عربتين حريبتين قام بجلبهما إلى المدينة. وفى الأيام القليلة التالية قام بأعمال فى غاية الشناعة والقسوة، وقد أمر الهنود بأن يقوموا بالزحف على بطونهم بطول الشارع؛ حيث تم اغتصاب سيدة من أعضاء الإرساليات التبشيرية بواسطة القائمين بأعمال الشغب، وقد تم إنقاذها بالصدفة بواسطة مجموعة أخرى من الهنود.

كان عام ١٩١٩م نقطة تحول فى تاريخ الهند، وقد كانت أمريتسار هى محور هذا التحول؛ ففي ١٨ أبريل، أى بعد أربعة أيام من حادث إطلاق النار هناك، نادى غاندى بوقف المظاهرات. وقد كان من الواضح أنه قد فقد السيطرة على أتباعه، على الرغم من أنه قد لام الشرطة على أنها هى السبب فى حدوث الاضطرابات وادعى بشكل غريب أن الحشود الهندية هى أسهل حشود يمكن تفريقها فى العالم^(١٤)، فإن إيمان بالساتجراها ظل قويًا، وفى يونيو أعلن أن المسيرة قد أدت إلى بروز قوة وسلطة جديدة، وهى قوة أثبتت أنه لا يمكن مقاومتها، وهى على كل حال تبرهن على أن الحق فى صفنا^(١٥).

وقد ثبت بعد مذبحة أمريتسار أن الحكم البريطانى للهند استند بشكل مطلق على القوة. تأكد ذلك فى عقل غاندى وأعضاء المؤتمر حسب الأحداث التى تلت التهدة فى البنجاب.

وانتشرت الأخبار الخاصة بما حدث فعلاً فى أمر يتسار ببطء، وعندما تم إدراك حدوث هذه الجريمة البشعة فإن الحكومة قامت بعمل تحقيق فى الحادثة تحت رئاسة القاضى الأسكتلندى، اللورد هنتر (Hunter). وقد وجدت المحكمة أن دير مخطئ، ولذلك تم طرده من الجيش على الفور، فى حين أن أودوير، الذى كان قد أمر بإلقاء القنابل على المتمردين فى أى مكان من البنجاب، تمت تبرئته. وهذا الحكم قد أدى إلى إغضاب المجتمع البريطانى فى الهند، والضباط فى كل مكان، وكذلك المحافظون فى بريطانيا الذين آمنوا أن العميد والحاكم كانا أبطالاً، وأنهما أنقذا الهند من الوقوع فى براثن الفوضى.

وقد أثار المؤيدون البريطانيون لأعمال دير القضية فى البرلمان. وكانت دوافعه وأفعاله موضع نقاش محزن فى يوليو عام ١٩٢٠م، وفى هذا النقاش فإن الجناح اليميني من المحافظين طالب بدم مونتاجو، وتم توجيه اللوم له؛ لأنه كان شديد اللين مع مثيرى الفتنة الهنود وقاسياً للغاية مع رجل شريف امتلك الشجاعة الكافية للتعامل بحزم معهم. وبدون أى تردد فإن مونتاجو قد أنب دير على الإذلال العرقى الذى قام به فى أمر يتسار، وهو ما يخرق المبادئ التى تم بناء إمبراطورية الهند عليها، وقد واصل فى توجيه الاستهجان؛ لشجب عنصرية حلفاء دير وقال:

إن الهندى هو شخص مقبول طالما يطيع الأوامر التى توجهها له، ولكن إذا فكر فى حاله، فلماذا إذا حاول أن يأخذ مرة لنفسه الميزات التى تعلمها فى المؤسسات التعليمية التى وفرناها له، وإذا قام مرة باستيعاب أفكار الحرية الفردية العزيزة على الشعب البريطانى يقومون بتصنيفه على أنه هندى متعلم وهندى همجي^(١٦)؟

وقد ساند تشرشل (Churchill) هذا الرأي ولعن ما حدث في أمريتسار باعتباره "حدثاً رهيباً"، وقد قام برفض الرأي الذى قال بأن دير بطريقة ما قام بإنقاذ الهند على أساس أن السلطة البريطانية لا تستند إلى القوة العارية. وقد رد السياسيون المتطرفون تحت قيادة السير وليام جوينسون هيكز (William Joynson Hicks)، على الاتهام بأن دير قد قدم على أنه كبش فداء للحكومة التى ذهبت بعيدا للغاية لإرضاء للأقلية الصاخبة.

وقد فازت الحكومة فى التصويت، ولكن ظل هناك كثير من المقاتلين فى معسكر دير. وقد قامت صحيفة المورنينج بوست بالإعلان عن صندوق من أجله، وفى أقل من أسبوعين جمع ما يزيد على ٢٦٠٠٠ جنيه إسترليني من المتبرعين الذين كان من ضمنهم كيبلنج (Kipling).

وقد كان ضباط الجيش على نحو خاص غاضبين من المعاملة التى عومل بها رجل قام بواجبه بالطريقة التى رأى أنها مناسبة، ثم بعد ذلك تم التخلّى عنه من جانب الحكومة التى كان يجب عليها أن تدعم من يقوم بخدمتها^(١٧).

وقد كان للمناقشات التى تمت حول أمريتسار، بجانب ما حدث فى المدينة، تأثير جذرى على آراء الهنود. فقد كان غاندى والمؤتمر الهندى يتصرفان على أنهم يمكن أن يؤثروا على الضمير العام لبريطانيا، ولكن المناقشات التى تمت حول دير، أظهرت أن هذا غير موجود. فقد كانت، كما برهن حديث مونتاجو، مجموعة من أصحاب رأى الليبرالى الذين ذكروا أن الهنود المتعلمين يستحقون أن يعاملوا على أنهم مخلوقات عاقلة، وأنهم يستطيعون ممارسة الحرية التى نتمتع بها فى بريطانيا، ولكن كان هناك قطاع آخر من رأى العام البريطانى يدعى أن الهنود بطبعهم غير قادرين على تحمل المسؤولية. وإذا أخذنا فى الاعتبار المقالة الافتتاحية لجريدة إسبكتاتور

فى ديسمبر عام ١٩١٩م، التى كانت ترى أن حكم البريطانيين للهند كان ضرورة مطلقة؛ حيث إن الراج قد حمى كلاً من الهنود والمسلمين من أنفسهم، وإذا رحل البريطانيون فإن الهند سوف تسقط فى يد طبقة البراهمة والنظام الطبقي المغلق ونحن الأنجلو ساكسون نحب أن نحكم أنفسنا. لكن لماذا نفترض أن البشر من أصحاب البشرة الأكثر سوادا لا يشاركوننا مثل هذه الرغبة؟ الإجابة يمكن أن نجدها فى العقلية الشرقية والتاريخ الشرقى^(١٨). وكل منهما يبرهن على عدم تأهل الهنود للحصول على الحكم الذاتى فى الوقت الحالى، ولسنين عديدة قادمة، إن لم يكن للأبد.

والسير مايكل أودوير الذى ظل يدافع عن دير حتى وفاة الأخير فى عام ١٩٢٧م، وفيما بعد ظل يحارب ضد أى تنازل تجاه حكم الهنود لأنفسهم، كان يزعم دائما أن الهنود قد أدمنوا الابتزاز، بالإضافة إلى أن المؤتمر الهندى ما هو إلا وسيلة لعصابة من الرجال الجشعين والطموحين الذين لا يسعون إلا للحصول على السلطة. والحقيقة هى أنه، وفق ما كتب أودوير، أن الجميع، سواء الهنود أو البريطانيين، من الذين يفهمون العقلية الشرقية، إن ٩٩% من الشعب لا يبالى بكيفية تكوين الحكومة وهم ما يتحدث محامى المؤتمر الهندى دائما باسمهم. وهذه هى الوسائل التى تبناها تشرشل الذى، منذ عام ١٩٣٠، قاد حملة الكفاح فى البرلمان ضد أى إجراءات من شأنها أن تؤدى إلى تحمل الهنود مسئولية الحكم فى الهند. وحتى عندما أصبح رئيساً الوزراء لم يستطع إخفاء احتقاره للمؤتمر، فإنه قام بإخبار مجلس العموم فى سبتمبر عام ١٩٤٢م عن حزب المؤتمر بأنه "عبارة عن منظمة سياسية بنيت حول آلة حزبية، ويتم الحفاظ عليه من خلال أصحاب المصالح المالية والصناعية، وهو ما كان يعارضه جميع المسلمين وملايين من الهندوس الذين كانوا يخضعون لحكم الأمراء"^(١٩).

وقد صدم خطابه هذا أعضاء البرلمان عن حزب العمال. وتساءل أنيورين بيفان (Aneurin Bevan) إن كانت مثل هذه اللغة المؤسفة التي يتحدث بها رئيس الوزراء مقبولة لدى أعضاء حزب العمال المنضمين للائتلاف الحكومي أم لا؟

وقد رد تشرشل أنه بقوله لقد كان وسخر من موجه السؤال وقال عنه إنه تاجر الفظاظ. ومن المحتمل أنه كان محقا في النقطة الثانية من طرحه، ولكنه كان خاطئا في الأولى. فم منذ بداية القرن فإن حزب العمال قد مد يد الصداقة والتعاطف والتشجيع لحزب المؤتمر، وكانت هناك روابط قوية فيما بين بعض متفقيه مثل نهرو وكريشنا مينون (Krishna Menon) وعدد من نظرائهم في حزب العمال البريطاني؛ وذلك بالاستناد إلى اشتراك كلا الحزبين في التقاليد الراديكالية والإصلاحية التي تمتد قديما حتى القرن السابق.

وبالنسبة لأغلب الناس في كل من بريطانيا والهند فإن المؤتمر كان يعنى غاندى. وقد كان من الصعب المغالاة في تقدير تأثيره على الأحداث في الهند بعد عام ١٩١٩م بسبب حالة الإعجاب العاطفى الجارف التى صبغت عليه من خلال مؤيديه والمختلفين، فقد أصبح شخصية دولية يهيمن على عقول جميع الفلاحين وخیالهم، وكذلك القوميون الذين شاركوا فى الكفاح ضد الإمبريالية الغربية خارج الهند. فقد كان الطابع الكاريزمى واضحا للغاية على شخصيته، على الرغم من أنه فى بعض الأوقات بدا تواضعه نوعا من التكبر المعكوس. وقد كان قادرا أيضا على القيام بخداع العامة، كما هى الحال فى يونيه من عام ١٩٤٢م، عندما كتب يقول "إن قوة النازية ظهرت مثل إله الانتقام لتعاقب بريطانيا على خطاياها من الاستغلال والاستعباد للأعراق الأفريقية والآسيوية"^(٢٠).

وقد كان الإنجاز الأكبر لغاندى هو إعلان أفكاره عن عدم العنف أمام حزب المؤتمر، على الرغم - كما اعترف لأحد الصحفيين الأستراليين فى أبريل من عام ١٩٤٢م - أن جماهير الهنود تظهر وكأنها لا تقدر ما تتطلبه الاستياجراها بالفعل^(٢١). وقد كان هذا واضحا منذ أعمال الاضطرابات التى حدثت فى عام ١٩١٩م. فقد كان هناك فرق شاسع بين الأفكار السلمية التى يدعو إليها غاندى والسلوك الفعلى لتابعيه فى الشوارع. وعندما بدأ فى حملة العصيان المدنى التى قام بها فى بردولى (Bardoli) فى نوفمبر عام ١٩٢١م، كانت هناك أعمال شغب قُتل فيها ٥٣ شخصا وجرح ٤٠٠ شخص. وقد كان، كما هو حاله فى كل مناسبة، مصدوماً، وقام بتأجيل زيارة العودة إلى المدينة، وهو ما لم يمنع حدوث المزيد من الاضطرابات فى فبراير من عام ١٩٢٢م. وهذا النمط تكرر كلما بدأ فى إطلاق حملة للتحدى السلمى أو عدم التعاون مع الحكومة.

ومنذ عام ١٩٢٠م، كان هدف غاندى هو تحقيق السواراج (swaraj)، أى التحكم الكامل فى النفس والاستقلال الكامل، الذى كان جزءاً من برنامج كبير للتجديد الأخلاقى للشعب الهندى. وأثناء فترة العشرينيات أنفق أغلب وقته وطاقته فى محاولة تحويل أعضاء المؤتمر الهندى المنتمين للطبقة الوسطى نحو غزل القطن، وعن طريقه فإنهم سوف يكتشفون جذورهم الحقيقية التى تنتمى للريف، وهذا الإصرار على القيام بثورة داخل روح الفرد بدلا من القيام بها داخل المجتمع لم يرض العديد من أعضاء المؤتمر، فنهرو، على سبيل المثال، لم يقر تمجيد سيده للفقير الذى كان يأمل الرجل الأقل سنا منه فى القضاء عليه.

ولم يكن هذا عمليا فيما يتعلق بما يحدث داخل الهند أثناء المائتى عام الماضيتين، واحتفى بالنموذج المثالى لغاندى حول المجتمعات الريفية

الصغيرة ذات الاكتفاء الذاتى. إلا أن قوة الروحية التى رُوِّج لها غاندى أكبر من الجناح الراديكالى داخل المؤتمر الذى أذعن لسلطته وقيادته. وفى حين أن عناد غاندى قد أغضب البريطانيين، فإن قيادته للحركة القومية الهندية قد أعطته العديد من المزايا. حيث كان يقوم بكبح الفتن، وأبعد الحزب عن السير على طريق الشيوعية وعن القيام بثورة مسلحة. وتأثيره، وفق ما نصت عليه تقارير الشرطة، قد أدى إلى أن الحزب الشيوعى الهندى فى عام ١٩٤٢م لم يكن به ما لا يزيد على ٥٠٠٠ عضو.

وكان الكفاح من أجل السواراج كان بطيئاً ومعقداً. وقد سعى المؤتمر لأن يحصل على تنازلات، من خلال تتابع الحركات السلمية للتحدى وعدم التعاون، والتى انتهت على غير المراد لها بسفك الدماء. وقد حاولت الحكومة البريطانية الحفاظ على زمام المبادرة من خلال عرض القيام بمساومات، ولكنها كانت تراوغ فى الموضوع عندما يأتى الحديث عن متى يتم تحقيق الاستقلال الكامل وكيف. ومنذ عام ١٩٢٩م فإن كل شيء علق على شماعة عبارة "وضع الكومنولث" التى كانت قد عرضت بشكل فيه نوع من التردد على الهند. وطبقاً لما يمكننا فهمه من كل من شاركوا، فإن وضع الكومنولث سوف يمنح الهند نفس الحرية السياسية والاستقلال عن بريطانيا وفق ما تتمتع به كندا. ولكن ما الحال إن سعى الهنود للسير فى نمط من الكومنولث يتضمن روابط رقيقة للغاية كما هى الحال فى إيرلندا؟ بالنسبة للهند لكى تسير فى هذا الطريق، فإنها كانت لا تضع فى ذهنها أن تقوم بدعم الوضع السيادةى لبريطانيا كقوة فى آسيا والشرق الأوسط.

وأياً كانت التسوية التى تم التوصل إليها، فإن بريطانيا لم تكن سوف تسمح أبداً للهند بأن تظل على الحياد فى ظل وضع الكومنولث. ولكى يتم ذلك فى ظل الظروف الدولية التى كانت سائدة فى منتصف الثلاثينيات من

القرن العشرين فإنه قال سيكون انتحارا. لكن كان من الممكن توسيع نطاق مشاركة الهنود في الحكومة بدون أن يشاركوا في مناقشة المسألة المعقدة المتعلقة بوضع الكومنولث. وقد أدى قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥م إلى خلق فيدرالية هندية تضم الأقاليم المحكومة من قبل بريطانيا والولايات التي يحكمها أمراء والتي تم وضع شرط حذر لتمثيل الأقليات غير الهندوسية فيها. وقد تم عقد انتخابات لاختيار حكومات الأقاليم في عام ١٩٣٧م، وحصل حزب المؤتمر على الغالبية في كل الدوائر.

وكان النجاح الذي حققه الكونجرس متوقعا. حيث كان لديه نحو مليون عضو في جميع أنحاء الهند، وتنظيم يتسع ليشمل جميع أنحاء البلاد، وهو ما منحه القوة والميزة على جميع الأحزاب الأخرى، ولهذا السبب فقد تم التأكيد دائما على أن هذا الحزب هو صوت الهند، إلا أنه حتى في الفترات التي شهدت معارضة عامة قوية في عام ١٩١٩م، وفي فترة الأعوام (١٩٣٠-١٩٣٤م) فإنه لم يقترب من الإطاحة بحكم الجار أو حتى أثبت أن هناك شكاً في أن الهند غير قابلة للحكم.

ولم يحدث المزيد من حادثة أمريتسار، ولكن السلطات بطريقة ما حاولت أن تكون لها اليد العليا من خلال عمليات الاعتقال الجماعي للنشطاء في قيادة الحزب، بمن فيهم غاندي، وقد تم التعامل مع حالات الإضرابات بقوة من جانب الشرطة بمساعدة الجيش. وعندما تبو الأمور على حافة الخروج عن السيطرة، كما حدث أثناء الاضطرابات في عام ١٩٣٠م في بيشاور يتم استخدام العربات المصفحة والطائرات، ومثل هذه الإجراءات الصارمة كانت استثنائية، حيث كان هناك ٢٠٠٠٠٠ من قوات الشرطة في الهند أثناء فترة الثلاثينيات، وقد كانت تدفع لهم مرتبات عالية وكانوا في وضع اجتماعي عالي. ومع قوات شرطة موالية، واحتمال عودة أي جيش؛

حيث كان يبلغ تعداد الجيش فى عام ١٩٣٩م: ١٩٤٠٠٠ شخص، ووجود درجة كبيرة من الصرامة فيما بين ضباطه، فإن الراج كان يستطيع الاستمرار بدون أن يفقد كثيرًا من موارده.

إلا أنه حتى فى الأوقات التى بدا فيها الراج مرعبًا، خاصة من وجهة نظر الشارع فى بيشاور أو أى مكان آخر فى الهند أثناء الثلاثينيات، لكن مستقبله لم يعد مأمونا فكل الأحزاب البريطانية الثلاثة قد أذعن للحكم الذاتى المتدرج منذ عام ١٩١٩م، وعلى الرغم من احتجاجات الجناح اليمبنى للمحافظين وقد كان هناك فهم عام بأنه، من حيث المبدأ، أن هناك نهاية لحكم الراج، على الرغم من أنه لم يتم أحد بتحديد جدول زمنى لتخطيطه. وقد قبل المؤتمر، على الرغم من كراهيته لذلك، قانون عام ١٩٣٥م. ولكنه قبله فقط كحجر زاوية فى الطريق الذى سوف يؤدى إلى الساراج غير المشروطة فى المستقبل القريب.

وقد كان يفترض أثناء المراحل الأولى من الحملة المطالبة باستقلال الهند أن الدولة التى ستولد سوف تشمل كل الأقاليم التى تحكمها بريطانيا فى ذلك الوقت. وقد بدا هذا مبررًا أثناء بداية العشرينيات، عندما كان هناك توافق بين الأغلبية الهندوسية فى حزب المؤتمر والمنظمات الإسلامية، وقد كان هذا نتيجة تنامي المشاعر المعادية للبريطانيين فيما بين المسلمين فى كل مكان، بعد أن أصبح معروفًا أن بريطانيا تتوى إجبار السلطان التركى على التخلّى عن لقبه الروحى باعتباره خليفة لا نبيا. ومن وجهة النظر البريطانية فإن هذا الإجراء كان تأمينا ضد أى تهديد بقيام جهاد مستقبلى، ولكن من وجهة نظر المسلمين كان ذلك بمثابة اعتداء على الإسلام. ولذلك فإن الهنود المسلمين قد انضموا للمؤتمر الهندى أثناء أحداث الاضطرابات التى تمت فى عام ١٩١٩م، وخلال السنوات الخمس التالية كانت هناك سلسلة من الدعوات للوحدة الإسلامية على الحدود الشمالية الغربية.

وقد قَلَّت الروح القتالية للمسلمين فيما بعد عام ١٩٢٤م، وفيما بعد ذلك كان هناك نمو مستمر لخوف المسلمين من تنامي قوة المؤتمر والخوف على وضع الإسلام في ظل دولة هندية يحكمها الهندوس. وقد زادت الصدامات فيما بين المسلمين والهندوس من حيث نطاقها وشِدتها، وقد أدى رفض أصحاب المحال المسلمين الانضمام إلى المسيرة التي تمت في كلكتا في فبراير من عام ١٩٣٠م إلى أعمال شغب قتل فيها ما بين أربعمئة شخص إلى خمسمئة. وقد هدّدت هذه النهضة في وعى المسلمين بشكل مباشر المؤتمر، حيث إنه حتى ذلك الوقت كانت قوته السياسية تقوم على ادعائه بأنه يمثل الصوت الحقيقي والأصيل لجميع الشعب، وبرنامجه للحصول على الاستقلال الكامل أكد حياة كل الهنود في تناغم وانسجام.

والذاكرة التاريخية للمسلمين الهنود قد زادت من الكراهية الدينية الموجودة. وعندما بدأ الدكتور محمد جناح (Muhammad Jinnah)، رئيس الرابطة الإسلامية، في كراتشي في أكتوبر من عام ١٩٣٨م، كانت تتبّعه مظاهرة من المؤيدين يبلغ طولها ثلاثة أميال، وهو ما كان يشبه الاستعراضات العسكرية العامة التي كان يقوم بها الأباطرة المغول^(٢٢).

ومنذ هذا التاريخ فإن الرابطة الإسلامية أصبحت محط آمال المسلمين والوصى على مصالحهم السياسية، وقد تكون قد بالغت في قاعدة الدعم المؤيدة لها، ولكن مع نهاية عام ١٩٤٣م فإن الرابطة كانت تدعى أنها تتحدث باسم جميع المسلمين في الهند. والبريطانيون، بعد أن قاموا بالانتهاء من بناء الحكم الإمبراطوري من خلال الدخول في علاقات مع أولئك الذين كان يبدو أنهم يملكون السلطة، فعلوا بوجود الرابطة. وقد تحسن ذلك نوعاً ما من خلال نتائج انتخابات عام ١٩٣٧م، التي أظهرت أن المسلمين يفقدون الثقة سريعاً في حزب المؤتمر^(٢٣). وقد نفر الكثير من المسلمين من حزب المؤتمر

بسبب محاولات المؤتمر ضمان احتكاره للسلطة فى حكومات الأقاليم والإصلاحات الزراعية التى قام بها، والتى أدت إلى الإضرار بمالكي الأرض من المسلمين. وإدراكا لقيمتها لدى البريطانيين باعتبارها جناحاً معارضاً للمؤتمر: فإن الرابطة الإسلامية بدأت فى تحسين طريقها نحو التسوية النهائية للمشكلات القائمة فى الهند، التى سوف تتضمن تقسيم الهند وتأسيس دولة للمسلمين بها وهى باكستان.

وقد بدأت فكرة إنشاء باكستان تنتشر فيما بين دوائر المثقفين المسلمين فى أواسط الثلاثينيات، وقد كان هناك كثير من الجدل اللاحق حول مدى وكيف يمكن أن يكون تقسيم الهند أمراً لا يمكن تجنبه، وأيضاً إن كان مثل هذا التقسيم أمراً مرغوباً فيه أم لا. والمهم أنه فى عام ١٩٤٠م أعلنت الرابطة الإسلامية أنها تلزم نفسها بأن تقوم بإنشاء دولة باكستان، وخلال السنوات الثلاث التالية فإنها حولت نفسها إلى منظمة جماهيرية ضخمة مكرسة من أجل تحقيق هذا الهدف. وفى قلب الأيديولوجية الخاصة بها صيحة انقزال القديمة "الإسلام فى خطر"، وقد كان هناك طابع جهادى واضح فى الدعاية التى كانت تقوم بها. ومن بين الأدوار التى قامت بها الرابطة هى كتابة الأغاني الشعبية فى الفترة من ١٩٤١، ١٩٤٢م التى كانت تقول (من خلال الآيات القرآنية على الشفاعة والسيف فى اليد فإننا سوف نقاتل من أجل إنشاء باكستان)^(٢٤).

وفى ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩م أعلن نائب الملك، اللورد لينليثجو (Linlithgow)، فى الإذاعة أن الهند فى حالة حرب مع ألمانيا. وقد كان مخولاً للقيام بإعلان الحرب وفقاً لتعديل تم على قانون الحكومة الهندية؛ حيث تم إقرار هذا التعديل من خلال البرلمان فى أبريل السابق^(٢٥).

وقد ذهل المؤتمر بسبب إعلان الحرب، وعارضوا بأن أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية الأسكتلنديين ليس له أى حق فى أن يدفع بالشعب الهندى للحرب بالنيابة عن البريطانيين. إلا أنه أثناء تحويل قرار نائب الملك إلى رمز بأن الهند لا تزال خاضعة للإرادة البريطانية، فإن أعضاء المؤتمر كانوا بالفعل على وعى بأن بريطانيا تحارب ضد الأنظمة السياسية التى اعتبرتها بغیضة، وأثناء السنوات الأربعة السابقة فإن المؤتمر قد تبنى موقف الجناح اليسارى فى السياسة الخارجية، وعارض سياسة استرضاء كل من هتلر وموسيلنى وحياد بريطانيا أثناء الحرب الإسبانية.

والانقسامات حول النور الذى يجب أن تضطلع به الهند فى الكفاح ضد النازية والفاشية قد أعاق المؤتمر عن أن يقرر استخدام الحرب كفرصة لاعتصار التنازلات من بريطانيا. وفى اليسار المتطرف. شاندراسوباس بوس (Chandra Subhas Bose)، قائد كتلة التقدميين داخل المؤتمر، كان يفضل أن يسلك طريقة مشابهة لما قام به الشين فين (Sinn Fein) فى عام ١٩١٦م، ومن خلال العصيان الشامل تم انتخابه كرئيس لحزب المؤتمر فى عام ١٩٣٨م ولكن غاندى كان يعارضه. وفى نهاية عام ١٩٤١م فر إلى برلين، عن طريق كابول، وعرض خدماته على هتلر الذى اتضح - وهو ما أزعج بوس - أنه معجب بالراج.

كانت السنوات فيما بين عام (١٩٣٩ - ١٩٤١م) هادئة نسبياً. ولم يقل غاندى أو يفعل أى شيء يؤدى إلى إعاقة المجهود الحربى، ولكنه استمر فى الضغط من أجل الحصول على الاستقلال الكامل للهند. والصدام فيما بين المؤتمر والحكومة حول بعض الأمور الدستورية، مر من دون حوادث خطيرة مثل تلك التى كانت تحدث خارج الهند، أو بتعبئة القوى العاملة والموارد التى كانت تحشد بسرعة.

ودخول اليابان إلى الحرب في ديسمبر من عام ١٩٤١م، وقيامها باحتلال سنغافورة في فبراير عام ١٩٤٢م وتقديمها لللاحق بسرعة عبر بورما، وبعد ذلك وصلوا إلى حدود الهند في أبريل. وبورما التي انفصلت رسمياً عن الهند في عام ١٩٣٥م، كانت بها حركتها القومية الخاصة بها، تلك الحركة التي أسرعت بالارتقاء في أحضان اليابانيين. وقد ذكرت المخابرات العسكرية أن هناك جماعات كبيرة من الفلاحين ورجال الشرطة والطلاب في بورما قد تحركوا لمساعدة الغزاة. "لقد تكن هناك صعوبة كبيرة في الحصول على متطوعين من أجل الالتحاق بالمقاومة بإرادتهم وبدون الحصول على مقابل مادي من أجل تحرير وطنهم"^(٢٦).

وقبل أن يكتشف الجيش الياباني هشاشة القوة البريطانية في آسيا، فإن لينلثجو كان متشائماً للغاية. وفي وقت سابق في يناير كتب إلى الحكومة بكل صراحة يقول:

لا يوجد أي رابط طبيعي يربط كلاً من الهند وبورما بالإمبراطورية، فهما غريبتان عنها بحكم الانتماء العرقي والتاريخ والدين، ولذلك فإنه ليس لديهم أي تعاطف طبيعي معها، وكل منهما موجود في الإمبراطورية؛ لأن كل منهما بلد محتلة وقد تم ضمهما إلى الإمبراطورية بالقوة، واستمررتا في الحفاظ عليهما بالقوة، وحتى الآن فهما خاضعتان لحمايتنا"^(٢٧).

ولهذه الأسباب فإن قسم المخابرات في الجيش قد أحكم رقابته على القوات الهندية، وقام بفحص الخطابات الخاصة بها لتتبع أي شكل من أشكال عدم الرضاء أو القلق أو الإثارة السياسية. وقد كان ستون في المائة من الضباط الهنود يخدمون في الملايو (Malaya) في الفترة ١٩٤١، ١٩٤٢م وكانت لديهم مشاعر قومية قوية، وتطلعوا لحصول الهند على الاستقلال مع نهاية الحرب. وعلى ذلك فإن هذا الشعور الكامن لديهم كان دائماً ما يبرز

انفصالهم عن الإمبراطورية، عندما رفضوا الدخول فى نواد يغلب عليها الطابع الرسمى وملئمة بالمجتمعات الاستعمارية البريطانية والمزارعين المالايين ومجتمع الأعمال. وقد أشار أحد الضباط الهنود إلى أنه هو وإخوته فى الجيش "قد أرسلوا من الهند لكى يدافعوا عن أولئك الأوربيين" وقد كان يلعن من يقوم بذلك"^(٢٨). وأحد جنود المدفعية السيلانيين قد تم إعدامه بسبب التمرد فى عام ١٩٤٢م، وهذا الجندى ذكر فى أثناء محاكمته أن مشاعره المعادية لبريطانيا قد ظهرت لأول مرة على السطح بعد أن عانى من التفرة العنصرية فى الملايو.

فبطريقة ما فإن الرجال نوى البشارة البنية مضطرون إلى أن يسعوا لحتفهم من أجل إمبراطورية الرجل الأبيض. وأحد الطرق التى من خلالها يمكن أن يحدث ذلك من خلال سد الطريق أمام مستقبل الهند، وفي عام ١٩٤٢ فإن السير ستافورد كريبس (Stafford Cripps)، وهو أحد وزراء حزب العمل المنتمين للجناح اليسارى ذات المبادئ المتغترسة، تم إرساله للهند للوصول إلى اتفاق مع حزب المؤتمر. ولكنه فشل، فعلى الرغم من تدخل الولايات المتحدة، وذلك يرجع فى جانب كبير منه إلى أنه لا هو ولا وزارة الحرب كانا يستطيعان قبول مطالب حزب المؤتمر بالمشاركة المعقولة فى كل مؤسسات الحكومة خاصة الدفاع.

وقد أصبح الآن الدور على غاندى من أجل أن يستولى على زمام المبادرة. وفى نهاية أبريل كتب يقول "إذا قامت بريطانيا بالانسحاب الفورى من الهند فإن اليابانيين لن يقوموا بالهجوم. عدو الهند هو الإمبريالية البريطانية وليست الإمبريالية اليابانية، والمساعدات العسكرية الأمريكية التى كانت تهطل على الهند فى ذلك الوقت تعنى إضافة الحكم الأمريكى إلى البريطانى"^(٢٩). وهو لم ير قط أن اليابانيين هم محرضون لهم، ولكنه كان

يتصور أنه إذا قامت جيوشهم بغزو الهند فإنها سوف تهزم بواسطة الساتجراها^(٣٠). وقد كان يعتقد أن البريطانيين من دون شك سوف ينهزمون بواسطتها، وفي يوليو طالب مؤيديه بالتحرك الضخم من أجل حملة "تحرير الهند".

وعلى الرغم من أن المؤتمر لم يكن موحدًا بشأن الحملة الجديدة، فإنها لم تكن من الممكن أن تأتي في وقت أسوأ من ذلك بالنسبة للبريطانيين. والتحضيرات كانت على قدم وساق للدفاع عن الحدود الشمالية الغربية ضد التقدم الألماني المحتمل من منطقة بحر قزوين.

وقد كانت هناك حركة لا تبدأ في هذه المنطقة، يقودها ميرزا علي خان (فقير إبي)، وهو قائد روحى تقليدى للمسلمين كان يقوم بتوجيه مقاومة الباثانيين (Pathan) خلال السنوات السبع الماضية. وفي الحدود الشمالية الشرقية فإن اليابانيين كان من المتوقع أن يقوموا بهجوم، وقد يترافق هذا مع غزو بحرى لجنوب شرق الهند أو سيلان (Ceylon). وفي ضوء انهيار المحادثات بين الحكومة وحزب المؤتمر، فإن فريق التخطيط المشترك فى دلهى لم يكن يعتقد أن الهند سوف تقاوم^(٣١). وعلى الرغم من ذلك فإن أولئك الذين كانوا مسئولين عن الدفاع فى وقت الحرب فى الهند قد أخذوا فى اعتبارهم الميل الداخلى لإحداث اضطرابات، وقد اتخذوا مجموعة من الإجراءات الاحترازية ضده، بما فى ذلك المجابهة العنيفة مع حزب المؤتمر^(٣٢). بالإضافة أن القوانين العرفية التى تخول نائب الملك أن يقوم بإعلان الحرب تمنحه أيضا العديد من الصلاحيات للقيام بأى إجراءات تكون مطلوبة لتأمين المجهود الحربى الهندى.

بدأت حملة "تحرير الهند" أثناء الأسبوع الثانى من أغسطس، وقد أخذت شكل جهود جماعية من أجل إصابة البلاد بالشلل، مع محاولات

عاطفية لقطع السكك الحديدية والاتصالات التلغرافية. والمناطق التي كانت متأثرة بشكل سيئ للغاية كانت هي مدراس وبيهار والأقاليم المتحدة، حيث تعرضت خطوط السكك الحديدية فيما بين كلكتا ودلهي وبومباي للخطر، وتم الهجوم على رجال الخدمات البريطانيين من قبل المتمردين وقتلوا كثيرين منهم. والرابطة الإسلامية التي كانت ذات موقف قوى في تدعيم الحرب وقفت على الحياد. والطلاب الهندوس قاموا بمظاهرات حاشدة أثارها سياسيو حزب المؤتمر. وقد كانت الحكومة مستعدة لحالة الطوارئ وتصرفت بأقصى درجات القسوة والعنف، حيث تم اعتقال غاندى والمئات من أعضاء حزب المؤتمر الهندي، وتم التحفظ عليهم وفرضت الرقابة على الصحافة، وتم تحويل خمسة وخمسين لواء من القوات البريطانية والهندية من مخيمات التدريب؛ لكي يقوموا بدعم قوات الشرطة، وقد تم إطلاق النار على المظاهرات التي شهدتها المدن، بأوامر من لينينجو، وتم السماح للطائرات بأن تقوم بقصف مثيري الشغب الذين كانوا يقومون بتحطيم خطوط السكك الحديدية^(٣٣). وفي بومباي تم ضرب المنظمين بعصى الخيزران، وهو العقاب، الذي قال عنه ليو أمري (Leo Amery) لمجلس العموم "إن له قوة ردع مهمة... للمجرمين قاطعي الطرق"^(٣٤). وكما هي الحال في جميع الاضطرابات السياسية الأخرى، فإن حالة التمرد المؤقت في الشوارع كانت لها آثار سلبية وصاحبها القليل من الأعمال الإجرامية، وكانت بمثابة الفرصة لإحداث الأذى والسلب والنهب.

وقد تمت استعادة النظام في غضون ستة أسابيع. ومع بداية شهر سبتمبر، فإن أقل تقدير لعدد القتلى من جانب المسؤولين كان ٣٠٠ شخص. وعلى الرغم من وجود مخاوف من أن أعمال الاضطرابات قد تكون غطاء لأعمال الطابور الخامس لليابانيين، فإنه لم يكن هناك أي دليل على وجود

تواطؤ لحزب المؤتمر مع اليابان. ومرة أخرى فإن الراج قد ظهر مرة أخرى بعد فترة من الاضطرابات المدنية أقوى مما كان عليه، وعلى الرغم من أن أولئك الذين كانوا موجودين داخل الهند وخارجها معذرون للاعتقاد بأنه قد تم من سلطة لا تقوم إلا على القوة المسلحة، فقد تعرض غاندى والمؤتمر لعدم تصديق مؤقت بسبب ثورات "تحرير الهند"، خاصة فى الولايات المتحدة التى كانت أثناء الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٢م، تقوم بالضغط على بريطانيا للوصول إلى توافق مستقر مع المؤتمر.

وقد ظل الراج باقياً طوال السنوات الثلاث التالية من الحرب، وطوال العامين التاليين لها، وجعل من الهند قاعدة آمنة لقوات الحلفاء فى جنوب شرق آسيا. ولم يتم حتى ذلك الوقت الوصول إلى تسوية دستورية تحظى برضاء القوميين الهنود وكذلك من يحكمونهم. ومع نهاية عام ١٩٤٢م كان من الواضح أنه عندما تمت صياغة مثل هذه الترتيبات بشكل نهائى فإن الكلمة العليا قد أصبحت للهنود وليس لسانتهم. وقد ظلت الأحداث السياسية فى الهند تتمحور حول سؤال إلى متى سوف يبقى حكم الراج؟ ولكن لم يتم السؤال كيف سوف تتم إزالته وما الذى سوف يحل محله؟

(٦)

لصالح الجميع: المفاهيم المرتبطة بالإمبراطورية

خلال الفترة من (١٩١٩ - ١٩٣٩م)

لقد كانت الحرب العالمية الأولى بمثابة الرياح القاتلة للوطنية المتطرفة، على الرغم من أن سكرات موتها ظلت مستمرة طوال أربعين عامًا تالية أو أكثر. والوطنية المولعة بالحرب في بريطانيا قبل عام ١٩١٤م، التي وصلت إلى أقصى مداها أثناء الحرب قد أصيبت بتقب واسع بعد عام ١٩١٨م، عندما فكرت أمة مذهلة في القيام بمذبحة جماعية، وقد تم طرح السؤال: هل كان الأمر يستحق بالفعل. لقد بدت بريطانيا منتصرة، ولكن شعبيها كان خائفًا أن يُترك وحده يشارك في حرب أوربية أخرى. والخبرة التي خلفتها الجبهة الغربية والمزاج الجديد للرأى العام جعلاً من المستحيل إعادة إحياء الإمبريالية المغالية في الوطنية التي شهدها العصر الفيكتوري والإندواردى السابقين، التي كانت تصرخ بتحدى العالم وتجعل كلاً من الرجال والنساء يقومون بالتضحية بأنفسهم من أجل الإمبراطورية. وهذا النوع الحاد من الوطنية أصاب الجماهير في السنوات السابقة للحرب، وكما ذكر البعض فقد أسهمت كثيرًا في جعل الحرب مقبولة ويمكن تحمل خسائرها.

وليس فقط الإمبريالية القديمة هي التي أصبحت بالية ومشكوكًا فيها، ولكن ظهرت حتى بطولاتها وكأنها قد وضعت أرجلها في الوحل. فالقرارات الإستراتيجية والتكتيكية التي تم اتخاذها في زمن الحرب من جانب

محاربي الإمبراطورية الذين احتلوا مواقع صنع القرار العليا قد أصبحت موضع نقد لاذع وقد أصبحت مستهدفة. وانقلب هيج (Haig) الذي كان يتخيل بالفعل أنه مُعين من قبل الرب من أجل إنقاذ الإمبراطورية البريطانية من أصعب المخاطر التي تحيط بها - على مبادئه. فأبطال الأُمس وأنبياءه أصبحوا موضع سخريّة اليوم.

وفي كتابه "الفيكْتوريون المتفوقون: Eminent Victorians" (١٩١٨م) فإن "لوتن ستراشي: Lytton Strachey" سيخر من غوردون حاكم الخرطوم (Gordon of Khartoum)، بجانب آخرين غيره. وبشكل جماعي وغير متردد فإن الحراس القدامى الأحياء للإمبراطورية قد تم تجسيدهم في شكل الكولونيل بليمب (Blimp) القوي، وهو ضابط متقاعد ذو شارب فظ وآراء متطرفة، وهي الشخصية التي ابتكرها رسام الكرتون الأسترالي دافيد لـو (David Low) في عام ١٩٣٤م.

ولقد كان هناك الكثيرون من الأشخاص الذين يشبهون بليمب في كل مكان في فترة ما بين الحربين، وكان لديهم الكثير ليتحدثوا عنه مثل موضوعات السيطرة على الهند ولكن، بحكمة، فإن حزب المحافظين أبعد نفسه عنهم وعن آرائهم. فالمحافظون لم يعودوا يختارون ضرب طبول الإمبراطورية، مفضلين بدلاً من ذلك إغراء الناخبين من خلال سياسات الضرائب المنخفضة، وتوسيع نطاق تشريعات الرفاهية المبكرة وامتلاك المنازل^(١). وهذا التصرف نجح فقد ظل المحافظون يحتفظون بالسلطة طوال أغلب هذه الفترة، وسيطروا على الحكومة الائتلافية التي شكلها لويد جورج والحكومة الوطنية التي استمرت في الفترة من (١٩٣١ - ١٩٣٥م). وبشكل عام فإن قضايا الإمبراطورية قد تم ترحيلها جانباً لصالح القضايا الأكثر إلحاحاً مثل الاقتصاد ومسألة الحفاظ على الأمن الدولي. وعندما كانت مثل

هذه الشئون تخضع للنقاش فإن قادة الحزب كانوا يذهبون إلى حد كبير نحو تأمين توافق عام في البرلمان حولها. فقد تم استشارة جميع الأحزاب فيما يتعلق باقتراحات مونتاجو- شيلمسفورد بشأن الهند، وقد وافق ستانلى بلدين (Stanley Baldwin) على سياسات ماك دونالد بشأن الهند (MacDonald) على الرغم من التذمر الذى أبداه أعضاء البرلمان من المحافظين، وقد حظى قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥م بدعم جميع الأحزاب.

وقد انزعج الكثيرون من المحافظين بسبب هذه التطورات. وفى عام ١٩٣١م فإن تشرشل عبّر عن غضبه من الانتهاكات التى يقوم بها السيد غاندى، بصفته محامياً ينتمى للطبقة الوسطى مثيراً للفتن، والآن فإنه يتظاهر بأنه أحد الصوفية الفقراء من ذلك النوع المعروف جيداً فى الشرق، وهو يخطو خطوات واسعة وهو نصف عار متوجهاً نحو قصر نائب الملك، وبينما هو يستمر فى تنظيم حملة للعصيان المدنى وتبفيذها، فإنه يتفاوض حول شروط متكافئة مع ممثل ملك الإمبراطورية". وهذه المعارضة بجانب المعارضات اللاحقة لتوسيع نطاق الحكم الذاتى فى الهند كانت تعزف على النغمة المفضلة للعديد من المحافظين، وقد كان هناك ما يزيد على سنتين عضواً فى البرلمان مستعدين لمساندة تشرشل فى حملته التى استهدفت قلب السياسة الرسمية. ولكن جهوده لم تجدِ نفعا، ولكنهم ظلوا يتذكرون، أنه من الآن وفيما بعد هناك أقلية صاخبة فى الجناح اليمى. من حزب المحافظين بالنسبة لهم كانت الإمبراطورية يمكن استردادها، وأنه بطريقة ما يمكن الحفاظ عليها لأجل غير مسمى.

لكن التاريخ لم يكن فى صف هذه النظرة للإمبراطورية. فالتاريخ دائماً كان متقلباً ويحدث كثيراً من التغييرات المتكررة فى نوع إدراك

الجماهير وغايتهم فيما يتعلق بالإمبراطورية حيث تعرض أيضا للتغيير. وإذا نظرنا إلى أحد النقاشات التي جرت في مجلس العموم في عام ١٩٣٨م بشأن المستعمرات، فإن إيرنست إيفانز (Ernest Evans)، وهو أحد أعضاء البرلمان عن الحزب الليبرالي قد قارن بين نظرة الجماهير للإمبراطورية في وقت شبابه والآن.

ولد في عام ١٨٨٥م، وقد قضى فترة صباه في زمن كانت فيه فكرة الإمبراطورية مرتبطة في أذهان الناس بروح تحية العلم وممارستها. لكن الآن، فإن المزاج العام في البلاد مختلف تمامًا، فهناك معرفة أعمق بالإمبراطورية، وحالة من الأسف لبعض أحداث الاستغلال التي تمت في الماضي ورغبة صادقة في تطوير المستعمرات لكي تصبح في صالح الجميع^(٢).

وهذه النظرة الحيادية غير الذاتية المتعلقة بواجب بريطانيا نحو رعاياها لم تكن جديدة فهي ترجع بجذورها إلى المثاليين الإنجليز والليبراليين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الذين اعتقدوا أن رسالة بريطانيا هي أن تقوم بترقية الأعراق الجاهلة والمتخلفة، سواء من الناحية المادية أو الأخلاقية. وإلى حد ما فإن هذه النظرة للإمبراطورية القائمة على الخير قد فقدت بريقها أثناء فترة التوسع العدواني في ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، عندما كان بناء الإمبراطورية نشاطًا تنافسيًا وكانت فيه الميزات الاقتصادية والإستراتيجية هي الجائزة، إلا أنه حتى عندما جار الوطنيون المتطرفون عاليًا بأن الإمبريالية لا تحتّمى بالمبادئ الأخلاقية فإن هذه الأفكار استمرت في الازدهار، على الرغم من أن تطبيقها كان قاصرًا على المناطق التي يسكنها البيض، التي تمتعت بالحريات الموجودة في الوطن الأم وقد حققت بشكل مطلق الحكم الذاتي لها.

وكان العالم فيما بعد الحرب أكثر تقبلاً لمثل هذا المفهوم التقليدى للإمبراطورية كقوة تعمل من أجل التجديد والتقدم. والإمبريالية ذات الطابع الأبوى انتعشت بقيام عصبة الأمم عندما قامت الأخيرة بوضع نظام الانتداب فى عام ١٩٢٠م. وقد حصلت بريطانيا على ما كان يُطلق عليه فى السابق شرق إفريقيا الألمانية، والتي تمت إعادة تسميتها ببتجانيقا، والكاميرون وكذلك العراق وفلسطين بينما قامت كل من أستراليا ونيوزيلاندا باقتسام المستعمرات الألمانية فى المحيط الهادى. وكل دولة من هذه الدول تعهدت بأن تكرس نفسها من أجل "تحسين حالة المستعمرات والعمل على تقدم الأعراق المختلفة الموجودة فى المستعمرات" التى وضعت تحت مسؤوليتها. والطريقة التى تم بها إنجاز هذه الأهداف فى مختلف أنحاء الإمبراطورية تم شرحها بواسطة وليام أورمبى جور (William Ormsby Gore)، وزير المستعمرات، فى إذاعة البى بى سى فى مايو من عام ١٩٣٧م. فقد كانت وزارته مسئولة عن أربعين مستعمرة ملكية وأقاليم واقعة تحت الانتداب يبلغ مجموع سكانها خمسة وخمسين مليون نسمة. وقد كان مستقبل هذه المستعمرات يعتمد على طريقة حكم شعوبها تلك الطريقة التى أطلق عليها "فن وممارسة الإدارة المتحضرة" من خلال التعليم وإعطاء الأمثلة". وفى ذلك الوقت فإن "الإدارة المدنية" المشكلة من السكان الأصليين قد أصبحت بشكل كامل ونهاى مسئولة عن الإدارة والتى كانت تتشأ وتخطو على نفس خطى الإدارة البريطانية السابقة لها. وقد كان هذا أمر لا يمكن تجنبه وفى نفس الوقت مرحباً به، كما ذكر أورمبى جور، "حتى النوع الأفضل والأكثر تنوراً من الحكم الخارجى لا يمكن أن يكون على المدى الطويل هو أفضل بديل للحكم الذاتى فيما يتعلق بالتقاليد والخصائص المحلية لكل شعب على حدة"^(٣).

وقد كانت كفاءة الإدارة الاستعمارية البريطانية هى مصدراً مبرراً للفخر.

"قشعوب المستعمرات ليست مجرد رعايا لجلالة الملك"، وقد تباهى مالكوم ماكدونالد، وزير المستعمرات في الفترة من (١٩٣٨ - ١٩٤٠م)، "أنهم بالفعل سعداء باعتبارهم رعايا لجلالة الملك"^(٤). وهذا هو ما كانوا يظهرونه في الصحافة الشعبية. وفي إبريل ١٩٣٩م فإن قراء جريدة بكتشر بوست قد شاهدوا صوراً لمجموعة من التلاميذ الهنود يجتمعون حول سبورة مستديرة في مدرسة مفتوحة في الهواء الطلق. وبعد شهر فإن نفس المجلة قامت بنشر لمجموعة من الزعماء من الكاميرون يتعلمون كيف يحكمون بالعدل بجانب نص يعكس التنوير الإنساني الذي تُقّمه الإدارة البريطانية للمستعمرات عكس ما كانت تقوم به ألمانيا التي كانت تحكم هذه المستعمرة قبل عام ١٩١٦م^(٥).

وقد كانت الدروس التي يتلقاها الزعماء جزءاً مما أطلق عليه ماكدونالد "عملية ثورية" تجرى في جميع أرجاء الإمبراطورية. وقد كانت السياسة الرسمية تجاه إفريقيا: "أن يتم تعليمهم وتشجيعهم دائماً حتى يستطيعوا أن يكونوا قادريين على الوقوف على أقدامهم". والحب الذي نكنه للحرية ليس فقط لنتمتع بها وحدنا ولكن أيضاً من أجل الآخرين، وهي هدف السياسة الصحيحة التي يتم تطبيقها في كل أرجاء الإمبراطورية". وقد كان وضع مثل هذا المبدأ موضع التطبيق يحتاج إلى وقت، وقد أضاف مشيراً إلى أن نيجيريا، كانت في ذلك الوقت واحدة من أكثر المستعمرات تقدماً، "كانت مستعدة من أجل الحصول على الحكم الذاتي"^(٦). ووفقاً لكلمات أحد المعلقين المعاصرين على الشئون الإمبراطورية، "بالنسبة للأوروبيين، فإن الأفارقة ما زالوا أطفالاً في سن المدرسة"^(٧). وقد كان هذا، على الأقل تحسناً نوعياً في مقابل الطفولة الجاهلة والعنيدة التي اتصفوا بها منذ خمسين عاماً مضت.

وعندما تتقدم الأعراق السوداء والملونة الخاضعة للإمبراطورية للأمام، فإنه من المفترض أنهم سوف يتقدمون للأعلى. وتقدم البشرية نحو التضرر كان يُنظر له في ذلك الوقت على أنه يشبه صعود جبل، والأوروبيون يقومون بتسلق هذا الجبل بسرعة أكبر وقد أصبحوا قريبين الآن من القمة، إن لم يكونوا قد وصلوا لها بالفعل، في حين أن الأعراق الأخرى ما زالت لم تقم بتجاوز منطقة السفح. وهذا الفهم لطبيعة التقدم البشرى بجانب النظريات الحديثة الخاصة بالداروينية الاجتماعية، قد منح الأوروبيين شعوراً قوياً بالتفوق العرقي. ففي حين أنهم قد قاموا بالتكيف بشكل جيد مع بيئتهم فإن شعوب أفريقيا وآسيا وأستراليا يفتقرون إلى المهارات العلمية والفنية التي دفعت بالأوروبيين للأمام وخلال القرن التاسع عشر وجعلتهم سادة على أغلب أنحاء العالم. وعلى العكس من ذلك فإن ما كان يطلق عليه الشعوب البدائية أو المتخلفة قد تخلفوا بسبب ارتباطهم اللاعقلاني بخرافات سخرية وأحياناً خطيرة. وبذلك فإن الإشارات كانت لا تزال عامة في فترة ما بين الحربين، وبالنسبة للهندوس فإنها كانت تعمل بمثابة كوابح للتقدم الهندي.

فمجموعة التابوهات (المحرمات) والشعائر الخاصة بالأفارقة كانت تعرض في الغالب، خاصة بواسطة رجال الإرساليات التبشيرية، كمعيقات أمام التقدم الأخلاقي والمادي. ولأن هذه الأشياء مستقرة داخل قلب الأفارقة فإن ذلك القلب المظلم عادة يبدو أنه من المستحيل إيصال النور إليه. وفي عام ١٩٢١م فإن أحد رجال الإرساليات التبشيرية في كينيا قد أظهر استياءه من قوة المعتقدات الوثنية التي لا تزال تؤثر على عقول الشباب من السكان الأصليين. فأى فتاة وفق ما كتب، هي "بقرة تظل تحت رعاية أمها الوثنية التي لديها أفكار عن الجنس والاستجمام تبدو بدون شك سيئة للغاية مقارنة بالعاليم المسيحية"^(٨). وهذه الأفكار التي كان يعتقد بها رجل الإرسالية هي

بالضبط ما ذكرها أحد حكام كينيا الذى شاهد حفلة ختان لفتاة فى عام ١٩٤٤م. بعدها قام بكتابة الآتي: "الأمر كله تعصب وشيطانية وقد جعلنى أتساءل إن كنا التقينا قبل ذلك مع الأفارقة"^(٩)، ومثل هذه الخبرات قد أقنعت حتى أكثر العقول ليبرالية بأن عملية تحديث أفريقيا الجارية قد تتطلب الكثير من العقود من أجل أن تتحقق.

أكدت أدبيات الرحالة المشهورين تخلف رعايا المستعمرات البريطانية أو غرابة عاداتهم وأزيائهم. وفى تسجيل لإحدى الرحلات عبر نيجيريا فى عام ١٩٢٥م والتى كانت مخصصة لاصطياد الحيوانات البرية فيها، تضمنت هذا التوضيح الجانبي: "هنا بشر كاملون من الناحية البدنية ولكنهم يملكون عقلا لا يزال فى مرحلة التطور وإدراكاً محدوداً للغاية". وقد عدّ المؤلف هذه الحالة نتيجة إما بسبب "الكسل" أو أن المخ لا يزال لم يكمل تطوره بعد"^(١٠). وقد كان من المعتاد للغاية أن من يكتبون عن أفريقيا وأستراليا يركزون على ما هو غريب، ومن خلال الجمع بين النثر الجميل والصور الرائعة، يصورن الإمبراطورية الاستوائية على أنها مسكونة بنوع من الوحوش البشرية فيها مخلوقات ترتدى أزياء رائعة أو لا ترتدى ملابس على الإطلاق. وهذا النوع من المواد قد ظهر بشكل منتظم فى كل من جريدة إليوسنراتيكر لندن (illustrated London) وجريدة الكوكب (sphere)، عادة مرتبطة بجولة ملكية، وهو ما يجعل الأخبار تستحق أو بطريقة أخرى تصور المياه الراكدة للمستعمرات.

وكانت الأنثروبولوجيا الشعبية من هذا النوع إحدى الدعامات الأساسية لموضوعات المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية، والتى كانت تقوم بصياغة صور أكثر تضليلاً عن المستعمرات البريطانية. وقد كانت مثل هذه المقالات منتشرة للغاية، وكانت تصاحبها نصوص لقصص كُتبت بلغة صحفية شائقة.

والكتابات التى تمت فى فترة ما بين الحربين كانت تلخص الصراع فيما بين سيارات المؤلفين ووحيد القرن، وهو ما كان يرمز إلى الشعوب الأصلية، الذين يظهرون عادة مبتسمين ويرتدون ملابس مزخرفة فى مهرجاناتهم. وقد كانت كفافتهم توصف بشكل يحمل طابع الوطنية، وقد كان مكانهم فى مخطط الأشياء محدد بوضوح: الباغندا (Baganda) هم شعب مرح ولطيف وهم يتجهون بسرعة لتقليد البيض فى أزيائهم وأسلوب حياتهم، وهم يتدربون على أن يصبحوا خدماً فى المنازل أو مرشدين أو ما شابه ذلك من أعمال^(١١).

وهناك أيضاً نمط كان مألوفاً فى هذه الفترة وهو الرجل الأسود المضحك على المسرح وفى المجلات الفكاهية. وقد ظهر هذا الشكل من التمييز بشكل متكرر خلال أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين فى رسومات مجلة بنش (punch) التى كان يرسمها تشارلز جراف (Charles Grave) والتى كانت دائماً ما تتحدث من خلفية غرب أفريقيا. وهذه الأشكال الساخرة كانت تعتمد على مظهر الشخصيات، الذين كانوا فى العادة صوراً مقلدة من الزى الأوروبى، واللهجات الخاصة بلغاتهم. وفى إحداها كانت مؤسسة الشحن التى تعمل على أحواض سفن شبيهة بالسفن الأفريقية ويرتدون بذلة بيضاء غير مناسبة. وقد نص العنوان على الآتى بلهجة تخطئ فى نطق الحروف: "لماذا ترتدى نظارات سوداء لعينة؟ هل هناك شئ أصاب عينيك؟"، "لا ولكنها تتماشى مع وجهي"^(١٢).

ومثل هذه الصور واللوحات المرسومة للشعوب الأصلية فى الكتب والمجلات الأكثر جدية كانت بمثابة أدوات تذكير غير مباشرة بأنه لا تزال هناك نظم عرقية داخل الإمبراطورية. وأولئك الذين يحتلون قاع الجبل هم فى هذا المكان لأنهم مصابون بالعديد من أوجه النقص والقصور، وهى أوجه نقص أخلاقية فى المقام الأول، إلا أنهم كانوا أحراراً فى أن يرتقوا بأنفسهم

إذا توقفوا عن بغض العادات والقيم الخاصة بحكامهم وقبلوا بريادتهم لهم. وحتى عندما يسبرون فى هذا الطريق فإنهم سوف يكونون عرضة للسخرية، ولا يمكن لهم أن يحققوا المساواة بشكل تلقائى مع الرجل الأبيض والقدرة على أن يكونوا جزءاً من مجتمعه.

ولكن هل هذا يستحق التعب؟ فتوماس بيرلى (Thomas Birley)، أسقف زنجبار، والذي امتدت إيراشيته لتشمل تنجانيقا، تساءل فى عام ١٩٢٠م إذا كان الرجل الأسود هو الخاسر بشكل مطلق إذا قام بتحويل نفسه إلى "شكل مزيف" من الرجل الأبيض". "بمعرفه ما يكرهه الأوربيون فيهم" فإن الزوج "يسعون إلى خداع أنفسهم من خلال التقليد الأعمى لعرق أرقى منهم" (١٣). وأولئك الذين قد تغير مظهرهم من خلال التعليم الغربى كانوا أيضا معقدين بسبب ما يحدث لهم، خاصة اغترابهم عن جنورهم. فى عام ١٩١٦م، فإن جريدة سجل لاجوس اليومى (Lagos Daily record) قد رأت أن النيجيريين المتعلمين يمكن أن يتعلموا شيئا من التاريخ الحديث لليابان، وهى الأمة التى استعارت الكثير من أوربا، ولكنها لم تهجر ديانتها المحلية وكذلك القيم الأخلاقية لها ولا أنماط الأزياء التى يرتدونها (١٤). ومثل هذا الطرح كان مفهوما بمجرد أن يبدأ السود فى أن يكتشفوا أنفسهم بعيدا عن البيض الذين، وفق ما حققوه، يعتبرون مساوين لهم.

واعتقد الكاتب الذى ينتمى للهند الغربية س. ل. ر. جيمس (C. L. R James) أنه يجب عليهم ذلك، وقد وضع فى أحد الحوارات التى أجريت معه فى إذاعة البى بى سى فى مايو عام ١٩٣٣م، وكان ذلك الوقت يتزامن مع الذكرى المئوية لإلغاء العبودية، وجيمس المنحدر من عبيد، شرح كيف قامت عائلته بتطوير نفسها من خلال التعليم. ويتذكر المستمعون أن فريق الكريكت

الخاص بالهند الغربية الذى تجول فى بريطانيا فى عام ١٩٣١م كان يشتمل على معلمين ورجال أعمال وصيارفه ومشرفين صحيين، الذين كانوا يمثلون الطبقة الوسطى المتنامية فى هذه الجزر، إلا أن البيض استمروا فى القول بأن السود ما زالوا غير جاهزين لحكم أنفسهم.

لقد كان ولاء شعوب الهند الغربية للإمبراطورية قوياً للغاية، كما وضع ذلك فى الحرب العالمية الأولى واتضح مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية، ولكن جيمس كان يرى أن "الشعوب التى تحكمها أجنب عادة ما يشعرون أنهم يعاملون بطريقة دنيا وعلى أنهم متخلفون وغير ناضجين وهذا ما كان يؤدى إلى استياء الكثيرين منا"^(١٥).

وطبقاً لما ذكره جيمس، فإن مستقبل شعوب الهند الغربية يعتمد على شبابها، وكانوا فى ذلك الوقت قد سافروا للدراسة فى بريطانيا. والبعض منهم قد شهد ترحيباً بارداً. ولكن أياً منهم، مهما كانت مؤهلاته، لم يُسمح له بأن يدرس فى مستشفى سانت ماري فى لندن لأن عميدها، وقد كان الطبيب الخاص لتشرشل وهو لورد موران (Lord Moran) كان يكن البغض لجميع السود^(١٦). وقد كان محظوراً على السود أيضاً التسجيل فى الأكاديمية الملكية الخاصة بالفنون الدرامية^(١٧). وقد كانت هذه أمثلة لما كان يُطلق عليه فى هذا الوقت "حاجز اللون" وهى مجموعة من الأحكام الفردية المسبقة التى كانت تستثنى جميع السود والملونين من الإقامة فى المنازل والفنادق وأماكن الترفيه العامة، خاصة صالات الرقص، فى جميع أنحاء بريطانيا.

وظهر مدى عمق التمييز العرقى البريطانى وعنفه بشكل جلي فى أعمال الشغب العرقية فى ليفربول وكارديف التى حدثت فى يونيو عام ١٩١٩م. فكلتا المدينتين كانت تسكن فيها نسبة كبيرة من السكان السود، وهم فى أغلبهم قادمون من أقاليم ما وراء البحار، وممن وصل حديثاً من الذين

كانوا يسعون للحصول على عمل فى فترة الحرب فى السفن وفى المصانع. والخبرة الخاصة بالمهاجرين من الإيرلنديين واليهود فى القرن السابق، قد جعلت التوترات عادة ما تكون أسوأ فى المناطق التى كانوا يتجمعون فيها بأعداد كبيرة، وفى الأوقات التى يكون فيها الصراع على فرص العمل شديداً. وقد توفرت هذه الظروف فى كل من ليفربول وكارديف، حيث إن الخدم المسرحيين دخلوا إلى سوق العمل وقد مثلوا إضافة إلى الكراهية العرقية الموجودة.

ففى ليفربول حيث كان عدد السود يصل إلى ٥٠٠٠ شخص، هوجم أحد منازل الملونين بواسطة ٢٠٠٠ شخص من الغوغاء، والعديد من السود فروا مرعوبين يلتمسون الحماية من مركز شرطة توكسنت (Toxteth)، وقد تم اعتقال أحدهم وهو يحمل قضييّا حديديا وراية مكتوبًا عليها "فليسقط الجنس الأبيض"، والآخرون ذكروا بأنهم رعايا بريطانيون؛ ولذلك فمن حقهم الحصول على العدالة. وفى كارديف، حيث كانت هناك جماعات من الزنوج والعرب والصوماليين، فإن المشكلات التى بدأت بالشجار بين جماعات من السود والبيض انتهت بمقايسة العمال. وقد أدى هذا إلى أعمال شغب على نطاق واسع، وفى أثناءها فإن العصابات قد ثارت فى جميع أنحاء ما كان يطلق عليه السكانُ حى الزنوج، بالقرب من أحواض السفن. وقد قام الدهماء باقتحام منازل السود، وبعض المالكين قاموا بالدفاع عن أنفسهم باستخدام المسدسات. وقد قتل رجل إيرلندى وأحد الزنوج. وقد ذكرت التقارير الخاصة بهذه الاضطرابات أنه قد ظهر عداء شديد للرجال السود المتزوجين من نساء بيض.

وقد لفت ذلك انتباه رالف ويليامز، (Ralph Williams)، وهو مدير سابق فى بتسوانا لاند (Bechualand)، ووصفه بأنه اندثار بغيض. وقد كتب

لجريدة التايمز وأكد أن "الارتباط الحميم فيما بين الرجال السود أو الملونين والنساء البيض شيء يربح كل رجل أبيض موجود في المناطق الاستوائية"^(١٨). فالقلق الجنسي والغيرة هي أمور قريبة من قلب البريطانى، وبسبب ذلك ظهرت العنصرية الأمريكية. فلقرون عدة كان هناك اعتقاد شائع بأن الزوج يملكون طاقة جنسية خاصة، جزء منها يرجع إلى أنهم أشبه بالحيوانات وجزء آخر راجع إلى الأساطير التى نسبت إليهم أنهم يملكون عضو ذكر أطول من الرجال البيض. ولم توجه مثل هذه الغيرة الجنسية أو الحقد المصاحب لها إلى الرجال القادمين من الشرق الأقصى أو الملايو، الذين تعلموا ألا يساؤون أنفسهم بالأوروبيين، وقد يكون هذا هو السبب فى السجل الجيد لنيوزيلندا فيما يتعلق بالتجانس العرقى^(١٩). والقلق من الطاقة الجنسية المزعومة للرجال السود كان هو السبب خلف تلك القوانين التى فرضت على بعض سكان جنوب أفريقيا الذين كانوا يحكمون بواسطة أوروبيين، مثل قانون مكافحة الفجور فى جنوب أفريقيا سنة ١٩٢٧م، هذا القانون الذى حرم إقامة علاقات جنسية فيما بين الأعراق. والممثلون البريطانيون الذين رحلوا إلى جنوب أفريقيا للقيام بتصوير فيلم زولو (Zulu) فى عام ١٩٦٢م قد تم عمل مجازة لهم عن المحرمات الجنسية فى البلد، وهو ما حدث السير ستانلى باكر (Stanley Baker) أن يقول بأن عدة مئات من نساء الزولو كان عليهم أن يقبعوا فى السجون لآلاف السنين. وقد كان الزواج المختلط مسموحاً به فى جنوب أفريقيا حتى عام ١٩٤٩م، ولكن الذين كانوا يقومون به يعانون من النبذ، بالنسبة للنساء من البيض، والاحتقار ممن ينتمون لجنسها. وفى عام ١٩١٥م عندما تزوج أمير من بودوكوتا (Rajah of Pudukota) من الأنسة مولى فينك (Molly Fink)، وهى فتاة أسترالية، فقد تعرض لمعارضة مشتركة من أوستن تشامبيرلن (Austen Chamberlain)، وزير الدولة لشئون الهند، وجورج الخامس

والملكة ماري ومنع من أى فرصة لإقامة دعوى أمام المحكمة^(٢٠). والمثير أنه فى ذلك الوقت فإن ثلاثين من الولايات الأمريكية الثمانى والأربعين كانت تحظر الزواج المختلط.

وقد كان من البدهى أن حياة أى امرأة بيضاء وعفتها، كانتا مقدستين فى جميع أنحاء الإمبراطورية، على الأقل إلى أقصى حد يمكن أن يعرفه السكان الأصليون. وحادثة قتل إحدى النساء البريطانىات وإجهاض ابنتها بوساطة الباثانيين على الحدود الشمالية الغربية فى عام ١٩٢٣م قد أدت لاقتناع أحد المسئولين الكبار بأن الهنود لم يعودوا يحترمون السلطة البريطانىة^(٢١). وهذا العرف لم يكن يمتد ليضفى نفس الحماية على النساء السود أو الملونات. "قأوريا تعانق المرأة الأفريقية وفى نفس الوقت تطلق على الرجل الأسود "الزنجى الملعون"، وهذه هى العبارة التى وصف بها أسقف زنجبار هذا التمييز^(٢٢). وقد كان هناك ما يشير أن الممارسات العصرية التى من خلالها يكون من المسموح للناشرين المحترمين بأن يعرضوا كتبهم وبها صور لنساء أفريقيات أو أستراليات عاريات الصدور أو لا ترتدى المرأة إلا القليل للغاية من الملابس، ولكن لا تسمح بنشر صور لنساء بيض شبه عاريات. ونحن لسنا فى حاجة إلى قول، بأنه كان يتم تصوير الرجال السود عادة وهم عرايا فى وضع خاص مخجل. وإلى حد كبير، فإن حاجز اللون كان يمثل سدا يمنع الاتصال الجنسى، وقد كان ذلك مرحبا به.

وقد أرسلت إحدى الأمهات القلقات تسأل إحدى الصحف المحلية فى لندن فى عام ١٩٤٣م "ما الذى كان سوف يحدث إذا ذهب الشباب الإنجليزى كل ليلة بصحبة فتيات هنديات أو صينيّات أو ملايويات جميلات وهناك كثير منهم يقومون بذلك"^(٢٣). ومثل هذه الأحكام المسبقة لم تكن تقتصر فقط على البيض غير المتعلمين أو اليمين الساذج، ولكنها كانت تتجاوز كل الحدود الطبقيّة والانتماءات السياسية. ففى حين كان الراديكاليون والاشتراكيون

المنتمون للطبقة الوسطى عادة يختلطون بسهولة مع نظرائهم من الأفارقة أو الهنود، فإنيهم يمكن أن يخضعوا بسهولة للتعصب العرقي. وقد كانت بياتريس ويب (Beatrice Webb) مرعوبة من عادات الصينيين في أثناء زيارتها للصين في عام ١٩١١م، وقد تركتها وهي مقتنعة بأن الشذوذ الجنسي والمخدرات والعلاج بالشعوذة كانت بمثابة الدليل على وجود انحطاط أخلاقي لا يمكن تغييره^(٢٤). وبشكل عام فإن حزب العمال كان يقف عادة ضد أي تمييز عرقي، ولكن عندما اختارت سيريتس خاما (Seretse Khama)، في عام ١٩٤٨ أن تتزوج روث ويليامز (Ruth Williams)، وهو أحد رجال الدين البيض، فإن وزراء حزب العمل قد وضعوا مصالحهم فوق المبدأ. واستجابة لضغوط جنوب أفريقيا والخوف من حدوث ردود أفعال معاكسة في بانجوانو (Bangwato) فإن الحكومة قد منعت سيريتس خاما من الحصول على ميراثه. وباتريك جوردون والكر (Patrick Gordon Walker)، الذي أصبح فيما بعد وزير الدولة لعلاقات الكومنولث أراد أن يقوم بحظر كل أشكال هذا الزواج^(٢٥). إلا أنه كان هناك ماسونيون أحرار بين الطبقة الأرستقراطية مكنوا سلاطين الملايو وراجات الهند بأن يتحركوا بحرية فيما بين أعضاء الطبقة العليا البريطانية.

وعن طريق واحد من هؤلاء الأشخاص المذهلين الذين كانوا يوجهون التقاليد الاجتماعية والعرقية، وهو النائب من باتاودي (Nawab of Pataudi) الذي سافر باعتباره رجلا مهذبا، ولا تعوزه الخبرة، مع فريق الكريكت الذي قام بجولة في أستراليا أثناء شتاء عام ١٩٣٢، ١٩٣٣، قبل المباريات وبعدها كان يشارك غرف الملابس مع غيره من الرجال المهذبين، بخلاف المحترفين أو اللاعبين، وهي العادة التي كان يعتبرها الجميع عادة شاذة؛ لأنها كانت تحدث في بلد يقوم باستبعاد جميع المهاجرين الملونين.

وقد كان حاجز اللون آفة تآكل في الإمبراطورية. وقد مر بها، ولكن بدرجات مختلفة، الجنود السود والملونون أثناء الحرب العالمية الثانية وهو ما أدى إلى اهتزاز إيمانهم بالإمبراطورية باعتبارها مجتمعًا مكونًا من بشر متساوين. فلون جلد الرجل كان يحدد ما إذا كان يمكن أن يستوطن في أستراليا أم لا، وكذلك إن كان سوف يعطى حق التصويت في كولومبيا البريطانية أم لا، ومضيّقًا عليه في كل الأنشطة التي يقوم بها في جنوب أفريقيا أم لا. وقد كان البريطانيون فاسدين للغاية. وعندما أصبح السير هاج كنتاجبول-هوجيسين (Hugh Knatchbull-Hugessen) سفيرًا في فارس في عام ١٩٣٤م اكتشف أنه كانت هناك "مشاعر بأننا لم نقم بتطهير أنفسنا من" عقد القرن التاسع عشر" ولم نكن نقوم بمعاملة الفرس على أنهم مساوون لنا^(٢٦). وقد اشترك كل من المصريين والعرب والهنود في الإحساس بنفس هذا الشعور، واكتشفوا أنه خلف الستار الذي كان يغطى الحكومات البريطانية المتتالية التي كانت تمنع في منح حق تقرير المصير لبلادهم يكمن اعتقاد متجذر بأن الأعراق غير البيضاء تعاني من عجز غير قابل للمحو في قدرتهم على إدارة شئونهم الخاصة.

وعلى العكس من ذلك فإن اكتساب المهارات السياسية كان يتم بسرعة وسهولة أكبر بالنسبة للبيض. وبالنسبة لمن أصيبوا بعدم الصبر والإحباط، فإن الكومنولث كان ناديًا للرجل الأبيض؛ لأنه قام باستبعاد كل من ينتمي إلى سنغافورة ونيروبي على أساس عرقى، من أن يكون لهم الحق في الدخول إلى صالات الرقص.

(٧)

ميثاق الروح الواحدة والرأى العام

فى الإمبراطورية

(١٩١٩-١٩٣٩)

يتضح حاجز اللون أثناء الفترة التى كانت تبذل فيها جهود عظيمة من أجل تدعيم وحدة الكومنولث والإمبريالية.

حسنت ثورة الاتصالات- التى بدأت وتيرتها تتسارع بعد عام ١٩١٩- فرصة تكون إمبراطورية مترابطة بشكل أكبر، فقد حررت وسائل السفر الجوى بعيد المسافات ووسائل الاتصال اللاسلكى الإمبراطورية من القيود الجغرافية، وقد تم اعتبار الطيران رباطا يمكنه الربط بين مستعمرات الإمبراطورية المتناثرة بشكل عشوائى فى كل أنحاء العالم. وبحيث إن الرحلة لا تستغرق عشرين يوما من لندن إلى أستراليا فى نهاية هذا العام؛ حيث إن روس سميث كان يعتقد أن ذلك قد يحقق التقارب بين الجهات المسؤولة فى الإمبراطورية. مستكشفة أخرى، هى السيدة ج. أ. مولينسون أمى جونسون، أخبرت مستمعى هيئة الإذاعة البريطانية (بى بى سي) فى عام ١٩٣٢ أن غرض طيرانها الأخير من لندن إلى رأس الرجاء الصالح عن طريق غرب أفريقيا كان "المحافظة على الصداقة والرفقة بين كل الأجزاء المتناثرة للإمبراطوريتنا"^(١).

كانت استجابة الحكومة إلى الرغبة في السفر السريع خيالية وغير متوقعة، وفي نهاية الحرب كانت بريطانيا تمتلك أكبر صناعة للطائرات في العالم التي كانت تنتج في منتصف عام ١٩١٨، ٤٠٠٠ من الطائرات شهريا والكثير من الطيارين المدربين^(٢). وبعد شهور قليلة من نهاية الحرب اعتمدت على أكثر الطيارين مهارة وجرأة للقيام برحلات جوية رائدة طموح، فالكوك وبراون عبرا المحيط الأطلسي في مايو، وتمكن روس أسميث من الوصول إلى أستراليا من خلال العراق والهند والملايو، وفي مايو ١٩٢٠ طار اثنان من جنوب أفريقيا من القاهرة إلى كيب تاون. أثارت هذه الإنجازات الكثير من الإثارة في الرأي العام، ولكن اقتناع الحكومة بالطيران المدني في الإمبراطورية كان خجولا جدا. وأدى اختلاف الأمر واحترام مبادئ التجارة الحرة ومبادئ السوق الحر إلى تردد الوزراء والموظفين الحكوميين في استثمار الأموال العامة في الطيران في زمن كانت تعاني فيه الحكومة من عجز في المال.

الإعلان عن العديد من الأفكار في غرب أفريقيا عن الخدمات الجوية التي كانت ضحية الروتين الرسمي، وفي ديسمبر ١٩٢٣ مع ممارسة الضغط من جانب المؤتمر الإمبريالي عام ١٩٢١ اتخذت الحكومة القرار من أجل إقامة الطيران المدني وإقامة العديد من المسارات الجوية التي اعتمدت على مليون جنيه إسترليني، والإعلانات الحكومية على مدى عشر سنوات واحتكار هذه الطرق المختلفة في إطار تطوير صناعة الطائرات البريطانية، والتي قد تحولت إلى الأمام والمنافسين من الألمان والأمريكان والفرنسيين^(٣). وتم الوصول إلى مستوى أبعد من الخيال والتنظيم على أيدي الأستراليين؛ عندما تم تأسيس خدمة الطيران لكوينزلاند والأقاليم الشمالية (QANTAS) عام ١٩٢٠، لتربط بين مستوطنات المناطق النائية الأسترالية المتفرقة،

وفى عام ١٩٢٥ بدأت رحلات جوية منتظمة من بريسبان (Brisban) إلى سنغافورة وافتتحت شركة الطيران الإمبراطورية خدماتها إلى القاهرة وكرانتشى فى نفس العام، متحدة خدمات الحكومة المصرية التى اعترضت على احتكار الشركة البريطانية. وفى يناير ١٩٣٩ انتظمت الرحلات بين لندن وكيب تاون من خلال باريس وبرنديزى والإسكندرية والقاهرة والخرطوم، والتى حصلت على المعونات من الحكومات الاستعمارية، بالإضافة إلى الطرق الجوية وبريطانيا وجنوب أفريقيا الذين تعهدوا معا بمليون جنيه إسترليني سنويا لمدة خمس سنوات^(٤).

بعد هذه التجربة الخاصة فى السفن الجوية والتى انتهت عام ١٩٢٩ خاصة بعد سقوط عدد من الطائرات فى الهند من ماركة (R101) فإن وزارة الطيران قد تحولت إلى الطائرات من أجل تقدير الخدمات الخاصة، والتى تقطع المسافات الطويلة عبر البحيرات والموانىء، والتى تتمثل أيضا فى الأسطول البحرى الذى بدأ فى العمل عام ١٩٣٨، حيث الطائرة كانت تنقل ثمانية عشر من الركاب وتقدم العديد من الخدمات والرحلات الأسبوعية من إنجلترا إلى مصر، والتى تمر على شرق أفريقيا وسنغافورة وهونج كونج وأستراليا، كما أن الاتصال اللاسلكى كان يشهد التطور السريع من أجل تلبية الاحتياجات فى أوقات الحرب، وكذلك من أجل الاستخدامات الميدانية التى يمكن أن تعمل على تقوية الروابط الإمبريالية وتعمل على إبراز الهوية القومية بين الرعايا.

العلاقات مع العالم المتحضر عبر الحدود الشمالية الغربية، وتقديم هذه الخدمات التى فشلت خلال عام ١٩٢٧، على الرغم من انتشار الاتصال اللاسلكى سريعا عام ١٩٢٩، وإصدار الترخيص إلى ٢٩٩ ألفا من محطات الاتصال فى أستراليا و٢١٦ ألفا فى كندا و ١٦ ألفا فى جنوب أفريقيا؛ حيث

إن سيلان قد اعتمدت على محطة خاصة عام ١٩٢٥، ولكن هذا التطور لم يكن سريعا في الهند ولم يكن مخططا، قبل عام ١٩٣٥ كانت هناك أجهزة بث في بومباي وكلكتا، وكان البرنامج متاحا لتوزيع أجهزة الراديو في القرى الريفية، وفي وقت استطاعت المستعمرات البعيدة أن تلتقط الموجات من الإذاعة البريطانية، والتي أدت إلى إقامة العديد من المحطات المحلية، وفي عام ١٩٤١ مع وجود ٣٨٥ من المحطات اللاسلكية في شمال بورنيو التي يبلغ تعدادها ٣٠٠٠٠٠ نسمة، والتي كانت تعتمد على اثنتين من المحطات المحلية^(٥). التي لم تكن جذابة إلى الشعب الصيني الذي يميل إلى الاستماع إلى البرامج الموسيقية الشعبية من مانيتا وسايجون وعدم الرغبة في التعرض إلى الثقافات الغربية التي لم تكن كلها تتسجم مع الإمبراطورية.

تتمثل القيمة العليا من الاتصال اللاسلكي في الربط بين الشعوب والإحساس بالمجتمع بين أنحاء الإمبراطورية البعيدة إلى جانب تقوية العلاقات بين بريطانيا والمستعمرات التابعة لها والتركيز على ولاء الرعايا كما يتضح من أعياد الميلاد عام ١٩٣٣، حيث إن الأعضاء من الأسرة الإمبراطورية قد استمعوا إلى جورج الخامس الذي يتحدث من سندين هام (Sandringham) عن الولاء إلى هذه الخدمة المستمرة إلى جانب بعض الإذاعات الحية من كندا وأستراليا ومضيق جبل طارق والسفن الموجودة عند شاطئ بورسعيد.

لقد كانت إذاعة جورج الخامس لعام ١٩٣٣ انقلابا إمبراطوريا في عالم المسرح، حيث وجبت الموجات الجوية من أجل الربط بين أنحاء الإمبراطورية إلى جانب البرنامج الطموح لهذه المحطة الإذاعية خلال هذه الفترة، والتي كانت تعمل على تقوية الصلات وكذلك تحقيق التنوع الثقافي والتعرف على الثقافات الأجنبية.

أعلنت إحدى المحطات عن عدم وجود اختلاف بين الأفراد والفئات والسهولة من استيعاب البرامج من هذه القنوات والمحطات، ويتضح ذلك من انتشار هذه القنوات المختلفة التى تعلن عن آراء المسؤولين؛ حيث إن الاتصال اللاسلكى كان يساعد فى الربط بين الشعوب المختلفة؛ والذى يخضع إلى المبادئ التى أعلن عنها جون رايس فى المباحثات بين الخبراء حول الشؤون المختلفة للإمبراطورية فى الماضى والحاضر والمستقبل إلى جانب الجدل حول العديد من الأمور والمشكلات عام ١٩٣٠، حيث إن عالم الآثار لوى ليكى أشار إلى خبراته الخاصة فى كينيا عند استمرار المسؤولين فى حكم أفريقيا وتجاهل العادات والتقاليد البنائية والاستياء العام من الاضطرابات^(٦). وأحداث الشغب؛ حيث إن هذه المحطات كانت تؤكد الحاجة إلى الإعلان إلى الجمهور والشعب فى الإمبراطورية عن المثاليات والأمور المهمة مثل السينما التى كانت تتمتع بالعهد الذهبى خلال هذه الفترة مع اعتبار أن الأفلام تمثل من أفضل الوسائل الترفيهية إلى الجمهور والمشاهدين مع إنتاج أكثر من ٣٠٠٠ من الأفلام عن الحرب فى بريطانيا خلال عام ١٩٢٦ و ٥٠٠٠ من الأفلام عام ١٩٤٠، ولذلك فإن السينما كانت تمثل الوسيلة من أجل نشر الرسائل الإمبريالية إلى الشعب والجمهور، وتوضح ذلك أهمية الأفلام خلال الفترة بين (١٩٢٦ - ١٩٣٠) وانعقاد المؤتمرات التى كانت تؤكد العديد من الأهداف الإمبريالية من جانب العاملين فى صناعة السينما، ويتضح ذلك من رئيس نقابة التجارة الذى أعلن عن القيمة السياسية لهذه الأفلام فى التأثير على الفكر العام لدى الشعب البريطانى إلى جانب انتشار العديد من الأفكار القومية، وكذلك رأى الخاص من السير جرامن فير الذى يمثل المفوض العام فى لندن والذى يشير إلى أن جميع الأطفال لا بد أن يشاهدوا هذه الأفلام البريطانية التى تصور الأحداث المختلفة فى تاريخ هذه الإمبراطورية^(٧). والى تدعو إلى إثارة المشاعر الوطنية لتعمل كترىاق مضاد لسيل المواد

الحسية والعنيفة وفى كثير من الأحيان الجنسية التى تتدفق من ستديوهات هوليوود. حيث، إن نسبة ٩٠ ٪ من الأفلام المعروضة فى بريطانيا تأتى من أمريكا بينما العناصر الأخرى من المجتمع ترى أنها تمثل مصدرًا للتلوث الأخلاقى.

لقد فعلت الحكومة ما عليها من أجل احتواء هذا التلوث وتعمل كذلك على حماية الإمبراطورية؛ وهى التى تمثل الواجب على المجلس البريطانى للرقابة التى تأسس عام ١٩١٢، والذى يعمل على النظر فى موضوعات الأفلام، وإن اقترح هذه النظرية يشير أن المجلس على استعداد أن يمارس الضغط على الحكومة كما حدث عام ١٩٢٥ عندما رفض تقديم الترخيص لأحد الأفلام التى تصور الجنود الإنجليز الذين يكشفون عن بعض الأعمال الشائنة، وأن العلاقات الجنسية بين السود والبيض من الإناث والذكور من بين الموضوعات المحظورة من جانب هذا المجلس، والذى أعلن عن ذلك عام ١٩٢٨ وقد أثير هذا الخطر عام ١٩٣٣ فى قضية فرانك كابران (The Bitter Tea & of General yen) ويتضح ذلك من هذا الفيلم الذى يصور الفتاة الأمريكية التى تقع فى حب أحد رجال الحرب الصينيين، كما أن هناك بعض المحظورات الأخرى التى تشمل تصوير الممتلكات الإنجليزية على أنها لا تخضع للقانون أو التصوير للرجال البيض فى حالة انحلال أثناء أعياد الميلاد، وأن هذه الحماية تمتد إلى الهنود والضباط فى المستعمرات، وتشير إلى الغرب الأمريكى البرى الذى يمثل من أهم مصادر أفلام المغامرات، وأن أحد هذه الأفلام يصور إحدى الملحقات الأمريكية ويعلن عن بعض التصريحات وكذلك الواجب على بعض الضباط وعلى الملك فى الحفاظ على السلام وتصوير بعض الأشرار فى هذه الأفلام من قبائل الهنود الحمر^(٨). كما أن هذا الفيلم الأمريكى يتناول هذا الموضوع الدرامى، بينما هناك فيلم آخر

يحمل اسم العاصفة في بلاد الهند الحمر في بورما، ويصور أيضًا الجيش البريطاني وعدداً من القضاة من خلال هذا السيناريو الذى يوضح الإمبراطورية الإنجليزية، وتشير إلى عدد من القضاة والزعماء إلى جانب العديد من الأفلام الإنجليزية التى تهدف إلى أكثر من الترفيه، وتشير كذلك إلى الشخصيات الطبية والشريرة والرجال الشجعان والأمناء، وتصور لنا أيضًا المشاعر الخاصة عن المنتجين لهذه الأفلام والمخرجين لها ^(٩). كما أن الحكومة تؤكد قيمة هذه الأعمال خاصة موقع أحد الأفلام المنتجة عام ١٩٣٨ والذى يحمل اسم (الريشات الأربع) وعام ١٩٣٩ يشير إلى الجيش الهندى الذى يقدم القوات فى ساحة المعركة والسلطات السودانية التى تضم ٤٠٠٠ من الجنود فى ساحة القتال فى أم درمان.

كما أن الحكومة السودانية قد ساعدت فى توريد عدد كبير من المحاربين، التى تمثل اللمة الأصلية على مشاهد المعركة إلى جانب أحد الأفلام الخاصة التى تشير إلى إقدام هؤلاء المحاربين ^(١٠).

الرسالة التى تتضح من هذه الأفلام البريطانية القديمة قد تكون مختلطة حيث إن فيلم روديس فى أفريقيا وفيلم كالايف فى الهند ١٩٣٦، يمثل أحد الأفلام الوثائقية عن السيرة الذاتية التى توضح الرؤية البعيدة وتشير إلى الازدواج التاريخى من خلال القائد البطل كودا فى فيلم سندرز والنهر الذى يتصف بالعملية، ويسعى إلى تحرير أفريقيا ويمثل الحاكم على منطقة النهر والذى يعلن إلى زعماء القبائل عن القوانين المختلفة التى يمكن أن تحقق الرخاء والسلام، وأن الإمبراطورية تشهد التقدم بفضل الزعيم بوزامبو الذى يرمز إلى سندرز ويتقاسم معه نفس الآمال فى المستقبل، وأن الماضى الأفريقى عن النشأوم يتضح من المالك موفو بولا الذى يعتمد على العرافين والسحر، بينما سندرز يعلن عن شائعة وفاته، وهو الذى يؤدى إلى تعثر

مسيرة السلام، وأن العديد من المصادر الأفريقية تؤكد أن سندرز عاد فى الوقت المناسب عند مقتل موفو بولا، بحيث إن أفريقيا الجديدة تتقدم إلى الأمام بفضل سندرز وبوزامبو الذى أصبح القائد العام والذى يعلن أن ابنه سوف يحصل على التعليم من أجل أن يتعرف على المبادئ التى عاش من أجلها.

يتضح أن الصراع بين التنوير الإمبريالى والظلام القبلى من موضوع هذا الفيلم الذى يدور فى الحدود الشمالية الغربية من الهند مع وجود الحاكم البريطانى روجار، بينما الخان هو المسئول عن الجهاد والذى يعتمد على الأسلحة المهربة من روسيا، وأن المؤامرة بين روسيا قد اعتمدت على سابو الذى يحترم شجاعة الخادمين للإمبراطورية والقيم والتضحية بالذات، وقبل زيارة الخان فإن الحاكم كان يرفض الالتماسات المقدمة من أجل الإقامة فى قلعته فى سبيل تقدم الحضارة بعد وفاته.

تشير هذه الأفلام إلى روح المغامرة وتصور كذلك الأبطال العائدين إلى الوطن والاعتقاد فى أن الامبراطورية هى رمز الاستقرار والعدالة والنسبة تعتمد على الرجال الشجعان، وعندما يأتى الوقت المناسب فإن ابن بوزامبو سوف يتحمل المسئولية عن الشعب وسوف يلقى النماذج مثل سندرز ويتعلم منه حب العدالة والحقيقة، وأن الجمهور الهندى يختلف فى الاستجابة إلى هذه الأفلام المصورة فى مدراس فى الهند والنسبة تصور المنازل والشوارع والمظاهرات فى حالات الاحتجاج.

من الصعب أن نتوصل إلى السبب فى أن هذه الأفلام تشير إلى الدعاية إلى الإمبراطورية الطيبة فى الهند، وفى عام ١٩٣٨ فإن ماركيز زيتلاند وزير الدولة لشئون الهند قد توقع بقدوم لائى سوف يشعل الحس والوعى الوطنيين، ويتدخل فى الاجتماعات فى مجلس العموم من أجل الرقابة بينما

عضو البرلمان عن حزب العمال إيمانويل شينويل يعلن أن الحكومة سوف تعلن الحظر على حالات العصيان الهندي الذي يهدد الطابع الإمبريالي فنى البلاد^(١١) إلى وجود بعض الادعاءات حول هذا الطابع من جانب الحكومة التى تجرى الرقابة على الصحف والجرائد أثناء وبعد أزمة موينخ وبعدها.

هذا الفيلم الوثائقي يعلن عن العديد من الحقائق، ومنذ عام ١٩٠٣ فإن إحدى الشركات كانت تعمل على تمويل الفيلم القصير عن هذه المستعمرة، وتوضح العديد من الأحداث فى هذا الفيلم الذى اعتمد على الدعاية والإعلان فى إنجلترا عام ١٩١٣، وهو الذى يشير إلى زراعة الكاكاو فى ساحل الذهب من أجل مصنع الشيكولاتة فى إنجلترا، وبحيث إن مجلس التسويق الإمبريالى أنتج هذا الفيلم عام ١٩٣٣، إلى جانب الأفلام الممولة من شركات الطيران والمعلنة فى المدارس وفى الجماعات الشبابية، لتفنع الجمهور بقيم الإمبراطورية كانت تأتى فى ذيل أولويات وزارة المالية، وقد سقطت وحدة أفلام إدارة التسويق الإمبراطورية سريعا كضحية للنبل الحكومي. وقد كان رجال السلطة فى وزارة المستعمرات مسرورين سراً؛ حيث اعتبروا عمل العلاقات العامة بأكمله و"الترويج والبيع" للإمبراطورية بأنه عمل غير أخلاقي^(١٢).

"بيعت" الإمبراطورية إلى الجمهور العام بطريقة ليس لها مثيل وبصورة خالية من أى إحساس بالخزى والعار فى معرض الإمبراطورية البريطانية الذى عُقد فى ويمبلى عام ١٩٢٤ و ١٩٢٥، الذى يوضح لنا الأبعاد الغربية من هذه الإمبراطورية، والذى يضم العديد من الأجنحة ووجود العديد من القصور التى تتصل من خلال الشوارع وتشير أيضاً إلى التكلفة الإجمالية من إقامة هذا المعرض، والتى بلغت ٣,٢ ملايين إسترليني؛ حيث إن الحكومة عملت على تمويل نصف هذا المبلغ من أجل دعم التجارة والافتتاح

الرسمى لهذا المعرض عام ١٩٢٥، حيث إن أمير ويلز وعد والده جورج الخامس بالدعاية إلى العالم عن هذه الحضارة التى تنعم بالسلام، وبهذا الجنس البشرى، والذى أشار إلى التعاون بين الشعوب من الأجناس المختلفة.

لقد تردد سبعة وعشرون مليون نسمة على هذا المعرض من أجل التعرف على هذه الإمبراطورية والحصول على الذكريات حول هذه الحضارة التى تضم القصور الفنية والصناعات المختلفة مثل الخرسانة مع وجود الجناح الكندى والأسترالى الذى يعتمد على التراث المعمارى الإنجليزى المعروف فى الملايو وبرما، وأن هذه المباني تشير إلى هؤلاء الزوار الذين ينبهرون بالمجوهرات التى يحملها أمراء الأثنانتي والذين يحصلون على الحراسة من رجال الشرطة إلى جانب تصوير النساء من الطبقات العليا^(١٣).

معظم الزوار سوف يتعرفون على جوانب هذه الإمبراطورية، إلى جانب الشخصيات المختلفة القادمة من أفريقيا، إلى جانب تعليقات الصحفيين حول هذه المعروضات وتصوير اتحاد الطلاب السود من خلال النماذج المعروضة، والتى توضح لنا أعمال السحر الأفريقى، وإن جورج الخامس وابنه الأكبر ارتبطا بهذا المعرض وأهدافه^(١٤). كما يتضح من مناصب الاحتفال والإعلان عن المثاليات الإنسانية لهذه الإمبراطورية والتى تعتمد على الإرادة الحسنة والاحترام المتبادل، إلى جانب مشاعر أعضاء الأسرة الملكية الذين يرمزون إلى الوحدة الإمبريالية والولاء وتكوين الروابط والتعرف على الشعوب المختلفة لهذه الإمبراطورية، وإن الراهب موراي قد تمكن من وصف هذا المفهوم عندما أعلن عن تحية الدوق جلوسستر خلال زيارته إلى نيوزيلندا عام ١٩٣٤ "مرحبا بك أى بنى، يا من فى وجهك نرى والدك ووالدتك وأخاك الأكبر الملكيين، يا من خطت أقدامه الملكية والأميرية على أمواج التانجاروا الواسعة والمتلاطمة"^(١٥).

من المستبعد أن يتمكن الجنود من التعرف على كل الأسماء الرهيبين
الأمير ويلز أثناء زيارته عام ١٨٧٧ عندما تمكن من عبور شبه القارة،
وذلك بعد المرور، وقتل النمر في الغابات، وبعد العديد من المغامرات من
خلال هذه الزيارة الملكية بين ابنه جورج الخامس الذي حصل على التتويج
مع الملكة ماري عام ١٩١٢، وكذلك حصل على التكريم من الأمراء الهنود
في دلهي.

كان هناك تركيز أقل على الاحتفالات والبهجة المغولية الزائفة أثناء
رحلات ما بعد الحرب التي تم اتخاذها من قبل أمير ويلز، ومن سيصبح بعد
ذلك إدوارد الثامن تم إرساله من لويدي جورج الذي رأى أن الرحلات الملكية
تدريب سياسي على حب الظهور الذي كان المدخل إلى التحكم في الناس
وجعل حكامهم أكثر قابلية للانصياع. "إن ظهور أمير ويلز المحبوب من
شأنه أن يفعل أكثر لتهدئة الاحتجاجات - من نصف سنة من المؤتمرات
الإمبريالية البائسة"^(١٦). إلى حد ما كان رئيس الوزراء محققا، فقد كان الأمير
اليافع رقيقا لنا صنع مظهره الحسن وشبابه وسلوكه غير العتيق انطبعا
محببا في الإمبراطورية.

كان يتصف أيضا باستعداده لتحمل واجباته؛ وبحيث إن تشرشل دربه
على الخطابة السياسية، وألقى عليه اللورد ستامفورد هام - سكرتير الملك -
محاضرات عن الجدية في تحمل المسؤوليات. "إن العرش هو المحور الذي
تعتمد عليه الإمبراطورية، فقوته وثباته سيعتمدان بالكلية على شاغله"^(١٧)،
وواضعا في الاعتبار هذه المقولة رحل الأمير إلى كندا عام ١٩١٩، وأقام فيها
تسع سنوات، كما تردد على غرب الأنديز ونيوزيلندا والهند وكندا وأستراليا
عام ١٩٢٣، كما تردد على ساحل الذهب ونيجييريا وجنوب أفريقيا وكينيا
وأوغندا، وحصل على التكريم من رؤساء الدول في المباني العامة، والتي

كانت تشهد الاحتفالات الراقصة والغنائية التي تميز هذه الجولات الملكية عندما اعتلى العرش إدوار الثامن، كان مسئولاً عن الإمبراطورية، والذي قد حصل على حب الشعب وتمكن من التخلص من التطور السياسي والعرقى في كندا وجنوب أفريقيا، كما أن الأمير قد أشار إلى أن الهنود لم يكونوا على استعداد لحكم أنفسهم ويحتاجون إلى المستوطنين البيض في كينيا^(١٨).

من المستحيل أن نتعرف على طبيعة هذه الإسهامات والجولات الملكية التي كانت تهدف إلى تحقيق التعاون الإمبريالي، ومع ذلك فإن الوثائق المختلفة مثل تلك التي تحمل اسم رواية خمسين ألف ميل مع أمير ويلز ١٩٢٥ تشير إلى التقدم الإمبريالي، الذي كان يعلن عن أحوال الشعوب المختلفة والرايات المرفوعة والمتحدة في ظل الولاء إلى التاج الملكي كما تشير المقالات الصحفية حول الخطب التي تعلن عن الشكر والترحيب والولاء والتعاطف إلى أحد الجانبين على حساب الجانب الآخر،^(١٩) كما أن هذه الصحف كانت تعلن عن هذه القيم المشتركة التي تسعى إليها الدول الأوربية والإمبراطورية والتي تتمثل في الرسالة المعلنة إلى الأمير من ببلي هوج وزير العمل الأسترالي الذي أعلن عن الشعب الأسترالي الذي يرى مجد هذه الإمبراطورية التي تدعو إلى المثاليات العديدة مثل الحرية والعمل والتي تتمثل في ذلك عن الإمبراطوريات الأخرى القديمة والحديثة.

شكل آخر وجديد لهذا التعاون بين التاج الملكي والإمبراطورية هو الذي يتضح من إصدار طوابع البريد من هذه المستعمرات من أجل الاحتفال باليوبيل الفضي لجورج الخامس عام ١٩٣٥^(٢٠).

لقد شاركت القضايا الاستعمارية في تصميم مذهب ومحترم أظهر الملك وقلعة وندسور، كما سجلت مسألة جماهيرية تتويج جورج السادس في مايو ١٩٣٧، وبهذه التصميمات عكست هذه الطوابع البريدية وحدة الإمبراطورية، وحثت على جمع الكثير من المسائل الإمبراطورية خاصة بين الشباب^(٢١).

شهدت الطوابع الإمبراطورية تغييرا فى الشكل، ويرجع الفضل فى ذلك إلى السير رونالد ستورز، وباعتباره حاكم قبرص، فقد أمر بإصدار طابع لطيف فى عام ١٩٢٨ لإحياء ذكرى خمسين عامًا من الحكم البريطانى، ونصت على أن المستعمرة تحتاج إلى إعلان شعبيتها^(٢٢).

أصبحت الإمبراطورية الآن جزءًا من حياة الطقوس البريطانية؛ حيث يتجمع الناس حول أجهزة اللاسلكى بعد عشاء أعياد الميلاد لسماع خطاب الملك، وكان الفصل قد سجل حضور الفرق الرياضية وذهابها من مختلف مناطق الدومينيون وإليها، وقد كسبت لعبتان بريطانيتان من منتصف القرن التاسع عشر فى مختلف أجزاء الإمبراطورية، ومع حلول عشرينيات القرن العشرين صار اتحاد الرجبي فى جنوب أفريقيا لعبتهم المفضلة. وقد انتشرت اللعبة فى أستراليا ونيوزيلندا وفيجي وسامو الغربية.

وعلى العموم كان الجمهور البريطانى أكثر تألفا مع الإمبراطورية أكثر من أى فترة ماضية، وليس هذا القول إنه عندما يلتقى الناس ويتجمعون فى عربات السكك الحديدية أو ملاعب كرة القدم فإنهم يتحدثون عن الإمبراطورية، وفى الوقت الذى كان الناس المعادون فى بريطانيا مهتمين بقضايا الشوكة والسكينة ومثل هذه الأعمال، لم تكن الإصلاحات الدستورية فى الهند أو السياسة الوطنية فى كينيا تجذب اهتمام العامة، ومع ذلك فإنه من خلال الراديو والسينما والدروس فى المدارس كان كثير من الناس واعين بوجود الإمبراطورية، كما كانوا يدركون أن الإمبراطورية كيان مهم يشعر فيه الناس بالفخر، وكان السكان فخوريين باعتباره بريطانيين، وأكدت ذلك الصورة الجماعية التى انعكست فى السينما أو التى جلبها الناس إلى منازلهم من الإذاعة الملكية السنوية.

وعرف الجمهور فى ذلك الوقت أن الإمبراطورية تتغير وأنها قوة من التقدم البشرى، ولا يعرف أحد طول المدة التى تستمر فيها فترة التغير الحالى أو شكل الإمبراطورية الذى سيظهر، وتخيل بيفيل تشامبرلين الذى صار رئيسا للوزارة عام ١٩٣٧ أن الهند ستحقق استقلالها الكامل مع عام ١٩٨٠ أو قبل ذلك، وكان تشرشل يفكر فى نفس الأمور، وكتب عام ١٩٣٧ إلى النائب "إننى أريد أن تحتفظ الإمبراطورية البريطانية لأجيال أكثر بقوتها وعظمتها، وتستطيع العبقرية البريطانية تحقيق ذلك" وكانت قوة الإمبراطورية واضحة أمام الجميع وهم يشاهدون نشرات الأخبار والسفن الحربية فى موانئ سيدنى وكيب تاون تحمل الأمراء الملكيين إلى رعاياهم الذين يحبونهم، ولكن هل كانت الإمبراطورية مستمرة، من المحتمل لا، ولكن ممتلكاتها مريحة فى عالم صار فجأة بعد عام ١٩٣٥ متغيرا وخطيرا.

(٨)

لا أمل فى الوعيد
حدود النفوذ الإمبريالى
بين (١٩١٩ - ١٩٣٦)

عام ١٩٢٤ سمى أدولف هتلر - بمزيج من الحسد والتبجيل - بريطانيا "أكبر قوة عالمية على الإطلاق" وهى التى كانت تنعم بالتجانس والنفوذ الدوليين^(١)، توصل إلى هذا الرأى عندما كان فى زنزانه فى سجن بافاريا وعندما كان يدون الكتاب الذى يحمل اسم "كفاحي" وكانت كل التفاصيل صحيحة عدا نقطة واحدة: بريطانيا كانت القوة العالمية الوحيدة عام ١٩٢٤، أما القوى الأوروبية التى كانت موجودة قبل الحرب فكانت تعاني من الانحلال؛ حيث كانت روسيا تسعى إلى أن تعود إلى مجدها بعد سبع سنوات من الحرب الأهلية والضعف الذى جاء على فرنسا التى كانت تعاني من الاضطراب السياسى، إلى جانب معاهدة فرساي التى أدت إلى تقسيم ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية التى تحولت إلى الدول الضعيفة، والولايات المتحدة منذ ١٨٩٠ كانت تمثل الدولة الأغنى فى العالم والمعزولة عن الشؤون الأوروبية، والتى كانت تحافظ على الثروة عن طريق عدم الدخول فى صناعة السفن الحربية أو الطائرات أو الأسلحة المطلوبة لوضع القوى الكبرى، واستمرت فى الهيمنة على حديقته الخلفية أمريكا اللاتينية، الأمر الذى يتشابه كثيرا مع ما فعلته اليابان - الدولة الصناعية الوحيدة فى آسيا -

فى الشرق الأقصى. كانت بريطانيا لها مصالح وأراضى فى جميع الأنحاء وكانت تملك الوسائل لحمايتها.

إن عصب النفوذ البريطانى كان يتمثل فى إمبراطوريتها، كما يتضح من إحدى المقالات المنشورة فى مايو ١٩١٩^(٢). ولا يختلف اثنان داخل بريطانيا أو خارجها على صحة هذه المقولة، والتي اتضحت صحتها أخيراً من خلال مساهمة الإمبراطورية فى الجهود الحربية البريطانية فى هذه الإمبراطورية، حيث الإمبراطورية قدمت لبريطانيا ما هو أكثر من مجرد الرجال والمواد الحربية، فمثلت المكون الرئيسى للهيبة البريطانية، "الهيبة" هى ما يجعل بريطانيا قوة عظمى"، لاحظ هذا محلل أمريكى عند اندلاع الحرب العالمية الثانية^(٣).

ولكنه لم يشر بدقة كيف خدمت هذه الفكرة المعنوية مصلحة بريطانيا فى الشئون الدولية، ولكن بعد ذلك لم يشر أيضاً الساسة والقادة والدبلوماسيون البريطانيون الذين استشهدوا بلفظة "الهيبة" كلما تعلق الأمر باتخاذ قرارات مهمة. برزت أهمية الهيبة على المستوى المحلى مع وجود أجناس من الشرق الأوسط والأقصى بحيث كان الجميع يدرك أهمية بريطانيا وقوتها التى قد تمثل الخطر على الدول الأخرى وقدرة بريطانيا على هزيمة الأعداء، وفى بداية ١٩٤٢، فإن استجابة باثنان على الحدود الشمالية الغربية عند وقوع سنغافورة فى يد اليابان "علامة على الاستخفاف لأنه كان من المفترض أن يكون الانسحاب مريراً وخطيراً بين أيدي عدو بهذا القدر"^(٤). اتفق هنتر مع هذا الكلام وتساءل عما إذا كان العالم قد بالغ فى تقدير الهيبة البريطانية خلال العقدين الماضيين^(٥).

ثمة آخرون لم يفاجأوا بهذا التحول فى مجرى الأحداث، ففي عام ١٩٣٤ صرح قائد يابانى - عاكساً أفكار العديد من مواطنيه -

أن "الإمبراطورية البريطانية تبدو فعليا رجلا عجوزاً"^(٦). أما نظراؤه في الجيش وكليات البحرية في أمريكا فقد كانوا يتشجعون تدريجيا ليعتقدوا الشيء ذاته^(٧)، بل إن البعض داخل بريطانيا اتفق مع هذا. إن ضعف الاستجابة البريطانية إلى الإهانات التي تعرض لها مواطنوها على أيدي القوات اليابانية في تينتين في يونيو ١٩٣٩ أرقّت اللورد شاتفيلد، أول لورد بحري. وقد كتب قائلا عن هذه الأحداث إنها "من شأنها أن تسمح للقادة الجورجيين والفيكتوريين بإصدار تهديدات عنيفة"^(٨)، إذا كان بإمكانهم أن يفعلوا هذا إذا عجزت الدولة المهاجمة عن الدفاع عن نفسها، لكن الممارسين السابقين لدبلوماسية القوارب المدفعية كانوا يفهمون هذه النقطة جيدا، بينما نادرا ما قدرها القادة أو المؤرخون التالون.

جون بول الذي كان لا يزال على قيد الحياة في بعض من هذه المناطق أشار إلى المفهوم المصري عن السفن الحربية والمعارك الحربية في الإسكندرية عام ١٩٣٦، بينما الحكومة كانت تعترض على العديد من شروط المعاهدة مع الحدود؛ بحيث لم يكن هناك شك في شروط هذه المعاهدة، بينما في عام ١٩٢٨ مع ١١٠٠٠ من القوات الهندية والبريطانية في شمال الصين من أجل حراسة الأملاك البريطانية وأبعاد الإقطاعيين^(٩). كانت القوارب الحاملة للأسلحة تجوب نهر يانجتسي، وكانت توقع عقوبات في حالة إساءة معاملة الرعايا البريطانيين. وفي سبتمبر ١٩٣٧ فإن أنتوني إيدن وزير الخارجية أعلن عن إغراق السفينة الإسبانية الكانازيز، بينما كان الوطنيون وحلفاؤهم يصرون على الهجوم على السفن البريطانية، على الرغم من عدم الحاجة إلى الانتقام، حيث إن ذلك يمثل دور الدبلوماسية.

لم يكن هناك شك في أن أسطول البحر الأبيض كان لا يواجه الصعوبة في القضاء على السفن الإسبانية الحربية. المشكلة الحقيقية آنذاك كانت

تتلخص فيما إذا الحكومة البريطانية تتوى التصرف بهذا الشكل الجذرى. أما عن المقياس الذى اتخذه هنتر للنجاح السياسى للدول فهو استعدادهم للتصرف بشكل وحشى عندما يتعلق الأمر بالمصالح.

وفى عام ١٩٢٤ فإن الحكام الإنجليز اتخذوا القرار من أجل الحفاظ على أنحاء الإمبراطورية، مع وجود العديد من الهنود والمصريين والعرب فيها إلا أن المؤرخين ليسوا على يقين من ذلك، وبحيث إن تتبع مراحل انهيار بريطانيا يتضح من الفترة التى امتدت لسنوات، والتى تشهد الحروب المختلفة التى أدت إلى ضعف بريطانيا عن الحفاظ على أملاكها البعيدة، وأن التفسير المقبول لهذه الظاهرة يتضح من أحد الباحثين الذى يؤكد أن الحكام الإنجليز لم يكونوا مؤهلين لهذا النوع من القرارات من أجل الحفاظ على الهيبة البريطانية، وأن النتيجة من أفكار هؤلاء المسؤولين لا تزال واضحة من تعليم المدارس الحكومية والجامعات فى بريطانيا خلال آخر الحقبة الفيكتورية وفى الحقبة الإدواردية^(١٠). إن المزيج بين المسيحية الإنجيلية وشيم النبلاء والفرسان وكذلك الإيمان أن بقدرة الإنسان حل مشكلاته عن طريق تشغيل العقل والمنطق قد أنجب سلالة من الحكام غير مهياة عقليا للمواجهة بدلا من محاولة خداع جنرالات هنتر وموسولينى وهيروهيتو وأدميرالاتهم.

أشار الباحثون الأمريكان إلى بعض الخصائص التى تشمل الاعتدال والرغبة فى التوفيق بين الوزراء الإنجليز والدبلوماسيين والخطط المتبعة فى التفاوض بين السفراء.

وفى عام ١٩٣١ أعلنت وزارة الخارجية عن التوقعات حول مستقبل بريطانيا من أجل استعادة المجد الضائع والاعتماد على بعض الوسائل التى تشمل "الرجوع إلى تقاليد (اللغة على عينيك) بالمرستونى فى الدبلوماسية"^(١١). تركت المشاورات بين المسؤولين الإنجليز والأمريكان

عام ١٩٤١ انطبعا لدى الأمريكان بأنهم يتعاملون مع طاقم مخادع ومتمسك بمواقفه وعنيد. فبعد مؤتمر خليج الأرجنتين في أغسطس، عندما قال أحد المسؤولين الأمريكان "هناك نقطة واضحة في المستندات البريطانية ألا وهي انصياعهم للسياسة طويلة المدى لتنظيم الشعوب الأخرى بشكل مباشر للقتال من أجل المحافظة على قوة الإمبراطورية"^(١٢)، ومنذ إخفاق الرئيس الأمريكي في الانتخابات أدرك الأمريكيون أنه لا يمكنهم الثقة في شركائهم، وقد أشار الرئيس الأمريكي روزفلت إلى نفس هذا الرأي، عندما أعلن عن الدهشة التي أصابت الأمريكان من الصورة العامة لبريطانيا في مجال الشؤون الدولية.

يتضح التناقض من مقولة أحد الوزراء الأمريكان الذي أشار أن الإنجليز لا يدركون كيفية لعب الكريكت^(١٣).

من الواضح أن الصفوة المسيحية التي تحكم بريطانيا لا ترى أن القواعد الإنجليزية القديمة يمكن أن تحكم جميع الأنشطة الانسانية، وحتى أولئك الذين لا يدركون هذه القواعد، فإنهم يدركون الحيل من أجل البقاء على الساحة الدولية، وبحيث إن المؤسسات الدولية المختلفة يمكنها أن تحقق التتوير الأخلاقي والروحي والمعنوي داخل الأمة التي تعتمد على دهاء غير الشرفاء ومكرهم وخارجها، وأن هذا السبب يوضح أن المسؤولين في المدارس العامة لم ينهلوا الجانب الشرير في الطبيعة الإنسانية وكيفية تطويع هذا الجانب من أجل تحقيق المصالح المختلفة.

لم ينهر المجد والهيبة البريطانيين نظرا لأن الحكام الإنجليز قادرون على قوة الإقناع عند التعامل مع الأجانب من رؤساء الدول الأخرى والسفراء والاعتماد على قوة الكلمات وتأثيرها والتعبير في الإقناع والخديعة، ولذلك فإن نيفيل تشامبرلين ربما؟ نفس هذه شرائط الأخبار بعد زيارة ميونخ، وأشار إلى تحفظات هتلر الذي يمثل نموذج الرجل العارف والمحنك، وبحيث إن هذا

السلوك البريطاني قبل أزمة ميونخ وأثناءها هو الذي يمثل الدليل القوي على انحسار دور هذه الإمبراطورية ومجدها، وأن سياسة تهدئة النفوس كانت تهدف إلى الحفاظ على الإمبراطورية في الظروف الصعبة والحد من تأثير الدول الأوروبية الأخرى على الشؤون الداخلية في بريطانيا^(١٤).

ومن الممكن أن نؤكد ذلك بعد عدة سنوات من مؤتمر ميونخ، حيث إن الهيبة البريطانية كانت تمثل الواجهة التي تخفى في وراء الدهاء والمكر، والتي تشير إلى السمة الزائفة عن بريطانيا التي كانت تمثل في هذا الوقت الدولة الأقوى في العالم؛ من حيث الثراء الاقتصادي والفكري والتقدم العسكري. مع وجود العديد من المصانع التي تحولت من الصناعات المدنية إلى الحربية من أجل صناعة الأسلحة المطلوبة في أوقات الحرب والتي كانت تمثل الدافع الأول في نمو الاقتصاد البريطاني في الثلاثينيات وهي التي توضح لنا هذه الدراما الإنسانية، كما يتضح من المعلومات الحكومية وكذلك من انخفاض سوق البورصة الإنجليزية عام ١٩٢٩، وارتفاع معدل البطالة إلى ثلاثة ملايين نسمة، والتي تمثل أكثر من ٢٠% من القوى العاملة، ولكن مع ذلك فإن الفترة اللاحقة كانت تشهد انخفاض جودة منتجات هذه المصانع التي تخصصت في صناعة البوارج الحربية وعمليات الإصلاح التي استنفدت ٦٢% من الاقتصاد البريطاني عام ١٩٣٢.

تشير عمليات التسريح من مصانع النسيج ومناجم الفحم ومسبك الحديد، وكذلك الصناعات الثقيلة في جنوب بريطانيا وشمالها خلال عام ١٩٣٢ إلى تنوع أوجه الصرف من الميزانية القومية بعيدًا عن رخاء الشعب البريطاني والطبقات العاملة، وأن استعادة الأوضاع الصحيحة جاء تدريجياً ولم يخل من الصعوبات، مع انخفاض البطالة إلى ١١% عام ١٩٣٩ والبعيد عن الصناعات القديمة، وبعد عام ١٩٣٧ فإن الطلب على الإسكان في جنوب إنجلترا

وشرقها، إلى جانب الحاجة إلى الأسلحة الثقيلة كان يمثل العقبة والدافع من أجل النمو الاقتصادى والمحلى مع ظهور المنتجات الجديدة مثل الراديو، والتنوع فى صناعة السيارات والثلاجات إلى جانب التوسع فى الصناعات الحديثة مثل الصناعات الإلكترونية والكهربائية التى حلت محل المصنوعات القديمة.

تمكنت بريطانيا من احتمال هذا الوضع والخروج من فترة الركود الاقتصادى قبل ١٩١٤ نظرا إلى وجود العديد من العوائد الخارجية ١٩١٨ التى تأتى من الاستثمارات الأجنبية فى الخارج والعوائد من الحروب، كما أن الطلب الدولى بعد عام ١٩١٨ قد اعتمد كثيرا على البنوك الأمريكية التى حصلت على ودائع الإنجليز.

وفى الفترات المختلفة بين الحروب فإن المستثمرين الإنجليز من القطاع العام والخاص كانوا فى حذر من الوقوع فى نفس الأزمة الاقتصادية، وهو الذى أدى إلى الحظر الشديد فى مجال الاستثمار والعمل على الاستثمار فى المجالات المضمونة، وأن ارتفاع الطلب على الاستثمار الحكومى وسياسات القطاع العام من أجل رفع مستوى الاقتصاد على المستوى القصير والطويل يشير أن الحكومة عادت إلى الطرق القديمة من أجل موازنة الميزانية الداخلية والخارجية، ورفع العديد من الشروط على الاستثمارات الأجنبية داخل بريطانيا، إلى جانب تحرير التجارة الدولية وخفض الضرائب وإعادة بناء الأجهزة الحكومية عام ١٩٣١ الذى كان يمثل الإجراء الوقائى من أجل الخروج من الأزمة وتأمين المواد الخام والغذاء الرخيص وإيجاد بعض منافذ من أجل المنتجات المصنعة، على الرغم من النقص فى الأسواق الدولية والدخول فى عدد من الاتفاقيات أثناء مؤتمر أوتوا وبعده عام ١٩٣٢، والإقتراحات على بريطانيا فى مجال الخطط الاستثمارية مع كينيا، والتى تعتمد على التمويل من الحكومة الإنجليزية، وكذلك تحقيق العلاقات

الاقتصادية بين بريطانيا والإمبراطورية البعيدة من أجل إنشاء كتلة على الجنيه والدومنسون الإسترليني الذي كان مقصودا عن قيمة الجنيه، مع العملات الصعبة الأخرى مثل العملات الدولية، والاعتماد كذلك على الاحتياطي من المستعمرات والحفاظ على القيمة النقدية للجنيه الإسترليني.

كانت السياسات الحكومية تهدف إلى الخروج من هذه الأزمة والحفاظ على الاقتصاد، ثم العمل على رفع الاقتصاد الذي ظل هشا، وفي عام ١٩٣٧ فإن العجز التجاري بلغ ٣٠٢ مليون جنيه إسترليني، والذي انخفض إلى ٧٠ مليوناً بفضل العوائد غير المعروفة، وإن المقارنة تشير أيضاً إلى رقابة الدولة على الاقتصاديات والاستثمارات، وذلك من خلال الرقابة البريطانية على نصيبها في مجال الإنتاج الصناعي الدولي.

النسبة المئوية من التصنيع العالمي:

الدولة	١٩٢٩	١٩٣٢	١٩٣٧	١٩٣٨
الولايات المتحدة	٤٣,٤	٣١,٨	٣٥,٠١	٢٨,٧٢
روسيا	٥,٠	١١,٥	١٤,١	١٧,٦
ألمانيا	١١,١	١٠,٦	١١,٤	١٣,٢
بريطانيا	٩,٤	١٠,٦	٩,٤	٩,٢
فرنسا	٦,٦	٦,٩	٤,٥	٤,٥
اليابان	٢,٥	٣,٥	٣,٥	٣,٨
إيطاليا	٣,٣	٣,١	٢,٧	٢,٨

بخلاف الظروف التي أحاطت بهذا الكساد الدولي فإن وضع بريطانيا أصبح أضعف مما توحى التقديرات، وطوال هذه الفترة فإن الحكومات البريطانية المتتالية كانت تتردد في تطبيق السياسات الوقائية التي تشير إلى انحلال صناعة الطائرات، كما أن المصدرين الإنجليز أهملوا الطرق الصحيحة في البيع والتعبئة والإعلان. وفي عام ١٩٢١- وبشكل افتراضي- لم يكن أى من رجال الأعمال البريطانيين يولى اهتماما لسوق الملايو المتنامى والمتوسع^(١٥)، وبعد فترة انتعاش المطاط أثناء الحرب صدرت الملايو سلعا بمبلغ مائة مليون جنيه إسترليني سنوياً تقريبا، وردت منها بريطانيا ١٦/١، وكان أبرز السلع المصدرة من السلع الحديثة، وقد جاءت جميع سيارات الملايو تقريبا من أمريكا، أما دول غرب أفريقيا فكانت تشتري شاحنات ثقيلة من فورد بدلا من شاحنات أوسطن؛ بحيث كان إجمالي عدد الشاحنات البريطانية عام ١٩٢٦ فى ساحل الذهب عام ١٩٣٨ من أصل ٢٤٠٠ شاحنة^(١٦). كما أن ٩٣ % من منتجات القطن المباعة فى شرق أفريقيا عام ١٩٣٨ كانت تأتي من المصانع اليابانية^(١٧). إضافة لما تقدم؛ فإن رأس المال للمنظمات الإمبريالية الجديدة، مثل مناجم النحاس فى روديسيا الشمالية أو آبار النفط فى الخليج الفارسي، كان أمريكيا بشكل كبير.

كان شعب الملايو يقود السيارات من أولد موبيل، وكانت الشاحنات من ماركة فورد تسير فى شوارع أكرا، بينما كانت النساء ترتدى الملابس القطنية من أوزاكا، ورجال المال فى نيويورك كانوا يحصلون على المال فى المناجم فى سيسيل رودس، والمصانع المختلفة كانت تعمل على صناعة السفن إلى جانب المؤشرات التى توضح لنا انخفاض مستوى الأداء الاقتصادى البريطانى خلال هذه الفترة.

ويتربّ على ذلك زوال الهيبة البريطانية وارتماز بعض المقاييس من أجل توجيه قدرات الأمة من الناحية الاقتصادية، وهي التي تؤكد أيضاً توجيه الفائض نحو صناعة الأسلحة، حيث إن الإحصائيات البريطانية تشير إلى إنتاج ٣٩,٧ من الطائرات، بينما روسيا كانت تنتج ١٠,٨٢ من الطائرات المنخفضة الجودة، وألمانيا تنتج ٨,٥٩٥، وفرنسا ٤,٦٧٧، إن بقاء بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية كان يعتمد على إنتاج السلاح وشراء السلع من الخارج بما يعادل سعرها قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن انخفاض قيمة الاستثمارات الخارجية، والميزان التجاري الذي كان يواجه العديد من الصعوبات التجارية، وإن الهيبة البريطانية كانت تعتمد كثيراً على السلاح خاصة في حالات الطوارئ، حيث إن الحكومة كانت تتردد عند التوقيع على الشيكات حيث إن النظرية هذه الحقيقة تشير إلى حرية بريطانيا في اتخاذ الفعل؛ حيث إن دبلوماسياً - ألكندر كادوجان - قد أخبر بحاراً - الأدميرال لورد تشانفيلد - خلال أزمة الصين عام ١٩٣٧ أنه "لا جدوى من الصراخ الغاضب ما لم نكن متيقنين من قدرتنا على تنفيذ تهديداتنا"^(١٨). عندما أعلن عن هذه الأوضاع قبل ١٩٣٥، حيث إن حكام بريطانيا لم يتوقعوا تكرار الجهود الخارقة بين (١٩١٤ - ١٩١٨) عندما كان لديهم النفوذ في ظل الاستقلال الدولي والأمن من خلال عصبة الأمم المتحدة، والتوقيع على الاتفاقيات خلال العشرينيات، إلى جانب الأمن والأمان والنظام العالمي الجديد الذي ساعد على حماية الإمبراطورية واستمرارها، إلى جانب السياسات التي كانت تتبع مبادئ عصبة الأمم المتحدة.

قد أعلنت عصبة الأمم عن التفاؤل، عندما تمكنت من إقناع الدول الأعضاء حول أهمية الألفية الجديدة في الفترة بين (١٩٣٣ - ١٩٣٦) مع وجود الأمن والأمان الذين كانا على وشك الانهيار؛ حيث إن القطاعات العديدة

من الطبقة الجديدة والطرق المختلفة المتبعة منهم فى التصدى إلى الملك والأمة واتباع نفس الخطوات المعروفة فى برلين وروما وطوكيو من أجل الحفاظ على السلام الدولى؛ وبحيث إن الحكومة الإنجليزية كان عليها أن تستعيد أوضاعها بعد الحرب العالمية الثانية.

لم تتمكن بريطانيا من أن تتجاهل أهمية الدومنيون المختلفة فى أنحاء هذه الإمبراطورية، بعد توقيع بريطانيا على اتفاقية عصبة الأمم من أجل تحقيق السلام الدولى، وأن بريطانيا قد التمسّت المعونة من الدول الأخرى خلال مواجهة شانك عام ١٩٢٢، حيث إن أستراليا قد أشارت أن ذلك يعود إلى رأى العصبة، بينما حذر ستانلى بروس - الذى كان يمثل أستراليا فى العصبة- بريطانيا من أنه "لا يمكننا أن نغض الطرف ونخضع لأى سياسة من الممكن أن تورطنا فى حرب"^(١٩) عن عدم الالتزام بسياسة واحدة فى سنوات الحرب ووجود العديد من الصعوبات والمشكلات فى جنوب أفريقيا وكندا وأستراليا فى حزب العمال خلال الأزمة الأوربية عام ١٩٣٨، حيث إن بريطانيا لم تتمكن من الحفاظ على المستعمرات البعيدة من خلال دعم السياسات الأوربية.

كان الأمن الدولى يهدف إلى نزع السلاح، وإن الفترة بين ١٩٢٠ و١٩٣٢ كانت تشهد تعاقب الحكومات البريطانية، وكذلك الميزانيات الموجهة إلى الدفاع على مدى عشر سنوات من الحرب الأوربية والتوازن الجديد فى القوى فى الشرق الأقصى فى بداية ١٩٢٢، بعد رفض بريطانيا تجديد التحالف مع اليابان، والرغبة فى التعاون مع الولايات المتحدة وأستراليا، إلى جانب القيود على حجم هذه القوى والأساطيل التابعة لها من خلال المعاهدة البحرية فى واشنطن التى تهدف إلى تقدير النفوذ البحرى حسب النسب التالية.

بريطانيا والولايات المتحدة خمس مقاتلات

اليابان ثلاث مقاتلات

فرنسا وإيطاليا ستة آلاف وستمئة وإحدى مقاتلة

نفس هذه النسب يمكن أن تسرى على حاملات الطائرات والبوارج الحربية فى الثلاثينيات مع عدم وجود القيود على الغواصات، وقد أعلنت اليابان عن الاتفاقية الدولية التى جعلتها تأتى فى مرتبة متدنية نظرًا إلى رفض بريطانيا الذى جاء فى مصلحة الأمريكان، وكذلك الاتفاقيات العديدة من جانب البحرية اليابانية التى لها العديد من السفن فى بحر الصين وغرب المحيط الهادى، وفى عام ١٩١٩ فإن الأدميرال جيليكو عاد من أستراليا ونيوزيلاند وأشار إلى بعض التقديرات عن الجيش والبحرية والقوات الجوية اليابانية، والجيش والقوات الجوية فى جنوب شرق آسيا والملايو وجزر الهند الشرقية، وكذلك الجزر فى غرب المحيط الهادى، وكان زميله بيتى الذى صار الآن البحّار الأول يدرك مجال الطموح اليابانى.

أشار لورد سالزبورى إلى الخرائط العديدة التى تشير إلى هذه الأنشطة الخطرة، وكذلك المسؤولين عن وضع هذه الخطط الإمبريالية والروايات المخيفة عن أعداء الإمبراطورية، وكذلك عن التوسع اليابانى المحاط بالشكل فى بعض الأنحاء، حيث إن تشرشل والعديد من المسؤولين كانوا على ثقة من عجز اليابان من الناحية المادية والفكرية عن إقامة هذه الحملة والغزو؛ وذلك نظرا إلى الاحتقار العنصرى لليابانيين من جانب الحكومات البريطانية والأمريكية خلال العشرينيات والثلاثينيات^(٢٠) والأحداث التى جرت خلال الحرب اليابانية الروسية إلى جانب المسؤولين الذين أشاروا إلى الجيوش الآسيوية التى كانت تضم أعدادًا صغيرة من الأوربيين، وهو الذى يتضح من الملحوظة المعلنة عام ١٩٣٤ من الملحق البحرى البريطانى فى طوكيو^(٢١).

الإنجليز كانوا يشعرون أنهم متفوقون عنصرياً عن اليابانيين، وكانوا لا يميلون إلى اتخاذ القرارات والمخاطر مع الحلفاء السابقين، وفي يونيو ٢٧ فإن مجلس رئاسة الوزراء كان يخشى على الوضع الأمني، ولذلك تعهد بأن يقيم القاعدة البحرية الضخمة في جزيرة سنغافورة، التي سوف تؤدي إلى زعزعة توازن القوى في الشرق الأقصى لصالح بريطانيا.

وكان هذا الفكر يمثل من أهم القرارات الحاسمة في تاريخ الإمبراطورية؛ على الرغم من اعتلال هذا القرار فإن الفكر الإستراتيجي من وراء سنغافورة التي تنتمي إلى العصر الحديث في القرن الثامن عشر وتصميم هذه القاعدة على غرار مضيق جبل طارق، بحيث إنها تمثل القلعة الحصينة المستخدمة في قصف الأسلحة الثقيلة على الممر بين المحيط الهندي والهادي ومن الناحية النظرية فإن هذه القاعدة كان لا بد أن تؤدي نفس وظيفة مضيق جبل طارق خلال الحروب الفرنسية، وذلك من أجل الحفاظ على الهيمنة البريطانية في المياه البعيدة، فإذا كان اليابانيون سوف يزحفون إلى الجنوب فإن هذا المسار سوف يواجه العقبة في سنغافورة، كما أن الأسطول الحربي البريطاني سوف يتجمع في المياه الإقليمية، ولكن على الرغم من بعض الظروف الجوية السلبية والنشاط في قناة السويس فإن هذه القاعدة الحقيقية سوف تمتد إلى سنغافورة بعد سبعين يوماً من بناء القاعدة المستخدمة من أجل تمويل البحرية اليابانية، وهو الذي يوضح لنا القوى البريطانية البحرية في إقليم البحر الأبيض عند نهاية الحرب الأمريكية.

مع شيء من الحظ فإن هذه الإستراتيجية يمكن أن تتجح حتى إذا كانت سنغافورة جديرة، ولم يكن كذلك بهذه المهمة، ويعود الفضل إلى اقتصاديات وزارة المالية البريطانية، وكانت تكلفة التركيبات التي بلغت ٥,١٦ ملايين إسترليني، وتسعة ملايين من أجل الوقود الذي كان سيتم تخزينه في القاعدة،

وكان هذا هو كل ما جرّوت قيادة البحرية على طلبه من وزارة مالية لديها عجز فى النقدية وكانت حريصة على التوفير^(٢٢). ونتيجة لهذا؛ كانت مبانى المرفأ صغيرة جدا عما يتطلبه الأمر لأسطول يمكنه أن يهزم اليابانيين. وعلى الرغم من هذا بدأ التشييد فى بداية ١٩٢٣ واستمر أربعة عشر عاما، وفى هذه الأثناء زاد قلق الأستراليين والنيوزيلنديين- الذين كانت سنغافورة خط دفاعهم الأول والوحيد- بشأن أهمية الإستراتيجية التى كان حجر الأساس لها وصلاحياتها، وشاركهم الشك كبار ضباط البحرية الذين كانوا يخدمون فى الشرق الأقصى^(٢٣).

فى حالة الصدام مع اليابان فإن بريطانيا ونفوذها فى الشرق الأقصى والذى يعتمد على ناقلات الطائرات وعدد من البوارج والمدافع الثقيلة من خلال هذه القاعدة التى تمتد إلى ٣٠٠٠ ميل من طوكيو، وكذلك تمتد إلى ١٠٠٠٠ ميل من الجانب الآخر من العالم، وبحيث لم يكن غريبا أن الحكومة البريطانية كانت تستمر فى الجهود حتى تتمكن من العودة إلى الاتفاقيات القديمة مع اليابان، وفى نوفمبر ١٩٣٤ فإن بريطانيا كانت تلزم بسياسة عدم الاعتداء على اليابان، على الرغم من نفوذ اليابان على الصين، ولكن اليابان لم تعلن عن الاهتمام فى نهاية ذلك العام عندما انسحبت من المباحثات حول نزع السلاح البحرى، حيث إن اليابان لم ترغب فى الخضوع إلى النظام الذى أعلن عنه الأدميرال إيزوروكو من أجل الهجوم على بيرل هاربور؛ حيث إن المعاهدات البحرية المختلفة قد انتهت مع عام ١٩٣٦ بينما فى يناير ١٩٣٤ فإن الحكومة اليابانية قد أعلنت أن الوقت أصبح مناسباً من أجل بناء السفن الحربية المطلوبة.

تعود السياسة اليابانية الحربية إلى رغبة الحكومة اليابانية فى الاعتماد على قرارات الضباط والمسؤولين والاعتماد على القوانين القديمة فى العهد

الإمبريالي؛ حيث إن الإمبراطور هيرو هيتو قد وعد برفع الاقتصاد الياباني القومى من خلال الغزوات المختلفة؛ كى تتمكن اليابان من حماية نفسها من الفساد الاقتصادى والحصول على المواد الخام والأسواق من خلال البرنامج المصمم من أجل تحقيق التبعية الاقتصادية من الصين على اليابان، بينما الفترة بين (١٩٢٩ - ١٩٣٢) فإن اليابان كانت قد غزت مانشوريا وحصلت على العديد من المعادن من أجل المزيد من الغزوات فى جنوب الصين.

كان توازن القوى فى الشرق الأوسط يميل ضد بريطانيا، حيث كانت البحرية تأمل فى تصحيح الأوضاع من خلال الاعتماد على رجال الحرب عام ١٩٣٤ مع اتخاذ أعضاء الحكومة المركزية عام ١٩٣١، وذلك من أجل تحقيق الموازنة فى الميزانية العامة وقد أعلن تشامبرلين وزير المالية البريطانى عن الاعتقاد فى الحكمة القديمة حول النفوذ الاقتصادى البريطانى الذى يمثل السلاح الأقوى فى الحروب المستقبلية، وإن الدم الإمبريالى يجرى فى عروق تشامبرلين ووالده جوزيف الذى نجح فى استمرار هذه الإمبراطورية من خلال استمرار جهود الابن، وبحيث إنه لم تكن أمة أخرى خلال هذه الفترة تعادل الإمبراطورية البريطانية.

فى النصف الأول من عام ١٩٣٤ فإن تشامبرلين وأتباعه كانوا يواجهون المشكلة فى تحقيق الموازنة فى السجلات الاقتصادية والمالية فى الدولة وحماية الإمبراطورية من العودة لقانون الغابة، بينما فى فبراير أعلن عن البيان الذى يشير إلى لجنة الدفاع، والتى أعلنت عن اليابان أنها تمثل الخطر على الإمبراطورية، وأشار أيضاً إلى الخوف من ألمانيا على المدى البعيد التى تمثل العدو اللدود؛ حيث إن تشامبرلين هو الذى تتبأ بالغزو اليابانى، وعند حصول هتلر على السلطة فإنه أشار إلى انهيار الأمن العالمى، بينما كانت بريطانيا تعمل على توجيه الميزانية النقدية إلى التسلح وتشامبرلين كان يهدف إلى الدفاع القومى.

تلك كانت الاستجابة التقليدية إلى هذه المشكلة القديمة، وعلى مدى القرنين الماضيين فإن الحكومات كانت تترك أن بقاء الإمبراطورية يعتمد كثيرًا على القاعدة المحلية وأن تشامبرلين الذى يمثل أحد أعضاء مجلس رئاسة الوزراء كان يعتمد على برنامج التسلح الضخم من خلال مشاريع الدفاع البريطانى وكذلك العمليات الاستثمارية خارج الإمبراطورية.

فإذا كان علينا أن ندخل فى صراع ضد ألمانيا وعداء مع اليابان فى الشرق فإن علينا أن نستجمع القوى والجيش من أجل حماية المصالح البريطانية فى الشرق الأقصى، وكذلك تمويل مصاريف الحرب فى أوروبا والهند وهونج كونج وأستراليا، إلى جانب التعامل مع الخطر الأكبر من الجيش الألمانى المنظم والمسلح.

تلك كانت المعضلة الإستراتيجية القديمة، وكيف تتمكن بريطانيا من الدفاع عن الأراضى الداخلية والخارجية فى أوقات الحرب، إلى جانب انتشار السفن والمحاربين، وعام ١٩٣٤ من خلال الحرب الأوربية التى اعتمدت كثيرًا على القصف الجوى من الطرفين؛ حيث إن لندن كانت تعاني من الغارات فى عام ١٩١٧ و ١٩١٨ السلاح الجوى (RFA) كان على استعداد للهجوم على برلين، وإن التطور فى صناعة الطائرات والأسلحة الكيميائية فى زمن الحرب يشير إلى الغزو البريطانى على النطاق الواسع وارتفاع عدد الضحايا والقتلى من اضطرابات النظام المدنى فى المدن المهمة؛ وبحيث إن الدراسة لهذه الفترة تشير إلى الحرب الأهلية الإسبانية، عندما كان السلاح الجوى يضرب غرناطة وبرشلونة خلال ١٩٣٧، ١٩٣٨ وهو الذى يمثل تكرارًا للحرب الأخيرة التى اعتمدت على الحكمة العسكرية فى أن بريطانيا سوف تتنفع كثيرًا من التسلح ومن الموارد البشرية فى الحروب الأوربية.

تشير هذه الأفكار كذلك إلى المهام المطلوبة من الحكومة البريطانية والمثاليات التي أعلنت عنها عصبة الأمم المتحدة من أجل السلام الدولي وكذلك سياسة الأخذ والعطاء قبل عام ١٩١٤، والتوعية العامة خاصة إلى حزب اليسار الذي يؤمن بنفس هذه المبادئ.

في عام تم تأكيد فاعلية عصبة الأمم والتي تشير إلى ضعف الدفاع عن الإمبراطورية وأن موسوليني قبل أن يحصل على السلطة عام ١٩٩٢ كان يشير إلى الآراء الفاشية؛ يجب الانتقام من معركة عدوه، وفي نهاية ١٩٣٤ كان على استعداد للهجوم على إثيوبيا، ويتضح ذلك من الأحداث المتتالية وحادثة الحدود التي تشير إلى الشجار مع الإمبراطورية الحبشية، وفي يوليو ١٩٣٥ فإن إيطاليا كانت تتجاهل شروط عصبة الأمم المتحدة من الاعتداء على الدول المجاورة، وإن الحظر البحري على إيطاليا أدى إلى التزام بريطانيا بدعم السفن الحربية، بينما فرنسا لم تكن على استعداد في هذا المجال، وكان الأسطول في البحر الأبيض يحتاج ثمانية أسابيع من الاستعداد الفجائي للدخول في الحرب.

تشير الأنشطة المختلفة من أجل دعم الأساطيل في البحر الأبيض وسواحل الصين والمحيط الهادئ والمحيط الهندي إلى مهارة الأدميرال في التعامل مع المخططين في اليابان، من أجل التوصل إلى الخلاصة العامة وإرغام بريطانيا على الحرب ضد إيطاليا في إقليم البحر الأبيض، على الرغم من قلة السفن في المواقع البحرية في الشرق الأقصى، وقد قال تشاتفيلد "لقد أصبح وتر الدفاع الإمبريالي مشدودا ومتوترا، فقد أصبحت إيطاليا بعوضة كبيرة يمكن لوزنها أن يقسمها لشطرين"^(٢٤)، والأسوأ من هذا أن قناة السويس كانت تمثل الموقع الإستراتيجي المتنازع عليه، بما أن إيطاليا كان عليها أن تمول الحامية في ليبيا من عشرين ألفا حتى خمسين ألف جندي،

وهو ما يمثل عشرة أضعاف عدد القوات البريطانية في مصر، وأن توقعات هذا الرجل، كانت صحيحة وتميل إلى التشاؤم والاستعداد من أجل تدهور الأحوال وإن السابقين على الأدميرال كانوا يواجهون نفس الصعوبات عام (١٧٩٧، ٩٨) نظراً إلى سوء الحظ والاستعداد للمخاطرة وغياب الزعماء الإنجليز الأكفاء في الثلاثينيات واستبعاد دور النخبين في هذه السياسات الخطرة التي أدت إلى الحرب العالمية.

وعلى عكس الأوضاع في القرن الثامن عشر والتاسع عشر- فإن الحكام الإنجليز كانوا يعتمدون على المثاليات العليا نحو التعاون بين الدول على السلام العالمي وحركات الانتخابات والسياسات السلمية مع الدول الأخرى، ويتضح ذلك من حركات الإضراب في الدانمارك ضد البحرية الإيطالية والتي أنقذت الإمبراطورية البريطانية ومنعت موسيليني وهنكر من الزحف، وإن الأوضاع خلال هذه الحقبة تشير إلى أفكار الزعماء المختلفين نظراً إلى الضعف الإستراتيجي للإمبراطورية البريطانية التي كانت في الطريق نحو الانحلال والزوال.

مع الدور الفاعل لبريطانيا، فإن إيطاليا تمكنت من غزو الحبشة في شهر أكتوبر، وبعد شهر ونصف الشهر أعلنت الأمم المتحدة عن البرنامج الخاص لتوقيع العقوبات الدولية الذي مهد الطريق إلى الاعتداء على قناة السويس، ونزاع الدول على البترول الذي يمثل الوقود من أجل السفن الحربية التي تدخل إلى بورسعيد، مع وجود البحارة الإيطاليين والإنجليز؛ حيث إن بريطانيا كانت تسعى إلى الرقابة على البحر الأبيض، وفي ديسمبر أعلن صموئيل هور وزير الخارجية ونظيره الفرنسي ببيير الإعراض عن السياسة الخاصة التي أتاحت لإيطاليا الحصول على ثلثي الحبشة أو إثيوبيا الحديثة، إلى جانب الغضب العام من مجموعات اليسار وقوات حفظ السلام وإعادة

المفاوضات مع عصبة الأمم المتحدة من أجل الاعتماد على الدبلوماسية المعروفة قبل عام ١٩٤١ من الاحتياط من الدول التي تمثل القوى العظمى.

من هذه الأحداث؛ فإن هتلر تمكن من إعادة غزو الدول المجاورة لألمانيا مثل النمسا، وبعد شهرين زحف الجيش الإيطالي زحف إلى أديس أبابا في الحبشة، وفي أقل من تسعة أشهر تمكنت إيطاليا من الاستيلاء على جميع أنحاء الحبشة، بينما تنازلت ألمانيا عن أملاكها في فيرساي الفرنسية، بينما النبلاء الإنجليز مثل تشامبرلين وجدوا أنفسهم وحدهم في الدفاع عن المصالح الخاصة بعد تخلي بريطانيا عنهم، بينما كانت ألمانيا على الواجب الأدبي في الحفاظ على حدود هذه الدول؛ حيث إن إيطاليا قد توسعت كثيرًا في أقل من عشرين عامًا، مع وجود المستوطنين في كينيا الذين طلبوا من الإنجليز السيطرة على الحبشة.

تشامبرلين الذي تولى الحكم بعد والده المسن كان على استعداد إلى التقسيم الغريب لقارة أفريقيا وإعادة الاستقرار في أوربا، بينما تمكنت إيطاليا من غزو الحبشة بالكامل، والرعايا الأفارقة في الإمبراطورية البريطانية كانوا يشهدون النفوذ البريطاني على الحبشة، بينما الرعايا من نيجيريا كانوا يرون سلوك بريطانيا على أنه دليل على النفوذ العريض، إلى جانب القوميين من السود الذين اختلفوا مع بريطانيا حول إرسال القوات من أجل حماية اليهود في فلسطين والتخلي عن الحبشة البعيدة، وذلك من أجل تحويل فلسطين إلى قاعدة لليهود في الشرق، وإن المستعمرات الأفريقية التابعة إلى بريطانيا كانت تمثل جزءًا من المساومة مع ألمانيا من أجل الحفاظ على الرعايا والأملاك البعيدة، وذلك من خلال التفاوض بين الدول حول تقسيم الدول الضعيفة، بينما الأحداث خلال عام ١٩٣٥ تشير إلى انحصار الهيبة البريطانية.

كانت التعزيزات لأسطول البحر المتوسط، والعداء المصاحب حول
العقوبات قد حول إيطاليا وهي صديق في السبعين عاما الماضية إلى عدو،
وأظهرت لليابان أن اللحظة التي انشغلت فيها بريطانيا بالصراع الأوربي،
فإن توابعها في الشرق الأقصى صارت بلا دفاعات.

(٩)

الإمبراطورية تتحول إلى الحرب

(١٩٣٧ - ١٩٣٩)

أصبح نيفيل تشامبرلين نائب رئيس الوزراء فى مايو ١٩٣٧، وهو المنصب الذى ظل يعمل فيه لسنوات طويلة نظرًا إلى طموحاته العديدة فى الحصول على السلطة والنفوذ كما كان عليه أن يؤدى إحدى المهام الخاصة نظرًا أنه قادر وحده على إنقاذ الإمبراطورية وبريطانيا من هذه الورطة، والاحتمالات العديدة التى تشير إلى قيام الحرب الأوربية؛ حيث أصبح المنقذ القومى واكتسب سمعته فى مجال الإصلاح الاجتماعى، ولكنه لم يكن محنًا فى مجال الدبلوماسية كما كان يحيط نفسه دائماً بعشرة من الحراس ولكن كانت لديه بعض المواهب، ومع ذلك فإن الأمور لم تكن كما كان يريد، بينما كان أنتونى إيدن يميل إليه^(١).

كان تشامبرلين يكشف فى العديد من المواقف عن الظلم والتحامل، ويتضح ذلك من احتقاره للأمريكان وما كان يتضح فى كلامه من بغض للروس^(٢). وكوافد جديد على المفاوضات العالمية؛ افترض أنها ستكون من النوع المألوف بالنسبة له كما هى الحال بين المديرين والمرووسين الإنجليز^(٣). وأن ذلك لم يكن يوعد بشئ، كما يتضح من المقارنة ما يكشف عن حسن النية، والطبيعى من أجل حل الوسط العادل، ومع ذلك فإن تشامبرلين كانت لديه الثقة فى مهاراته المختلفة، كما كان لديه اعتقاد راسخ فى أنه يهدف إلى تحقيق مصالح بريطانيا من خلال العودة إلى الأسلوب القديم.

المتبع فى التعامل مع السياسة الخارجية ومبدأ الأخذ والعطاء بين القوة العظمى؛ فإن هؤلاء المتفقيين والمعارضين، وكان هناك دور بارز فى علاقات بريطانيا والدول الأخرى خلال القرن الثانى عشر، والثالث عشر حيث كانت بريطانيا تتنازل عن بعض الأراضى من أجل تخفيف التوتر بين الدول الأوروبية وتحقيق التوازن بين القوى العظمى، ومن أجل تحقيق هذا الهدف فإن بريطانيا كانت على استعداد للجلاء عن مالطا عام ١٨٠٢، والسماح للنمسا فى أن تحكم شمال إيطاليا وبولندا الروسية، وأن هذه الترتيبات أدت إلى تركيز اهتمام بريطانيا على الموارد المختلفة من أجل تحقيق مصالح بريطانيا عبر البحار، والتي كانت مهددة عام ١٩٣٧، والتي كان من الممكن إنقاذها بإعادة الاستقرار فى الأوضاع فى أوروبا.

كان السعى إلى تهدئة الأوضاع يمثل الهدف العام لدى العديد من الدول الأوروبية خاصة الدول الفقيرة والضعيفة التى كانت مجبرة على استقبال الحكام الأجانب حيث يمثل مخالفة لمبدأ حق تقرير المصير، كما أن تهدئة الأوضاع كان يمثل الهدف القريب، الذى يمكن أن يحقق الأمن والأمان ويعود إلى الأسلوب القديم فى الحكم، وأن هذا الأمر يتطلب الاعتماد على الدبلوماسية الخاصة فى التوفيق بين مصالح الدول ومواقفها وإعادة المباحثات مع موسلينى، وبحيث تحتفظ بريطانيا بالحق فى مصالحها التوسعية^(٤).

كان الحزب اليسارى يعتمد على العودة إلى الأساليب القديمة وتحقيق مثاليات المبالاة والتخلص من الأعداء السياسيين لتشميرلين، وكذلك القضاء على المذنبين، وبحيث إن الأسلوب المتبع فى سرد هذه الأحداث من الصحف المعاصرة هو الذى يشير إلى أعمال الدعاية والإعلان على مصالح الدول المختلفة، وبحيث تحولت إلى أداة من أجل الرأسمالية فى ظل العولمة، إلى جانب الحزب الجمهورى والإسباني والنشيكى، والذى قضت عليه الفاشية التى كانت على وشك أن تطيح بالاتحاد السوفيتى والشيوعية.

كانت الحكومة المحافظة تعتمد أيضاً على هذا الاتجاه الرأسمالي الذي كان يمثل الهدف الوحيد من السياسة الأجنبية المتبعة من تشامبرلين، كما يتضح من الكتاب الصادر عن الحزب اليساري والذي يحمل عنوان "الطريق إلى الحرب" عام ١٩٣٧ وسطوة اليابان على منشوريا والصين من أجل تحقيق نفس هذه الأهداف نظراً إلى الاعتقاد العام في وجود بعض المخاطر البسيطة من اندلاع الحرب ومن إعادة الفاقد من الخسائر من الاستثمارات التجارية، التي كانت تشمل الثورة الاجتماعية في اليابان والاتجاه العام من الصحافة القومية التي كانت تمثل أداة في يد الحزب المحافظ أو حزب المحافظين^(٥).

والتي تشير إلى إحباط الطموحات من جانب الطبقة العاملة، وآراء النقاد في الصحف المختلفة، كما يتضح أيضاً من الحزب العمالي الأسترالي الذي كان في شك من تأييد تشامبرلين للفاشية^(٦).

إن الحكام الذين كانوا يميلون إلى سياسة الموالاة والاستمالة لم يفكروا في صراع المثاليات الجديدة، وهو الذي لم يوصل إلى الخير المنتظر؛ بحيث إن الكاتب لا يرى كيف يمكننا الدفاع عن هذه المصالح نظراً إلى العدد الكبير من الأطراف المتنازعة، كما أن الأفكار المختلفة من ألكسندر كالوجان عام ١٩٣٧^(٧). تشير أن تشامبرلين لم يكن يسعى إلى تهدئة الأوضاع على المدى الطويل، والمخاطر العديدة على الأمن العام في بريطانيا، بينما كان هتلر يخشى من تدهور الأوضاع؛ نظراً لأنه كان معزولاً ولم يكن له حلفاء من الدول، بينما تشامبرلين كان عليه أن يعيد العلاقات الودية مع بريطانيا، مع الموقف المحايد من هتلر والموقف المؤيد من موسوليني؛ بحيث إن بريطانيا تحولت إلى الاهتمام بالشرق الأقصى واليابان.

كانت محاولات تشامبرلين من أجل استقرار الأوضاع في أوروبا تتلزم مع البرنامج الإيطالي مع وجود العديد من الأولويات البريطانية التي

قد حصلت على القبول العام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبحيث إن الدفاع الداخلي والقومي كانت له الأولوية الأولى، والذي كان يحصل على النصيب الأكبر من الميزانية القومية، على الرغم من الأهداف على المدى المتوسط والبعيد التي تتناقض مع الأهداف الصناعية في ألمانيا، وفي سبتمبر ١٩٣٩ مع استمرار هذا البرنامج ثلاث سنوات، والاستعداد العام من القوات المسلحة من أجل التدخل في هذه الأمور مع وجود ألفين من الطائرات المقاتلة و٤٢٥ من الطائرات الأخرى في الشرق الأوسط والهند والملايو. وخلال السنوات الخمس السابقة فإن صناعة القرار البريطاني كان يعكس الخوف العام من القوات الجوية الألمانية، وعند اندلاع الحرب التي تم الإعلان عنها رسميًا كانت ألمانيا لديها ٢٠٠٠ من الطائرات المقاتلة و ١١٨٠ من الطائرات الأخرى.

وبحيث إن الحكومة كان لديها اليقين بالإعلان عن هذه اللحظة المواتية للحرب، والاعتماد على القوات الجوية الضاربة لدى هتلر، والتي يمكن استخدامها في قصف المدن البريطانية، إلى جانب الاعتماد على نشر الغازات السامة من هذه الطائرات والاستعداد العام في المستشفيات داخل لندن؛ وذلك من أجل علاج الجرحى خلال الأزمة التشيكية في سبتمبر ١٩٣٨ وأن هذه الاستعدادات من أجل الحرب العامة أدت إلى تشتيت الأزمات القومية وشيوع الرهبة العامة لدى أفراد الشعب عند عودة تشامبرلين من ميونيخ حيث كان يسعى إلى إحلال السلام العام.

كانت الأولوية الثانية والثالثة لدى بريطانيا تتمثل في حماية المسارات البحرية والدفاع عن الإمبراطورية، وهي السياسة التي أوصى بها العديد من الدول، ولكن نظرًا إلى العديد من الأسباب السياسية والنفسية فإن تشامبرلين كان عليه أن يواجه القوة الضاربة على الحدود بين فرنسا وبلجيكا، والسعي

نحو تكوين الجيش القومي أدى إلى إحباط الفرنسيين من مد خط ماجينو من الحدود الشمالية في بلجيكا، وحتى قناة المانش التى تمثل اللازم علي بريطانيا، والدخول فى الحرب الدموية مع هولندا، ويفيد ذلك؛ فإن هذا الجيش كان يتطلب الميزانية الضخمة ولم يكن على استعداد لهذه الحرب الأوربية بينما فى فبراير ١٩٣٩ فإن تشامبرلين وافق بعد التردد على إرسال الحملة الخاصة إلى هذه الأراضى، التى قد فشلت فى الفترة بين ١٩١٤-١٩١٨.

منذ أكتوبر ١٩٣٥ فإن المخابرات العسكرية البريطانية بعد تطورات الموقف وبعد تقوية الجيش الألمانى والاعتماد على سلاح الدبابات والنظريات الجديدة التى تحض على التعاون الكبير بين الدبابات والطائرات فيما يسمى "بالبليتسكريك" بحيث إن الجيش الألمانى كان عليه أن يتعامل مع المركبات المدرعة والمسلحة، بينما الجيش البريطانى لم يكن على نفس المستوى^(٨)، حيث إن بريطانيا لم تكن قوية فى مجال الدبابات نظرًا إلى نقص الموارد المالية والتقسيم بين المركبات والمدركات، والتى لم تكن على استعداد من أجل الانتشار فى الحرب مع فرنسا فى مايو ١٩٤٠، بينما اشتد الطلب على الأسلحة المضادة للطائرات والصواريخ خلال هذه الفترة، ويشمل ذلك أيضًا الأسلحة المضادة للدبابات قبل عام ١٩٤٢ أو الحرب العالمية الأولى.

نفوذ بريطانيا على مائدة الحوار مع المسؤولين فى الدول الأوربية الأخرى وكذلك الدول المسلحة جيدًا يعتمد على الدعم من الإمبراطورية وهو الذى يمثل الأولوية الخاصة عام ١٩٣١، نظرًا إلى أغلبية التعداد الأبيض فى بريطانيا، بينما دول الكومنولث نجحت فى تخصيص سبعة وستين مليون جنيه إسترليني، حيث كان تسعة عشر منها من أجل هذه القوات والفترة فى عام ١٩١٤، حيث كانت بريطانيا تحتاج إلى تأييد الحكومات المختلفة التى انتظمت إلى بعضها، والتى كانت تقدم إليها الأسلحة والطائرات والسفن

وبحيث كان لازماً على هذه الحكومات أن توضح الهدف من السياسة الأجنبية ومن الخطة المتبعة في الحرب كما يتضح من المؤتمر الدولي في بداية ١٩٣٧ الذي كان يسعى إلى تقدير وضع بريطانيا والحقيقة التي تشير إلى احتمالات هزيمة بريطانيا في هذه الحرب نظراً إلى القوة العسكرية والسياسية والمالية التي قد تدهورت في المملكة المتحدة^(٩). ومنذ إعلان إدوارد جراي منذ عشرين سنة انعزال العديد من المقاطعات البريطانية وعجزها عن الدفاع عن نفسها، بينما كانت ألمانيا تمثل العدو المفترض وبريطانيا كانت مسئولة عن حماية الدول الصغيرة، بينما كانت فرنسا تتوقع المساعدة منها.

انتشرت القوات الهندية خارج أوروبا والتي في مصر والشرق الأوسط إلى جانب إيطاليا التي انسحبت من الأراضي التي حصلت عليها لصالح ألمانيا بينما سنغافورة كانت تمثل محور الدفاع عن الشرق الأقصى واليابان التي كانت تسعى إلى الحصول على المواد الخام من غرب المحيط الهادئ من شرق الأنديز، وذلك من أجل تحقيق المصالح البريطانية، وإن بريطانيا قد عمدت إلى نقل العديد من القوات الإضافية إلى الملايو في الشرق الأوسط مع الاعتماد على القوات الجوية في جنوب أفريقيا، وبحيث إن هذا الإجراء لم يكن ملائماً في الشرق الأوسط، وفي عام ١٩٣٩ كانت تواجه الضغوط من خلال نقل الطائرات من أجل سنغافورة، والتساؤلات العديدة حول كيفية الدفاع عن سنغافورة كانت تمثل مسئولية المفوضين في إطار المفاوضات المختلفة^(١٠). والاعتماد كذلك على الأساطيل البحرية والعسكرية في البحر الأبيض المتوسط في السويس^(١١).

بينما لم يكن نائب رئيس الوزراء الأسترالي راضياً عن هذه الأوضاع وكان يدين اليابان في اتخاذ هذا الإجراء، وفي الحصول على الوسائل

المختلفة من أجل التصدى إلى الزحف اليابانى، وبحيث إن أنتونى إيدن الأمين العام أعلن عن قبول ذلك، وأشار أن بريطانيا لم تتمكن من الدفاع عن الإمبراطورية^(١٢). والشكوك العامة حول سنجافورة نظراً إلى اشتراك بريطانيا فى الحرب الأوربية وعدم قدرتها على الاستمرار فيها، وأن هذه المخاوف تعود إلى تقديم بريطانيا الطائرات إلى أستراليا والحلفاء المختلفين فى البحر الأبيض المتخصصين فى صناعة الطائرات البريطانية، إلى جانب الأولويات والأوامر من رومانيا واليونان وتركيا التى كانت تأتى فى المقدمة على السلاح الجوى الأسترالى بين ١٩٣٧ و١٩٣٩^(١٣). وبحيث كان عليه إلى أن يعود إلى الاعتماد على الموردين الأمريكان فى العام الثانى مع تركيب المحركات الأمريكية مع الطائرات البريطانية المقاتلة^(١٤).

أدى وجود العديد من المشكلات المحلية والمخاوف حول قدرة بريطانيا على حل هذه المشكلات إلى تحول أستراليا نحو الولايات المتحدة، إلى جانب السياسية الخارجية التى كانت تسعى إلى تحقيق المصالح البريطانية، بينما كانت السياسة الأجنبية من كندا تسعى إلى القضاء على هذه الأزمة عام ١٩٢٢ عندما أعلنت كندا إلى البرلمان عن اتخاذ القرار بالسعى إلى الاستقلال عن الدول الأخرى والتقرب إلى الدول المختلفة تبعاً إلى مذهب مونرو فى هذه المنطقة، وداخل كندا فإن الخريطة العنصرية كانت تعتمد على التمسك بالمصالح مع بريطانيا مع وجود أحد عشر مليون نسمة، والولاء الإمبريالى فى بعض المقاطعات التى تتحدث الإنجليزية، وذلك من أجل الإحساس العام بالهوية الكندية، وفى عام ١٩٢٥ فإن المهاجرين إلى هذه المنطقة "المولود فى بريطانيا مثل المولود فى كندا لن يحتاج إلى مناصرة"^(١٥).

وفى خريف ١٩٣٨ أعلن هتلر عن حقه فى أرض السودان وكذلك فى تشيكوسلوفاكيا، حيث إن غالبية السكان من الألمان، بينما تشامبرلين كان يؤيد الألمان فى الجنوب وفى الأراضى الأجنبية^(١٦). كما كان يؤيد هتلر من خلال الاجتماع مع المسئولين فى منتصف سبتمبر نظراً إلى الاحتلال العسكرى لمنطقة التشيك. وفجأة وبسبب غضب تشامبرلين تحول الأمر إلى حرب أم سلام فإن بريطانيا وفرنسا تقاومان الغزو الألمانى لتشيكوسلوفاكيا، انقسم الرأى البريطانى العام، بينما تقلصت المقاطعات المختلفة بعضها عن بعض، ولم تجد الحكومة البريطانية البديل عن الدخول فى الحرب على ألمانيا مع التشيك وبالنسبة للحكومة الأسترالية كان أى بديل أفضل من التورط فى حرب مع ألمانيا فى حالة تدخل الأخيرة بشكل اضطرارى فى تشيكوسلوفاكيا^(١٧). وإن هذا الحس العام فى كندا كان يشير إلى الصراع العنصرى فى مناقشات البرلمان^(١٨). بينما رئيس الوزراء كان يؤيد بريطانيا ويعارض الحرب على التشيك^(١٩)، ويعتمد على أفريقيا، كان يدرك أن الرأى العام الأفريقى ضد قيام الحرب يعود إلى عدم الاستعداد إلى قتال التشيك^(٢٠)، بينما تشامبرلين كان يسعى إلى توحيد الإمبراطورية والتعاطف مع الدول الصغيرة التى تداول القوة العظمى والدول القوية.

الحقيقة الماثلة فى أن بريطانيا لم تتمكن من إقناع المسئولين فى هذه المقاطعات المختلفة فى التعاون على القتال ضد التشيك، بينما سفارة تشامبرلين إلى ميونخ فى نهاية سبتمبر من ذلك العام والمباحثات مع هتلر الذى أشار إلى عدم قدرته على الاعتماد على القوات الكندية، بينما كانت فرنسا تسعى إلى الاستعداد العام، والبرنامج البريطانى كان عليه أن يفعل الكثير، بحيث إن التشيك كانت متروكة إلى مصيرها، وعاد تشامبرلين إلى بلده بعدما حصل على الوعد من هتلر فى حل جميع الخلافات البريطانية الألمانية، عندما أعلن عن تصريح دزرائيلى عام ١٨٧٨ فى برلين بعد عودته من الكونجرس.

كان اختيار الكلمات ذا أهمية خاصة فى حديث تشامبرلين مثل
دزرائيليكما يتضح من سياق هذا الخطاب الخاص الذى أعلن عنه إلى
الرؤساء والملوك المختلفين، بينما كان الشعب الإنجليزى يسعى إلى إحلال
السلام والتخلص من هذه الأزمة، وذلك من خلال كسب الوقت من خلال
هذه المفاوضات، ويتضح ذلك من الانتصار العام فى ميونيخ عامى ١٨٧٧ ،
١٨٧٨ حيث إن دزرائيلي كان يقاوم هذا الضغط من جانب الصفوة، عندما
أصر على أن بريطانيا عليها الواجب الأدبى فى تقديم الدعم إلى البلقان الذين
كانوا يناضلون من أجل الحرية، بدلاً من دعم تركيا، وبعد مرور ستين عاماً
من ذلك ظهرت فى الموجة من الاحتلال نظراً إلى التحالف بين اليمين
واليسار، وهو نفس رأى تشرشل الذى أعلن عن هذه الأزمة إلى المسؤولين
فى التشيك الضحايا من الظلم الاجتماعى، كما أن هذه المجموعة قد أعلنت
أن ميونيخ تتصف بالجبن والخيانة بينما أشار المؤيدون لتشامبرلين أن
بريطانيا ليست قادرة على الدخول فى الحرب الأوروبية فى هذه المنطقة،
نظراً إلى عدم وجود المصالح فيها، كما كانت معرضة إلى الخطر والتهديد
وعلى ضوء هذا رأى الذى أعلن عنه أحد المرسلين فى صحيفة سبكتاتور
الشهيرة (Spectastor) والذى أشار أن هذا الجيل ليس مستعداً من أجل
النضال على وحدة أراضى أوربا الوسطى والشرقية التى تضم أقليات ضخمة
وغير متجانسة، وكما يدعى سوف نحارب من أجل الهند والدومنيون
والمستعمرات وفرنسا^(٢١).

السلام العام كان يمثل الشغل الشاغل لدى تشامبرلين عندما ذهب إلى
ميونيخ، وإذا استطعنا أن نساير ألمانيا فإننى لن أخشى من موسو
(Musso)^(٢٢). ومنذ أن تولى منصب نائب رئيس الوزراء فإنه كان مسئولاً
عن وضع السياسة الخارجية وتطبيقها، كما كان يسعى إلى التفاهم مع

موسوليني الذي كان يحافظ على الوضع الإستراتيجي لدى بريطانيا في إقليم البحر الأبيض، إلى جانب تطلعات تشامبرلين في إيطاليا، والخطأ في تقدير نقاط القوة والقدرات في الجيش والبحرية^(٢٣). والنتيجة المتوقعة من ذلك تتمثل في اتفاقية ١٩٣٨ حيث إن بريطانيا وأستراليا وكندا قد أدركوا الخطورة من احتلال بريطانيا لدولة إثيوبيا، كما كانت إيطاليا تتوعد وتعلن عن الحفاظ على الوضع الراهن في البحر الأبيض.

تعكس هذه الاتفاقيات لنا فشل تشامبرلين الكبير في استيعاب الفاشية الإيطالية، وعدم قدرته على اتخاذ دور القائد؛ حيث إن الوضع الراهن كان يمثل الظروف المواتية من أجل استمرار الفاشية والحفاظ على الوضع العام، كما أن الأسباب الشخصية والسياسية كانت تشمل التوسع، بينما كان موسوليني يسعى إلى إحياء ذكرى الرومانية مرة أخرى، وفي عام ١٩٣٨ فإن العديد من النواب من الفاشية كانوا يرون الخطورة من حصول هتلر على بعض الأراضي في كورسيكا.

كما تمكن أيضاً من الحصول على أجزاء كبيرة من تونس، بينما حصلت فرنسا على الجيبوتي التي تقع عند نهاية البحر الأحمر، وفي بداية هذا العام فإن موسوليني، قد قلب الصفحة على التعامل مع بريطانيا عندما تحدث عن ذلك إلى الوزراء الإنجليز، بينما كانت إيطاليا تمثل أهم دول البحر الأبيض؛ نظراً إلى صلتها مع بقية العالم من خلال قناة السويس التي تمثل القناة الرسمية التي يمكن أن تخضع إلى الحظر الاقتصادي أو العسكري، أو من خلال مضيق جبل طارق الذي كان يعتمد في الحماية على المدافع البريطانية، ولذلك فإن بريطانيا لم تكن قادرة على السيطرة على المحيطات وكانت حبيسة في البحر الأبيض، على الرغم من ارتفاع التعداد السكاني فإنها أصبحت أقدر عن ذي قبل^(٢٤).

وخلال نفس هذه الفترة فى المستقبل فإن إيطاليا قد استبعت هذا الهدف، وهو الذى يمثل التملص من الحرب مع بريطانيا القوية والاحتلال الفرنسى، حيث إن قناة بارى الإيطالية قد أعلنت عن ذلك وعن الإعلان المعادى لبريطانيا والموجه إلى العرب والمصريين كما أن القنصل الايطالى فى كابول كان يقدم المساعدة إلى زعماء القبائل فى الحدود الشمالية والجنوبية والغربية^(٢٥)، بينما موسولينى قد أعلن عن موقف بريطانيا حيال الطابع الفاشى للتعامل مع الأمور.

تمسكت الأنحاء المختلفة من الإمبراطورية بنفس هذا الرأي؛ حيث إن الهيبة البريطانية كانت تعاني من الاتفاقات الإيطالية وبعد استقالة إيدن فى بداية ١٩٣٨ نظراً إلى الاحتجاج إلى سياسة تشامبرلين، فإن إيدن عاد إلى نفس منصبه فى بريطانيا العظمى، وكان يمثل الركيزة ضد الهجمات، وفى نوفمبر ١٩٣٨ أعلن الوطنيون فى سيراليون عن السيادة الإيطالية على الحبشة^(٢٦)، وإن ميونيخ كانت تمثل الدرس المستفاد الذى يشير إلى القوة البريطانية؛ وفى أكتوبر من نفس العام ظهر الاحتقار العام ضد هذه السلطة البريطانية من فلسطين، يقال إن الجرأة والقسوة الشديدة للعرب ترجع إلى اعتقادهم التفاوض مع الإمبراطورية البريطانية على قدم المساواة، وفى الشرق الأقصى فإن نزول اليابان على جنوب الصين، والذى إذا لم يغز هونج كونج حقاً فإنه مخطط لتدمير تجارتها، وهذا يرجع إلى ثقة اليابان فى أن القوى العربية لا يمكن وضعها فى الاعتبار^(٢٧).

السير ألكسندر كادوجان أعلن عن نفس هذا الرأي؛ حيث إنه كان يخشى من هجوم اليابان على الصين، وعدم المبالاة بالمصالح التجارية البريطانية والنّتى كانت تمثل العلامة إلى بقية أنحاء آسيا بأن بريطانيا سوف تكفى بهذا القدر من التوسع، بينما تشامبرلين قد تملص من الحرب مع بريطانيا، وأعلن إلى الكومنولث أنها ليست على استعداد إلى هذا النضال.

استمر هتلر يمثل محور الأحداث التالية، والظروف التي كانت تشير إلى قيام الحرب، حيث لم يكن هناك شك في نية هذا الرجل الذي يؤيد الحرب، وأنه ليس هناك بداية أو نهاية لأي للجهود الأخرى إلى السلام، وكان يمثل نابليون الجديد والذي لم يكن محل ثقة، والذي كان على استعداد لأي شيء كي يحقق مصالحه، كما أن طبيعة هذه الشخصية كانت معروفة إلى المسؤولين في الحكومة والشعب البريطاني، ويتضح ذلك من وجود مجموعة من الحلفاء الذين كانوا يعتقدون في إمكانية شراء هتلر، وفي بداية ١٩٣٩ كان لا بد من تحرير المستعمرات الأفريقية القديمة التي كانت تخضع للسيادة الإيطالية^(٢٨).

ثقة تشامبرلين في هذه السياسة كانت لا بد أن تواجه الواقع؛ نظراً أن وزارة الخارجية كانت على استعداد إلى التخلي عن تفكير الديكتاتوريين، بينما في يناير ١٩٣٨ فإن الحكومة الأسترالية أعلنت عن المصادر المسؤولة والتي أشارت أن هتلر سوف يدخل في المغامرات الجديدة للتوسع في أوروبا، وكان يسعى إلى احتلال أوكرانيا، بينما الشعب الأسترالي كان يرتبط بمصير مع بريطانيا، كما أنه تمكن من الاستيلاء على هولندا وسلم بعد ذلك الهند الشرقية الهولندية إلى اليابان^(٢٩).

استمرت هذه المخاوف العامة عندما أعلن هتلر عن القيام بالهجمات الجوية على بريطانيا، بينما كانت تشيكولوفاكيا تمثل الهدف الثاني لدى هتلر. وفي ١٥ مارس من نفس العام استولى جيش هتلر على هذه الدولة، وجاء بعد ذلك ابن آوى الذي يحصل على الفريسة بعد الأسد، وفي ٧ أبريل فإن موسوليني استولى على ألبانيا، وهو ما أثار دهشة تشامبرلين، حيث إن موسوليني كان يتطلع طويلاً إلى هذا الهدف^(٣٠)، بينما الضغط العام والبرلمان أديا إلى تعديل السياسة الخارجية البريطانية، وفي اليوم

الأخير من شهر مارس أعلن عن الوفاء بالوعد إلى هولندا، بأن تقدم الدعم؛ حيث إن ألمانيا كانت تسعى إلى مزيد من التوسعات، بينما بريطانيا دخلت في الحرب وهي التي تمثل استجابة إلى الاعتداء من جانب هتلر، بينما تشامبرلين لم يكن راضياً عن تغيير هذه السياسة، وأعلن أن هتلر قادر على الحرب كما كانت لديه عقيدة ثابتة في ضرورة التوصل إلى حل الوسط مع المسؤولين المختلفين، الذي يعتمد على الصراع الأوربي، بحيث إن بريطانيا تصبح قوية على التصدى إلى هتلر، كما أن تشامبرلين كان مسؤولاً عن تغيير مسار الأحداث خاصة في نهاية ربيع ١٩٣٩ وصيفه، عندما كانت بريطانيا تسعى إلى البحث عن الحلفاء خاصة الاتحاد السوفيتي.

اكتسب الكومنولث مزيداً من الأهمية نظراً إلى هذه الظروف، ومع ذلك فإن المقاطعات المختلفة كانت تعتمد على الحكام الذين يخشون من دخول بريطانيا في الحرب الأوربية نظراً إلى عدم وجود الحماس لدى بولندا في جنوب أفريقيا حتى نهاية أغسطس^(٣١). بينما كندا أعلنت عن الرفض في أن تمثل أحد الضامنين الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية حول الحفاظ على بولندا، بينما ماكنزي كينج أعلن الوعد إلى البرلمان وعن إعلان الحرب عند الهجوم على بريطانيا؛ حيث إن كينج كان يسعى إلى الحصول على الدعم من القوة العظمى الأخرى؛ وذلك في إطار الجهود المبذولة من أجل التأثير على هتلر ولكن دون أن يتمكنوا من النجاح في ذلك، ولكنه كان محظوظاً أثناء زيارته إلى لندن عام ١٩٤٢ عندما تحدث إلى فلورانس نايتجيل الذي قدمت إليه النصيحة من أجل الاهتمام بصحته، وإلى بولين والملكة فيكتوريا أثناء جلسة تحضير الأرواح^(٣٢).

كان على الحكومة الأسترالية الاختيار بين تسليم الشيك المصرفي إلى بريطانيا من أجل تمويل الحرب الأوربية أو دعم الموارد من أجل التصدى

إلى المخاطر الداخلية، بينما الحزب المحافظ فى اليابان كان يؤيد الوضع السابق وعدم تغيير الأوضاع؛ حيث إن السير أيرل باج الذى يمثل الزعيم العام للحزب الجمهورى أعلن عن قدرات هذه الإمبراطورية وأنها مع ذلك لا تخلو من التهديد العام من الدول الطموحة أو المعتدية^(٣٣).

لم يكن جون كورتين زعيم الحزب العمالى على إقناع بهذه الاتفاقية، وأعلن عن أن أستراليا تأتى فى المقدمة، وهو الذى يمثل شعار هذا الحزب والذى يعمل على تخصيص جميع الموارد البشرية والمالية من أجل الدفاع عنها^(٣٤).

من وراء هذا النقاش العام الذى يخفى القلق من الخطة البريطانية فى الشرق الأقصى وبداية الحرب اليابانية الصينية عام ١٩٣٧، والنجاحات المبكرة لليابان والتى أدت إلى تسليح أستراليا، بينما أصبح المسئولون يبالغون فى المقاطعات، وتشامبرلين كان يؤيد ذلك فى حالة حدوث الحرب مع ألمانيا وإيطاليا، فإن اليابان عليها أن تعتمد أن تتضمن إليهم، بينما كان على الحكومة البريطانية أن ترسل الأسطول إلى سنغافورة^(٣٥)، وإن هذه الرسالة أدت إلى إزعاج الشعب الأسترالى نظراً إلى عدم الإجابة عن السؤال الأهم إليهم حول كيفية استخدام العدد الكافى من السفن بينما كان تشامبرلين برفض استقبال هذا الأسطول الحربى إلى الشرق الأقصى من أجل استعراض العضلات والقوة، بينما كان على موسولينى أن يتخذ المبادرة فى البحر الأبيض والتأكيد على هذه المخاوف فى حالة حدوث الحرب حيث إن الجبهات الأوربية^(٣٦). لا بد أن تعتمد على الموارد الإيجابية، ومع اعتبار ذلك فإن نائب رئيس الوزراء الأسترالى روبرت مينزى قد أعلن إلى الشعب الإنجليزى فى نهاية أبريل بأن عليهم التحالف مع بريطانيا عند حدوث الحرب من أجل الدفاع عن السواحل.

كانت أستراليا لا تزال فى حاجة إلى البوارج الملكية والعسكرية وناقلات البحار، وفى شهر يوليو فإن المفوض الأسترالى فى لندن قد التقى مع الأدميرال شات فلد، الوزير الجديد والمسئول عن الدفاع فى هذه المنطقة والمسئول أيضاً عن توفير العدد الكافى من هذه الموارد، وعلى الرغم من هذا الصدام على مصالح بريطانيا فى الصين فإن بريطانيا كانت تتوقع من اليابان أن لا تشترك فى هذه الحرب؛ حيث إن القضاء على البحرية الإيطالية كان يمثل الأولوية^(٣٧).

كانت الخطة المتبعة من سنغافورة والتي لم يتم تنفيذها نظراً إلى الفوضى العامة، وفى نهاية العام فإن اليابانيين قد استولوا على جزيرة هيرمان التى تقع على مسافة ٢٥٠ ميلاً جنوب هونج كونج، وبعد شهر من ذلك فإنها استولت على جزر إسبرتللى التى تقع على مسافة ٦٥٠ ميلاً من شمال شرق سنغافورة ومع تطورات الأحداث فإن المخططين الإنجليز والفرنسيين قد أعلنوا عن أن سنغافورة لم تعد تمثل جبل طارق الشرق الأقصى، كما أن الأمن والأمان كانا يعتمدان على الشبكة من المطارات الجوية فى الملايو والاعتماد على سلاح المشاة والمدافع المضادة للطائرات^(٣٨).

للمرة الأولى منذ الحرب الأمريكية فإن بريطانيا فقدت قدرتها على الدفاع عن هذه الإمبراطورية، وأن الحفاظ على الأملاك البريطانية فى المحيطين الهندى والهادى اعتمد على الأسطول فى الإسكندرية، والذى لابد أن يبقى هناك حتى رجيل البحرية الإيطالية، بينما ماكنزى كان يرى هذه الكارثة الوشيكة فى سبتمبر، عندما كان يطلب من تشامبرلين أن يقنع الفرنسيين من أجل الإفراج عن تونس وجيبوتى^(٣٩). ويبدو أنه لم يتعلم شيئاً من دروس الماضى التى أشارت دون شك إلى أن الامتيازات المحدودة يمكن أن تؤدي بعد ذلك إلى الحصول على الجوائز الضخمة.

أدت المطالبة العاجلة نحو تحقيق الأمن الأسترالى إلى أن المفوض العام بروس فى الولايات المتحدة تحدث مع روزفلت حول كيفية استجابة أمريكا عند زحف الأسطول اليابانى إلى الجنوب من خط الاستواء^(٤٠)، بينما أشار تشرشل إلى ضرورة الحفاظ على المصالح البريطانية فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى الذى يعتمد كثيرًا على أمريكا، وعند اندلاع الحرب عبر سمطى عن أمله فى أن أمريكا التى تمتلك الموارد الأخيرة للقضايا البشرية بأنها سوف تدخل^(٤١).

أصبحت بريطانيا وأمريكا من الحلفاء الطبيعيين نظرًا إلى اللغة المشتركة واتباع نفس المبادئ الديمقراطية، وإن علاقات هذه الدول بعد عام ١٩ كانت تشير إلى الدول والنزاهة والأمانة، بينما تشامبرلين كان مصابًا بالإحباط من رفض أمريكا أن تؤيد بريطانيا فى الصين، وأشار إلى أن الأمريكان لا يُعتمد عليهم، بينما المسئولون عن وضع السياسة فى مجلس الوزراء كان يترددون ويخشون من السلطات والنفوذ، ولذلك كانوا يتطلعون إلى عدم تغيير الأوضاع^(٤٢)، وهو الذى كان يعكس لنا الاهتمام الإنجليزى والأمريكى من أجل الحفاظ على الاستقرار فى الأوضاع الدولية والدعم المشترك بين الدولتين، بينما العقبة أمام التعاون بينهما كانت تتمثل فى التجارة، وفى عام ١٩٣٢ من خلال مؤتمر كندا فإن بريطانيا قد اعتمدت على سياسة الحماية التى حصلت على الأولوية الأولى، والتى قد أعلن عنها كورديل هول الذى كان يؤيد بشدة التجارة الدولية الحرة وتوجيه الطاقات المختلفة وكذلك التعاون على المفاوضات المختلفة^(٤٣) من أجل حل المشكلات الدولية بين بريطانيا والدول الأخرى مثل اليابان وألمانيا وإيطاليا؛ حيث إن السياسات الإيطالية كانت تعتمد كثيرًا على التعاون فى الوصول إلى حل الوسط.

تتمثل العقبة الأخرى أمام التعاون الأمريكي الإنجليزى فى السياسة الانعزالية؛ نظراً إلى الذكريات العديدة حول اشتراك الولايات العالمية المتحدة فى الحرب العالمية الأولى.

وإن أى التساؤلات حول تدخل أوروبا الذى كان يتلازم مع الخسائر الفادحة والاستياء من رأى العام الأمريكى، وهو الذى أعلن عن روس بعد زيارته عام ١٩٣٩، والذى حصل على التقدير من روزفلت؛ حيث إن الأمريكان كانوا يتطلعون إلى تحقيق بعض المصالح فى أوروبا بالنظر إلى الأسطورة الجديدة عن السياسات الخارجية من جانب الدول العظمى والتي تمثل المهمة الصعبة نظراً لاعتراف بريطانيا بالسيادة البريطانية على إثيوبيا وأجزاء من التشيك.

ومع عدم ثقة الولايات المتحدة فى القوة الاستعمارية والتي أعلنت عنها إلى بريطانيا فإن روزفلت لم يكن يمنع من هذا الهجوم المعادى للإمبريالية وفى عام ١٩٤١ فإن اليابان كانت تتطلع إلى الهند الصينية بدلاً من الخضوع إلى الحكم الاستعماري الفرنسي^(٤٤). حيث إن القوات البحرية والعسكرية كانت ترى أن الإمبراطورية البريطانية هي السبب فى الاستقرار الدولى.

تتمثل الأسباب التى أدت إلى انعدام التفاهم فى عدم استعداد الشعب الأمريكى إلى المشاركة فى هذه الأحداث الفوضوية بين الدولتين، والذى أشار إلى استحالة التفاهم قبل عام ١٩٣٩ حيث إن العداء وكذلك الدبلوماسية المترددة أدت إلى استبعاد روسيا من الجبهة الإنجليزية الفرنسية، بينما كان هتلر يحتاج إلى روسيا لأنه لم يكن يخشى من قدراتها فى صيف ١٩٣٩ وبعد مرور عامين من ذلك عندما اعتدى على هذه الدولة؛ حيث إنه كان يحتاج إلى التعاون مع روسيا المحايدة التى تركت له الحرية من أجل التحايل مع بريطانيا وفرنسا والحصول على المواد الخام من روسيا، كما أنه

اشترك فى المعاهدة الروسية فى نهاية أغسطس؛ حيث إن المجال أصبح مفتوحاً فى بولندا، والجيش الألمانى الذى أعلن عن الغزو فى أول سبتمبر.

أعلنت بريطانيا الحرب فى ٣ سبتمبر من خلال الإذاعة البريطانية، وأشارت إلى معاناة تشامبرلين، وأعلنت كذلك فى البرقية التى جاءت إلى لندن من غرب الأنديز، فإنه ليس عليه أن يقلق؛ حيث باربادوس يؤيده فى الموقف عن بقية المستعمرات الأخرى، إلى جانب إعلان فيسروى عن الحرب التى أدت إلى إزعاج حزب الكونجرس، بينما كانت أستراليا تتابع أخبار أوروبا؛ نظراً إلى بعض الصعوبات فى الحصول على المستندات السرية من الحكومة الإنجليزية.

وفى ٢٥ أغسطس فإن ماكنزى أعلن إلى الشعب البريطانى عن اشتراك إنجلترا؛ حيث إن هزيمة بريطانيا العظمى يمثل القضاء على الإمبراطورية البريطانية، وهذا رأى كان يسود عام ١٩١٤ بينما فى جنوب أفريقيا فإن الحزب الحاكم الذى تأسس عام ١٩٣٤ كان يؤيد هذا الموقف المحايد فى البرلمان الذى يضم ثمانين من الأعضاء، والذين أرغموا نائب رئيس الوزراء هيرزوج على الاستقالة فى الخامس من سبتمبر، رغم أنه النائب الذى حصل على هذه المناصب؛ حيث إن الحاكم العام رفض الاشتراك فى الانتخابات الجديدة بينما دخلت جنوب أفريقيا الحرب، والاتحاد فى جنوب أفريقيا قد أشار إلى المخاوف من المسئولين فى كندا الذين يرفضون الحرب بشدة، بينما ماكنزى أشار إلى الدعم المعنوى لبريطانيا من خلال الإذاعة فى ٣ سبتمبر، وبعد أيام قليلة من اعتماد البرلمان على الحرب التى حصلت على القبول دون المعارضة، بينما عمل موريس دبولىسى زعيم الحزب الوطنى فى كويبك على أن يحل المجلس المحلى للمقاطعة، وأعلن عن الانتخابات العامة فى أكتوبر والإمبراطورية الإنجليزية التى دخلت فى

الحرب من الأسبوع الأول من سبتمبر، مع وجود قدر من التأييد المعنوى من الشعب الإنجليزى فى الدخول فى الحرب،

وتقديم الدعم إلى الأسطول فى البحر الأبيض على الرغم من العقوبات التى أدت إلى تحويل إيطاليا إلى الدولة الصديقة على مدى ٧٥ عامًا والتى تحولت إلى أحد الأعداء، وأعلنت إلى اليابان بأن الوقت قد أصبح مناسبًا من أجل دخول بريطانيا فى هذا الصراع الأوروبى وإمكانية تحرير المقاطعات البريطانية فى الشرق الأقصى.

لقد ذهب الكومنولث والإمبراطورية إلى الحرب فى الأسبوع الأول من سبتمبر، ولكن وحدتها لم تكن دون تساؤل، ولم يكن هناك أى خداع وطنى وعاطفى، وهناك مهمة صعبة قادمة، وإن الذين يصلون إليها لم يلفوا أكمامهم أكثر من التلويح بالأعلام، وكانوا على وشك محاربة "حرب الشعب" وعندما تنتهى فإن الشعب ليس فى بريطانيا فقط ولكن فى كل أنحاء الإمبراطورية والتى تتوقع مكافأة على جهدهم.

(١٠)

الإمبراطورية فى حالة حرب

(١٩٣٩ - ١٩٤١)

فى حديث أذيع فى أكتوبر ١٩٤٠ تحت عنوان "ماذا تعنى الإمبراطورية بالنسبة لنا" حذر فيه اللورد إليود وزير المستعمرات مستمعيه من أن جماعة المحور تريد أن تضع أيديها على الجوائز البراقة لمستعمرات بريطانيا، لكن لن يستطيعوا أخذها بسهولة، وقد كتب شيخ قبيلة فى غرب أفريقيا إلى وزارة مستعمرات يصف كيف استخرج بندقية ذات طراز قديم من القبر ليأخذها ضد أعداء الملك، وأضاف المحارب القديم: "فى أيام مثل تتويج الملك فإن وطنى يظهر فى لندن؛ ولهذا لم تكن أوربا الآن فى حزن، وعلى وطنى أن يشارك فى هذه الاحتفالات أيضاً؛ وحيث إننى رجل فقير أستطيع فقط أن أقدم خدمتى^(١)".

إنها عبارة مؤثرة عن الولاء الذى لا بد أنه أثر على أوتار معظم المستمعين فى دولة تحارب بياس من أجل البقاء، وحيث تدرّب متطوعو الحرس الوطنى على طلقات بنادق قديمة، شهد العام الماضى حرباً تليفونية تتداخل مع القصور والجمود بين انهيار بولنداة وهجوم هتلر السريع فى الغرب، وخلال شهرى مايو ويونيه من عام ١٩٤٠، انساق الهورماخت

(Wehrmacht) عبر بلجيكا وهولندا والدانمرك والنرويج وأعلن موسوليني عندما شاهد اتجاه هبوب رياح الحرب في ١١ يونيه، وبعد أربعة أيام فتحت الحكومة الفرنسية مفاوضات انتهت باستسلامها غير المشروط في اليوم الثامن عشر، وصار موقف بريطانيا في منتهى الخطر، ولأول مرة منذ عام ١٨٠٦ كانت في حاجة إلى حلفاء، وواجهت أوروبا التي كانت صناعتها وقواها البشرية تحت تصرف رجل طاغية ينوى تدمير إنجلترا، وتوزيع مستعمراتها في النهاية.

وخلال الأزمة الأولى كانت القاعدة الإمبريالية في أمان نسبي، ويرجع الفضل في ذلك إلى أسطول حربي لا يُهزم، وعلى مستوى رفيع، ولكن في صيف عام ١٩٤٠ كانت بريطانيا معرضة إلى غزو لاسلكي عبر القنال الإنجليزي، وكان الموقف ميئوساً منه، وفي واشنطن تنبأ الجنرال جورج س. مارشال رئيس هيئة الولايات المتحدة وآخرون كثيرون بأن بريطانيا سوف تخرج من الحرب في خلال ستة أسابيع^(٢).

إن ما جاء بعد ذلك كان ألطف ساعة عند الشعب البريطاني، وكانت هذه العبارة من كلام تشرشل وجزءاً من نداء حماسي للدعوة إلى السلاح ألقاه في الثامن عشر من يونيه بعد شهر من تعيينه رئيساً للوزراء "دعنا نتمسك بواجباتنا وعلى هذا نحمل أنفسنا، إنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث لألف سنة فسوف يقول الرجال:

"إن هذه ألطف ساعة".

وكان من بين المستمعين أحد عمال جيوردي (Geordie) الذي وصف تشرشل بأنه أحد الخنازير اللوطيين من الهند، والذي وجد في النهاية أن القتال يجب البحث عنه طوال كل أعماله، ومع ذلك كان المتحدث مستعداً للالتقاء معه.

كما أن التاينسيدر (Tynesider) وكل شخص آخر يعرف أن حياة تشرشل وأعماله العسكرية الطويلة ومهامه السياسية كانت مرتبطة بالإمبراطورية، ففي عام ١٨٩٧ حارب الباثان على الحدود الشمالية الغربية، وبعد عام كان مسؤولاً عن الفرقة الحادية والعشرين في أم درمان، وعندما شن حرباً ضد البوير الذين أخذوه أسيراً، وصار بعد ذلك أحد رجال الدولة الإمبريالي، وشغل منصب وزير المستعمرات مرتين، الأولى مع حزب الأحرار تحت رئاسة أسكويث والثانية تحت قيادة إليود جورج.

لقد كانت فترة استعمار تشرشل معقدة وفي أحيان متناقضة، وعلى المستوى العام لم يتغير اعتقاده بأن الإمبراطورية أعطت بريطانيا سيادتها وسلطانها الدولية، وأن الحكومة الاستعمارية أعطت السلام والرخاء لشعوب لن تستطيع تحقيق إحداها دون مساعدة، وفي هذا كما لاحظ اللورد موران (Moran) طبيبه الخاص ومؤرخ طيشه وحماقاته أنه طفل عصره " أنه عندما يتحدث عن الهند أو الصين نتذكر إنه من رجال العصر الفيكتوري " كما لاحظ موران في عام ١٩٤٣.

يعتقد تشرشل حسب التطور الطبقي التدريجي عندما نتعلم كيف نفكر في جنس على أنه كائن أدنى، فإنه من الصعب أن نتخلص من هذه الطريقة في التفكير، وعندما كنت ملازماً أول يبدو لي أن الهنود ليسوا على قدم المساواة مع الرجل الأبيض^(٢).

وفي الحقيقة لم تكن هذه الآراء العنصرية بسيطة بهذا الشكل؛ لأنه كان يتأرجح بين نقيض من القسوة والإنسانية، عندما يصل الأمر إلى التعامل مع رعايا الإمبراطورية، وفي عام ١٩٠٣ امتدح سكان التبت لأنهم دافعوا عن ترابهم الوطني ضد غزو جيش كيرزون، وبعد ستة عشر عاماً وافق على استخدام الغازات السامة ضد الأكراد والباثان الذين كانوا يقومون بنفس المهمة،

وفى عام ١٩٢١ اتهم داير (Dyer) بأنه قاسى القلب فى أرمستار (Armistar) وكان تشرشل الليبرالى من عصر فيكتوريا من أبطال الدفاع عن الصهيونية، وكان يرغب فى تحسين نصيب الفلاحين المصريين لكن ليس فى صالح شعب الكيكويو، لأنه أيد المستقرين البيض فى كينيا، لقد كانت آراؤه ثابتة ومخيفة بالنسبة للهند، ففى عام ١٩٢١ حاول وفد هندى من كينيا شرح كيفية مساعدتهم فى تطوير المستعمرة واجهوا القول بملاحظة " أنكم لم تخرعوا طريق السكة الحديد بل فقط تركيبه"^(٤). كانت صيحاته المستمرة للحكم الذاتى الهندى مفرطة جدًا لدرجة أن إيدن تعجب عما إذا كانوا لا يؤهلون لأن يكون رئيس وزراء.

وفى عام ١٩٤٠ كانت الإمبراطوية التى يشرف عليها تشرشل تحارب بقوة من أجل البقاء على قيد الحياه ضد ما يبدو أنه المتناقضات المتزايدة، وقد أنكر كل هذا، وأعلن أنه سيشن حربًا بكل حماس وإصرار، وإذا تطلب الأمر بلا هوادة وقسوة، وكان استعدادة للبقاء جعله يقارن اثنين مثل بت (Pitt) وإليود جورج على أقصى تقدير، وكانت فصاحة تشرشل مثل هنرى الخامس فى هارفليور (Harfleur) وإجينكورت (Egincourt) والتى حددت نغمة حرب بريطانيا. لقد جمعت كلماته الدماء وجمدت أعصاب الرجال والنساء فى المصانع والمناجم وفى المزارع وأرض المعارك، وكان أيضًا يرى أن لمسة صغيرة من هارى (Harry) بالليل سوف تجمع الأمل والشجاعة، ويسترجع الجنرال اللورد إيسماي (Ismay) كيف أن تشرشل عندما قام بجولة فى بريستول عام ١٩٤١ بعد غارة جوية دخل مركز استراحة حيث وجد امرأة مسنة تدمرت كل ممتلكاتها، وجلست تبكى دون مساواة، وعندما ظهر رئيس الوزراء "أخذت منديلها من عينيها ولوحت بشكل جنونى (هوراى هوراى)".

لقد ولد ما قاله تشرشل إحساسًا بالوحدة الوطنية والهدف لم يسبق له مثيل، ولا يمكن أن يعاد إحياءه من جديد، وهناك لكل هؤلاء المستفيدين شيء ما يؤثر مشاعر تلك الروح عام ١٩٤٠، وسوف تستمر شهرتها وبريقها لتزيل ما لطخه الكتاب حديثًا، الذين إما يكرهون النعمة الجماعية أو المجبرون بحماسة لإزالة كل مصدر للكبرياء القومي^(٥).

لقد قاد تشرشل الدولة خلال اثني عشر شهرًا ما بين استسلام فرنسا وغزو هتلر للاتحاد السوفيتي في الثاني والعشرين من يونيو ١٩٤١ والذي تحدى قوى المحور في هذه الفترة، وطوال هذا العام والأشهر الأربعة التالية كان تشرشل يقول ويفعل وكأن الإمبراطورية سوف تستمر بعد الحرب وتواصل المسيرة دون تغيير، وعلى هذا كان هناك نقاش غير عادي في أن ضربته القوية من العبقرية هي الاعتراف بأن بقاء بريطانيا يعتمد كليًا على أمريكا، وهي دولة كان حكامها ومواطنوها يعادون بشكل كبير الإمبراطورية البريطانية.

ولم يكن هذا ما يهم بشكل كبير في صيف عام ١٩٤٠ عندما كانت الأسلحة والمعدات الأمريكية مطلوبة بشكل كبير جدًا، وكما احتاج تشرشل لمنتجات الصناعة الأمريكية كان يريد النية الحسنة للولايات المتحدة، وحتى لو لم تحارب أمريكا فإن تشرشل كان يريد في النهاية دعمها وتأييدها المعنوي الذي يهم كثيرًا هؤلاء الذين كانوا مشغولين في الصراع، وكان الدعم المعنوي الأمريكي، بل الأسلحة الأمريكية ضمانًا بأن بريطانيا حتى لو لم تكسب الحرب بمفردها فإنها لن تهزم، وفي خلال شهرى يونيو ويوليو عام ١٩٤٠، أيّد كبار المسؤولين والقادة الحفاظ على الموارد الأمريكية بدلاً من تسليمها إلى دولة يبدو أنها على حافة الهزيمة.

وانقضى شهران من المراوغة بعد طلب تشرشل لخمسين مدمرة زيادة على الحاجة مقابل إعطاء قاعدة في جزر الهند الغربية، وتمت الموافقة على الصفقة في النهاية مع بداية شهر أغسطس، وبعد أن واجه الرأي العام الأمريكي النتائج الممكنة لسيطرة هتلر وموسوليني على أوروبا، وكانت هناك مخاوف قوية من انضمام قوات المحور إلى النظم ذات الجناح اليميني في الأرجنتين وأوروغواي، وأن تشكل حركة معارضة ضد أمريكا من بين الخمسة الملايين أو الأكثر في جنوب أمريكا ووسطها من أصول الألمان والإيطاليين واليابانيين^(٦).

لقد ضايق هذا الاحتمال الحكومة البريطانية التي ابتداءً من عام ١٩٤٢ حتى ١٩٤٤ احتفظت بكتيبة مشاة في جزر فوكلاند تصد أي نزول للقوات الألمانية واليابانية أو الأرجنتينية^(٧).

وفي أواخر خريف عام ١٩٤٠ عندما انتهت فرص غزو ألماني ناجح تأكد لروزفلت ومستشاريه أن بريطانيا صارت أول خط أمريكي دفاعي، وكانت النتيجة أن صارت أمريكا مثل ما كانت عليه بريطانيا خلال الحروب الثورية والناپليونية كجزء ممول وكجزء يقدم السلاح ويزود الآخرين من أجل شن الحرب، وكانت هناك مشكلات خصوصاً عندما كان على الرئيس أن يقنع مجلس الشيوخ ومجلس النواب لدفع دولارات دافعي الضرائب في المجهود الحربي البريطاني.

ومع بداية عام ١٩٤١ كان من الواضح تماماً أن الحكومة البريطانية لم تعد تستطيع تمويل مطالبها، وعلى هذا فقد سوت بريطانيا فواتير ديونها الأمريكية بالاقتراض من ودائع دول الإسترليني (بما فيها الهند والمستعمرات) كما قامت بتسوية ممتلكاتها فيما وراء البحار وبيع الذهب واحتياطي الدولار، وتم استنفاد كل هذه الأصول واستهلاكها. ومع حلول

شهر يونيه عام ١٩٤١ انخفضت احتياطات الذهب والموارد النقدية إلى مائة وخمسين مليون دولار، وصار من الواضح حدوث إفلاس.

لقد تم منحه منع الانهيار المالى البريطانى نتيجة قانون الإعارة والتأجير الذى وافق عليه الكونجرس فى فبراير، بعد أن شاهد المشرعون أن بريطانيا قد فعلت كل شئ تستطيع القيام به لزيادة الأموال النقدية اللازمة للمجهود الحربى، ولقد أعطى قانون الإعارة والتأجير لبريطانيا قروضاً كافية لشراء كل ما تطلبه، مقابل وعد بإعادة سداد الدين عندما تنتهى الحرب، وفى أغسطس ١٩٤٥ كان الحساب النهائى كالاتى:

الذخيرة	بملايين الدولارات	السلع الأخرى
١- المملكة المتحدة	٨,٦٤٨	٧,٤٤٢
٢- الهند	١,٤٢٢	٧٦٨
٣- نيوزيلاند	١٤٤	٦٧
٤- جنوب أفريقيا	١٩٤	٦٧
٥- المستعمرات	٣٢٥	١٤٩

وكان إجمالى ديون بريطانيا والكومنولث ٣٠,٠٧٣ مليون دولار، وليس من الغريب أنه عندما تمت مناقشة قانون الإعارة والتأجير كانت النفوس العصبية بمن فيها ليو أميرى وبعض الرسميين فى وزارة الخارجية منزعجين من الإجراءات الطارئة التى سوف تحول بريطانيا من دولة دائنة كبرى إلى أكبر دولة مدينة^(٨).

ومع ذلك فإنه بدون أعصاب الحرب التى قدمها قانون الإعارة والتأجير فإن بريطانيا ما كانت لها قدرة على أن تواصل النضال والحرب،

ومنذ سقوط فرنسا انتهج تشرشل إستراتيجية ذات أهداف ثلاثية عريضة كانت أساسا تلك التى اتبعت خلال الحروب النابليونية؛ أى الدفاع عن القاعدة داخل الدولة وفتح خطوط المواصلات البحرية خصوصا عبر الأطلنطى الشمالى التى تزود الدولة وتقويها، وأخيرا الاحتفاظ بالسيادة فى البحر المتوسط والشرق الأوسط، ولقد تحقق الهدف الأول فى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٩٤٠ عندما أجل هتلر عملية سيليون (Dperation Sealion) وغزو بريطانيا، وخلال الأسابيع العشرة السابقة احتفظ جيش الجمهورية (R A F) - بالسيطرة على أجواء بريطانيا والقناة الإنجليزية ودمر ستمائة غارة جوية ألمانية، وكانت معركة بريطانيا شيئا منتهيا خصوصا خلال الأسبوعين الأولين من سبتمبر عندما انخفض عدد الطيارين المدربين إلى مستوى منخفض بشكل خطير، ومع هذا فقد كان هناك أكثر من الطيران المطلوب، وخلال عام ١٩٤٠ أنتجت المصانع البريطانية ١٥,٠٤٩ طائرة إذا ما قورنت بألمانيا التى أنتجت ١,٨٢٦، وإيطاليا التى أنتجت ٣,٢٥٧، وظلت بريطانيا فى مقدمة هذا المجال الحيوى، وأنتجت أكثر من عشرين ألف طائرة خلال عام ١٩٤١، بينما كان الإنتاج الإجمالى لكل من ألمانيا وإيطاليا ١٥,٠٠ طائرة؛ وأخيرا أجل هتلر ورجال إستراتيجيته اهتمامهم وطاقتهم على الهجوم القادم على روسيا التى ستكون المرحلة الأولى فى إنجاز أغلى أمنية لقلب هتلر، ألا وهى قيام إمبراطورية نازية فى الشرق، وكانت هزيمة بريطانيا ذات أهمية ثانية، وكما اعتقد بأنها تأتى حتماً بعد روسيا، وفى نفس الوقت شنت القوات الألمانية حرب إنهاك وإرهاق ضد المدن البريطانية التى كانت تقذف بشكل منتظم، وعلى نفس القدر أسرع أسطول قوارب على شكل حرف W، وتعقب خط الإمداد البحرى البريطانى، ولقد عانى هذا الهجوم الأخير من نكسة معقولة فى يونيه ١٩٤١، عندما حرقت خطوط اللاسلكى البريطانية الشفرة (Enigma) التى تستخدم لإرسال إشارات بين الغواصات والإميرال

فون دونتر (Donits) ومقره الرئيسى فى باريس، وعلى هذا كانت المرحلة الأولى من معركة الأطلسى لصالح بريطانيا حتى فبراير ١٩٤٢، عندما راجع الألمان الشفرة (الكود) واكتشفوا كيف يقرأون تلك التى يستخدمها الأسطول الملكى فى العمليات الأطلسية.

وخلال شتاء ١٩٤٠ ، ١٩٤١ حذرت إشارات المخابرات البريطانية الحكومة إلى احتمال هجوم ألمانى فى الربيع، والذى سوف يندفع فى البلقان، وبعدها يدور نحو سوريا (التي تحكمها حكومة فيشى أتباع الفاشية الجديدة والتي أقامتها فرنسا فى يونيه ١٩٤٠) وفلسطين وحقول بترول العراق، وإذا استمر هذا الاندفاع فإنه يتوافق مع تقدم إيطالى نحو مصر، وكان من الضرورى أن تحتفظ بريطانيا بالقيادة فى البحر المتوسط حتى لا يعزل الشرق الأوسط، ولقد أمكن الاحتفاظ بالسيادة البحرية من خلال سلسلة من ضربات نيلسون، حيث تمت الضربة الأولى ضد الأسطول الفرنسى القوى الذى لجأ إلى المرسى الكبير بالقرب من وهران (الجزائر) وكان قائده الأدميرال فرانسكو دارلون الذى اقتنع بأن بريطانيا ستواجه هزيمة، وهناك أسباب وجيهة للتفكير أنه سوف يقدم سفينة إلى حكومة فيشى أو إيطاليا، وتجاهل تشرشل نصائح الوزارة وكبار ضباط الجيش، وأمر بضرب السفن الحربية الفرنسية فى الثالث من يوليو^(١).

واستطاع بضربة أن ينقذ توازن القوى البحرية فى البحر المتوسط حتى لو أدت الخسارة الكبرى فى الحياة إلى ضربة قاسية معقولة، لقد تم نسف الاختراقات البحرية الإيطالية بسرعة، فى نوفمبر عام ١٩٤٠ وأغرقت ثلاث مقاتلات إيطالية فى ميناء تارنتو (Taranto) من خلال تورييدات محمولة على طائرات، وهى عملية أثارت اهتماماً معقولاً فى اليابان، وقد مكنت عملية فك الإشارات اللاسلكية قوة أعلى من اعتراض سفينة إيطالية

بعيداً عن شاطئ (كيب ماتبان) وإغراق ثلاث سفن فى مارس عام ١٩٤١، وفى المعارك البرية خسرت إيطاليا بشكل سيئ تقريباً، ولم يكن جيشها ولا قواتها الجوية مدربة بشكل كاف، وفشل كلام موسوليني المنمق أن يغزو قلوب رجاله المحاربين، وبعد عمليتين هجوميتين ضعيفتين ضد كينيا والصومال أمكن السيطرة على القوات الإيطالية فى شرق أفريقيا والحبشة التى تحررت فى أوائل عام ١٩٤١، والتى حررتها وحدات بريطانية وهندية وأفريقية وجنوب أفريقية.

لقد كان الأسرى كثيرين وكانوا مزينين بشكل مفرط، وهو ما أربك وحير قوات غرب أفريقيا التى وجدت من الصعب فهم عدو تحمل قتالاً قليلاً يستطيع أن يزين بهذه الهدايا والميداليات^(١٠).

وكانت الانتصارات فى شرق أفريقيا قد لقيت قبولاً كبيراً فى ساحل العاج، حيث لا تزال ذكريات الهزائم الحديثة فى الحبشة عالقة فى الأذهان وتغنى شاعر أسود بهذه الأمور:

اجر: أيها الإيطالى

اترك غزواتك المريضة

خلق على أجنحة الهزيمة

حيث تقف بريطانيا

وتتفرق جيوشك الجبانة.

وكانت الجيوش الإيطالية فى تفهقر كامل فى شمال أفريقيا؛ حيث إنه مع حلول فبراير عام ١٩٤١ كانت ليبيا تحت قبضة بريطانيا، واتباع إستراتيجية لإرهاق بريطانيا، أجبر هتلر القوات الألمانية على الهجوم بهذه

الجبهة المنحلة، وفي أبريل شن هجوماً على اليونان التي كان من المقصود أن تغطي الجناح الجنوبي من غزو روسيا وجزئياً كوسيلة للإبقاء على الضغط على بريطانيا في الشرق الأوسط، وأمر تشرشل جناحاً بريطانياً وآخر من الأتراك للقيام على اليونان وقد ظهر أنها حركة وهمية، رغم أنه كان يحلم بثرموفولي أخرى (Thermophylae) حيث يلتقى الأستراليون والنيوزيلنديون "الباندارس: Panzers"^(١٢).

لكن البريطانيين هم الذين طردوا أولاً من اليونان وبعدها من كريت، وعلاوة على ذلك في الجهة الجنوبية طرد الجنرال إيروين جماعة روميل من البانزار البريطانية من ليبيا وحاصروا طبرق ووصل إلى الحدود المصرية في شهر مايو، وكان هناك اثنان من التعويضات حيث تم إحباط التدخل الألماني في العراق (انظر ص ١١؛ الفصل الرابع) وقوة مشتركة من البريطانيين والدمنيون ووحدات فرنسا الحرة التي هزمت الحكومة المتحالفة في سوريا.

إن الأحداث في الشرق الأقصى وروسيا خلال النصف الثاني من عام ١٩٤١، جعلت الأمر حيويًا جدًا لدرجة أنه مع الدعم الأمريكي تمسكت بريطانيا بكل بوصة أرض في الشرق الأوسط، ومنذ سبتمبر ١٩٣٩ كان صانعو السياسة البريطانية مشغولين ومهمومين بسؤال واحد ما المدة التي يتخلى فيها اليابانيون عن أقاليم جنوب شرق آسيا التي استولوا عليها علانية؟ وفي البداية تقدموا خلسة، وفرضوا ضغوطاً على إدارة فيشي في سايجون (Saigon) التي أثبتت أنها طبيعية، وحكومة هولندا في جزر الشرق الهولندية التي لن تقبل التسليم، وكانت النتيجة أنه في يوليو ١٩٤١ كانت الهند الصينية تحت الاحتلال الياباني الفعلي، وكان هناك مبنى تحت الإنشاء للمطار بالقرب من تونكن (Tonkin) والذي سيضع كل الملايو داخل إطار القوات الجوية الإمبريالية اليابانية.

وسايرت بريطانيا وأستراليا التيار السائد، ففي يوليو عام ١٩٤٠ أغلق البريطانيون طريق بورما، وهو أكبر طريق إمداد للجيش الوطنى الصينى للجنرال شيانج كياشيك، وواصلت أستراليا تصدير الحبوب إلى اليابان وسمحت لها بقرض سخي^(١٣).

أما عن الدفاع عن المنطقة فقد وضع تشرشل كل آماله على روزفلت الذى يستطيع أن يتعامل مع ما أسماه الكلب اليابانى فى المحيط الهادى، أما أسطول الولايات المتحدة فى الباسفيكى وقاعدته فى هاواى منذ عام ١٩٤٠ فقد استطاع تقديم حماية بسيطة للملايو والمحيط الهندى، وهى نقطة تم التركيز عليها أثناء مؤتمر كبار القادة البريطانيين والأمريكيين والهولنديين والأستراليين الذى انعقد فى سنغافورة فى أبريل عام ١٩٤١ وعلاوة على ذلك وفى ظل غياب تحالف رسمى لم يكن هناك تأكيد لدى الكونجرس بقبل الهجوم على المستعمرات البريطانية والهولندية، كسبب لإعلان حرب على اليابان التى كانت موافقة على إرسال الصبىبة الأمريكيين لتأييد الإمبراطوريات الاستعمارية المتداعية، وأخيراً خطط روزفلت لإعلان التزام أمريكا لسلامة هولندا وبريطانيا فى العاشر من ديسمبر.

وسارت تغيرات وتحولات العلاقات بين اليابان والولايات المتحدة وبريطانيا على نفس النهج فى أستراليا ونيوزيلاند مع مزيج من القلق والغضب، وكلما تقدمت العمليات الحربية فى أوروبا أصبحت حكومة مانترينى مذعورة بشكل متزايد على دفاعات أستراليا، وعما إذا كانت الادعاءات البريطانية الأولى تلقى ترحيباً، ولقد زار بريطانيا فى فبراير ١٩٤١ للضغط على وزارة الحرب لإبراز السيطرة عند اتخاذ القرار، وعاد مقتنعاً أن تشرشل كان متهوراً جداً وصاحب يد عليا لدرجة أنه لا يثق فيه مع هذه الإستراتيجية الكبرى.

وكان مانزيني رجلاً مخادعاً ومستقبلاً للكثير من طائرات الفانتوم، وتخليل نفسه كرجل كومنولث يساوى فى المكانة سمطس، ويتمتع بأحلام يقظة سخيصة ليجل محل تشرشل^(١٤).

ولا يهم فضول مانزيني كثيراً، إن لم يكن لإرسال قوات الأنزال (Anzac) إلى اليونان وكريت، وكما وصف أحد أعضاء حزب العمال الأسترالى عملية القتل الباردة لأكثر من ستة آلاف من الأنزال، لقد تم استرجاع ذكريات سيئة من غاليبولى، وقد تم تقديم اللوم إلى تشرشل فى أستراليا وبريطانيا وأكد القائد العمالى كيرتن (Curtin) اتهام بريطانيا أنها كانت مختلفة حول قضية تأمين أستراليا وسلامتها؛ فى يونيه طالب بريطانيا بأن تتخلى عن الإمبراطورية الأفريقية، وأن تغلق قناة السويس وهو إجراء لا يمكن أن يساعد أستراليا^(١٥).

وأيضاً قام الجنرال سير توماس بلامى القائد الأسترالى فى الشرق الأوسط بدراسة الموقف مع نداء لكل رجاله بالانسحاب مما اعتبره دفاعاً عديم الجدوى عن طبرق^(١٦).

ووضع بلامى أيضاً إصبعه على عادة عقلية رسمية عرضها تشرشل، التى تعمل فى صدور بنى وطنه وقال "هناك عامل غريب فى التفكير البريطانى الذى دفعهم إلى النظر إلى الدومنيون على أنه ملحق أو ذيل لبريطانيا^(١٧)".

وفى خلال الشهور القليلة التالية أصبح الصف غير واضح، وصار المعروف فى اليابان "أنها تبنت القول بأن الإمبراطورية البريطانية قد تدمرت إلى أجزاء كثيرة"^(١٨).

وبرغم أن هذا مبالغ فيه، فإن هذا الرأي كان مؤشراً عن كيفية بؤس الأستراليين، وقد عبر عن حالتهم من خلال قسم الدولة (State Department) الذى أمر فى أبريل ١٩٤١ بقيام مجموعة من المقاتلات الحربية بحملة على فيجي ونيوزيلند وأستراليا وعلى أمل - بحسب كلام المسئول البحرى الرسمى فى الولايات المتحدة - أن يدعم أصدقائنا الذين شعروا بأنهم مهملون ومنسيون من جانب إنجلترا الدولة الأم^(١٩).

وكان تشرشل قلقاً جداً لدرجة أنه لا يستطيع إزالة هذه الحالة من العزلة الرهيبة، وفى أكتوبر وعد ماترينى خليفة كيرتن أنه سوف يرسل السفينة الحربية (ميرويلز) برنس أف ويلز (Indomitable) إلى مياه الشرق الأقصى، وكانت أستراليا ونيوزيلند تأمل كل منها الكثير، لكن لا توجد سوى سفينتين أساسيتين يمكن الاستغناء عنهما، وكانت هذه إشارة لإعادة التأكيد، ولكن تحطمت حاملة الطائرات تاركة السفينتين الأساسيتين تعملان فى منطقة يتمتع فيها العدو بالسيادة الجوية.

ولن تستطيع مقاتلتان إخفاء هشاشة الدفاعات الإمبريالية فى الشرق الأقصى، وتم تعيين دوف كوبر (Duff Cooper) الذى زار الملايو فى أغسطس وزيراً لشئون الشرق الأقصى، وقد كتب تقريراً إلى تشرشل بعد شهرين من تعيينه بأن دفاعات المستعمرة كانت متداعية وأيلة للسقوط، وكان العديد من كبار الرسميين والعسكريين والمدنيين غير مبالين بالأخطاء التى تواجههم، وكان السير سنتون توماس البالغ من العمر اثنين وسبعين عاماً حاكم ممرات ستلمنت (Straits Settlement) يواجه خطراً لا بد من القضاء عليه^(٢٠).

رفض توماس عندما اندلعت الحرب إجلاء النساء البيض والأطفال من منطقة الحرب خوفاً من إزعاج اللاى الصينى والملاوى، وربما الوقت الوحيد فى تاريخ الإمبراطورية الذى تكون النساء والأطفال موجودين فيه،

وكان تأثير كوبر للرسميين الضعفاء والكسل العام فى القمة، وقد تأكد هذا من خلال الطيارين فى نيوزيلاند الذين وصلوا إلى الملايو خلال عام ١٩٤١، وكانوا مذهولين من هذا الموقف الضعيف، وكانت هناك إجازة نصف يوم كل أربعاء، وكانت أيام الأحد إجازة، وكان تدريب الطيارين قاصراً على سبع ساعات فى اليوم، أما بالنسبة لأهالى نيوزيلاند فقد كانوا بالحاجة للسرعة فى الوصول إلى كفاءة عملية^(٢١).

ولم تنزعج القيادة لأنها تعتقد أن ملاحى الطيران اليابانيين وآلياتهم كانت من نوعية ضعيفة^(٢٢).

ولقد وصف صحفى أمريكى سنغافورة على أنها مدينة المنطاد (City Blimps) ولقد أثر هذا التمييز العنصرى على أصحاب المنطاد وزوجاتهم، وقد ولد غضبهم نحو الهنود قدراً كبيراً من المرارة بين رجال جاعوا للدفاع عن وجودهم المدلل^(٢٣).

إن ما يظل مدهشاً فى ضوء الكارثة التى حلت بالملايو هو نظرة تشبه النعامة لهؤلاء المسؤولين عن أمنها، وفى أكتوبر ١٩٤٠ تم تجميع وتقييم مشترك انتهى إلى أن قدرتنا على السيطرة على الملايو فيما وراء المنطقة المجاورة لسنغافورة فى مواجهة هجوم أكيد مسألة جدل كبير، وعلاوة على ذلك فإنه فى حالة أى غزو ناجح فإن الباقي فى الحياة من أهل سنغافورة لأكثر من فترة قصيرة أمر غير محتمل^(٢٤).

وبرغم ذلك ساد شعور قوى من السيادة العنصرية عند كل شخص بما فى ذلك تشرشل نفسه الذى وصف اليابانيين ذات مرة بأنهم ووبس (Wops) باللغة الإيطالية الدارجة للإيطاليين فى الشرق، وكان هناك شعور بأنه تنقصهم الأعصاب والمهارات التنظيمية لشن غزو ناجح على الممتلكات البريطانية والهولندية^(٢٥).

وحتى لو هاجموا فإن القوة المحلية للأساطيل المشتركة للولايات المتحدة والبريطانية والهولندية والأسترالية تفوق كثيراً الأسطول الياباني حتى لو كان أكثر قوة في حاملات الطائرات.

وفي نهاية نوفمبر تأكد تشرشل من خلال تقرير المخابرات عن الوضع في الشرق الأقصى أن اليابان سوف تخرج من الحرب مع الربيع وبعدها سوف يصبح هدفهم الأول فريسة سهلة^(٢٦).

ولم تتصرف الحكومة اليابانية كما تتبأ، ومع أوائل الخريف قرر رئيس الوزراء الجديد الجنرال هيكيكي توجو ووزارته مهاجمة بريطانيا وهولندا والمستعمرات الأمريكية في الشرق الأقصى، إذا، كما هو المحتمل، رفضت ثلاث دول رفع حمولة بترول ورفضت الهجوم على اليابان بعد احتلال الهند الصينية، لقد أدى حصار الهند الصينية، لقد أدى الحصار البترولي الياباني لكن الذي سيطر على الوزراء اليابانيين إمكانية أن ألمانيا تهزم روسيا وبريطانيا، وأثر ذلك بشكل مؤقت على ميزان القوى في المحيط الهادى لصالح اليابان، وفي الفترة من الثامن إلى السابع عشر من ديسمبر نزلت قوات محمولة بحراً على شواطئ سيام (التي استسلمت فوراً والملايو وبورنيو وساراكو والفلبين وجوم (Guam) ويك إيلند (Wake Island) وتحكمت في إمكانية قيام اليابان بالعديد من العمليات التلقائية، وكانت المفاجأة كلية وكاملة^(٢٧).

بعد الحرب تمت ادعاءات تسعى للأذى بأن تشرشل قد حصل على إشارات من المخابرات بتحريك واتجاه قوة بيرل هاربور - لكنه رفض أن ينبه روزفلت لى يتأكد من دخول الولايات المتحدة الحرب. وكانت هذه إشارات كانارد (canard) التقطتها مراكز استماع هونج كونج، وأمكن تصديقها بشكل صحيح بأنها من الأسطول الياباني المتجه جنوب بحر الصين إلى الملايو وليس من أرمادا أسطول بيرل هاربور^(٢٨).

لقد سقطت الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأقصى بسرعة أذهلت وأدهشت كل واحد. ولقد تم استعراض قيمة سنغافورة كقاعدة من خلال القنابل والغارات الجوية الموجودة في الهند الصينية في الثامن من ديسمبر. وبعد يومين أنزلت قنابل ومقاتلات تطير من سيام الريبالس (Repulse) وأمير ويلز (Prince of Wales) بينما كانت طائرات (RAF) و (RAAF) و (RNZAF) مشغولة في محاولة لإيقاف التقدم الياباني من رعوس معابر (كبار) ثلاثة أقامتها اليابان على الشواطئ الشرقية للملايو، أما عن المعارك الأرضية فقد تقدم اليابانيون عبر الغابات بكفاءة، وحطم طيرانها بشكل منهجي المطارات البريطانية، وكانت كلها موجودة في شمال المستعمرة، وبعد ثلاثة أيام من الصراع الجوي غير المتكافئ حذر قائد قوات (RAF) بأن قواته سوف تواصل القتال فقط لمدة أسبوعين^(٢٩).

وفي نهاية الشهر كانت القوات البريطانية وقوات الدومنيون والقوات الهندية البرية في تفهقر كامل إلى سنغافورة، وبعد أن حاربوا ببسالة ضد عدو أكبر من قوتهم بشكل كبير. واستسلمت هونج كونج يوم عيد الميلاد وكان وضعها حرجاً منذ اندلاع الحرب اليابانية الصينية قبل ذلك بأربع سنوات، وفي أواخر عام ١٩٤٠، كانت هناك سلسلة من تمرد رجال مدفعية السيخ في الحصن، الذين كما ظهر دمرتهم الدعاية اليابانية^(٣٠).

ولقد كان المطلوب قوات بيضاء للدفاع عن إمبراطورية الرجل الأبيض، ولذا فإنه خلال عام ١٩٤١ تم إرسال قوات مشاة كندية إلى المستعمرة بناء على طلب بريطانيا، وكانوا جميعاً ولكل الأغراض والأهداف فاقدى الأمل، وبعد الحرب اتهم القائد المحلي كريستوفر مالتباي بعدم النظام والجبن خلال المراحل الأخيرة للحصار^(٣١).

لقد كانت هناك اتهامات مضادة بعد سقوط دفاعات الملايو، وقد وجه الجنرال السير أرشيبالد وافييل القائد الأعلى في جنوب شرق آسيا اللوم إلى الجنود الأستراليين مدعيًا أنهم قد هربوا من الجبهة بشكل مضطرب وعدم انتظام، والقيام بالتهب وقتل من يقابلهم أثناء هروبهم، أما الجنرال والقائد الأسترالي المحلي الميجور جنرال غوردون بنيت فقد انتقد بشدة القيادة الضعيفة للضباط البريطانيين الذين تم اختيارهم بحسب نظام المدرسة القديمة للاختيار^(٣٢).

وليس اختيار هذا القائد المؤهل بشكل خاص ليتولى القيادة كان سيئًا مزعجًا وفشل في التعامل مع كل شخص بمن فيهم رجاله الخصوصيون^(٣٣).

وما إن صار واضحًا أن سنغافورة على وشك السقوط بدأ يبحث لنفسه عن سفينة للهرب، مدعيًا أنه يريد أن يحكى للأستراليين ما حدث، وبشكل واضح، ولم يستمع قط عن الأغنية الشعبية ليعقوب (Jacobile) جوئي كوب (Johnny Cope) والذي هرب الجنرال كوب بالأخبار عن هزيمته بعد معركة برستويانز (Prestonpans) وقد أنكر ادعاءات بنيت ومالبت باي ووفيل وكل الذين بقوا على قيد الحياة من رجال الحملة، ومهما كانت الحقيقة الصحيحة فلا يزال هناك شيء غير مستساغ عن القواد المهزومين، عندما تتفرق الجيوش بشكل ما من القمة إلى القاعدة.

إن سجل القادة المدنيين والعسكريين في الملايو يؤيد هذا القول فقد استسلمت بينانج (Penang) وميناوفا العظيمة ومخازنها في الخامس عشر من ديسمبر، واشتكى الجنود الهنود الذين شاركوا في التقهقر بعد ذلك من نقص الأسلحة والذخيرة، والأوامر التي أنكرت عليهم فرصة القيام بموقف معين وغياب الغطاء الجوي، وتسليم المؤن بشكل غريب ومجموعة من التغيرات السيئة أثناء العمليات التي كان من الممكن تجنبها^(٣٤).

ولم يقلق أى شىء من هذا اليابانيين الذين حطموا الأسطورة التى روجها البريطانيون والتى تهم الأمريكيين والقادة بالكشف عن أنهم شجعان وعندهم رجال محاربون مدربون، وبعد صراع مع غواصة يابانية فى يناير عام ١٩٤٢ لاحظ ضابط على ظهر المدمرة جوبتير (Jupitar) عن أعدائه أنهم أظهروا شجاعة وروحاً قتالية عالية لنقول على الأقل إنهم هاجمونا فجأة^(٣٥).

هناك الكثير من المفاجآت لرجال الخدمة فى التحالف فى الشرق الأقصى خلال ديسمبر ١٩٤١، وهناك المزيد من المفاجآت القادمة، وبينما كانت قوات الإمبراطورية مجبرة على التقهقر عبر الغابات فى الملايو وسنغافورة، وهى مفاتيح الدفاع عن الإمبراطورية فى الشرق الأقصى فى وجه خطر متزايد، كانت نفسية تشرشل ما بين اليأس والابتهاج، وكانت البهجة أكثر سيطرة، وفى الحادى عشر من ديسمبر ١٩٤١ أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على أمريكا وسمحت لروزفلت بالبحث عن موافقة الكونجرس للدخول فى الصراع الأوروبى، والآن أصبحت الولايات المتحدة مستعدة للقتال، وشعر تشرشل أنه متأكد من أن الحلفاء (حالا سيعرفون بالأمم المتحدة) سوف يكسبون الحرب فى النهاية فى جميع الجبهات برغم أنه من غير المعروف طول المدة التى تستغرقها هذه العملية.

لم يكن رئيس الوزراء ومرعوسوه مترددين فى اعتقادهم هذا برغم النكسات الحديثة فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى، وكان الهدف الأساسى لبريطانيا هو هزيمة ألمانيا، أما اليابان فستظل فترة، يجب التضحية لكرامة البريطانيين ومناطقهم فى آسيا، برغم أنه لفترة قصيرة كان الأمل معقوداً على الحلفاء القادرين على تشكيل خط دفاعى يمتد من بورما جنوباً عبر سنغافورة وجزر الهند الهولندية إلى الساحل الشمالى لأستراليا.

وتتطلب هزيمة ألمانيا وإبقاء جبهة دفاعية في الشرق الأقصى احتفاظ بريطانيا بالسيطرة على الشرق الأوسط والبحر المتوسط، وكانا كلاهما تحت الضغط الألماني المتزايد.

وفي بداية الشتاء اخترقت مجموعة الجيش الألماني الجنوبي روسيا الجنوبية حتى روستوف (Rostov)، واعتقدت المخابرات البريطانية أنها ستدفع في القوقاز مع بداية الربيع، وإذا نجح هذا التقدم فإن ألمانيا ستكون في وضع يسمح بالتدخل مباشرة في العراق وإيران (حيث انكشفت بالفعل قوة المحور الخامسة)، وفي نفس الوقت جددت قوات روميل الهجوم على مصر، كما توقفت محاولات المحور لقطع خطوط الإمداد عبر البحر المتوسط وهناك مخاوف إسبانية للهجوم على جبل طارق.

وكانت قناة السويس آنذاك في مرحلة خطر، لأنه خلال عام ١٩٤١ صار الشرق الأوسط بؤرة خطوط لاسلكية حية، وكانت الطائرات حسب قانون الإعارة والتأجير قد وزعت عبر الكاريبي إلى ترينيداد، ومن هناك جنوباً إلى ناتال وإلى الساحل الشرقي للبرازيل ثم الطيران عبر الأطلسي إلى مطار جديد في تاكورادي (Takoradi) في ساحل الذهب، وحلقت الطائرات إلى الخرطوم في الجزء الأخير من رحلتها إلى المطارات في مصر.

وفي البداية استطاعت قاذفات طويلة المدى أن تواصل الرحلة، ولكن في بداية شهر ديسمبر اقتربت الولايات المتحدة من بريطانيا لبناء مطار ترانسيت للطائرات متوسطة المدى في جزيرة أسنسيون (Ascension)^(٣٦).

وأضاف هذا الصراع في الشرق الأقصى إلى أهمية هذا الطريق؛ لأن الطائرات تستطيع الطيران من مصر إلى الهند، وفي ربيع عام ١٩٤٢ ورداً على نقص الطيارين تم نقل بعضهم بالناقلة (Uss Ranger) إلى نقطة

مائة وخمسة وعشرين ميلاً بعيداً عن ساحل غرب أفريقيا، وبعدها أُلْقِيت إلى أكرّا في المرحلة الأولى من سباق طيران ينقلهم إلى الهند^(٣٧).

وكانت عملية الطيران التي استخدمت هذا الطريق تحت إشراف رجال (USAAF) و (RAF) والخطوط الجوية الأمريكية، وحولوا طواري زمن الحرب إلى فائدة واستخدموا خدمات السكك الحديدية لاختراق داخل السوق الإمبريالي الجوي للنقل، وأسسوا طريقاً مدنياً بين أكرّا والخرطوم وكسبوا السماح بالحديث عن قاعدة أسكنسون (Ascension) في الطيران المدني بعد الحرب^(٣٨).

وإذا انكسر هذا الطريق فسوف يتعرض الدفاع عن الهند والشرق الأقصى فضلاً عن الشرق الأوسط والبحر المتوسط إلى خطر كبير، ولمواجهة ما أصبح هجوماً ألمانيا مزدوجاً على الشرق الأوسط خلال ١٩٤٢، أبحر تشرشل إلى أكرّا في الخامس عشر من ديسمبر، وهو مستعد لإقناع روزفيلت أن الإستراتيجية المتاحة فقط للحلفاء هي التي تهزم ألمانيا أولاً، ولكي نصل إلى هذه النهاية كان عليه هو ومستشاريه مواجهة الحقيقة المرة وهي تأجيل المصالح الإمبراطورية في آسيا برغم أن تشرشل كان يأمل أن هؤلاء الذين يدافعون عنهم، فإن جهودهم سوف تكون عديمة الجدوى إذا سمحت ألمانيا لنفسها بقيام كيّان لها في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ تضمن الوسيلة للتعاون مباشرة مع القوات اليابانية التي بدأت مع بداية العام في التقدم غرباً عبر بورما إلى حدود الهند، وكان تشرشل يأمل أن يحتفظ في النهاية بكل الإمبراطورية إذا ضحى بجزء منها.

ولقد تعرّقلت إستراتيجية الحلفاء الكبرى لعام ١٩٤٢ بسبب تشرشل وروزفيلت ومستشاريهما خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر والذين

وافقوا على مبدأ ألمانيا أولاً وبعدها اليابان؛ ففي البداية يأتي طرد القوات الإيطالية والألمانية من شمال أفريقيا. وبعدها تبدأ المقاتلات من (USAAF) (RAF) في قصف وضرب عنيف متواصل لألمانيا باستخدام المطارات البريطانية، ونظرًا لأن الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأقصى لم تستطع الاندفاع نحو أستراليا، وإذا سقطت الفلبين فإن بقايا حاميتها سوف تنقل بالسفن إلى سنغافورة، إذا كان الاحتفاظ بها والدفاع عنها لا يزالان ممكنين.

(١١)

رفاق مخلصون

ضغوط الحرب

لقد كان عام ١٩٤٢ عامًا كئيبيًا وقاسيًا على الإمبراطورية البريطانية، ففي الخامس عشر من فبراير استسلمت الحصون القوية في سنغافورة وعددها ١٣٠٠٠ حصن أمام جيش ياباني صغير، وبعد أربعة أيام وصلت الحرب إلى أستراليا وعانت دارون من غارة جوية مدمرة، بينما استعدت حكومة مستعدة في كانبيرا للغزو، وتم سحق بورما مع سقوط رانجون في الأول من مارس، وسقطت ماندلاني في الأول من مايو، كما تم الاستيلاء على جزر أندامان (Andaman Islands) في الثالث والعشرين من مارس، وخلال أول أسبوعين من أبريل رست أرمادا يابانية برغبتها في خليج البنغال: وعانت كلكتا وكولومبو من هجمات جوية، وتم إغراق سفن بريطانيين، وأمكن السيطرة على أسطول ضعيف للحلفاء في معركة بحر جاواه في نهاية فبراير، وفي خلال شهرين غزت القوات اليابانية جزر الهند الهولندية والفلبين وجزءًا كبيرًا من غينيا الجديدة وسلسلة من مستعمرات الجزر البريطانية في جنوب غرب المحيط الهادى، وفي نفس الوقت كانت الإستراتيجيات اليابانية تخطط للاستيلاء على فيجي، وسلسلة طويلة من العمليات في المحيط الهندي برغم الأصوات المرتفعة التي توقعت الكوارث بهذا الحجم فإن هذه النكسات أذهلت بريطانيا وبقية الإمبراطورية.

إن ما حدث في الشرق الأقصى والمحيط الهادى ولد النشاط لدى المرء ولأفكاره بوفائه القومى، صحبة إقحام اليد بشكل كبير بحثا عن أسئلة حول طبيعة الإمبراطورية ومستقبلها، وكان هناك أيضا الكثير من ذكر غاضب للأسماء المسؤولة بشكل مباشر أو غير مباشر عن النكسات التى تعفى نفسها وتدين الآخرين.

لقد رأت أستراليا نفسها أنها الضحية الرئيسة، وبعد سقوط سنغافورة (خط ماجينو الاسترالى) أعلنت صحيفة هيرالد مورننج سيدني (Sydney Morning Herald) أن الإمبراطورية تعاني من سلسلة من الكوارث التى تهزها من أعماقها وقالت "يبدو أننا نفكر بطريقة مشوشة من خلال الكثير من التشويش الذهني، وكما اعتاد في كل أحاديثه وجه كيرتن (Curten) اللوم إلى بريطانيا ومازق بلاده، وتوسل إلى الولايات المتحدة لإنقاذ وطنه، وقد تملقت اتهاماته عن الخيانة تشرشل الذى اتهمه هـ. ف إيفت وزير الشؤون الخارجية باستسلامه للتحيز الموالى عند معالجة قضية أستراليا، وادعى أن رئيس الوزراء "يبدو أن عنده كره دفين لحكومة العمال وكراهية للحكم المستقل الذى يجعل من المستحيل علينا أن نعمل معه"^(١).

لقد أقلعت الحالة القريبة من الهستيريا التى يبدو أنها تنملك الحكومة الاسترالية الميجور جنرال لويس بريريتون (Prereton) قائد القوات الأمريكية (USAAF) في الشرق الأقصى وأنه اقترح فرض رقابة مركزية وقوية على السياسات الإستراتيجية تحت النفوذ الأمريكى^(٢).

كان أهالى نيوزيلند الجديدة مستعدين لتلقى ضرباتهم، وكان رد الفعل لإجبار سنغافورة على الاستسلام؛ حيث أعلن بيتر فرسار رئيس الوزراء لنيوزيلندا "إن نغفل ولن نندمج في النقد غير المساعد لهؤلاء الذين لديهم توجيه أعلى من مجهود الحرب" وفى بريطانيا قارن الكثيرون بمن فيهم تشرشل نوبات غضب أستراليا مع الرواقية للشعب البريطانى عندما واجهوا الخطر.

ولاحظ أوليفر هارفى فى يومياته أن حكومة كيرتن صرخت طالبة المساعدة من الأمريكيين وقال "إنه من الواضح أنهم يعتقدون أننا ضعفاء ولا يعتمد علينا، إننى أخشى إنهاء الحياة الخسنة فى أستراليا التى جعلتهم مرفهين ومع هذا فليس هذا هو الوضع بالنسبة لسكان نيوزيلاندا الجديدة الذين كانوا نماذج من الوقار والصرامة والمساعدة"^(٣).

وكان رد كيرتن على هذا النقد فى حديث إذاعى أذيع للشعب البريطانى فى مايو عام ١٩٤٤ وذكر فيه لمستمعيه أن الأستراليين كانوا يعانون كثيراً وكأنهم ليسوا أكثر مما كانوا فيه حسب حالات العجز والتقصير^(٤).

وكانت نداءات أستراليا المستمرة خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٤٢ صرخات من اليأس أكثر منها إعلاناً عن الاستقلال، ومع هذا كان واضحاً لكل شخص أن أمريكا غير قادرة على الدفاع عن أطراف إمبراطوريتها دون مساعدة، ولا توجد أى مساعدة من أى دول الدومنيون ولقد تم زجر محاولة بريطانية للتوصل مباشرة إلى كندا للحصول على الأسلحة، وأخبر الوزير الكندى للتموين الحكومة الأسترالية بصراحة إنه "إذا طلبت منا بريطانيا أن نرسل إمداداتنا إلى الشرق الأوسط فسوف نرسلها إلى الشرق الأوسط، وإذا طلبت منا أن نرسلها إلى أستراليا فسنرسلها إلى أستراليا"^(٥).

لقد تقدمت أمريكا لتصبح ترسانة لأستراليا ونيوزيلندا، ما بين ينساير ويونيه عام ١٩٤٢، وتلقى (RAAF) و (RNZAF) أربعاً وخمسين طائرة من بريطانيا و ٢٣٠ طائرة من الولايات المتحدة، وتم دفع الجزء الأكبر من الاحتياطي من الآلات إلى الهند^(٦).

وفى نفس الوقت تم نقل ٥٠,٠٠٠ CIS للدفاع عن أستراليا بناءً على طلب تشرشل برغم أنه اعتقد، بحق، كما تبين بعد ذلك، أن الغزو الياباني لن يكون أبدًا حقيقة واقعة^(٧).

وفى بداية عام ١٩٤٢ شهدت العلاقات بين بريطانيا وأستراليا ضربات عنيفة، برغم أنها تحسنت مرة ثانية، وتراجع التهديد للإنزال إلى الياباني وتأجلت الذكريات المرة ووصلت إلى السطح فى عامى (١٩٩١، ١٩٩٢) عندما كرر رئيس الوزراء الأسترالى الجمهورى بول كينج الادعاءات بأن تشرشل قد ترك أستراليا فى حالة هزيمة منكرة لكى يركز على الحرب فى الشرق الأوسط، وهذه التهمة مثل تلك التى حدثت فى عامى ١٩٤١، ١٩٤٢ عبارة عن تبسيط فشل فى أن يأخذ فى الاعتبار موقف بريطانيا الحرج فى مصر وفى الحد الشمالى الشرقى للهند، ولقد كان ولا يزال صعبًا على الأستراليين أن يهضموا حقيقة أنها فى لحظتها الحرجة كانت دولة فى الدرك الأسفل فى قائمة الأولويات الإستراتيجية البريطانية.

لقد أمكن فى النهاية استرداد مستعمرات بريطانيا المفقودة، إن لم تكن كرامتها، من خلال جهود الولايات المتحدة التى كانت قد أخذت على عاتقها العبء الأكبر للدفاع عن الإمبراطورية فى بداية عام ١٩٤٢، ولقد كانت المقاتلات الحربية الأمريكية التى هزمت الأسطول الياباني فى اشتباكات فى بحر كوشل وميدواى (Midway) فى مايو ويونيه وكان النصر الأخير قد رجح كفة الميزان للقوة البحرية فى المحيط الهادى لصالح الحلفاء وأوقف التوسع الياباني، ومع حلول شهر أغسطس واجهت القوات الأمريكية والأسترالية بهجوم مضاد، وبدأت العملية الطويلة فى طرد اليابانيين من جنوب غرب المحيط الهادى وقامت القوات الإمبراطورية بالدفاع عن الهند وإعادة غزو بورما فى أعوام (١٩٤٢ - ١٩٤٥)، ولكن هنا كما فى كل

الجيّهات كانت الأسلحة الأمريكية والطائرات حيوية جدًا، ولقد سببت الأحداث المؤدية فى الشرق الأقصى ربعًا فى بريطانيا، وكانت الدولة بالفعل وسط فترة من النقد الذاتى المكثف؛ حيث إن خططًا قد خططت لإعادة بناء ما بعد الحرب.

لقد كان هناك إحساس جارف أن ما حدث بعد ذلك لا يمكن أن يعود إلى عالم ما قبل الحرب من عدم الكفاءة وعدم المساواة الاجتماعية والانحراف الاقتصادى، وسوف تكون بريطانيا الجديدة دولة زرعت الانسجام الاجتماعى وكرست جزءًا ملموسًا من ثروتها وطاقاتها فى إعادة تجديد الصناعة، وتشغيل العمال وتقديم نظام عادل وكريم من التعليم والرفاهية للجميع.

وكيف يستمر ذلك، ربما يتحقق من خلال تقرير بيفردج (Beveridge) المشهور الذى صدر فى ديسمبر ١٩٤٢، وكان الترحيب به على نطاق واسع كهدف يستحق الحرب من أجله.

إن الدولة سوف يتحسن وضعها إلى الأفضل، ولكن ماذا عن إمبراطوريتها؟ لقد وقع ماضى الإمبراطورية وحاضرها ومستقبلها فجأة تحت فحص وتدقيق عام خلال الأسابيع التى تلت سقوط سنغافورة، وإن صدمة الامتيازات الأجنبية التى هزت بفاعلية ادعاءات بريطانيا الهشة كقوة إمبراطورية قد جاء، بعد سلسلة من الإلهام المربك عن شخصية الإمبراطورية، إن التحليل المدمر والصريح عن الخلفية وعن الاستسلام الذى كتبه مراسل جريدة التايمز للشرق الأقصى، والذى صدر فى ١٨ فبراير، وناقش الروتين السهل عن الإدارة الاستعمارية، قد قوض إدارة الرسميين الذى أظهروا أنفسهم بعيدين عن الديناميكية والعنوان الذى صار واضحًا فى مناطق أخرى من الحياة العامة، ولا يوجد لدى الحكومة أى دور فى حياة الشعب، بهذا أنهى الكاتب كلامه، وقد اتسعت وجهة نظره فى افتتاحية أدانت

أداءه فى الملايو لعجزه عن الاتصال بين الحكومة المحلية والسكان الآسيويين بشكل موسع، الذين كان رأيهم باستثناء رأى الصين المحترم سلبياً وجباناً وفاتر الشعور.

لقد منعت الرقابة الرسمية نشر تفاصيل الخلل عن أهل الملايو بسبب اليابانيين وأيضاً القوات الهندية والبورمية التى هبطت همتها، وبرغم هذا قارن النقاد البرلمانيون للحكومة اختلاف أهالى الملايو مع الشراسة التى يحارب بها أهل فيجي من أجل أسيادهم الأمريكيين الذين وعدوا الفلبين بالحكم الذاتى بعد الحرب^(٨).

وبحسب مجلة الإيكونومست (Economist) فقد الرعايا البريطانيون فى الشرق الأقصى الثقة فى الإمبراطورية وقضية الحلفاء^(٩). وكشف الكابتن ليونارد جامانز عضو برلمان الاتحاد وأحد ضابط أحد الحياء فى الملايو عن انهيار فى الثقة القومية بالنفس وقال "إننا لا نتوقع من الآسيويين والأفارقة أن يؤمنوا بنا كقوة استعمارية، إلا إن آمنا بأنفسنا، إن المطلوب هو حياة جديدة لا بد أن تفتح فى المثل الإمبريالية القديمة للمواطنة العامة والوصاية والرؤية^(١٠).

وطبقاً للشروط العريضة فإن الهزيمة الكاملة فى الملايو كانت مثلاً آخر لفشل النظام القديم والعاملين به، وفى الجال دخلت شخصية الكولونيل بلمبس (Blimp) فى الجدل حيث صار يرمز إلى الفكر المتحجر والرضا الذاتى والغموض المتعمد؛ والتى نراها الآن مظاهر بارزة للنظام القديم (Old Gang) وهذه المجموعة من الرجال، التى بحسب أساطير الجناح اليسارى وجهت الدولة بشكل يقل براعة بين الحروب، إن التحليل (الروتيني) لبريد رجال الخدمة الذين يتصدون لقياس الأخلاق كشف أنه فى بداية الكوارث فى الشرق

الأقصى كانت هناك زيادة فى الشكوى عن بلمبس (Blimps) فى الأماكن العليا^(١١).

واستخدم أ. ل. روس (Rowse) وهو مؤرخ متميز فى إكسفورد مجلة التايمز ليتأمل إلى أى حد نبعت المساوى الحديثة للإمبراطورية من مجموعة القوانين التى تبنتها المدارس العامة التى رفعت قيمة الشخصية على الذكاء. إنها السمة الأخيرة التى سجلت الرجال الذين بنوا الإمبراطورية فى أيام الملكة إليزابيث الأولى والملكة آن واثنين من عائلة ب^(١٢).

وفى نفس اليوم أعلنت الحكومة عن إجراء امتحان قاس لكل الكولونيل من رجال الجيش الذين بلغوا سن الخامسة والأربعين على أساس التحرر من اتباع بلمبس (Blimps) وكان هناك أيضا جديد لاتباع بلمبس فى حزب العموم، وكانت الحكومة قاسية على اللصوص الذين سمحوا لبينانج (Penang) بالتسريح دون حرب وقدموا هدية لليابانيين من مخزونهم من المطاط^(١٣).

وهنا كان ولا بد من التخلص من بلمبس مع عدد آخر، والذين كانوا يتمتعون بمزايا الحياة فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية، ويعيش غالبية البريطانيين فى عالم مهجور، كما قال الميجور جيمس ملنر أحد أعضاء حزب العمال، وفى هذه اللحظة كانوا يتناولون طعام الغداء وهم يرتدون معاطف قصيرة، وكان كل بقية الحوار فى كلكتا فقط على بعد أميال قليلة من خط الجبهة^(١٤)، وكان قريبا من الهدف.

وفى بورما كان الجنرال الأمريكى القط فاينجر (Vinegar) جوستلور الذى كان ينزعج من اجتماعاته مع الرجال الضعفاء والسطحيين الذين كانوا يديرون الإمبراطورية ويشرفون على قيادة قواتها.

وجرب أحد الرجال المعترف بهم صبره وذكر فى يومياته
"إن مونوكلا د حيوان فى أثناء الغداء، ولا يستطيع أحد أن يستمع بوصيته
إن رجلا مثلى ليس لديه وقت لكوب من البيرة"^(١٥).

إن طريقة ملاحظة هذا النوع من الرجال، وهناك الكثيرون منهم من
الأمريكيين الحاقدين، والذين بدأوا يقابلونهم فى أماكن أخرى من
الإمبراطورية فى أعلى مناصب القوات المسلحة، والحكومة وكان الجنرال
ريتوت أيزنهاور المسئول عن التخطيط الإستراتيجى فى الشرق الأقصى
متضايقا من رد الفعل العنيف لوافيل (Wavell) بعد أن تسلم قوات صينية
للمساعدة فى إنقاذ الجبهة المنهارة فى بورما^(١٦).

وأىضا أيقن كل الأمريكيين أيضا أن الطبقة الحاكمة فى بريطانيا
ينقصها الدافع الداخلى والطاقة لشن حرب حديثة.

وكان هناك البعض فى أمريكا وبريطانيا الذين يتعجبون عما إذا كانت
تلك الطبقة الحاكمة فى الإمبراطورية تستحق البقاء فى سلطتها، ولم يكن
هناك مكان فى العالم بعد الحرب لأى امتيازات خاصة سواء للأفراد
أو الأمم، كما أعلن روزفلت فى نوفمبر عام ١٩٤١، وكان بنو وطنه يميلون
للاعتماد- كما فعل عدد معقول من أهل الرأى فى بريطانيا، معظمهم فى
أحزاب الشمال والوسط- ولكن مع درجة أقل بذلت الحكومة التى حاولت
باستمرار العمل معا والمشاركة فى أعباء الحرب بشكل متساو، وكانت روح
المساواة والروح الديمقراطية فى الخارج وعملية التعبير عنها بشكل إجبارى
فى رسائل رجال الخدمة التى احتوت على الكثير من الضباط المتذمرين
الذين لا شكل لهم لكنهم معترف بهم، والذين يمارسون السلطة.

لم تغير الحرب النظام الطبقي داخل الإمبراطورية، ويرتبط رجال الخدمة إلى وحدات احتلت الملايو مرة ثانية في صيف ١٩٤٥، وقد تعرضت للأذى نتيجة هؤلاء الذين حرروهم أى المزارعين وزوجاتهم الذين ظهروا مثل جماعات البوروبون التى تذكرت كل شيء ولم تتعلم شيئاً^(١٧).

ولم يكن هذا مدهشاً فى معظم وجود طبقة الصفوة التى أدارت المستعمرات والتى جاءت تقريباً من الطبقات العليا والوسطى فى المجتمع، وقد تم تجنيد الرجال فى الوظائف العليا أثناء الحرب من خريجى المدارس العامة الذين تخرجوا فى أكسفورد أو كمبردج وأظهروا أنفسهم على أنهم أكفاء فى المجال العملى أكثر من صالات الامتحان.

إن الشخصية تهم الكثيرين عند اللقاء واختيار ضباط الأحياء الأساسيين، وأعطى السير رالف فيرس نقطة البحث عن مثل هذه العلامات لسرد القصص عن النقص الداخلى مثل هز اليد بشكل فاطر الهمة^(١٨).

وقبل عام ١٩١٤ تم تطبيق الاختبار الاجتماعى، الذى قدم لمن يجرى لقاء معه سيجارة من فرجينيا بدلاً من التركية، والتى يتم تمزيقها بشكل آلى لما كان يسمى بالخطأ الاجتماعى^(١٩).

وعلى هذا كانت نغمة الإمبراطورية أرسنقراطية ومحافظة، ويمكن أن تحكم على هذا من خلال ردود فعل مجموعة الرسميين الهنود وزوجاتهم لاختيار أجواء للانتخابات العامة لحزب العمال فى أواخر يوليو ١٩٤٥، والتى سمعوا عنها أثناء ركوب سفينة تمر عبر البحر المتوسط، وهناك ملاحظات قلقلة حول عما إذا كانت المنح الحكومية والمدارس العامة ورسوم الفحم فى خطر، وبعدها دار نقاش حول من سيحل محل ليو أميرى (Amery) كرئيس وزراء لهنـد.

لقد صار أميرى خارج السلطة ومن سيحل محله؟ وهذه نقطة مفصلة من التأمل، واعتقد الكولونيل أنه قد سمع شائعة أنه بلم ديت (Palme Dutt) وهو عضو الحزب الشيوعى من أصل هندى وسويدي، يا إلهى، ربما يختارون على الأقل بريطانيين لإدارة الدولة المدمرة وليسوا من الزنوج^(٢٠).

إن التكبر والغطرسة الاجتماعية سارتا جنبا إلى جنب، وكانا كلاهما قادرا على إيذاء الإمبراطورية، هكذا فكرت ماجرى ببرهام (Perham) وهى من المعلقين الذين على علم جيد بالشئون الاستعمارية، والتي ظلت حتى أحداث فبراير عام ١٩٤٢ تعتق بدون استحقاق الأفكار الإمبريالية الأبوية، وفى مقالين ظهرا فى جريدة التايمز فى شهر مارس سألت وأجابت على السؤال غير المريح: كيف يتصرف الكينيون إذا وجهت قوة عمل يابانية سفينة إلى شواطئ مومباسا (Mombasa)، وكانت تخشى أنهم ربما يتصرفون مثل سكان الملايو لأن الحكم البريطانى فى كينيا قد فشل فى إثارة أى إحساس عميق من الولاء أو الهدف العام بين شعوبها المختلفة، وكانت جنود المتاعب والمشاكل هى إن الرسميين البريطانيين الجادين فى عملهم والذين حكموا المستعمرة ما إن ينتهى عملهم اليومى ويذهبون إلى منازلهم أو أنديتهم وصحبة كل واحد منهم هذا التباعد الاختيارى ويتركون الحكام تحت سخرية وإهانة الأقلية المتزايدة من المنقذين السود الذين سوف يحلون محلهم فى وقت ما^(٢١).

لقد ضربت السيدة برهام على وتر مهم، وأبرزت الحرب فى الشرق الأقصى فى ربيع ١٩٤٢ كل إشارة على أنها ستمتد بسرعة إلى المحيط الهندى على أنها صراع عنصرى، ورحبت الدعاية اليابانية بسقوط سنغافورة وهونج كونج ومانيل، واعتبرتها انتصارات لشعوب آسيا وعلامات أساسية فى طريق تحررهم من الحكم الأبيض، واضطر الأستراليون إلى اجتياح

شوارع سنغافورة، كذريعة بأن النظام العنصرى القديم قد انتهى، وأن البيض والسجناء العسكريين قد انحدر دورهم بشكل منهجى، وساعت معاملتهم فيما يفسر لدى الضحايا على أنه شكل من الانتقام العنصرى، كما تم قتل البعض مثل الاثنين والعشرين إداريًا ورجال تنصير وعمال اللاسلكى فى جزر جلبرت فى أكتوبر عام ١٩٤٢^(٢٢).

لقد وصلت دعوة اليابان إلى حرب عنصرية إلى الكثيرين وكتب سمطس يقول "إن البيض اضطهدونا ولن نعانى أسوأ تحت حكم اليابانيين" ولكنه واسب نفسه قائلا "إننى متأكد أن الغالبية العظمى لا تزال مخلصه بطريقته المحافظه"^(٢٣).

أما الكثيرون من الهنود والملايو والبورنيو فليسوا كذلك، وفيما يبقى من حقبة بسيطة من الحرب (بفضل قسوة التنظيمات السرية الرسمية البريطانية) قد ارتدت جماعات كبيرة من الهنود والجوركا وقوات التاميل وتحولت إلى جانب اليابانيين وشكلوا الجيش الوطنى الهندى (INA) وهو قوة وطنية تسعى إلى قلب نظام الراج (Raj).

ولم تُعرف الأعداد الكاملة، وفى عام ١٩٤٤ اعتقدت المخابرات العسكرية أن الجيش الوطنى الهندى يضم ٣٥,٠٠٠ جندى، وبعد عام قدرت أن عشرين ألف جندى قد انضموا إلى اليابانيين، وهم اثنتان من كل سبعة يقبض عليهم^(٢٤).

وفى صيف عام ١٩٤٥ تولى الجيش الهندى المهمة المتبقية للبحث بين من بقى على قيد الحياة من الجيش الوطنى الهندى، وتعرف رجال المخابرات إلى ٧٦٠٠ شخص كانوا يساعدون اليابانيين، وفى بعض الحالات ارتكبوا جرائم وحشية فى الحرب تستحق العقاب^(٢٥).

أما البقية فكانت غالبيتهم من الجنود المهذبين انصرفوا عن الطريق سوى نتيجة الفوضى والتراجع في الملايو وبورما أثناء شتاء وربيع عام (١٩٢١ - ١٩٤٢) أو من السجناء الذين تعاونوا أملاً في الحصول على نسب أفضل ومعاملة أحسن، وكان ضمن هذه الفئة عدد كبير من الذين صدموا بسبب الهزائم التي حلت على بريطانيا وفقدوا الثقة في حكاهم القدامى.

وكان الكابتن جريكشا سنج ديون من بين الوطنيين الذين رأوا في أنفسهم أحد المحررين لمستقبل الهند، والذي اعتقدت المخابرات البريطانية أنه قام بتعذيب السجناء الهنود والصينيين وقتلهم في سجن شنغهاي وسنغافورة، وهناك آخرون من المتعصبين مثل تلك الأعداد في فوج النساء في جانس (Jhansi) والذين كانوا يحتجون أثناء الاستجواب، وكانوا مواليين لساندرا سوبهاس بوس السياسى السابق في الكونجرس والذي هرب إلى ألمانيا عام ١٩٤١^(٢٧).

وبعد إذاعة الدعاية من برلين، التي أنكر فيها الديمقراطية وشهّر ببريطانيا على أنها العدو الرئيسى للتقدم والتطور - سافر بوس (Bose) بغواصة إلى طوكيو حيث وصل في يونيه عام ١٩٤٣^(٢٨).

وبعد أن حمل لقب نياتجى (القائد) للجيش الوطنى الهندى أقحم بوس نفسه في إعادة تنظيمه، وكان محدثاً ساحراً واعترفت به الحكومة الهندية كعدو أساسى^(٢٩).

وكان الجيش الوطنى الهندى جزءاً من منظمة أوسع تحت الإشراف اليابانى من أجل التدمير الوطنى فى الهند وضد الدعاية الأوربية فى كل أنحاء قارة آسيا، وضم مدرسة تدريب الشباب السواراج (Swaraj) فى رانجون التي تخصصت فى حرب العصابات والتخريب وأكاديمية بينانج (Penang) التي تُدرّب رجال الدعاية الصينية والملايو وسيام^(٣٠).

ولقد تم إخطار جنود الجيش الوطنى الهندى بأنه بمجرد أن تخترقوا البنغال مع اليابانيين سوف تقوم ثورة شعبية ضد البريطانيين^(٣١).

وفى نفس الوقت فإنه فور نزول المخربين من الغواصات تمت محاصرة الجميع تقريبا.

وفى نهاية شهر أكتوبر قام رجال المخابرات بمحاصرة اثنين وأربعين من أصحاب الصحف اليابانيين^(٣٢)، وأما فى أرض المعركة فقد أثبت الجيش الوطنى الهندى فشلاً نريغاً أمام أسياده، وكان اللجوء إلى بريطانيا أمراً شائعاً.

ولقد اتخذت الحكومة فى الهند موقف الجيش الوطنى الهندى بشيء من الجد والصرامة خشية أن تغرى دعايتها جنود خط الجبهة بالاستسلام، وربما يحدث وكلاؤد تحريضاً على الفتنة فى مناطق هزها بعنف غضب الكونجرس.

وعلى هذا قامت وحدات المخابرات الهندية بتفتيش بريد القوات لكشف علامات عدم الرضا^(٣٣).

ولقد تم إعداد برامج مضادة برغم تحذير مؤلفيها بالتقدم، عندما تحدث مثل هذه القضايا والمسائل الجدلية كتطور اجتماعى بعد الحرب فى بريطانيا، التى ربما تثير الجنود الهنود للسؤال عن أسباب عدم إدخال مثل هذه الإجراءات فى وطنهم^(٣٤).

وكانت السياسات الآسيوية بعد الحرب دليلاً على أن رجال الدعاية البريطانية بذلوا كل ما فى وسعهم لتجنب ما يشير أن التغير اليابانى سوف يحطم كل آمال الحكم الذاتى الهندى، ولم تكن الدعاية الأمريكية مثبطة للآمال، وفى عام ١٩٤٤ كانت رسالتها إلى شعب بورما أن نصر الحلفاء سوف يحقق السلام والحرية لبورما.

وقد احتجت وزارة الخارجية على هذا الوعد بالاستقلال، لكن الوزارة فرضت سلطاتها وهي تريد الإبقاء على أفضل الشروط مع الولايات المتحدة^(٣٥).

ولقد كان رجال الدعاية البريطانية على أرض آمنة مع برنامج الحماس للجيش الهندي الذي صُمم لتشجيع الروح المرحّة الإيجابية بين القوات، وأوحت جرعة من الحماس (Josh) جنديًا من البنجاب يخدم في الجبهة مع بورما، وهو الذي، شاع بيانًا يابانيًا عبر اللاسلكي بأن القائد بوس والجيش الوطني الهندي سيكونون في الهادي خلال عشرة أيام، ولاحظ أنه إذا لم يذهبوا بالقطار فلن يستطيعوا، وفي النهاية لم يحدث بوس ولا الجيش الوطني الهندي أى أثر على حصيلة حرب الشرق الأقصى برغم النظرة لكليهما بأنهما كانا يمتلكان إمكانيات لا حدود لها لإثارة المشكلات داخل الهند، ومات بوس في تحطم طائرة في نهاية الحرب، وكان هذا عاملاً مريحاً للحكومة الهندية التي كانت تخشى أن يكون أتباعه السابقون مصدر ثورة عنيفة عندما يعودون إلى أوطانهم^(٣٦).

وكان من بين القوات التي كانت تحارب في بورما خلال عام ١٩٤٤ ثلاثون ألف عسكري من شرق أفريقيا وغربها ومنظم مثل رفاقهم من الهنود، كانت مراسلاتهم ومحادثاتهم تتم مراقبتها ورصدها كإشارات تتم عن القلق السياسي^(٣٧).

وبرغم أن وزارة الحرب سمحت بإصدار سلطات وتكليفات لرجال من الأجناس المختلفة في أكتوبر عام ١٩٣٩ فإن القوات السوداء واصلت تلقى الأوامر من الضباط البيض^(٣٨).

وفي حالة جنود ساحل الذهب كان يتم استيرادهم من المستوطنين في روديسيا الجنوبية^(٣٩).

وفي الوقت الذي كانت الحرب فيه تخفف قيود النظام الطبقي الاجتماعي في بريطانيا ظلت الأوضاع العنصرية المماثلة في أفريقيا وجزر الهند الغربية صارمة وقاسية كالعادة، وذهبت وزارة المستعمرات إلى حد أبعد لتؤكد أن رعاياها محميون من أى تأثيرات خارجية ربما تقلقهم أو تجعلهم تعساء ويندبون حظهم.

لقد ظهر أن المقارنة بين السود الأمريكيين ورجال الخدمة من الزنوج الأمريكيين بشكل رسمي كمصدر أساسى لعدم الرضا والفساد، ولقت السود الأمريكيون الذين يرتدون ملابس نظيفة ويحصلون على أجور جيدة أنظار السود الفقراء من بورما، وهكذا فى ظل ضغوط وزارة المستعمرات انسحب الأفريقيون وتمركز رجال الخدمة السود فى ليبيريا وتم منعهم من الحصول على إجازات فى المستعمرات الأفريقية البريطانية، ومرة ثانية خوفا من أن تؤدي تقهتهم بالنفس والرخاء إلى القلق والاضطراب^(٤٠).

لقد أحدث ألفان من الجنود السود وكلهم منفيون اضطرابا كبيرا، وكان معهم مال للإنفاق على الشراب والنساء جاعلا كاتباً مجهولاً يندم ويقول "كنت أعيش مع زوجة لطيفة وراضية حتى جاء الجنود ودمروا حياتي"^(٤١).

وكان حاكم مستعمرة ترينداد منزعا بسبب هذا القلق فى مستعمرته، ولكن لأسباب مختلفة حيث وجد الزنوج الأمريكيون كمبعوثين للحركات العسكرية السوداء وحركات العودة إلى أفريقيا، والتي كانت تكسب أرضا فى أوطانهم، ولم يكن أحد مرغوبا فيه فى ترينداد وتاريخها الطويل من مظاهرات العمال السود، وفى عام ١٩٤٣ أحلت الحكومة الأمريكية مجبرة الزنوج بالبرتوريكيين (Puerto Rican) وتكشف هذه المقطوعة الغموض الخاص فى التفكير الأنجلو أمريكى عن الجنس، وبينما كانت سلطات الولايات المتحدة أكثر استعدادا للتعاون مع وزارة المستعمرات لتقديم حبر

صحى للسود فى الإمبراطورية، كان الكثيرون من السياسيين الأمريكيين ورجال الصحافة يعلنون باستمرار عن هؤلاء الشعوب التى تتعرض للاضطهاد من جانب حكاهم، لكن القوة الأخلاقية لهذه الهجمات جعلتها عديمة الحس نتيجة صدمة السجل العنصرى الأمريكى.

ولقد كانت عملية عدم المساواة العنصرية طريقة الحياة فى الولايات المتحدة، وأثناء الحرب كان هناك الكثير من الاضطرابات الدموية العنصرية تشمل جماعات المعارضة من رجال الخدمة السود والبيض على أحد رجال قاعدة (USAAF) فى بريطانيا^(٤٢).

وإذا استعرضنا صدى العواطف التى أثارت أفراد الجيش الوطنى الهندى جندياً زنجياً أمريكياً متجهاً إلى جبهة المحيط الهادى، وكان مضطراً لطلب النقش التالى على الضريح "هنا يرقد رجل أسود،" وقد قتل وهو يحارب رجلاً أصفر من أجل الدفاع عن الرجل الأبيض"^(٤٣).

ولم تجد الدعاية البريطانية أثناء الحرب صعوبة فى مجارة مثل هذا التعبير الساخر، على الأقل عندما وصل إلى شرح أسباب هزيمة ألمانيا، ولقد وزعت مقطوعة حاقدة خاصة من جريدة مين كامف (Mein Kampf) بشكل واسع بين المستعمرات الأفريقية تذكر الرجال السود ما كان يفكر فيه هتلر عن جنسهم.

"إنه تعرف على الجنون الإجرامى لتدريب كائن حى يشبه القرد حتى تدعى أنه قد تحول إلى محام".

ومنذ عام ١٩٣٩ كانت المستعمرات للاستعلامات مشغولة فى تحديد أهداف الحرب البريطانية فى كل أنحاء الإمبراطورية من خلال الأفلام والمحاضرات والمعارض والكتيبات ومسارح الشارع.

إن نصرًا نازيًا سيدمر الإمبراطورية التي كانت آمال رعاياها العدالة والتقدم، وكما هي الحال في الهند كان على الدعاية الرسمية أن تكون حريصة على أن لا يرتد أذاها إلى نحره، وقد تم تجنب تشويه السمعة الزائدة للألمان خوفًا من حركة ارتجاعية ضد الجيش الأبيض بشكل عام، وإشارات إلى حروب تشن من أجل الحرية والديمقراطية بشكل حذر^(٤٤).

ومن جهة أخرى تمت إحاطة رعايا الإمبراطورية الاستعمارية علما بأنه بعد الحرب سيعاملون باعتبارهم شركاء أكثر من أن يكونوا تابعين، ولقد جسد هتلر (بعبعًا) ممتازًا، وبهذا الشكل ظهر في أغنية هوسوية عظيمة:

- لقد وجد الإنجليز علاجًا للإزعاج اليائس.

- ولقد جلب هتلر الخيانة والأذى للجميع.

- إن للإنجليز علاجًا لهتلر الألماني.

- إن هتلر ليس له أب ويعد كلبًا مشكوكًا في أصله.

- إنه لا يمتلك مالا ولا وطنًا ويعتبر لعنًا.

- إن للإنجليز علاجًا لهتلر الألماني^(٤٥).

وقد أثار شاعر غنائي من ساحل العاج فكرة الوحدة الإمبراطورية في أغنية معركة نمطية كتبها للنساء ومصاحبة لطبول الحرب يقول فيها:

- دع نساء الإمبراطورية البريطانية.

- تغني أغاني المديح وتلهم وتحث المحاربين.

- أيها الرفاق المخلصون الذين يستعدون للموت من أجل الحرية.

- أبناء الدومنيون والهند.

- والجزر البعيدة المتفرقة فى البحار السبعة.

- أبناء الدولة الأم.

- إنجلترا الدولة الأم.

- فلتف نساء الإمبراطورية^(٤٦).

لقد تم استخدام وسائل تكنولوجية مغرية فى شمال بورنيو خلال عام ١٩٤١، وأظهر معرض متنقل كبر التهديد اليابانى وقدمه مؤكداً من جديد صور السفن الحربية البريطانية وحاملات الطائرات وتم نشر تقارير عن التقدم الحربى فى إنجلترا والملايو مع إشارة لربات البيوت "من فضلكم أعطوا شعب الملايو عناوين الأخبار للأولاد" وكانت هناك محاضرات عامة على مثل هذه الموضوعات مثل "الطيران فى بورنيو" الذى قدم مثل سلفه من أجل النصر" وشاشة للقلم العظيم نيرس كانفل (Nurse Canvell) والذى فيه تتحدى البطلة الألمان فى عام ١٩١٤ وتم إعدامها بسبب شجاعتها^(٤٧).

وبالمقارنة باليابانيين لم يقدم الألمان والإيطاليون أى محاولة لتقديم الدعم لرعايا الإمبراطورية، وبشكل واضح لأن النازية والفاشية عقائد عنصرية، ومع هذا كانت هناك جهود مضنية لكسب الرأى العربى وذلك باستغلال الثورات الحديثة فى فلسطين، وتم تصوير بريطانيا وأمريكا كشركاء لليهود وحقاً أعداء العرب فى كل مكان، وبعد انتصار الحلفاء فى مصر وشمال أفريقيا، ادعى راديو تونس فى ديسمبر عام ١٩٤٢ أن الأبطال البريطانيين والأمريكيين قد جعلوا من مراكش والجزائر فلسطين ثانية^(٤٨).

ولم يمدج برنامج الدعاية البريطانية عدالة قضية الحلفاء فحسب، بل نصح الرجال والنساء فى كل المستويات، وفى كل جزء من الإمبراطورية، أن يبذلوا كل ما فى وسعهم من أجل المجهود الحربى ومثل الذى حدث فى

الحرب العالمية الأولى تمت تعبئة كل موارد الدومنيون والمستعمرات من أجل الحرب، وكان من المهم جدا رفع القدرة القتالية والتدريب للرجال والنساء وكانت الحصيلة الكلية كلها للحرب:

- بريطانيا العظمى ٤,٦٥٠,٠٠٠ رجل.

- أستراليا ٥٧٠,٠٠٠ رجل.

- كندا ٧٧٠,٠٠٠ رجل.

- الهند ١,٧٨٩,٠٠٠ رجل.

- نيوزيلاند ٩٧,٠٠٠ رجل.

- مستعمرات شرق أفريقيا ٢٢٥,٠٠٠ رجل.

فضلا عن ٣٠,٠٠٠ من الرواد.

- مستعمرات غرب أفريقيا ١٥٠,٠٠٠ رجل.

فضلا عن ١٦,٠٠٠ من الرواد^(٤٩).

وتمثل هذه الأرقام مجموع كل الرجال والنساء في الخدمة، وتتجاهل حقيقة أنه في مختلف مراحل الحرب كان هناك عدم تعبئة جزئية؛ حيث عاد القسم الأول من جنوب أفريقيا إلى بلاده بعد تحرير (إثيوبيا) وبعد أن طرد اليابانيون من غينيا الجديدة ورجال الخدمة في نيوزيلاند وأستراليا، وقد تم إطلاق سراحهم من أجل الصناعة خلال عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤، وبرغم هذا كان في أستراليا ٣٦٥,٠٠٠ رجلاً وامرأة تحت السلاح في عام ١٩٤٥، وكان أربعة أخماسهم من المتطوعين، وواجهت كندا نفس مشكلات القوة البشرية التي كانت موجودة في الحرب العالمية الأولى، ومع حلول عام ١٩٤٣ كان عدد المتطوعين في الخدمة فيما وراء البحار يتضاءل، وتم

إدخال التجنيد الإجبارى فى العام التالى برغم أن الرجال المجبرين على الخدمة يرسلون للعمل فى الحصون فى جزر الهند الغربية بدلاً من إرسالهم إلى الجبهات فى فرنسا وإيطاليا.

وكان السجل الأفريقى فعلاً بشكل خاص، وفى بداية ١٩٤٣ شاركت فياسالاند بعشرين ألف رجل فى فرقة (King's African Piffes) وأكثر من ١٠٣,٠٠٠ تعهدوا بالقيام بأعمال حربية معظمهم فى مناجم النحاس فى روديسيا الشمالية، ويمثل هذا أكثر من ثلث السكان من الذكور البالغين^(٥٠).

وفى ذلك التاريخ كانت السلطات الاستعمارية تمر بمشكلات البحث عن الرجال خصوصاً العمال، للعمل فى المطارات والقواعد فى مصر وشمال أفريقيا، ومثل الذى كان موجوداً فى الحرب الماضية كانت هناك ضغوط من القيادة العليا للرجال السود لإطلاق سراح البيض من خط القتال، وزادت خلال عام ١٩٤٣ وأوائل عام ١٩٤٤ أعداد القوات من أجل يوم الهبوط فى فرنسا^(٥١).

وفى يوليو عام ١٩٤٣ أفادت الحكومة الكينية أنها قد وصلت إلى الحد الأقصى ومعها ٦٧,٠٠٠ رجل يعملون فعلاً فى الجيش وليس لديها أى أعداد أخرى^(٥٢).

وعلى العموم كانت عملية الحمالين غير شعبية فى شرق أفريقيا برغم الدعاية الحريصة للحكومة والتي أثبتت عدم الفاعلية فى وجه ذاكرة الشعب (folk) وتم استرجاع المصاعب فى الخسائر عن الحملة الأخيرة بشكل واضح والشعور أننا نفقد الثقة ولا تزال متأخرة كما أخبر حاكم أوغندا^(٥٣).

وكان هو وزميله فى تتجانيقا مذعورين بسبب نقص المتطوعين من أصحاب البنية المناسبة والصحة القوية، وخشى حاكم تتجانيقا أنه ربما يجبر على دفع الرجال للتقدم إلى الأمام.

وإلى حد ما كانت الحكومة الاستعمارية تتحمل المصاريف، ولكن كما أشار على حساب أخذ الرجال بعيدا عن إنتاج مواد الحرب^(٥٥).

ولقد كان التوازن بين الرجال والنساء فى الزى الرسمى وهؤلاء الذين يعملون فى إنتاج كل الأطعمة والمؤن أمرا حيويا، ولقد أخبر تشرشل الملك ماكنزى فى أغسطس عام ١٩٤١، "إن هذه ليست حرب رجال لكن حربا لآلات على أعلى مستوى"^(٥٦).

وفى خارج كندا كانت إكانيات الإمبراطورية لتصنيع الأسلحة الراقية صغيرة تاركة الدومنيون والمستعمرات فى نصف الكرة الجنوبي تعتمد كليا على بريطانيا والولايات المتحدة، ومع ذلك فقد كانت هناك محاولة فى يوليو عام ١٩٤٠ لترشيد الإنتاج وتوزيع مواد الحرب فى هذه المنطقة بعد عقد مؤتمر للحكومات يتركز فى دلهى.

ونتيجة لهذا كانت درجة من التخصص والتعاون، وبدأت أستراليا التى تمتلك أدوات صناعة آلات متقدمة إنتاج البنادق الآلية الخفيفة وبنادق أربعة وعشرين عيارا، وبنادق ضد الطائرات فى أغسطس عام ١٩٤١، وتم شحن معظمها إلى بريطانيا حتى أوائل عام ١٩٤٢، وكانت صناعات جنوب أفريقيا من المعادن مسئولة عن حظائر الطائرات والجسور المعلقة، لكن تعطلت هذه الصناعات بسبب نقص الفنيين فى الأعمال الأكثر تعقيدا^(٥٧).

أما نيوزيلاند فقد صنعت أجهزة اللاسلكى، وأسهمت المستعمرات الاستوائية بالمواد الخام مع سيلان التى رفعت إنتاجها من المطاط بعد فقدان الملايو.

ولقد ملأ هذا البرنامج السريع بعض الفجوات، ولكن الإحصائيات النهائية للمجهود الصناعى الإمبراطورى تعكس تركيز الإمكانيات الصناعية داخل الإمبراطورية.

الدول	طائرات	دبابات	بنادق مضادات الطائرات	وسائل النقل	بنادق آلية
كندا	١٥,٩٥٧	٥,٦٧٨	٤,٢٨٦	٣٣,٩٨٧	٢٥١,٩٢٥
أستراليا	٣,١٨١	٥٧	٧٨٦	٥٥٠١	٣٠,٩٩٢
نيوزيلاند	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	١٢١٠	لا يوجد
الهند	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	٦,٩٩١

ولا تشمل هذه الأرقام الضربات المدرعة التى صنعت فى جنوب أفريقيا والمسدسات والمعدات المصنعة فى الهند، أما الجزء الأساسى من الفاتورة الأساسية للمعدات والسلع والخدمات والذى تقدمه الإمبراطورية- فى كان يتم بدعم من بريطانيا، وفى بداية الحرب كانت كل الاحتياطات الاستعمارية لكل الهند من الإسترليني موجودة فى لندن، وقد جمدت بشكل فاعلى على أنها لا يمكن أن تتغير أو تتحول، وكانت توجه إلى المجهود الحربى البريطانى، وبعد ذلك يتم دفع الواردات الاستعمارية من خلال القروض وأذونات الخزنة، والنتيجة أن الديون البريطانية لمستعمراتها ارتفعت من ١٥٠ مليون جنيه عام ١٩٣٩ إلى ٤٥٤ مليون جنيه فى عام ١٩٤٥، واستفادت الهند من هذا الترتيب لأنه طبقا لاتفاقية مصاريف الدفاع عام ١٩٤٠ وعدت بريطانيا بتغطية كل هذه المصاريف من القوات الهندية التى تنتشر خارج شبه القارة التى كانت تدين لبريطانيا بمبلغ ٣٥٠ مليون جنيه فى عام ١٩٣٩، والتى كانت مدينة بمبلغ ١,٢٠٠ مليون جنيه عندما انتهت الحرب.

وفى عام ١٩٤٥ واجهت بريطانيا تصفية حسابات أخرى أقل قيمة ملموسة، وفى أثناء الحرب منع تشرشل (بوستر) يظهر طفلاً عنده كساح الأطفال وهو يلعب فى حوش معتم وشديد الرطوبة وتحيط به أسوار مكتوب عليها المرض والإهمال وتعليق يقول "هذه بريطانيا التى كانت" (٥٨).

وهناك لوحات أخرى أقل خطورة فى الدعاية وتحمل نفس الرسالة "إن شعوب الحرب ستكون مقدمة لعهد من إعادة البعث القومى وفيه سوف ينتهى الجهل والفقر والمنازل المصنوعة من قماش رخيص وخفيف، والمرض والبطالة من خلال دولة كريمة وغنية، وكيف يمكن تحقيق هذا سيكون موضوع محاضرات ومناقشات وجدال منتظم من قبل رجال التعليم المنقذين والذين يستطيعون خلال خمس سنوات تأسيس رجال محاربين أقل عنصرية وأكثر وعياً سياسياً بالعالم أكثر من سابقهم فى عام ١٩١٨، وهم يشاركون برغم عدم الوعد بشكل عام فى نصر حزب العمال فى يوليو عام ١٩٤٥، وسوف يكونون أكثر إثارة بالآمال التى يجلبونها.

ومن بين القوات المتمركزة فى الهند والشرق الأقصى اكتشف المسؤولون عن إحصاء الجيش شعوراً واسعاً بأنهم يعملون من أجل انتاج بعض الوسائل الجديدة والسخرية لحل المشكلات عند إعادة البناء (٥٩).

وأيضاً توقع الجنود الملونون مستقبلاً زاهراً، وبحسب آرثر كريش جونز الخبير العمالى فى الأمور الاستعمارية، فإن رجال الخدمة السود سيشاركون آمال زملائهم من البريطانيين (٦٠).

وفى أكتوبر عام ١٩٤٥ كشف استفتاء للجنود الهنود أنهم بعد الحرب يريدون نظاماً للأفضلية ومنازل مريحة ومعاشات وزوجة محبوبة لكل منهم وأطفالاً، وفهم لكيفية اتخاذ احتياطات ضد الملاريا، وبقرة أو بقرتين، ومدارس ومستشفى عام، وبندقية للصيد فضلاً عن حصان (٦١).

وتجربة الخدمة في الجبهة الإيطالية في عامي ١٩٤٤، ١٩٤٥ كانت الفترة كشفاً لمدى تخلف وطنهم، وتأثرهم بحافز قوى للعودة إلى بلادهم وتصحيح الأوضاع، ويبدو أن المعرفة هي مفتاح الخلاص الوطني، كما طلب بعض الإسباهية (جنود هنود يعملون في الجيش البريطاني) النظام التعليمي الوطني الذي يطور وسائل التدريس والموضوعات الفنية، ولاحظ أحدهم أن الشعوب في الغرب متفرقة في الآداب والثقافة والإصلاح الاجتماعي، وفي كل مجال تقف الهند في المؤخرة، والسبب الرئيسي هو وجود الكثير من الطبقات، وطالبوا بأن يتحد شعبنا سوياً لعمل أي شيء^(١٢).

ولقد شجعت الحرب أيضاً الجنود الأفارقة لدراسة أحوالهم والعالم خارج قراهم لا يشعر الأفريقي بأن ينظر حوله بعيون مختلفة، كتب هذا الروائي جيرالد هانلي الذي قاد قوات العساكر من شرق أفريقيا في بورما، وبعد أن شاهد فقر الهند، وانتهى احترام الجنود للهنود، والأهم من ذلك أن الأفريقي يتطلع إلى أنواق جديدة "وإذا تعلم رجل كيف يدفن، ويأكل طعاماً معلباً ويقرأ الصحف، فإنه عموماً يرغب في استمرار إشباع هذه الشهوات وسوف يحتاج إلى كسب المال للقيام بكل هذا".

إن إحدى مصائب هذه الثورة الثقافية الإفريقية القديمة، وتساعل عن أسباب عدم غناء الرجال أغاني تقليدية وأجاب أحد العساكر من روديسيا عن أسباب غناء مثل هذه المادة بعد ذلك، بأن لدينا صحفاً وأفكاراً مثل الأوربيين، وإن هذه الموسيقى تخص الرجال المسنين والأزمنة التي ولت وانتهت^(١٣)، لكن ظل الولاء القديم قوياً، ولم تتأثر جنود هانكي (Hanky) بهذه الراديكالية السياسية للنخبة الأفريقية الصغيرة المتعلمة "إن الشعور بالولاء للملك جورج بين الجنود العساكر كما أكد هانلي ليس مجرد قصة حفنة من الرجال لكنه شيء حقيقي. إنهم يعتبرونه ملكاً لكل البريطانيين ويعاملونه حسب هذا^(١٤).

(١٢)

الدفاع عن امتياز قديم

استرداد الإمبراطورية

(١٩٤٢ - ١٩٤٥)

بعد أكثر من عام منذ انتهاء الحرب أعلن ويلي جالشار عضو البرلمان عن الحزب الشيوعي عن ولاية وست فايف (West Fife) في مجلس العموم أن الإمبراطورية البريطانية قد سلمت إلى مقرضى المال مقابل الرهن للأمريكيين وهو أملنا الوحيد. ولكي يثبت وجهة نظره ويوجه التبويخ بشكل ساخر للمحافظين اقتبس ملاحظة كان تشرشل قد وجهها إلى روزفلت في أغسطس عام ١٩٤١ قال فيها " بدون أمريكا لن تستطيع الإمبراطورية الصمود والوقوف"^(١).

ومثل كل الخارجين المعارضين من أعضاء البرلمان كان لدى جارلشار موهبة عدم الإحساس بالتعبير عن حقائق الداخل والتي فضل السياسيون الآخرون تجاهلها أو التخلص منها.

ومنذ عام ١٩٤١ كانت بريطانيا مرهونة للولايات المتحدة، وكما تطورت الحرب وتقدمت مراحلها أصبح من الواضح أن فقدان الاستغلال المالي من حرية الاختيار عند الحكومة عند اتخاذ القرارات حول مستقبل الإمبراطورية، ولا يمكن إنكار وجهة النظر الأمريكية، لأن رجال الحرب الأمريكيين يتحملون وطأة هجوم الحرب ضد اليابان.

ولقد جعلت الانتصارات فى الباسفيكى ما بين عامى (١٩٤٢ - ١٩٤٥) من السهل على بريطانيا أن تستفيد مستعمراتها فى الشرق الأقصى، ولم تكن هذه قضية ذات قيمة بالنسبة لعدد كبير من الأمريكيين حيث طالب الكثيرون بتضحية الشباب الأمريكى من أجل أن تستمر بريطانيا فى فرض سيادتها على المالئين والبورميين.

ولقد توطنت العواطف ضد الاستعمار فى أمريكا، وكان الاتجاه العام أن كل الإمبراطوريات بما فيها البريطانية ما هى إلا طغيان متطفل سوف يصبح بسرعة مهجورًا أو طرازًا قديمًا.

"لقد مات عصر الإمبراطوريات " هكذا أعلن سومنرويلس وكيل الوزارة وكانت الحرب بالنسبة له وللمالئين الأمريكيين حربًا صليبية من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان فى كل أنحاء العالم.

إن القوى التاريخية الديناميكية تتجمع لتكون قوة دافعة وزخمًا سوف ينشئ نظامًا عالميًا جديدًا لن تتوقع فيه دولة واحدة أن تحكم الآخرين دون موافقتهم، ويوحى رجل الشارع أن التصويت فى الرأى الذى تم فى عام ١٩٤٢، أثبت أن ٥٦% من الأمريكيين يعتقدون أن الإمبراطورية البريطانية إمبراطورية ظالمة وجائرة^(٢).

ولقد كان رد الفعل متوقعًا وأعطى للصحافة الأمريكية حق التعامل مع الإمبراطورية البريطانية وأشارت جريدة شيكاغو تريبيون فى أبريل عام ١٩٤٥ فى هجوم نموذجي:

"إن ما يمتلكه البريطانيون سوف يسيطرون عليه، وأن ما تحصل عليه دول أخرى سوف تشارك فيه بريطانيا".

إن الدليل على هذا الجشع وهذه المغالطة التى صاحبت هذا هو السرعة التى أمسك المسئولون البريطانيون فيها بزمام السلطة بعد أن حررت القوات الأمريكية جزر سليمان.

لقد كانت أمريكا فى نضال عنيف من أجل بناء عالم جديد أكثر عدلاً حيث لا يوجد أى مكان لضباط الأحياء الذين يطبقون القانون، وطالبت مجلة تريبيون (Tribune) نقاشاً عالمياً حول مستقبل كل المناطق حيث كانت الشعوب الوطنية قد عانت من الاضطهاد الطويل^(٣).

وبشكل ساخر وغير معروف للمحرر الذكى لمجلة تريبيون فإن المديرين البريطانيين العائدين من جديد كانوا يحتجون على الاستخدام الحديث للطيران الأمريكى (USAAF) فى غارات إلقاء القنابل على القرى التى تتاصر اليابانيين فى جزر سليمان^(٤).

ويمكن خلف هذه الروح العميقة ضد الإستعمار أن تلك الرؤيا من حرب الاستقلال الأمريكية التى ثار فيها المستعمرون المحبون للحرية ضد جورج الثالث الطاغية ورجاله المتوحشين من أصحاب المعاطف الحمراء، ولم يكن من قبيل الصدفة أن المدافعين البريطانيين عن الإمبراطورية هم الذين كانوا غالباً يصفون باسم التورى (Tories).

وهو مصطلح يرجح سوء الاستخدام الذى يطبق على المدافعين والموالين فى عام ١٧٧٦، وعلى المستوى السياسى الراقى كان هناك شعور قوى بأن المدافعين عن الإمبراطورية وكتلة الإسترليني كانوا حواجز ضخمة لبناء أسواق حرة مفتوحة فى كل أنحاء العالم، والتى تلتزم بها حكومة الولايات المتحدة.

ولقد كان البريطانيون مخاد ومنحرفين ومهما قيل إمام العامة فإن هذه الحرب الرئيسية كان دائما هو الحفاظ على إمبراطوريتهم والقوة العالمية.

وكان الميجور جنرال باتريل هيرلى بطل أو كلاهما السابق فخورا بسرعه في هذا الموقف، وكانت مهمته ازراء الخيانة البريطانية وتحذيره قسم الدولة، وفي عام ١٩٤٢ كان فارسا، حيث ادعى أن البريطانيين كانوا يوسعون مواد قانون الإعارة والتأجير لزيادة طموحاتهم والتي شملت مشاورات سرية مع الروس.

وبعد عامين عندما كان يخدم في الشرق الأقصى واتهم بريطانيا وفرنسا وهولنده بالقيام باستعدادات سرية لاستعادة امتلاك المستعمرات القديمة ورغم الوعود التي قدمها الحلفاء في ميثاق الأطلنطى كان هيرلى حالة خاصة من جنون العظمة^(٥) ضد بريطانيا لكن أحاسيسه لم تكن استثنائية، حيث كانت هناك مناسبات عندما هاجم روزفلت بعنف جشع وازدواجية السياسة البريطانية.

ولقد وضع هيرلى وغيره من الأمريكيين المعارضين للاستعمار المخزون الأعظم من ميثاق الأطلسى. لقد كان تعبيراً مثالياً عن أهداف الحرب الأمريكية البريطانية والتي تم الاتفاق عليها بين تشرشل وروزفلت في أغسطس عام ١٩٤١، وبالنسبة للكثيرين وربما هؤلاء الذين اطلعوا عليه فلقد كان ميثاق الأطلسى برنامج عمل من أجل نظام عالمى عادل وجديد، وإذا نظرنا إليه من الناحية الحرفية فإنه ظهر على أنه يقلل من القاعدة الحلقية لكل الإمبراطوريات، ولقد تعهد الرئيس ورئيس الوزراء على تبني حقوق كل الشعوب لاختيار شكل الحكومة التي يعيشون في ظلها، ويرغبون في استعادة حقوق السيادة والحكم الذاتى لأولئك الذين حرموها قسراً.

وكان تشرشل يكره هذا التعبير باعتباره قيمة مكشوفة، وتحدى حق بريطانيا في حكم مستعمراتها. وعند الاستعراض والتفكير أُنْعِمَ نفسه أنه في حالة أن هذه المستعمرات ستكون في أيدي اليابانيين فإن الحقوق السيادية كانت بريطانية وليست في يد السكان المحليين الوطنيين.

و ادعى تشرشل بشكل مؤكد أن بقية مستعمرات الإمبراطورية معفية من ميثاق الأطلسي، أما نائبه زعيم العمال كليمنت أتلي (Attlee) فقد كان له رأى أن بريطانيا والإمبراطورية شيء واحد فقد أمن بأن الميثاق له تطبيق عام، وتبنت وزارة المستعمرات رأيا وسط الطريق يدل على أنه في المستقبل البعيد فإن بعض المستعمرات ستحقق وضع الدومنيون ولن تحقق دول أخرى هذا الوضع وتطلب الاعتبارات الإستراتيجية أن بريطانيا تتمسك بشكل مستمر بجبل طارق ومالطة وقبرص وعدن، وبالنسبة لأسباب أخرى عديدة لن تستطيع بريطانيا السيطرة على جامبيا وبورنيو والملايو وهونج كونج وبرمودا وفيجي وجزر فوكلاند وهنتراس البريطانية^(٦).

وصدرت التعليمات إلى المسؤولين عن حرب الدعاية في المستعمرات أن يظلوا صامتين بقدر المستطاع عن الميثاق ودلالتة^(٧).

إن إحدى الطرق لمنع المحنة الأخلاقية لميثاق الأطلسي هي إقناع الأمريكيين أن رعايا الإمبراطورية لم يكونوا مستغلين ويعاملون معاملة قاسية.

ومنذ عام ١٩٤١ وما بعدها قامت الحكومة بجهود معقولة لتعليم السياسين الأمريكيين وصناع الرأي العملية التي استمرت للعشرين عامًا القادمة، وكانت الرسالة هي نفسها أن الحكومة الاستعمارية البريطانية لم تكن أنانية، وكانت خيرة وعادلة ودائمًا تتصرف بشكل أفضل من أجل مصلحة الشعوب التي يمكن أن تضيع بدونها.

وكان اللورد هيلى هو نجم المدافعين عن فترة الحرب وكان حاكمًا سابقًا فى الهند وعلى فهم عميق للشئون الأفريقية وجسد كل شىء حسن ومشرف فى الأناقة اللغوية الاستعمارية، وبعد أن سمع هذا الشخص من رجال الأولمبياد، وهو يُعيد فضائل الحكم البريطانى لمجموعة من المفكرين الأمريكيين، وعلق مسئول من وزارة المستعمرات بمرارة على الوضع قائلاً: "إنها مأساء سخيفة أن تأخذ إدارة الشئون الكبرى من رجال مثل هيلى وتعطيهم إلى الأولاد ذوى النظارة السمكة والشعر الطويل والكلمات الأطول بأنغام سيئة كريهة"^(٨).

ويمكن وراء هذه الملاحظات إخفاء حقبة ضد الأمريكيين، وكان افنجليز فى ذلك الوقت وبعده فخورين بالدور الذى قاموا به وكانوا حساسين للنقد الأخلاقى.

وقد اقتصر العداء ما قبل الحرب نحو أمريكا وشعبها على الطبقات العليا والوسطى حسب رأى جورج أورديل، واعتقد أن هذه المشاعر قائمة على عدم الثقة فى القوة التجارية المتوسعة للولايات المتحدة ونظرة المساواة بين شعوبها.

وبالمقارنة فإن الطبقة العاملة قد سرت كثيرًا بالأفلام المريكىة والموسيقى الشعبية وتأثرت بمستويات المعيشة الأمريكية^(٩).

ومع تطور الحرب تأثرت آراء البريطانيين بظهور أعداد كبيرة من رجال الخدمة الأمريكيين، والتى صارت ملموسة بنفسها. وكانت كما كان شعائعًا أكثر مدفوعات وأكثر المسائل جنسيًا وأكثر من هنا " رغم أن أوريل (Orwell) وجه نقدًا ولومًا ضد النظام الأمريكى على أساس أن كل أفراد الولايات من الطبقة الوسطى، وعلى هذا لم يكونوا على استعداد للسير مع الطبقة العاملة البريطانية.

إن الطبقة العليا البريطانية هي التي تعاملت مع الأمريكيين على أعلى المستويات وهي تجربة يمكن محاولتها ،

وجد جون مينارد طينث، الذي تولى المعاملات المالية في زمن الحرب أن اللهجة الأمريكية غير متواصلة وسماها (شيروكي إنجليزي^(١٠)).

إن أحاسيس هارولد ماكميلان البطريكية قد انكشفت بسبب الأخلاق الأمريكية والحديث والإطباب، ويمكن أن نخمن كيف يشعر الأمريكيون نحوه وجنسه من ملاحظته التي كشفت أن الكبرياء البريطاني التقليدي قد اختفى فيما وراء البحار وحل محله الاحتقار والعداء للجانب^(١١).

إن أحد مصادر الاستياء هو الزعم الأمريكي حول سوء معاملة الأجناس الاستعمارية. وكان البريطانيون مستعدين على وجه السرعة للهجوم المفاجئ وشن هجومهم في المنطقة حيث كانت أمريكا معرضة لعنصرية داخلية. وكانت المعلقة الاجتماعية نانسي كونارد تطالب في عام ١٩٤٢ بوضع تشريع لإلغاء الحاجز اللوني وادعت أنه في الوقت الذي أظهر فيه البريطانيون حقدهم دون تفكير نحو السود، أوضح الأمريكيون كراهية سريعة^(١٢).

وأثار نوم ديريبرج عضو البرلمان من حزب العمال وحزب اليسار في زيارة إلى مونرو وجورجيا فسأله عن إعدام أربعة زنوج من دون محاكمة في عام ١٩٤٦، فتفاخر بأن مثل هذه البربرية لم ولن تحدث داخل المستعمرات أو في بريطانيا حيث لا توجد أي تفرقة عنصرية عمليا^(١٣).

ولم يكن هذا صحيحًا بشكل كلي، لكن التفرقة العنصرية في الجنوب والاضطرابات العنصرية في كل مكان جعلت المواعظ الأمريكية عن الاضطهاد تبدو وكأنها خدعة. وقد أوضح غاندى هذه النقطة بوضوح في رسالة شخصية إلى روزفلت في عام ١٩٤٢ لكن لم يحسن روزفلت استقبالها بشكل جيد^(١٤).

ولقد تمت دراسة جذور وتاريخ التشاحن الأنجلو أمريكى بشكل شامل، وفى بعض الحىان أعطت النتائج الإحساس بأن العلاقات بين الحلفاء لا تنتهى بحرب قوية. ولم يكن هذا بنفس الشكل ويرجع الفضل فى جانب كثير منه إلى شخصيات تشرشل وروزفلت، ولم يكن الأمر سهلاً وقام تضامنهم على صداقة شخصية دافئة وإعجاب ودى ودرجة ملحوظة من الصراحة والإخلاص من الجانبين، وهناك رباط قوى هو الإصرار العام لهزيمة هتلر حتى ولو خلال عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣، وشك القواد الأمريكىون فى بريطانيا فى أن تكون لها أقدام باردة عندما تصل إلى القضاء على الجيش الألمانى فى أوربا الغربية.

وعندما تصل إلى نهاية الحرب اكتشف كثيرون من الأمريكىين المتميزين اثنين من البريطانيين فى خلاف مع بعضهما بعضاً. وفى إبريل عام ١٩٤٢ أخبروا لترليمان - صاحب العمود فى جريدة السيد كنيز (Keynes) - أنه يوجد فى أمريكا شعور قوى بأن بريطانيا فى شرق السويس تختلف تماماً عنها فى الداخل، وأن الحرب فى أوربا هى حرب تحرير، وأن الحرب فى آسيا هى حرب دفاع عن المزايا القديمة^(١٥). ولقد كان لييمان على حق رغم أنه عندما كان يكتب المزايا القديمة للنظام الاستعمارى القديم الذى كاد ينزوى. وكان قد انقلب بشكل طبيعى فى ظروف مشينة عندما سقطت سنغافورة، وتآكلت مؤسساتها الأخلاقية بسبب النقد العام فى بريطانيا والولايات المتحدة.

إن الرأى العام البريطانى مثل الرأى ضد الاستعمار الأمريكى جعل من المستحيل على الحكومة البريطانية أن تضع عقارب الساعة إلى الوراء، وعلى هذا فإن حكام الإمبراطورية عرفوا أنه بالنسبة للمستعمرات لكى تحيا فى عالم ما بعد الحرب، فإنهم سوف يتخلفون عن المبدأ الأساسى " تأتى تعرف أفضل " وبدلاً من ذلك تتجاوب مع آمال رعاياها.

وقد أدلى اللورد هيلى بنقطة فى مجلة سبكتيتور (Spectator) فى ١٧ مارس عام ١٩٤٢، وناقش فيها مصاعب ومشاكل استعادة الحكومة الاستعمارية فى الشرق الأقصى. وفى أوائل عام ١٩٤٥ أشار اللورد لوجارد وهو فى سن الثامنة والثمانين حينذاك إلى الروح الجديدة فى الخارج وفى العالم وقال: " إن روحاً جديدة على وشك الحدوث، وإنه من واجب بريطانيا أن توسع مستعمراتها وهذه الحريات الأساسية التى من أجلها تم شن الحرب، إنها الآن اللحظة التى تبدأ المستعمرات فيها وضع أسس الحكم المحلي^(١٦).

إنها تقول الكثير عن التغير فى الآراء خلال الحرب فإن جندياً محنكاً من حملات الملكة فيكتوريا الإمبريالية ومهندس الحكم غير المباشر قد تبنى الأفكار التى يتعرض تطبيقها العملى على حل الإمبراطورية الاستعمارية، ومع ذلك فإن تحول لوجارد لم يكن مدهشاً بشكل كلى بسبب طبيعة الإمبراطورية.

لقد مرت بعدة تغيرات خلال حياته، وإذا وجدت فلسفة إمبريالية فهى أن الإمبراطورية كائن حى متطور، ومع عام ١٩٤٥ كان هناك اتفاق فى الرأى عن الاتجاه الذى يجب أن تسير فيه الإمبراطورية، وإن المستعمرات ستتحول ببطء إلى دومنيون يُحكم ذاتياً حينما يكون هذا التغير قابلاً للتطبيق ولقد تعهد حزب العمال بنفسه للحكم المحلى الهندى، ووعد بنفس الشيء للمستعمرات مع توضيح أنها تحتاج إلى البقاء تحت الرقابة البريطانية لفترة طويلة قادمة^(١٧). وقد وضع هيربرت موريسون الوزير العمالى هذا بشكل واضح وقال " إن الاستقلال غير الناضج للمستعمرات يُعد حماقة تساوى تسليم مفتاح بمزلاج أو حساب بنك وبنديّة صيد لطفل يبلغ من العمر عشر سنوات^(١٨).

لقد عدلت الدعاية الإمبريالية حسب الحالة الجديدة فى بريطانيا مع استمرار الإمبريالية حسب الحالة الجديدة فى بريطانيا مع استمرار الجانب الدفاعى، وبالنسبة لكثير من الناس فى هذه الأيام فإن كلمة (إمبراطورية) أصبحت ذات مردود كره، فهى تذكرهم بأفكار النازى عن الجنس السيد لحكم الآخرين والتي وزعت مذكرة استشارية بذلك صدرت من إدارة تعليم الجيش فى أبريل عام ١٩٤٤^(١٩).

إن تعليم الجنود حول الإمبراطورية والدور الحيوى الذى يجب أن يقوموا به فى عالم ما بعد الحرب، كان من أهم واجبات معلمى الجيش منذ نهاية عام ١٩٤١^(٢٠).

ويجب أن نذكر الطلاب أنه لى تكون جزءاً من الإمبراطورية هو أن تكون عضواً فى أسرة قوية عظيمة على نطاق واسع فى العالم بدلاً من أن تكون مواطناً فى دولة صغيرة ضعيفة، وفى نفس الوقت تم تشجيع الذين يلقون محاضرات عن إلغاء الأسطورة للإمبراطورية بأن معظم الوطنيين غير متعلمين، وأن نعظم ونمجد مواهبهم مثل رجل الحرف، وحساساً بالتناغم والالتزان.

وقد صارت شعوب المستعمرات الآن شركاء مع بريطانيا التى حمتهم وحافظت عليهم ضد الاستغلال فى المشروعات الخاصة وساعدتهم على التقدم نحو الرخاء والاستقلال.

ولقد تم شرح الطريق إلى الأمام فى صورة بسيطة أظهرت أحد الوطنيين معه حزمة ضخمة من عيدان الكبريت على رأسه وهو يسير نحو كوخ من القش يحتوى على امرأتين ولا يوجد به أى أثاث، وفى المقابل يوجد بيت من طابق واحد يحتوى على سرير ومجموعة من الأدراج وفى الخارج نفس الشخص يحمل حملته على ظهر دراجة^(٢١).

لقد انتهى عصر الاستعمار الحسن وعصر الإحسان، ومثل بريطانيا فإن الإمبراطورية تتحرك إلى عهد جديد وأفضل والتي تكون فيها رفاهية رعاياها ذات أهمية كبرى، إن الإمبراطورية قد أصبحت جديدة وتخلصت من سحرها القديم، ورغم هذا كان من الضروري أن تقدم بريطانيا إمبراطوريتها بطريقة تظهر أن هناك مكاناً للاستعمار الإنسانى فى عالم الألفية الذى من المأمول أن يبرز بعد الحرب.

ليس على بريطانيا أن تقنع الولايات المتحدة أن الإمبراطورية كانت قوة الصالح العام، حيث إنها لابد أن تحافظ على المساعدة الأمريكية لأجل الدفاع عن الهند لإستعادة مستعمراتها فى الشرق الأقصى، وكان كلاهما هدفاً عسكرياً ثانوياً، وفوق كل قدرات بريطانيا.

وقد كانت موارد الحلفاء وإستراتيجيتهم فى المنطقة فى أيدى قيادة جنوب شرق آسيا (SEAC) التى تأسست فى صيف عام ١٩٤٣، وبسرعة حملت الاسم المستعار " أنقذوا المستعمرات البريطانية الآسيوية من خلال السخرية الأمريكية "، وكان على قيادة جنوب شرق آسيا مهمة إحياء كرامة بريطانيا فى المنطقة، وكان تشرشل شاذاً أو يدعى إلى النقاش والجدل، وكان نائب وزير البحرية لويس مونت باتن فى سن الثالثة والأربعين عام ١٩٤٣ وكان سجله الحربى جيداً وقضى فترة رفعت قدره فى القرن الثامن عشر، وكان الابن الأصغر لأمير ألمانى ومثل أقرانه كان عضواً فى أسرة تنتمى إلى عصر الملكة فيكتوريا.

وحدد لنفسه عملاً مهماً فى الأسطول الملكى، وكان الابن طموحاً ومغروراً وجاذاً فى العمل، رغم أن اهتمامه بواجباته لم يمح تماماً شهرته كلاعب، أما بالنسبة لتشرشل فقد كان مونت هو الشخصية المثالية كما كان أساس حملة إمبراطورية، وقبل سنوات تبنى الشخصية المالية ولما كان

تشرشل يعجب إعجاباً عميقاً بـ ل. ث. ي. لورانس الذى اعتبره هو والكثيرون البطل الحقيقى للإمبراطورية وربما الأخير.

وقد أثر رحيله فى عام ١٩٣٥ بشكل حزين على تشرشل الذى تأسف بعمق على فقدان موهبة لا تقدر بمال فى حرب أخرى، وظل تشرشل يبحث دائماً عن لورانس آخر، وقد أعجبه أودى ونجت، ولكن ليس لفترة طويلة وكان ونجيت يقود وحدات ما وراء الخطوط (شين ديت)^(٢٢).

وأخيراً وقع اختياره على مونت باتن الذى لم يمتلك خيال وذكاء لورانس بل كانت لديه نظرات جيدة جريئة واجتهاد ونزعة لإبراز رجولته، وقد وافقت الولايات المتحدة على تعيين مونت باتن لأنه كان أقل عنفاً وأكثر ديمقراطية من الجنرال أو الأدميرال البريطانى^(٢٣).

ولقد واجه كفاحاً كبيراً ضد اليابانيين والأمريكيين، وقد تطلبت كل العمليات الهجومية فى (SEAC) موافقة وتصديقاً أمريكيتين.

ولقد واجه الجنرال السير هنرى بوتال الموقف بصراحة وهو رئيس فرقة مونت باتن فى أبريل عام ١٩٤٤.

"لقد أخذنا الأمريكيون بالشعر القصير، ولن نستطع أن نفعل أى شىء فى هذا المسرح سواء فى البر أو البحر أو أى شىء آخر بدون المساعدة المادية منهم... ولهذا فإنهم إذا لم يوافقوا فإنهم لن يقدموا شيئاً"^(٢٤)

لقد كان نفس الشىء فى البحر المتوسط فى عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ عندما كانت القيادة الأمريكية العليا مترددة جداً فى إرسال طائرات هبوط وطائرات حربية إلى الجبهة الإيطالية التى كانت تعد ذات أهمية ثانوية فى المحيط الأطلسى.

وفى منطقة (SEAC) وضعت الولايات المتحدة آمالها الكبرى على جيش شيانج كياشيك الوطنى، واتباع القضية الأفضل بدلاً من استعادة المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية، وعلاوة على ذلك صورت الخطط الأمريكية فيما بعد الحرب الصين على أنها كانت القوة الإقليمية الكبرى فى الشرق الأقصى، وافترضت أنها سوف تتولى القيام بمسؤوليات كبرى للحفاظ على السلام، وكان شيانج رئيس الوحدة حتى استبداله فى أكتوبر عام ١٩٤٤م يكره الإنجليز وضد ستيل ويل (STIL WELL) المعارض للاستعمار والذى كان يكره الإنجليز أيضا وبشكل علنى كان مونت باتن فى أوقات متعددة متهمًا بأنه ولد مفتون، وهاو وحمار أحرق، ومجنون بشكل عام، وكان رجال وطنه منافقين ومستعدين لبذل ما فى وسعهم لقطع رقابنا يصرحون بذلك فى كل المناسبات^(٢٥).

ولقد كانت عمليات ستيل ويل (Stilwell) لسد الفراغ عملاً واضحاً يدل على الشك الأمريكى حول أهداف فترة الحرب فى بريطانيا، وفى الشرق الأقصى، وكانت هذه متناقضة مع مثاليات الحلفاء دون مزيد من الخيال، ورغم وحشية الحكم اليابانى كان استراد بورما والملايو يصور على أنه تحرير، وقد أتاحت لبريطانيا الفرصة لامتلاكهما من جديد.

وأعلن روزفلت فى ديسمبر عام ١٩٤٣ أنه ينوى استكمال حكم الهند الصينية من خلال لجنة دولية أفضل من أن تصمم مثل هذه الترتيبات إلى مستعمرات بريطانيا السابقة، وكان تشرشل عنيدا وصلبا عندما يثار موضوع الإمبراطورية بعد الحرب، ويدعم قوى كل الحزب مع خليفته أتللى (Attlee) حجر الزاوية فى مؤتمرات بالتا وبوتسدام عندما تحركت المنافسات نحو شكل ما من الرقابة الدولية على المستعمرات الأوروبية.

ولقد انزعج الأمريكيون أيضا من سياسة بريطانيا في اليونان، حيث إنه خلال عامي ١٩٤٤، ١٩٤٥ دعمت القوات البريطانية الفصائل ضد الشيوعية فيما يشبه طلب بالمرستون للحفاظ على رقابة كاملة على شرقي البحر المتوسط، وعندما تحولت الحرب خلال عام ١٩٤٤، يبدو أن بريطانيا التي صارت أخيرا بطل الديمقراطية والحرية قد تحولت إلى أسد جائع من العصر القديم يريد النصيب الأكبر مما هو متاح.

وكان النقص والعجز في رأس المال الكافي لشن الحرب أبطأ من قدرات الأسد في الشرق الأقصى، وكانت الهند قد صارت آمنة بسبب المعارك في كوهيما وإمفال في مارس ويونيه من عام ١٩٤٤، وقبل ذلك بثمانية شهور ضغط تشرشل من أجل عملية كولفرن (Culverin) وهي النزول على سومطرة التي ستكون قاعدة للهجوم على سنغافورة، لكن تأخرت العملية، لأن نظر تشرشل قد اتجه نحو مشروع خيالي وهمي هو طرد الألمان من جزر الدوديكانيز، والتي تصور أنها ستدفع تركيا إلى الحرب كحليف، لكن هذا الأمر صار تحت رحمة الأمريكيين الذين أرادوا بشكل صحيح الحفاظ على القوات المتمركزة للغزو الوشيك على فرنسا، وقد واصلت الجبهات الأوربية التمتع بالأسبقية والسيادة على الشرق الأقصى، وفي أكتوبر عام ١٩٤٤ علم مونت باتن أنه لا يمكن التخلي عن أي قوات للهجوم البحري على رانجون.

وفي شهر فبراير عام ١٩٤٥ تم السماح للتقدم نحو أرجون، وتبع ذلك نزول بحري واسع النطاق على سواحل سنيام والملايو ما بين يونيه عام ١٩٤٥ ومارس عام ١٩٤٦، تحت اسم روجر وزيفر وميلفست (وهناك شعر خاص حول الألقاب التي أعطيت للعمليات في الحرب العالمية الثانية وأصولها ومنظمتها، وهو يستحق دراسة وثيقة قوية) وكما هي الحال تحولت

كل من زيفر وميلفست إلى مشروع غير دموى وفي كل مكان منذ أواسط عام ١٩٤٢ كانت اليابان تحارب معركة دفاعية خاسرة، حيث فقد الأسطول الياباني الإمبراطوري استعداداته ومبادراته في ميدوى (Midway)، ورغم الجهود المعقولة فشلوا في استعادة أى شىء فى العامين التاليين، ومع حلول شتاء ١٩٤٤، ١٩٤٥ حافظت القوات الأمريكية على جزر روكيا (Ryukyu) وإيوجيما وأوكيناوا، واستمرت الغارات الجوية المكثفة فى مارس من جانب القوات الأمريكية بطائرات ضد المدن اليابانية، وفى يونيه عام ١٩٤٥ وفى أقل من شهر بعد هزيمة ألمانيا تم إعداد خطة مفصلة لغزو اليابان، وكانت وحدات من ثلاث عشرة أو أربع عشرة فرقة تهاجم كويوشو (Kyuugu)، وفى نوفمبر من عام ١٩٤٥، وأيضًا كانت خمس وعشرون فرقة من قوات الكومولث ستنتزل فى هوتشو فى مارس عام ١٩٤٦، وهى تتزامن مع الاندفاع النهائى نحو الملايو.

وبالفعل لم تلعب بريطانيا دورًا حقيقيًا فى حرب الباسفيكى، ولكن ما إن أصبحت هزيمة الألمان وشيكة حتى أوفى تشرشل بوعده لأستراليا، وبدأ يحرك السفن للانضمام إلى أسطول الولايات المتحدة، ومع حلول صيف عام ١٩٤٥ كان يعمل نحو مائة رجل من رجال الكومولث والبريطانيين فى المياه اليابانية.

ولم تكن السياحة للسفن ولا الخطط الموسعة للهبوط والنزول على أرض اليابان الأساسية ولا الملايو، وفى السادس من أغسطس تم إسقاط قنبلة ذرية على هيروشيما وبعد ثلاثة أيام تم إسقاط قنبلة أخرى على نجازاكي، وقد تمت هذه الضربات مع إعلان روسيا الحرب وأعلنت الحكومة اليابانية الاستسلام دون شروط فى الخامس عشر من أغسطس، وصار الطريق الآن مفتوحًا لبريطانيا لكى تسترد مستعمراتها وأن تساعد الفرنسيين والهولنديين فى استعادة مستعمراتهم.

وسقطت رانجون فى الربيع وفى التاسع من سبتمبر نزلت القوات الهندية والبريطانية فى الملايو، وبعد ثلاثة أيام تم الاستيلاء على سنغافورة دون قتال.

وبينما كان القواد اليابانيون يلقون أسلحتهم وصفوا مونت باتن بأنه يشبه مجموعة من الـ (gorillas)، وفكر لى كون يوى (yew) رئيس وزراء سنغافورة مستقبلا فى اللحظات الحاسمة والعظيمة فى تاريخ جنوب شرق آسيا^(٢٦).

وهل كانت هذه واحدة من أعظم اللحظات فى تاريخ الإمبراطورية؟ ربما لا لأن البريطانيين قد عادوا إلى الملايو على نيول معطف الأمريكيين، ورغم هذا فإن الحكم البريطانى كان مفضلا بشكل ما لليابانيين، وقدلقى الجيش ترحيبا حارًا رغم أن أحد الصحفيين كان خجولا عندما لاحظ الإدارة (blundering) قد شجعت (Recrudescence).

ولم يكن هناك شيء (Stuffy) عن الجنود فى جيش التحرير، حيث إنهم كانوا يرتدون بشكل غير منظم وكانوا (Sloppy) فى تحية أسيادهم، وهذا ما يزيد من مضايقة مونت باتن^(٢٧).

وربما كانت طريقتهم للقول وداعًا للكل، لأن الحرب قد انتهت، فقد عاشت الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب دون أن تخسر المنطقة رغم إهانة ودمار لكرامتها التى بقيت منذ ميونخ، وكان من المستحيل حصر الخسائر، إن التكلفة البشرية للنصر كانت أقل كثيرًا من عام ١٩١٨ وكانت الخسائر كالاتي:

مسئ	الدولة	القنطى	المفقودين	الجرحى
١	بريطانيا العظمى	٢٣٣,٠٤٢	٥٧,٤٧٢	٢٧٥,٩٧٥
٢	كندا	٢٦,٠١٨	٢,٨٦٦	٥٣,٠٧٣
٣	أستراليا	٢١,٤١٥	٦,٥١٩	٣٧,٤٧٧
٤	نيوزيلاند	٩,٨٤٤	٢,٢٠١	١٩,٢٥٣
٥	جنوب أفريقيا	٦,٤١٧	١,٩٨٠	١٣,٧٧٣
٦	الهند	٢٣,٢٩٥	١٢,٢٦٤	٦٢,٠٦٤
٧	المستعمرات	٦,٧١٤	١٤,٨١١	٦,٧٧٣

وكانت الخسائر الاقتصادية أثقل كثيراً عما كانت عليه عام ١٩١٨، لأنه كما تنبأ تشامبرلين بأن المجهود الحربى أكل احتياطات بريطانيا حيث جردت من ثلثى تجارة صادراتها قبل الحرب وربع ثروتها المخزونة، وفى ديسمبر عام ١٩٤٥ كان عليها أن تحصل من الولايات المتحدة على قرض قيمته ٣٧٥,٠٠٠ مليون دولار بفائدة ٢% مقابل وعد بأن تحول بعد عام المبالغ إلى الجنيه الذى يصبح قابلاً للتحويل.

إن هذا سوف يعوق التعافى الاقتصادى القائم على الصادرات، ولكن ألغت الحكومة الأمريكية عشرين ألف مليون جنيه من التزامات الإعارة والتأجير.

وهكذا فى عام ١٩٤٥ خرجت بريطانيا من الحرب كدولة مدنية ولديها إمبراطورية (لا تزال الأكبر فى العالم) ولا تزال تتعلق بالادعاءات القديمة كقوة كونية، ولكن عندما قابل تشرشل ستالين وروزفلت فى يالطا (Yalta) شبه أحد الملاحظين الثلاثة بالمنتصرين الرومان الذين تولوا السلطة بعد

موت يوليوس قيصر، وكان ستالين وتشرشل، وأكتافايوس ومارك أنطونيو بينما تشرشل بفضل بلاغته وفصاحته الكل وليس المنسى لبيدوس، وصارت كل من روسيا وأمريكا من خلال قواتهما الحربية والصناعية قوى عظمى تاركين بريطانيا لتحتل مراكز أقل تواضعا.

وكانت الولايات المتحدة فى هذه اللحظة أقوى القوتين العظميين، حيث إنها تمتلك ثلثى احتياطي العالم من الذهب والسيادة فى الأسطول البحرى والجوى، والأهم من كل هذا التكنولوجيا لإنتاج قنابل نووية، ولم تتدمر أنظمتها الصناعية والبنكية نتيجة الحرب، وفى كل الأحوال والأغراض تتمتع بنفس السيادة والعظمة مثلما كانت عليه بريطانيا عام ١٨١٥.

إن الإمبراطورية وحدها هى التى أهلت بريطانيا لاستعراض نفسها كقوة كونية ومستقبلها فى عالم تتحكم فيه وتسيطر عليه دولتان واللذان لأسباب اقتصادية وسياسية غير ملائمة (inimical) والمعارضين للإمبراطوريات الاقتصادية والأيدولوجية، وهذا بعيد عن الإثبات وعلاوة على ذلك فقد وعدت حكومة العمال الجديدة منذ عام ١٩٣٨ بأن تمنح الهند حكما ذاتيا، وكانت مصممة على الوفاء وتنفيذ هذا الوعد، وكان الاستقلال أيضا هو مصير مستعمرات أكبر رغم أنه لا يوجد من يقول طول الرحلة التى يستغرقها ذلك، وحسب شروط المنطق السياسى إذا وجد مثل هذا الموقف النظرى التجريدى فإن بريطانيا قد ألزمت نفسها بالحل النهائى لإمبراطوريتها فيما وراء البحار وبالتالي قوتها الدولية.

وبالطبع فإن النظام الجديد للتفكير حول الإمبراطورية لم يكن ينظر إليه على أنه تذكرة انتحار، فمن المفروض أن المستعمرات القديمة ستصبح دومنيون جديدة وارتباطها مع بريطانيا سوف يحفظها إلى حد ما كقوة يحسب لها حساب فى العالم.

الجزء الخامس

الشمس الغاربة (١٩٤٥ — ١٩٩٣)

(١)

الاستعماريون يشورون

الإمبراطورية فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية

تحدد إلى حدد كبير تاريخ ما اتضح أنه العقود الأخيرة من حياة الإمبراطورية البريطانية من خلال مسار الحرب الباردة. وقد كان ذلك فى شتاء عام ١٩٤٤، ١٩٤٥م، عندما بدء الإستراتيجيون الأمريكيون والبريطانيون يدخلون فى حالة هياج بسبب القوة العسكرية المتنامية للاتحاد السوفيتى فى كل من وسط وشرق أوروبا. وقد انتهى هذا الشعور فى ديسمبر من عام ١٩٨٨م عندما أعلن ميخائيل جورباتشوف (Mikhail Gorbachev) عن التفكير الوشيك لآلة الحرب الروسية فى أوروبا. والحرب الباردة كانت فى بعض وجوها شبيهة بسابقتها، فقد كانت تفصح عن وجود لعبة كبيرة، وهذه اللعبة قد تمت فيما بين كل من بريطانيا وروسيا فى وسط أوروبا طوال فترة القرن التاسع عشر. وقد كان هناك تحد للقوة ومناورات دبلوماسية وجمع للمعلومات الاستخباراتية ودمار جعل كلا الطرفين عصبياً تجاه نبات الطرف الآخر وقدرته على إحداث الضرر. وهنا نجد أوجه الشبه مع السباق الخاص بالحرب الباردة. والأعداء فى كلا المعسكرين كانوا يتوقعون بشكل مستمر أن هدفهم هو الهيمنة على العالم سواء من جانب الشيوعية أو الرأسمالية. بالإضافة إلى أنه بعد عام ١٩٤٩م، عندما قام الاتحاد السوفيتى باختبار لأول قنبلة نووية جعل ذلك هناك دائماً فرصة لحدوث أزمة قد تقود إلى حرب نووية.

لم تبدأ الحرب الباردة فجأة، ولم يكن واضحاً في مراحلها الأولى، بالنسبة لأي شخص إلى متى قد تستمر أو ما المسار الذي سوف تتخذه. وما كان واضحاً لمن هم في لندن وواشنطن أن هناك مسئولية ملقاة على عاتقهم بأن يقوموا بالتخطيط المستقبلي نتيجة قيام روسيا بعد نهاية الحرب بامتلاك إمبراطورية واسعة بشكل غير رسمي.

وقد كانت هناك مخاوف من أن تقوم روسيا بتوسيعها بالوكالة، باستخدام الأحزاب الشيوعية الآخذة في التوسع، قد تأكدت مع اندلاع الحرب الأهلية اليونانية في ديسمبر من عام ١٩٤٤م. وبعدها بأربعة أشهر وصف ماكملان (Macmillan) ستالين بأنه "تابلين آخر"، وهو نفس الاستنتاج الذي وصل إليه الإستراتيجيون الأمريكيون سلفاً الذين، منذ مايو عام ١٩٤٤م، شعروا أن البريطانيين لن يستطيعوا مقاومة الاختراقات الروسية في غرب أوروبا بدون مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية^(١).

كانت الإدراكات البريطانية حول السلوك الروسي المستقبلي تنصب على التهديدات الموجهة إلى الإمبراطورية، وقد رأوا أن هناك شيئاً مزعجاً أثناء النصف الأول من عام ١٩٤٦م، عندما طلبت روسيا إقامة قواعد في ليبيا والدرنديل، ورفضت الانسحاب من شمال فارس (إيران). والهجمات الروسية على السياسة البريطانية في كل من البحر المتوسط والهند وفارس والهند الشرقية الهولندية (Dutch East Indies) في أثناء أول اجتماع للأمم المتحدة في فبراير من عام ١٩٤٦م قد أزعج وزير الخارجية، إيرنست بيفن (Ernest Bevin)، أن روسيا "تتوى تدمير الإمبراطورية البريطانية". وقد تبنى المخططون العسكريون الأمريكيون نفس النظرة، الذين كانوا ينظرون إلى الإمبراطورية في ذلك الوقت على أنها مصدر قوة مهم فيما قد يستجد من تطورات في المواجهة العالمية الطويلة^(٢).

كان التضامن الإنجليزي- الأمريكي فى ذلك الوقت أكثر أهمية مما كان عليه فى فترة الحرب. وهذه النقطة قد أكد عليها تشرشل بشكل قوى فى خطابه المشهور باسم "الستار الحديدي" والذى ألقاه أمام الرئيس الأمريكى هارى ترومان (Harry Truman) فى فولتون بولاية ميسورى، فى فبراير عام ١٩٤٦م. وحاجة أمريكا لبريطانيا كحليف فى مواجهة روسيا الحاقدة قد ساعد على تحسين توجهات واشنطن نحو الإمبراطورية. وقد كانت هناك علامات التغيير فى هذه التوجهات فى شتاء عام ١٩٤٤-١٩٤٥م، بعد أن خفف روزفلت (Roosevelt) من اعتراضاته على إعادة استحواذ فرنسا على الهند الصينية. وقد كانت هناك حركات مقاومة شيوعية معادية لليابانيين فى هذه المنطقة (حركة هو تشي منه المسماه فيت منه (Ho-Chi-Minh's Viet Minh) وكذلك فى الملايو (Malaya). وكل منهما كان يتعرض لاحتمال كبير للتدمير، ولذلك فقد كان هناك قصد سياسى من السماح بإعادة احتلال كل المستعمرتين بواسطة الدولة الاستعمارية السابقة لهما. وقد يعقب ذلك تفكيك الاستعمار، ولكن تركت هذه العملية لاختيار كل من بريطانيا وفرنسا، الذين سوف يقومون بالتعامل مع الشيوعيين المحليين قبل نقل السلطة إلى جماعات أكثر انقيادا. وأول مناوشة من مناوشات الحرب الباردة كانت فى الحرب حول سايجون (Saigon) أثناء شتاء وربيع عام ١٩٤٥، ١٩٤٦م، عندما قامت القوات الإنجليزية- الهندية المشتركة بتأمين المدينة استعدادا لعملية إنزال للجيش الفرنسى. وقد تم تسليح قوات POWs اليابانية والتى لعبت دورا حماسيا فى العمليات الموجهة ضد الموالين لفيت مينه^(٣). وقد غضب الجنرال دوجلاس ماك آرثر (Douglas MacArthur) من الاستعانة المعيبة بالأعداء القدامى ضد الأصدقاء القدامى، فمن الواضح أنه كان ما زال مدركا للنمط الجديد من الولاءات والتحالفات التى ظهرت على طول العالم.

وقد كانت الحرب الباردة مثاراً لارتباك الحكومة العمالية، ليس فقط لأنها عملت ككابح لإعادة البناء الوطنى حيث تم توجيه الموارد الضئيلة لعملية إعادة التسليح. وقد فاز حزب العمال بانتخابات عام ١٩٤٥م ببرنامج طموح وقد كان شعاره، دعونا نواجه المستقبل، وهذا يمثل خطة كبيرة نحو تنفيذ ثورة اجتماعية واقتصادية قد أريد منها خلق قدس جديدة فدولة الرفاهية تأخذ على عاتقها تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاهتمام بالتعليم، على أن يتم إحياء الاقتصاد من خلال نظام مختلط بين الملكية العامة والإدارة من خلال الحكومة البريطانية والمشروعات الخاصة. والفلسفة التى تأسست عليها هذه السياسة، والتى هيمنت على السياسة فى بريطانيا حتى بداية الثمانينيات، عندما بدأت مارجريت تاتشر (Margaret Thatcher) ثورة جديدة لم تنته بعد ارتكزت على القيم المرتبطة بالسوق الحر بدون أى عوائق. وهنا فإن المؤيدين، مثل مؤيدى حزب العمال فى عام ١٩٤٥م، ذوى ميول يوتوبية يعتقدون أنهم قد اكتشفوا نظاماً مثالياً يودى إلى تحقيق الرضاء والرفاهية العامة.

وقد كانت الإمبراطورية قضية هامشية فى انتخابات عام ١٩٤٥م. وقد أكد البريطانيون على أنهم سوف يمنحون الحكم الذاتى للهند، ولكن عندما قام جورج أورويل (George Orwell) بإثارة هذه القضية فإنه تعرض هو والقضية للتجاهل السياسى^(٤). وقد قام طلبة غرب أفريقيا الذين يدرسون فى بريطانيا، والذين طالما سمعوا خطاباً حماسياً من سياسى حزب العمال، خاصة الجناح اليسارى من الحزب، بإلقاء انفسهم فى معمة الحملة آملين أن فوز حزب العمال سوف يقرب من استقلال بلادهم. ولكنهم أصيبوا بالإحباط، وفى غضون سنوات قليلة اكتشفوا أنه من المستحيل إيجاد فروق فيما بين حزب العمال وحزب المحافظين فيما يتعلق بالسياسات الاستعمارية^(٥).

وقد كان هذا غير عادل ولكنه مفهوم. فبسبب وضع حزب العمال جل تركيزهم على بناء قدس جديدة فى بريطانيا فإنهم كانوا مشغولين عن إنشاء قدس أصغر فى كل مستعمرة من المستعمرات. ولذلك فإن الهدف الأساسى من السياسة الاستعمارية لحزب العمال لم يختلف كثيرا عن النمط القديم من الإحسان الذى كانت تقدمه الاستعمارية (Imperialism). والعدالة الاجتماعية برزت وكأنها القضية الأهم والتي تعلوا على مسألة الحكم الذاتى. وقد أعلن كريش جونز (Creech Jones) "فقد كان فى كينيا حضارة للجنس المهيمن، مدعومة بالعمالة الرخيصة، وهذا النوع من المجتمعات لا يطاق" على الرغم من أنه قد حظى على منصب وزير المستعمرات منذ عام ١٩٤٦م وما بعده فإنه لم يقم سوى بتغييرات طفيفة^(٦). لكنه أخاف المستعمرين البيض فى أفريقيا الذين قد تنفسوا الصعداء عندما فاز حزب المحافظين بالانتخابات العامة فى أكتوبر من عام ١٩٥١م^(٧).

لقد تم وضع الخطوط العامة للسياسات الاستعمارية لحزب العمال أثناء وقبيل الحرب. وأخذت عملية إعادة البناء الاقتصادى والاجتماعى الأولوية على مشروعات الحكم الذاتى، على الرغم من أن الاثنين متكاملين.

والمشكلة هى أن المستعمرات البريطانية الاستوائية كانت فقيرة ومتخلفة. وكشفت لجنة التحقيق التى تجولت فى الهند الغربية فى فترة قصيرة قبل الحرب عن وجود مثل هذا التخلف، فمعدلات الأمية كانت تتراوح ما بين ٦٠-٧٠ فى المائة، والأمراض التناسلية كانت منتشرة والمalaria كانت بمثابة الوباء. فواحد من كل أربعة عشر من سكان الدومنيكان (Dominican) (ويرجع ذلك بوضوح إلى زراعتها للحمضيات وصناعة طوابع البريد الملونة) كان مصابا بالأمراض المعدية، ومتوسط الدخل السنوى للفرد خمسة عشر جنيه إسترلينيًا. وقد كان إصلاح مثل هذا الضعف الاقتصادى والصحى هو

موضوع قوانين التطوير الاستعماري في الفترة من (١٩٤٠-١٩٤٥م)، هذه القوانين أتاحت تقديم المنح والقروض لبناء الطرق والكبارى والمستشفيات والمدارس والعيادات الطبية ومحطات مياه الشرب. وقد رأى البعض أن وجود بنية تحتية- قوية قد يمهد الطريق أمام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية. وقد كان من البدهى أن المستعمرات يمكن فقط أن تقوم بحكم نفسها إذا كان لديها من الوسائل التى تستطيع أن تدعم به نفسها. وقد تم توزيع مبلغ ٥.٤٠ مليون جنيه إسترليني في الفترة ما بين عامى (١٩٤٦-١٩٥١م) على هذه التحسينات، ولكن أثناء نفس الفترة أصرت وزارة المالية على إيداع مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه إسترليني الذى حازته المستعمرات من تجارتها الخارجية فى لندن وذلك لدعم الاحتياطي البريطانى. وقد كان هذا وضعا لا عقلانيا، فالمستعمرات كانت تمنح مبلغا صغيرا من نفقات الحكومة فى حين أن ثروتها الحقيقية ظلت معطلة فى لندن.

وقد اجتمع غباء وزارة المستعمرات مع عناد وزارة المالية على ذلك. وأدت الخطط الممولة من الدولة من أجل الإنتاج الضخم للبيض فى جامبيا (Gambia) والفول السودانى فى تنجانيقا (Tanganyika) إلى مأس بسبب الإعداد السيئ والإدارة السيئة. والمشروع الأخير قد استهلك حوالى أربعين مليون جنيه إسترليني، وقد تم منح سكان تنجانيقا ١١٠٠٠ فدان من الأراضى الزراعية، وثلاث مزارع للماشية ومزرعة للطباق. وهناك مغامرة أخرى ممولة من قبل الحكومة، لجنة التنمية الاستعمارية، التى أغرقت المستعمرات بالمصائب وأدت إلى خسائر كبيرة لدافع الضرائب. وقد كان هناك سببان يكمنان فى تفكير حزب العمال أديا إلى هذه الكوارث. السبب الأول هو الاعتقاد الدوجماتيقي أن الاستثمار الخاص فى المستعمرات كان معادلا للاستغلال، فى حين أن المشروعات التى تقام تحت إشراف الدولة لا تشهد مثل هذا الاستغلال. السبب الثانى، أنه كان هناك إحساس بأن التنمية

المخططة بعناية لإنتاج المستعمرات، خاصة في المواد الغذائية، سوف يؤدي إلى توفير الكثير من الدولارات. وأن ذلك يجعل بريطانيا قادرة على استيراد الأطعمة بدون استنفاد احتياطياتها المهم من الدولار، وصادرات المستعمرات هي التي سوف تحل هذه المعضلة. وفي النهاية لم يستفد أحد، وفي المستعمرات ساد شعور بأن اقتصاداتهم يتم التلاعب بها ببطء من أجل إثراء بريطانيا. وقد كانت هذه مسألة حقيقية، ولكن المدافعين عن المشروعات الاستعمارية للحكومةذكروا أنها كفيلة في نفس الوقت بإثراء المستعمرات المشاركة فيها.

وقد ترافق إخفاق المشروعات في إفريقيا مع سلسلة من الأزمات الداخلية والدولية. ففي عام ١٩٤٨م دخلت الحرب الباردة إلى مرحلة جديدة وخطيرة مع ضم روسيا لتشيكوسلوفاكيا، وإقامة جدار برلين وبداية حملة حرب العصابات الشيوعية في الملايو.

وقد كانت بريطانيا والإمبراطورية قد تعهدت مسبقا بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية، والتي، وفقا لمبدأ ترومان الذي أطلقه في عام ١٩٤٧م، تقاوم المزيد من التوسع السوفيتي، سواء كان ذلك في شكل اعتداء مباشر أم من خلال التآمر. وبعد عام فإن مساعدات مارشال بدأت في التدفق إلى غرب أوروبا لمساعدة الاقتصاديات والسكان الذين إن لم يتلقوا المساعدة فسوف يسقطون بسهولة في يد الشيوعية.

لقد جعلت الحقائق الاقتصادية والعسكرية القاسية لعالم ما بعد عام ١٩٤٥م بريطانيا تهبط إلى منزلة الشريك الأصغر لأمريكا. فبعد لقاء مع الرئيس ترومان في يناير من عام ١٩٥٢م، لاحظ إيفيلين شوكرج (Evelyn Shucburgh) أن "لقد كان من المستحيل أن نلاحظ أننا نقوم بدور اللاعب الثانوي"^(١). وأخذ دور الداعم لم يكن سهلاً قبوله على السياسيين في أمة

اعتادت دائما على أن تكون في مركز الأحداث. فقد استمروا في العمل كأنهم صانعو السياسة وأنهم وكلاء لإحدى القوى العظمى. وقد كان أكثر دليل على تقلص توجهاتهم هو قرارهم بالبدا في تصنيع القنبلة النووية.

وبعد انتهاء التعاون الوثيق بين كل من بريطانيا وأمريكا في مجال البحوث النووية في نهاية عام ١٩٤٥م، فإن الحكومة بدأت في إنشاء مصنع لاستخراج البلوتونيوم في ويندسكال (Windscale) عند ساحل كامبرلاند (Cumberland)، والتي تمت إعادة تسميتها سيلفيلد (Sellafield) بعد وقوع حادث مأساوي في عام ١٩٥٧م. وفي نفس الوقت فإن وزارة الطيران كانت تخطط لإقامة مجموعة من الطرق الجوية الإستراتيجية تتخلل كل أنحاء الإمبراطورية وتربط بين سبعة وعشرين مطارا تم بناؤها لكي تلائم عمل قاذفات القنابل الثقيلة جدا^(١٠). وعلى الورق، فإن ذلك بدا مؤثرا للغاية كمثيله في العصر الفيكتوري، حيث تم بناء سلسلة كبيرة من القواعد البحرية ومحطات التزود بالفحم في جميع أنحاء العالم. وأحد المطارات التي كان ينتوى بنائها في كراتشي، كان واحداً من تلك المطارات التي خصصت من لجنة التكنولوجيا الحربية المشتركة لشن غارات بقنابل نووية على سبع وستين مدينة روسية في خطة ضرورية تم تقديمها في أبريل من عام ١٩٤٦م^(١١). وقد كان ذلك بمثابة وضع العربدة أمام الحصان بالنسبة لحكومة كانت قد وافقت للتو على برنامج لصناعة القنابل النووية. وقد تم منحها الإنز في أكتوبر التالي بواسطة أتلي (Attlee)، وهي لجنة صغيرة مكونة من الوزراء الرئيسيين ومستشاريهم من التكنوقراط. وقد كان رئيس الوزراء قلقا من أن تقوم الولايات المتحدة في أي وقت في المستقبل بالعودة مرة أخرى لسياسة العزلة المعتادة لها، وتترك بريطانيا وحدها في مواجهة الجيش الأحمر. وقد كان إيرنست بيغن، وزير الخارجية آنذاك، غاضبا للغاية من التوجه المتبسط الذي أبداه نظيره الأمريكي معه، وقد كان مصرا على أن

يملك السلاح الذى يؤهله هو ومن يخلفه فى منصبه لكى يتحدثوا كممثلين لقوة عالمية عظمى^(١٢). وقد أصبحت القنبلة النووية هى معادل منتصف القرن العشرين لأسطول المدرعات، وأصبحت الرمز الذى يميز اكتساب القوة الدولية لمثل هذا الوضع.

فمن خلال تشبئه ببلونت (Blunt) فى خطابه وجون بوليش (John Bullish) فى سلوكه، لم يكن لدى بيفن أى شك فى أنه وزير خارجية لقوة عالمية وقد تصرف بناء على ذلك.

وقد كان الفهم العام لقائد نقابات العمال السابق المتنسم بالعنف والمشاكسة متأثرا بواسطة القادة العسكريين والدبلوماسيين^(١٣). وقد كانت هناك لوحة لجورج الثالث معلقة على مكتبه، وكان هناك أوقات ظهر فيها وكأنه مدفوع بروح بالميرستون (Palmerston)، الذى كان يكن له الإعجاب^(١٤). وقد كانت المهمة الرئيسية لبيفن هو أن يتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية فى وضع حاجز على الدول التابعة لهما فى كل من أوروبا والشرق الأوسط وآسيا، حاجز يكون من القوة بحيث يستطيع صد روسيا. وأول ارتباط، وهو معاهدة حلف شمال الأطلسي (الناتو) كانت قد أنجزت بحلول عام ١٩٤٩م لكى تضمن أمن غرب أوروبا.

ورأى رجال الإستراتيجية فى كل من أمريكا وبريطانيا أن الشرق الأوسط هو المنطقة الملائمة للغزو والتغلغل السوفيتي. وقد كان له أهمية مزدوجة فى الحرب الباردة. فمنذ نهاية عام ١٩٤٧م، فإن خطط الحرب الأمريكية اعتمدت على قواعد الشرق الأوسط فى ضربة نووية ضد القلب الصناعى لحوض الدون (Don Basin)^(١٥). ثانيًا فإن حقول البترول فى الشرق الأوسط كانت بمثابة المصدر المتفق لتلبية الطلب على البترول، خلال عامي ١٩٥٠، ١٩٥١، وبعد فترة من النمو السريع، فإن حقول البترول هذه

كانت تنتج ٧٠ في المائة من الاحتياجات الغربية. وقد كانت بريطانيا تقليدياً هي القوة المهيمنة في هذه المنطقة، وخلال الأربعينيات فإن أمريكا كانت تجهز لتعزيز هذا الوضع لفترة من الزمن وذلك بسبب الضرورة ليس إلا. وفي الفترة من عام ١٩٤٩، ١٩٥٠م، فإن قواد البنجاجون قدروا أنه، في حالة حدوث حرب كونية، فلن يكون هناك بديل عن وجود قوات أمريكية هناك لمدة لا تقل عن عامين، ونفس الوضع بالنسبة للقوات البريطانية وقوات الكومنولث وعلى السفن والطائرات أن تكون قريبة من هذه المنطقة.

وكانت إمكانية تحملهم مثل هذه المسؤولية موضع تساؤل. ففي عام ١٩٤٦م انزعج أتليه (Attlee) من تكاليف الوجود البريطاني في البحر المتوسط والشرق الأوسط، وكان يفكر في الانسحاب منهما على نطاق واسع، إلا أن بيغن قد أثناه عن هذه الرغبة، لأنه كان يرى أن الروس سوف يدخلون إليها بمجرد أن يغادر البريطانيون. وكبار القواد الذين ألقوا بنقلهم خلف وزير الخارجية، وهددوا بالاستقالة في حالة القيام بأى انسحاب. وفي بداية يناير من عام ١٩٤٧م تم إسقاط أتليه^(١٦). ففي خلال عام واحد فإن حكومته قد أجبرت على قطع المساعدات التي تقدمها إلى كل من اليونان وتركيا، وأخرجت قواتها خارج فلسطين. وتكمن المشكلة في أن بريطانيا لم تعد قادرة على انتهاج سياسة خارجية طموح بناء على الموارد المالية الضئيلة، وعلى ذلك فإن الدولة قد اضطرت إلى تخفيض سقف سياستها الخارجية بحلول عام ١٩٤٧م. وبعد عامين، في ظل اندلاع أزمة العملة وتخفيض قيمتها، فإن ميزانية الدفاع انخفضت إلى ٧٠٠ جنية إسترليني في السنة.

وقد كان النقص في الرجال كبيراً أيضاً مثله مثل النقص في المال. فمع نهاية الحرب، كان هناك ٢٠٠٠٠٠ من القوات البريطانية والهندية منتشرة في مناطق الشرق الأوسط.

كان نحو نصف هذا العدد شبه أعزل (حامية قاعدة قناة السويس كانت تبلغ ٨٠٠٠٠ فى عام ١٩٤٨م) والصديق القديم، الجيش الهندى، كان قد اختفى بحلول أغسطس من عام ١٩٤٩م، عندما استقلت كل من الهند وباكستان. وفى محاولة لشحذ القوة العاملة فإن الحكومة حاولت عبثا تشغيل القوات الباكستانية^(١٧). وقد كانت محاولة أخرى مجدية أكثر فى تعويض خسارة الجيش الهندى ألا وهو التجنيد الإلزامى الداخلى، وهو الشيء الذى كان يعتبر فى الماضى لا يمكن التفكير به أثناء فترة السلم. وقانون الخدمة الوطنية لعام ١٩٤٧م قد ألزم كل من بلغ الثمانية عشر من العمر بتمضية فترة ثمانية عشر شهرا فى الخدمة العسكرية، وقد تم مد هذه الفترة إلى عامين فى عام ١٩٤٩م عند اندلاع الحرب الكورية.

كان من الممكن إحلال الثكنات الهندية كان يمكن إحلالها بأخرى أفريقية. وفى ديسمبر من عام ١٩٤٩م، قام أتيلى بالطلب من وزارة المستعمرات والعاملين فيها باستغلال الإمكانيات المتاحة فى رفع عدد القوات المسلحة فى المستعمرات الأفريقية. وقد احتاج التقرير الخاص بها إلى عام كامل من أجل صياغته، وقد كان يحتوى على لهجة متشائمة. وهو ما عكس الأحكام المسبقة لمن قاموا بصياغته وكذلك حقائق الواقع. وقد قدر أن أفريقيا يمكن أن تمنح ما يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ جندي، ولكن كان هناك شك من ناحية كفائتهم. فجندي المشاة الأسود كان ذا قيمة محدودة من الناحية المالية لأنه يحتاج إلى وقت أطول فى التدريب، ولن يستطيع أبدا تحقيق نفس الكفاءة العملية مثل نظيره الأبيض. وقد فهم أيضا أن السود غير قادرين على الاضطلاع بالواجبات التقنية سواء فى البحرية أو فى RAF (القوات الجوية الملكية). وأخيرا فإن استغلال السود فى منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط قد يؤدى إلى إثارة البغض السياسى والعرقى، وعليهم أن يكونوا

معزولين عن الوحدات المجنّدة من جنوب أفريقيا^(١٨). واستبدال السود محل الجيش الهندي ظل جزءًا كان محتمل الحدوث من التاريخ الإمبريالي.

كان لدى دول الكومنولث نفور من أن تتحمل جزءًا من عبء الحرب الباردة البريطانية. واستئناف التخطيط الدفاعي المشترك قد لاقى استقبالا فاترا في مؤتمر دول الكومنولث في عام ١٩٤٦م. ومن ذلك الوقت فصاعدا كانت هناك محاولات متكررة لوضع سياسة دعم دفاعي مشتركة ومتبادلة والتي تعرضت للإعاقة نتيجة وجود كل من الهند وسيلان (Ceylon)، حيث كانتا قد أعلنتا حيادهما في الصراع الجارى بين روسيا والغرب. ومنذوب كلا الدولتين قد تم استبعادهما من المناقشات الجارية حول الإستراتيجية الكونية في مؤتمر عام ١٩٤٨م، ومن الإعلانات الخاصة بالخطط البريطانية في الشرق الأوسط التي تم إعلانها في عام ١٩٥١م.

وكانت استجابة دول الكومنولث البيضاء على مطالب تقديم مساعدة معينة مختلطة ومثبطة للهمم. ففي أثناء مؤتمر عام ١٩٤٨م، أوضحت الحكومة العمالية لأستراليا أنه في حين أنها ضد الشيوعية، فإنه ليس لديها الرغبة في أن تكون شريكا في قمع الحركات الشعبية الوطنية، ونفس هذا الاتجاه قد تبنته الهند أيضا. وكان عبء رفع مستويات المعيشة الداخلية هو العذر الذي تم تقديمه في أكتوبر من عام ١٩٤٨م لعدم إرسال تشكيلات عسكرية إسترالية للمساعدة في حرب الشيوعية في الملايو.

أدى النصر الشيوعي الذي حدث في الصين عام ١٩٤٩م وبداية الحرب الكورية إلى تغيير جذري في النظرة الأسترالية. وقد عرض مينيز (Menzies)، الذي قد تم انتخابه في ديسمبر من عام ١٩٤٩م، تقديم قوات برية تعمل في الملايو. ولكن تم رفضها على الرغم من قبول سرب من قاذفات القنابل لينكون. وكما لاحظ أحد المسؤولين في وزارة الخارجية أن

"القوات الأسترالية تمثل مقاتلين رائعين" ولكنهم "يميلون إلى خلق المشكلات في الاوقات التي لا يكون فيها قتال"^(١٩). وإذا أخذنا في الاعتبار أن حملة الملايو كانت بالأساس تعتمد على الاستحواذ على قلب وعقل الصينيين والملاويين، فقد يكون من غير الحكمة إرسال جنود هناك مشهورين بمعاملة السكان المحليين بطريقة فظة.

وبروز التهديد الشيوعي في الشرق الأقصى في الفترة من عام (١٩٤٨م - ١٩٥٠م) من الطبيعي أن يؤدي إلى إزعاج كل من أستراليا ونيوزيلاندا، على الرغم من أن كلتا الدولتين قد تم تهدئتهما في وقت قريب من خلال عقد معاهدة أنزوس (ANZUS)، هذه المعاهدة التي أدت إلى وضع أمن المحيط الهادئ تحت المظلة الأمريكية. وكانت هذه الضمانة للأمن المحلي، كما تأمل الحكومة البريطانية، تقنع كلتا الدولتين بأن يتعهدا بتقديم قوات إلى منطقة الشرق الأوسط. وقد كانت الحاجة إليهما أكثر من أي وقت آخر في عام ١٩٥١م، مع اندلاع أزمة البترول الفارسي (الإيراني) والتدهور السريع في العلاقات الإنجليزية المصرية. وقد كانت استجابتهما فاترة. وقد كانت كل من نيوزيلاندا ورويسيا الجنوبية مستعدتين لتقديم الرجال، مع إعادة العرض السابق بتقديم أسراب من الطائرات المقاتلة من نوع فامبير (Vampire)^(٢٠). وفي حالة حدوث حرب فإن كلا من أستراليا ونيوزيلاندا قد وعدتا في ديسمبر من عام ١٩٥١م، أنهما سوف تقدمان عدد ٢٧٠٠٠ من القوات لحماية كل من مالطة وقبرص ولكن كان إرسالهما لهذه القوات مشروطا بطبيعة الظروف في الشرق الأقصى^(٢١). فالذكريات حول تركهم يلاقون هزيمة منكرة في عام ١٩٤٢م كانت ما زالت قوية في الأذهان. ولم يكن لدى كندا شيء لتقديمه، فقد كانت كامل القوات العسكرية لها ملتزمة بمعاهدة الناتو.

أما وضع جنوب أفريقيا فقد كان ملتبسا. حيث كانت هناك دلائل على عداء الشيوعيين من جانب الجناح اليميني المتطرف للحزب الوطني للأفارقة

البيض، وقد فاز فى الانتخابات عام ١٩٤٨م، وقد طالبوا بالمساعدة العسكرية من جانب أمريكا. وقد كانت جنوب أفريقيا مستعدة لمساعدة بريطانيا بالطائرات للدفاع عن الشرق الأوسط فى حالة حدوث طارئ. ولم يكن أى من ذلك وشيك الحدوث على الرغم من طرح البريطانيين أن طريق روسيا نحو أفريقيا سوف يكون عبر مصر. وقد كانت وزارة الحرب تأمل فى الحصول على لواء مدرع على الأقل، على أساس أن الجنوب أفريقيين كانوا متحمسين لفكرة الحرب. وقد علق أحد الجنرالات البريطانيين على ذلك "إنهم متقلبون بطبيعتهم ومن السهل أن يتراجعوا فى حالة ما إن طلب منهم أن يقوموا بدور دائم فى عمل المشاة"^(٢٢). وفى حكومة تشرشل لعام ١٩٥٣م حاولت أن تجرب أحفاد رجال الكوماندوز فى عام ١٨٩٩م فى أن يأتوا إلى الشمال مع عرض للتبادل مع قاعدة سيمونستون (Simonstown) البحرية لمساعدة الشرق الأوسط ولكن هذه المحاولة لم تكن ناجحة^(٢٣).

وقد ترك لبريطانيا أن تقوم وحدها بتقديم الجند اللازمين لخطوط المعارك الممتدة للحرب الباردة فى الشرق الأوسط، مدعومة بوعود كثيرة بالمساعدة من دول الكومنولث البيضاء بمجرد أن تبدأ الحرب. ولم يتم إشراك وحدات دول الكومنولث فى خطط الطوارئ التى تم وضعها للحفاظ على الوضع القائم فى مصر فى عام ١٩٥١م، أو فى مشروع آخر مشابه ضد فارس فى نفس العام^(٢٤). وحتى عندما سمع السير أنتونى إيدن لأول مرة أخبار قيام عبد الناصر بتأميم قناة السويس فى عام ١٩٥٦م، فإنه أخذ فى اعتباره الحصول على موافقة الانتفاع بخدمات الزوارق الملكية الخاصة بنيوزيلاندا، لاستخدامها فى البحر المتوسط^(٢٥).

وفى الفترة ما بين (١٩٤٥م - ١٩٥١م)، انخرطت حكومة حزب العمال فى الحرب الباردة بكل السبل، وفى ذلك الوقت، تظاهرت بكل ما هو

متوقع من قوة عالمية نشيطة. حيث تصرفت على عكس السياسة الخارجية بخلاف سياسة الارترداد وبطريقة لا تتشابه إطلاقاً مع سلوك المحافظين فى العام السابق تماماً للحرب. ووزراء أتيليه قد تصرفوا على هذا النحو لأنهم اعتقدوا أنه من الصواب تجنب التوسعية الروسية، وقد كانوا مستعدين للتجاوز عن التكاليف الباهظة التى يمكن أن يجلبها هذا السلوك. وقد زاد ذلك اندلاع الحرب الكورية ويمكن القول إنه أعاق بشكل خطير تعافى الاقتصاد الذى كان يتم على نحو سريع منذ عام ١٩٤٩م.

وطوال هذه الفترة، فإن بريطانيا تصرفت كما لو أنها قوة استعمارية لها مصالح كونية، على الرغم من أن قدراتها قد تأثرت بغياب الجيش الهنـدى. وبين (١٩٤٩-١٩٥٣)، فإن حكومة حزب العمال وحكومة المحافظين اللاحقة لها تخيلوا أن الإمبراطورية الأفريقية يمكن أن تثبت أنها بديل عن الهند كمصدر للرجال والمواد الخام لتحقيق المطالب البريطانية.

وفوق ذلك فقد كان هناك كومنولث جديد متعدد الأعراق، قام كل من حزب العمال وحزب المحافظين باستثمار سياسى واقتصادى كبير فيه. وكانت الاختلافات فى ذلك الوقت وما بعده ضئيلة. فقد رفضت دولتان من دول الكومنولث غير البيضاء، وهى الهند وسيلان، أن تكونا حليفتين لبريطانيا فى الحرب الباردة، وتركت بورما الكومنولث فى عام ١٩٤٨م، بعد أن أصبحت جمهورية، وتبعته أيرلندا، وقد أصبحت هى الأخرى جمهورية، فى عام ١٩٤٩م. وقد تبنت الهند أيضاً دستوراً جمهورياً فى نفس السنة ولكنها بعد عدد من المناورات القانونية، ظلت عضواً فى الكومنولث الذى كان الرئيس الرمزى له هو الملك جورج السادس. والسبب فى السماح بهذا الوضع الشاذ هو الخوف من أن الهند، بمجرد أن تصبح خارج الكومنولث، قد تنضم بسهولة إلى الكتلة الشيوعية. وقد انضمت باكستان إلى حلف بغداد

المعادي للاتحاد السوفيتي في عام ١٩٥٥م، وذلك ليس من أجل بريطانيا ولكن بعد تعرضها للإغراءات الأمريكية، والتي كانت تتضمن وعدا بتقديم منحة عسكرية بمقدار ٢٥ مليون دولار. ودول الكومنولث البيضاء كانت غير مبالية بالدعوات الخاصة بالدفاع عن الطرق الحيوية الإمبراطورية على طول البحر المتوسط وعبر الشرق الأوسط.

فهي الآن أقل مما كانت عليه من الأهمية في أى وقت سابق، كما أن سلامة كل من أستراليا ونيوزيلندا أصبحت في الأيدي الأمريكية، لأنها أصبحت هي الفاعلة منذ عام ١٩٤٢م، وكانت كندا تهتم فقط بمنطقة المحيط الأطلسي وغرب أوروبا.

بمعنى ما فإن الكومنولث قد أصبح بديلا عن الإمبراطورية. وبالفعل فعندما أصبحت الخطط المتعلقة بالحكم الذاتي في المستعمرات جاهزة أخيرا، فقد تم الافتراض في لندن أن المستعمرات السابقة سوف تقوم تلقائيا بالانضمام إلى الكومنولث. وسواء كان هذا الجهاز يهب بريطانيا نفس السلطة أم لا، فإن القوة العسكرية والمكانة التي كانت تتمتع بها عندما كانت تقوم بحكم أقاليم الإمبراطورية ودول الكومنولث ظلت مسألة موضع شك. وحتى منتصف القرن العشرين لم تختَر بريطانيا أن تقوم باختبار عمل وطبيعة الكومنولث بشكل قوى للغاية. وفي أحد الحوارات التي أجرتها إذاعة البى بى سى، وهو الحوار الذى تم بعد انتهاء مؤتمر وزراء خارجية دول الكومنولث فى كولومبو فى يناير من عام ١٩٥٠م، أشار أن الكومنولث قد يرفض أن يكون "ناديا عاطفيا مفككا لمجموعة من السذج". ثم بعد ذلك ذكر أن الكومنولث يفتقر إلى كل من الصوت الموحد فى الشؤون الخارجية ويفتقر أيضا إلى القوة المادية، ثم أشار المتحدث إلى بعض الحوادث، وأشار إلى

أنها "قد جعلتنا قريبين من فكرة حرب عالمية"^(٢٦). وإذا كانت الحال كذلك، فإن المستمع المتشكك قد يتساءل لماذا هناك اثنان من الأعضاء، وهما باكستان والهند، في حالة صراع قاتل حول كشمير، وهناك عضو آخر، وهي جنوب أفريقيا، في منتصف الطريق نحو إنشاء نظام الأبارتيد، وهو نظام اجتماعي يقوم على سيادة العرق الأبيض.

ومجرد أن دخلت بريطانيا في النصف الثاني من القرن العشرين بدأت تظهر كضحية لسياسات الوهم. ففي عام ١٩٥٠م فإن كلا من حزب العمال وحزب المحافظين قد أقنعا نفسيهما بأن الكومنولث هو شيء يجب أن يظل في الذهن وأنه بعيد عن النقد. وبناء على ذلك فإنه كان يقدم إلى العالم على أنه مثال مشرق على التعاون الدولي ودليل على استمرار وضع بريطانيا كقوة دولية. وقد كان هذا بمثابة الاعتقاد بالنسبة للسياسيين الذين فشلوا في إدراك مظاهر الانحدار النسبي لوضع بريطانيا، وظلوا على أمل أن البلاد بطريقة ما سوف تكون قادرة على الوقوف بمعزل عن حلفائها الكبار، ومع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، في بداية الخمسينيات، بدأوا في اتخاذ الخطوات الأولى لهم نحو الوحدة الاقتصادية. وقد كان وهم القوة أفضل من لا شيء على الإطلاق، وقد كان قادة الكومنولث راغبين في إضافة بعض من الكماليات على التمثيلية التي كانوا يلعبونها. فهو قد اتاح لهم فرصة حضور مؤتمرات على أعلى مستوى، وأن يتم التعامل معهم بتقدير يناسب مكانتهم وأنه لا يتم التحكم بهم.

والاستخدام المتزايد لكلمة "كومنولث" لكي تشمل المستعمرات بجانب دول الكومنولث المستقلة قد ترافق مع وجود حملة دعائية شيوعية مستمرة تم فيها التسوية بين "الاستعمار" و"العبودية" و"الاستغلال" للأعراق الملونة من جانب القوى الرأسمالية. وأيا كان المظهر السياسي لها فإن حركات

المعارضة فى المستعمرات قد تجمعت مع بعضها بعضاً كجزء من كفاح عالمى ضد الإمبريالية الجشعة. وفى نهاية عام ١٩٤٨م، ذكرت جريدة البرافدا (Pravda) كيف أنه فى غرب أفريقيا الفرنسية والبريطانية فإن أسماء كل من لينين وستالين كانت معروفة جيداً حتى فى الغابات وفى القرى الصغيرة، حيث كان الناس يتعاونون مع بعضهم بعضاً أجهزة راديو لاسلكية حتى يتمكنوا من سماع إذاعة راديو موسكو^(٢٧). وكان المضربون فى ساحل الذهب فى عام ١٩٤٨م يستلهمون نموذج الشيوعيين فى كل من الهند الصينية وإندونيسيا (التي كانت فى السابق تعرف بالهند الشرقية الهولندية)، حيث كانت هولندا هى وكيل الاحتكاريين الموجودين فى وول ستريت والذين كانوا على استعداد لاستلاب ثروة البلاد لأنفسهم. ووفقاً لما ذكر فى عدد مجلة ترود (Trud) الصادر فى ١٩ أغسطس من عام ١٩٤٨م، فإن مصاصى الدماء هؤلاء كانوا موجودين أيضاً فى مدينة لندن، حيث كانوا يشجعون على تدمير الحركة القومية فى الملايو (مثل الحزب الشيوعى) وذلك من أجل وضع أيديهم على المواد الخام الموجودة فى البلاد^(٢٨).

ونفس الإحساس بوجود مؤامرة كونية من جانب الرأسمالية قد وصلت أيضاً إلى أفريقيا. وفقاً لما ذكره جورج بادمور (George Padmore) الصحفى المحنك فى الهند الغربية، محرر جريدة نجرو وركر (Negro worker) الصادرة فى لندن، قد ذكر أن كلاماً من بريطانيا وأمريكا على أنها ترغب فى ابتلاع موارد البلاد. وقد كان بادمور يقوم بنشر مقالات ماركسية فى جريدة جولد كوست أوبزيرفر (Gold Coast observer). فى أثناء الفترة من عام ١٩٤٨، ١٩٤٩م، فإنه اتهم رئيس نقابات العمال بيفن بأنه ينفذ سياسات حصان طروادة فى فلسطين، وقد توقع أن يتم استخدام القوات الأفريقية كمقاتلين مأجورين وكلاب صيد فى الحرب المناهضة للشيوعية فى الملايو^(٢٩).

وكانت الحملات الاستعمارية بمثابة الفرصة المواتية للكتاب الشيوعيين. ففي نوفمبر من عام ١٩٥٢م قامت جريدة (Zycic warsawy) بنشر صورة لمشتبه بانتمائهم لمنظمة الماو ماو (Mau Mau) مع تعليق "هؤلاء أعضاء فى منظمة الماو ماو مقيدون مثل العبيد... فقد حاربوا لتحرير كينيا من العبودية الاستعمارية ولذلك فإنهم يعتبرون لصوصا". وذلك تحت عنوان رئيسى "الاستعماريون فى حالة هياج"، كوموسول برافدا (Komosol Pravda) عدد ٣٠ يونيه عام ١٩٥٣م قد أعطى تفاصيل للعمليات التى تتم ضد الماو ماو. "قالجند والشرطة يقومون باضطهاد وحشى للسكان الزوج فى هذا البلد. وهناك أخبار عن عمليات قتل جماعى للزوج الذين يصلون كل أسبوع من كينيا". ومن بين التقارير التى تذكر فى هذا الشأن فإن أحدها جاء من صحيفة الحزب الشيوعى البريطانى، صحيفة الدابلى وركر (Daily Worker)، التى أعلنت أن، "الأقاليم الإرهابية فى كينيا التى لا يمكن مقارنة وحشيتها إلا بوحشية نظام الاحتلال الذى وضعته وحدات الأس إس SS النازية"^(٣٠).

وهناك شيئان ظهرا من هذا الهجوم الشديد. الأول هو القدر الكبير من حرية الصحافة التى كانت موجودة فى المستعمرات البريطانية. وقد كان ذلك يرجع فى جزء منه إلى تطبيق المبادئ الليبرالية فى الداخل، ويرجع أيضا فى جزء منه إلى الاعتراف بحقيقة أن الصحافة الصريحة لم تكن لتعوق مسيرة تقدم عربية التفاح الاستعمارية. ففكرة الصحافة المعارضة على أن تسبب ضررا كانت محدودة بسبب غياب الأحزاب السياسية الجماهيرية وغياب نقابات العمال. وفى غرب أفريقيا، حيث كان هناك الكثير من الصحف والقراء بشكل أكبر من أى مكان آخر فى الإمبراطورية الاستوائية، تغيرت هذه الظروف، بشكل بطىء قبل الحرب وبشكل سريع بعدها. وبرغم

ذلك فإن وزارة المستعمرات والمسئولين المحليين فيها قد شعروا بأنهم أقوياء بقدر كاف يجعلهم قادرين على ترك الوضع على ما هو عليه. وإذا كانوا يرغبون في عمل شيء مخالف فإن ذلك سوف يجد صدًى له في بريطانيا حيث إنه من التقليدى اعتبار أن رقابة الدولة للصحف هو عمل غير مقبول في فترة السلم.

كانت الدعاية الشيوعية الخارجية التى تقوم بها روسيا، وأقمارها الصناعية، وفيما بعد الصين، قد مثّلت مصدراً للقلق الاستعماري في كل مكان كجزء من الصراع الفردى والكونى بين من يملكون ومن لا يملكون، وأدت إلى شجب دعم الشيوعيين لهم. والخوف من حدوث ثورة جماهيرية مدعومة من كل من روسيا والصين فيما يطلق عليه اليوم العالم الثالث قد أدت إلى حدوث رعب في كل من واشنطن ولندن. وسواء كان الإنذار بناء على تهديد فعلى أم لا فإن ذلك أمر غير مهم. فالأمر المهم أنه منذ عام ١٩٤٨م وما بعده فإن كلاً من الحكومة البريطانية والأمريكية كانتا عصبيتين ومتوقعتين حدوث دمار، على الأقل لأنهما كانتا على وعى بأنه في العديد من المستعمرات فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت ظروفًا مثالية لحدوث ثورات شيوعية. وأياً كان السبب الحقيقى الكامن وراء ذلك فإن الإضرابات والمظاهرات السياسية كانت بمثابة أعراض دائمة لوجود نشاط شيوعى تحت الأرض.

وفي نهاية عام ١٩٤٧م طلبت وزارة المستعمرات من كل حكومات المستعمرات إخبارها عن أى أدلة على وجود دعاية سوفيتية في الصحافة المحلية بها^(٣١). ولم يتم اكتشاف أى منها في روديسيا الشمالية وجامبيا وسيشيل وبيرمودا أو في جزر البهاما. وقد كانت هناك أدلة في نيجيريا على وجود بعض الاهتمام الأكاديمي بالماركسية، ولكن لم يكن هناك حزب منظم لها. والصحافة القبرصية (Cypriot) قد احتوت على مقالات شيوعية،

وإحداها كان يتنبأ بحدوث موجة من التوسع الاستعماري الأمريكي، وقد كانت هناك كثرة من المواد الشيوعية في صحف ساحل الذهب. وقد كان هذا مزعجا للغاية، إذا أخذنا في الاعتبار المستوى العالي من النشاط السياسي ونشاط النقابات العمالية في هذه المستعمرة، وقد كان من غير المتوقع حدوث تمرد في أكرافيا في فبراير من عام ١٩٤٨م. أضافت التحقيقات حول هذه الأحداث، وغيرها في كل من سنغافورة وكينيا، قد المزيد من التحفز الرسمي مع بروز النقص في الدعم الشعبي للسلطات الاستعمارية^(٣٢).

وقد كانت هناك شبكة تجسس دلت على وجود تآمر سوفيتي في المناطق غير المتأثرة وفيما بين القوميين الأفارقة. وقد تم إعطاء اهتمام خاص بالطلبة الأفارقة في بريطانيا وكذلك السياسيين الذين زاروا البلاد.

ولمدة تزيد على خمسين عاما، فإن كلتا المجموعتين قد انجذبت نحو دوائر الأجنحة اليسارية، بما فيهما الحزب الشيوعي البريطاني. وقد ذكر MI في عام ١٩٥٣م أن هناك اثنين من الشخصيات الكينية البارزة اتصلت بالشيوعيين البريطانيين، الذين كانوا بشكل واضح خائفين أن يذهبوا بعيدا في الثقة فيهم^(٣٣). وتم استقبال الزوار الأفارقة قد بترحيب أكبر من جانب الجناح اليساري لأعضاء البرلمان عن حزب العمال، مثل فينير بروكواي (Fenner Brockway)، الذي أجرى مجموعة من المحادثات في قلعة باربرا (Barbra Castle)، وقد كان له اهتمام يستغرق الانتباه بكل حركات التحرر في المستعمرات^(٣٤). وروابط من هذا النوع قد أفلقت وزارة المستعمرات التي، في مذكرة مقدمة في عام ١٩٥١م حول رفاهية طلاب المستعمرات، اقترحت أن تقديم الاهتمامات الاجتماعية السليمة وتوفير ظروف الحياة الجيدة قد يعملان كمضادين للتأثيرات الشيوعية. وقد لوحظ أن المحافظين بدأوا في الاجتماع مع الطلبة الأفارقة، الذين كان يشار لهم منذ الآن على أنهم قادة المستقبل لبلادهم^(٣٥).

وفى أفريقيا فإن الأدلة على وجود اختراق سوفيتى منظم كانت أدلة مبعثرة. وفى عام ١٩٥٢م فإن الطوارئ التى فرضت فى كينيا أدت إلى زيادة الشائعات الاستخباراتية حول التغلغل السوفيتى، وأن هناك عميلاً سوفيتياً مشتبهاً به، السيدة م. أ. رحمان (M. A. Rahman)، زوجة أحد الدبلوماسيين الهنود الذى كان للتو قد انضم إلى اللجنة العليا للهند فى نيروبي^(٣٦). وقد تمت مراقبتها هى وزوجها بعناية، ولكن لم يتم رصد أى رابط لهما أو للمخابرات الروسية لأحداث الشغب فى كينيا ووسط أفريقيا^(٣٧).

السلوك العدوانى للمخابرات ضد من ثبت عليه بشكل مبالغ فيه إلى حد ما أنه متأثر بالشيوعية من الحركات المضادة للاستعمار قد تمت مقابلتهم بدعاية رسمية مضادة. وهنا فإن الولايات المتحدة كانت متحمسة لتقديم يد المساعدة، وفى عام ١٩٥٠ اقترحت وزارة الخارجية الأمريكية برنامج مشترك للدعاية المناسبة فى المستعمرات، وذلك باستخدام الإذاعات اللاسلكية باللغات الأصلية. وقد كانت وزارة المستعمرات غير متحمسة. لأنها توقعت حدوث مشكلات سياسية جراء توظيف الأفارقة فى إذاعة صوت أمريكا الصادرة من نيويورك، وكانت غير سعيدة من إنفاق الدولارات الشحيحة لديها على استيراد أجهزة الراديو للمستعمرات. والأكثر أهمية، فإنه كانت هناك مخاوف فيما يتعلق بالسيطرة الأمريكية على محتوى الإذاعات^(٣٨). ووضعت وزارة المستعمرات ثقتها فى محطات الإذاعة الموجهة للمستعمرات الموجودة فى ذلك الوقت وأن بيع مجموعة من أجهزة الراديو الخاصة سوف يؤدى إلى جذب وزيادة عدد المستمعين الأفارقة. وكانت تكلفة الجهاز الواحد خمسة جنيهات إسترليني ولذلك فإنها كانت سهلة الشراء. وفى روديسيا الشمالية، حيث كان متوسط الأجر الأسبوعى جنيهاً واحداً، فإن أجهزة الراديو حققت نجاحاً سريعاً، حيث كان يتم بيع ألف جهاز شهرياً خلال

عام ١٩٥١م^(٣٩). وقد قدر أن كل جهاز يجذب عددا من المستمعين يبلغ عشرة، وقد كانت هناك كثرة من خطابات الشتاء حول محطة الراديو الموجودة في لوساكا (Lusaka). وقد كان أحد هذه الخطابات تنص على الآتي، "هذه الأجهزة اللاسلكية هي ملكنا. فضلا حاولوا أن تستخدموا إن كنا نريد أن نصبح أمة متمدنة"^(٤٠).

وقد أصبحت المستعمرات هي ساحة للمعارك الأيديولوجية للحرب الباردة والتي كان لها تأثير قوى على سياسة الحكم الذاتى. وفى أثناء عام ١٩٤٧م، فإن كبار المسؤولين فى وزارة المستعمرات قد قاموا بوضع مجموعة من الخطط من أجل النقل البطيء والمنظم والسلمى للسلطة داخل المستعمرات. وقد كانت عملية ثورية، بدأت بإقامة مجالس انتخابية، والتعامل معها على أنها وسيلة نحو إنشاء حكومة برلمانية وطنية تمتلك جميع السلطات التى تخص الشؤون الداخلية للمستعمرات. ومع التطبيق الكامل للديمقراطية البرلمانية فإن المستعمرة تصبح جاهزة للحصول على الاستقلال. ولم يكن هناك داعٍ للانديفاع، فقد تم تقدير أن هذه العملية سوف تأخذ على الأقل عشرين وربما ثلاثين سنة من السكان الأصليين حتى يتعلموا أساليب الديمقراطية، والأكثر أهمية تكوين طبقة من السياسيين الجديرين والقادرين على تحمل المسؤولين من السكان المحليين.

لقد تم التخلي عن هذا البرنامج المرتب والبرامجاتى وقبل كل شيء الواقعى قد تم التخلي عنه فجأة فى عام ١٩٤٨م. فالسبب المباشر كان حالة الذعر التى اكتتفت وزارة المستعمرات بعد أحداث العصيان فى أكرا التى تمت فى فبراير، وقد كان منشأ هذه الأحداث اقتصاديا وليس عدم الصبر على فترة التغير السياسى. ورغم ذلك فإن التحقيق الرسمى قد انتهى بتوصية إسراع التغيير الدستورى ودعم الأفارقة فى المجلس التنفيذى لساحل الذهب.

وفتح الحكم على جميع المستويات قد تم اقتراحه بواسطة تقرير آخر تمت صياغته في عام ١٩٤٩م بواسطة لجنة من الأفارقة تحت إشراف قاضي إفريقي^(٤١). وقد قبلت الحكومة البريطانية كلا التقريرين، وعملية التطوير قد تم ضغطها في سنوات قليلة بفاعلية، على أن يتم عقد الانتخابات في عام ١٩٥٠م. وفي فبراير من عام ١٩٥٢م أصبح كوامي نكروما (Kwame Nkrumah)، قائد حزب المؤتمر الشعبي، قائد الشؤون الحكومية وبعد عام آخر أصبح رئيس الوزراء.

ولكن لماذا ارتعدت الحكومة في عام ١٩٤٨م؟ فإدارة ساحل الذهب قد أخذت على غرة بواسطة أحداث الاضطرابات، ورد فعلها كان غير بارع. ولم تكن هناك أى إرشادات من أعلى حول كيفية التعامل مع أعمال التمرد، و فقط في عام ١٩٥٥م حاولت وزارة المستعمرات وضع سياسة عامة في السيطرة على أعمال التمرد. وكانت المحاولات الأولية تتضمن عددًا مختلفًا من الأساليب، فوفقًا لقوانين عام ١٩٤٨م الخاصة بشرطة سانت فينسنت (st Vincent)، وقد تم تحريم استخدام الخراطيش، لأنها كانت تستخدم في إطلاق النار على رؤوس المتمردين حيث "إن هذا يؤدي إلى إسباغ الثقة على المتمردين والمشاغبين"^(٤٢). وأيا كانت الظروف، فإن إطلاق النار على المشاغبين، كما حدث في أكرا، بدا شيئًا سيئًا في الصحافة، وبدأ من عام ١٩٤٥م فإن الحكومة وجدت أنه من المستحيل منع أخبار القلاقل التي تحدث في المستعمرات عن الصحف^(٤٣).

كانت الحكومة البريطانية دائمًا حساسة فيما يتعلق باستخدام القوة، خاصة الأسلحة النارية، لقمع أعمال الشغب في المستعمرات لأنها كانت تمثل تخليًا عما قامت عليه الإمبراطورية.

ومن الناحية النظرية وفي المخيلة الشعبية، كان الحكم البريطاني يستند عادة على الرضا والتعاون مع المحكومين وليس على القمع. وقد كان هناك اضطراب لاستخدام القمع في بعض الحالات ولكن كحل أخير وبشكل محدود. وكل من المسؤولين والجنود الذين كانت مهمتهم حفظ النظام كانوا أيضا على وعي بوجود عداء غير محدد ولكنه قوى لاستخدام القوة المفرطة في البداية. وقد تم وصف ذلك في (NCO) في جريدة سايمون رافين (Simon Raven) المسماة صوت الانسحاب (Sound the Retreat) (١٩٧٤م) حول ما حدث في الهند عام ١٩٤٦م:

"قال كروكستابل مع مسحة من الحزن "ليس مهما"، فإنها مثلها مثل الأشياء الموجودة في هذه الأيام أن هذه الوسيلة الدموية تفتح فمها وتقطر لعابها وتجعل كل الأطراف الأخرى في العالم ضدنا. ولا يرغب أحد في معرفة حقيقتها. لقد كانت المسألة فقط بسبب هذه الوسيلة فإنهم ضدنا، وأيضا فإن ما يقرب من نصف شعبنا يتبنون نفس الموقف".

وعلى نحو واسع فإن نفس الشكوى قد سمعت مرارا خلال السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطورية. وبدلا من القمع القاضى للمعارضة، فإن الحكومة البريطانية اختارت أن تحتوى، وأيضا أن تتحدث، بشكل أكثر سلاسة. ومن خلال تسريع انتقال ساحل الذهب نحو الحكم الذاتى فإن البريطانيين تصوروا أن ذلك سوف ينقذ هذه المستعمرة من الدمار الشيوعى المحتمل، وبذلك يتم كسب الصداقة والعرفان بالجميل من القادة السياسيين المحليين. وأدت الظروف التى أحاطت بالحرب الباردة إلى إنهاء فرص التقدم البطيء المحسوب من الوصاية الاستعمارية نحو الحكم المسئول. ومنذ ذلك الحين ركزت السياسة البريطانية على دعم السياسيين المحليين الأكثر نفوذا، الذين يمكن الوثوق بهم فى قدرتهم على كبح جماح الحكومة فى الدول

التي سوف تخلف الإمبراطورية. وقد كان ذلك حلاً لمشكلات تفكير المستعمرات، وهذا الحل قد أربع الكثير، الذين ذكروا أنه قد يؤدي إلى خلق العديد من المشكلات أكثر من المشكلات التي سوف يحلها.

وترددت شكوك الحكام الذين لم يكن من السهل عليهم تقديم الهنود نحو حكم بلادهم، قد جعل وزير المستعمرات الخبير، السير رالف فورس (Ralph Furse)، يتساءل ما إذا كانت الحكومة تصغي بالفعل إلى الأصوات الصحيحة:

"إنه من الصعب، كما كان دائماً، على الأوروبيين أن يكتشفوا أن الأفارقة يفكرون بالفعل. فبشكل عام فإن البدائيين لا يمكنهم الآن مساعدتنا بقدر كبير، حيث إن الرجل العجوز والفقير للغاية في غابات باروتسلاند (Barotseland) فإن أقصى ما يمكنه عمله وفق ما ذكرت لجنة اللورد مونكتون (Monckton) أنه "يرغب في أن يظل تحت الحماية الكريمة لغطاء الملك جورج الخامس" والأنتلجنسيا (النخبة) السياسية الأفريقية ليست بمثابة الحراسة الأمن للغاية. ومثلهم مثل السياسيين فإن لديهم محاور للسعى من أجل الوصول لها، والتي لم يتعلموا عنها الكثير، وهم بذلك يشكلون نوعاً ما من استمرار (deracine). لأن الجماهير الأفريقية يقومون بالصراخ بمجموعة من الشعارات التي يرددونها خلف قادتهم بدون أن يفهموا ماذا تعني هذه الشعارات التي لا يفهمون معناها".

ما زال هناك في أواخر الأربعينيات مساحات واسعة من الإمبراطورية ليس لديها أي وعي سياسي ولم يتم مسها إلى حد كبير من جانب العالم الخارجي. واستمرت الأنماط القديمة للحياة وكذلك النظام الطبقي القديم، وقام أحد الرياضيين الذين زاروا دارفور في جنوب السودان في عام ١٩٤٩م بمقابلة أحد الرؤساء المحليين الذي كان يمثل أحد الرفاق القدماء بشكل مروع

حيث كان ذا لحية بارزة وأثواب حمراء وزخارف ذهبية وسوط طوله خمسة أقدام يتدلى من رصغيه ولديه أحد عشر ابناً وعدد غير معروف من البنات. وخلفه يركب مرافقون من ستين رجلاً يشبهون سعاة البريد. وكان الرجل العجوز يستطيع تذكر الأيام السابقة على الحكم البريطاني عندما كان على دينار هو السلطان، على الرغم من أنه لا يستطيع أحد تذكر ما الذي يعنيه بقوله "إنه لم يسمح لنا أبداً بأن ننظر إلى ما هو فوق الركبة" ^(٤٥). وقد قام البريطانيون بحكم دارفور لما يقارب على ثلاثين عاماً. وإلى الجنوب من ذلك، في شمالي أوغندا، فإن الحكومة الاستعمارية كانت تبلغ أيضاً نفس العمر تقريباً، وما زالت غير ثابتة في مكان، لأن اعتماد أقليم كارونجا على الماشية يحتاج إلى عملية انتقال مستمر خلال فترة الأربعينيات ^(٤٦).

ومع أواخر نوفمبر من عام ١٩٥٧م، فإن دوريات الأفارقة حاملي البنادق التابعين للملك يسافرون سيراً على الأقدام خلال أقاليم كينيا لتذكير قبائل السوك (Suk) والتوركانا (Turkana) بأن هناك مكافأة لمن يقبض على الخارجين عن القانون. وكانت مظاهرات استخدام البنادق والأسلحة النارية بارزة في احتفالات القبائل وبعد أحد هذه الاحتفالات، التي تضمن تفجير قنابل يدوية فسفورية، فإن حاكم الإقليم قد علق قائلاً "أنا أعتقد أن الدرس لم يتم استيعابه" ^(٤٧). ولا يبدو أن شيئاً قد تغير خلال خمسين عاماً. فالشرطة الجوية ظلت مستمرة في المناطق الخلفية من عدن حيث كانت هناك حاجة لستة وستين طناً من المتفجرات و ٢٤٧ من الصواريخ لمعاقبة المغيرين على القوافل وإيقاف الحرب الدائرة فيما بين القبائل في عام ١٩٤٧ ^(٤٨). وفي نفس السنة أدى تجدد الصراع القبلي إلى قتل المئات وجرح الكثير في صومالي لاند (Somaliland)، حيث إن الحكم البريطاني لم يكن كاملاً هناك إلا في عام ١٩٢٠م ^(٤٩).

وكانت السلطة الاستعمارية أيضا مفتتة أيضا فى إحدى القواعد الأخرى التى تتصف بوجود قلائل ألا وهى جزر سليمان. فبعد انتهاء الاحتلال اليابانى، فإن جزءا كبيرا من السكان الأصليين قد أعلن الاستقلال، وربطوا أنفسهم مع بعضهم بعضا فى ظل ما أطلقوا عليه "الحكم السائر". وقد كان هذا فى جزء منه شكلا من أشكال العبادة، حيث كان أتباعها يتوقعون وصول سنن ضخمة تحضر هدايا كثيرة من القوة العالمية. وفى ظل الحكم السائر، فإن الرجال والنساء قد عاشوا فى جماعات منظمة وكانوا يشتركون فى الميام اليومية.

أدت الحركة الشيوعية التى كانت تحت السطح إلى إثارة قلق المسؤولين الذين، بعد محاولات التصالح، كانوا مضطرين لاستخدام القوة فى أغسطس من عام ١٩٤٧م. وزيارة إحدى الغواصات فى يونيو لم تؤد إلى خوف المتمردين، ولذلك تم إرسال حاملة الطائرات جلورى (Glory) والمدمرة كونتست (Contest) لتحقيق نفس الغرض. وطوفهم خلال الجزر وظهور خمسين من أفراد الشرطة من السكان الأصليين حاملين للبنادق والحرايب الثابتة (والتي تمت استعارتها من قوات غينيا الجديدة) قد أدت إلى السقوط المفاجئ للحكم السائر. وقد كان الأمر يبدو كأحد الأفلام الكوميديّة القديمة. ورجال الشرطة، الذين كان بعض منهم جزءا من هذا الحكم، قاموا بلعب مباراة لكرة القدم مع السكان الأصليين، وفازو ٤-٣، وبعدها كان هناك احتفال فى فيجى (Fijian) وحفلة كوكتيل للمسؤولين وضباط البحرية^(٥٠).

وقد احتاج الأمر إلى عامين آخرين حتى تشعر الحكومة بالأمن الكافى الذى يمكنها من إعادة فرض ضريبة الرأس، والتى كانت هى المصدر الرئيسى للعوائد فى الجزر.

ومن المهم تذكر أن اللحظة التي قام فيها البريطانيون بعمل ترتيبات سوف تؤدي إلى تفكيك الإمبراطورية، فقد كانت هناك ما زالت مناطق تحت الحكم الاستعماري الفاعل لفترة أقل من عمر إنسان كامل، وقد كانت هناك حالات أخرى، حيث إن السلطة الاستعمارية أكثر تعرضا للقلاقل وقليلة الثبات. وحتى في ظل حكم العمال، فإن الترتيبات القديمة ظلت كما هي. وقد هناك كان في عام ١٩٤٩م عشر من دورات المياه في محطة السكة الحديد في مدينة القنطرة على قناة السويس مخصصة كالاتي:

الضباط الأوروبيون.

الضباط الآسيويون.

الضباط الملونون.

ضباط الصف والرقباء الأوروبيون.

ضباط الصف والرقباء الآسيويون.

ضباط الصف والرقباء الملونون.

الرتب الأخرى من الأوروبيين.

الرتب الأخرى من الآسيويين.

الرتب الأخرى من الملونين.

ATS (الخدمة الإقليمية المساعدة- مثل النساء)^(٥١).

(٢)

العلاقات الودية

الهند وتصفية الإمبراطورية

الفترة (١٩٤٥-١٩٤٧)

فى عام ١٩٤٥م، بدأ حفارو قبر الإمبراطورية عملهم. ولم تقم أى من الحكومات التى جاءت قبل عام ١٩٤٥م أو بعده باتخاذ قرار واحد بحل الإمبراطورية، ولكن بالمثل فإن أيًا من هذه الحكومات كان مستعدًا لأن يسير فى طريق مغاير، فالاحتفاظ بها كان يأتى وفق ما اتفق. فكل من الوزراء والدبلوماسيين والجنود ورجال الخدمة المدنية الذين وجدوا أنفسهم مسئولين عن تقديم المشورة وتنفيذ السياسات الخاصة بتفكيك الإمبراطورية لم يتخلوا أبدا أنهم بذلك أصبحوا جزءا من الجنازة. وبدلا من ذلك فإنهم نظروا إلى أنفسهم على أنهم بمثابة القابلة، التى تقوم بتسهيل ميلاد دول جديدة تخرج من رحم الإمبراطورية. والحكمة التقليدية من كلا الحزبين التى سيطرت طوال السنوات الخمس والعشرين التالية، كانت مصرّة على جعل الدول المولودة حديثا تنمى فى إطار عائلة ممتدة داخل الكومنولث الجديد متعدد الأعراق، حيث يشترك أعضاء هذا الكومنولث فى الشعور بأن بريطانيا تمثل الأم بالنسبة لهم، وكذلك يشتركون فى الحفاظ على نظامها الديمقراطي واحترام تقاليدها المتعلقة بحرية الفرد فى المستقبل.

وقد كانت هناك بعض الظروف التي جعلت بريطانيا راغبة في إضاعة فرصة الانسحاب المنظم من الإمبراطورية، وأن تقوم بتثبيت أقدامها، ولكن مثل هذه الحالات كانت استثنائية. فقد دخلت بريطانيا في الحرب الباردة، وبذلك لم يكن مسموحاً لأى من المستعمرات أن تتضمن تحت لواء السيطرة الشيوعية بعد الاستقلال. ولذلك ففي حين كانت بريطانيا ملتزمة بحق تقرير المصير فى الملايو فى المستقبل، فإنها كانت تجهز فى عام ١٩٤٨م لأن تقوم بالحرب فى معركة طويلة (وقد أطلق عليها تعبير ألطف وهو "طوارئ") لتجنب المسؤولية المتعلقة بقمع المستعمرات) ضد حروب العصابات الشيوعية المحلية.

ولم تسمح أيضا أى من الحكومات لأى مستعمرة بأن يؤدي انفصالها إلى حالة من الفوضى، ولهذا السبب بالتحديد تم القيام بمجموعة من العمليات ضد جماعات الماو ماو فى كينيا فى الفترة ما بين عام (١٩٥٢-١٩٥٤) على أنها أيضا حالة طوارئ أخرى.

ولم تتماثل أى من الأعمال التى يمكن اعتبارها حروباً استعمارية بريطانية لوجستية وطول لتلك الحروب التى شنتها فرنسا فى كل من الهند الصينية والجزائر، أو تلك التى قامت بها البرتغال فى أنجولا أو موزمبيق. فالساسة البريطانيون لم يكونوا فى حاجة إلى إعادة النظر فى الأحداث التى تمت فى أمريكا الشمالية خلال سبعينيات القرن الثامن عشر أو تلك التى حدثت فى إيرلندا، وهى أكثر ارتباطاً بالموضوع، بعد عام ١٩١٨م لمعرفة الأخطار التى تكمن فى انتظار أولئك الذين يرغبون فى التمسك بالإمبراطورية مهما كانت التكاليف. وقد بينت الحملة الإيرلندية أيضا أن هناك نقطة بعدها فإن الجماهير لن تتسامح مع القمع المسلح. وقد كان هذا مفهوماً لأن هناك أطروحات مستمرة للدعاية بأن الإمبريالية الحديثة مبنية على الرضا القائم بين حكام الإمبراطورية والمحكومين فيها.

إضافة إلى أنه، ولأول مرة فى التاريخ، فإن كامل الشعب البريطانى كان مشتركاً بشكل مباشر فى الدفاع عن الإمبراطورية. ففى الفترة ما بين عام (١٩٤٧ - ١٩٦٠) فإن القوات الخارجية والأماكن التى شهدت مشكلات كان يتم مدها بالرجال والحفاظ على الأمن فيها من خلال المجندين فى وقت السلم، ومن خلال الجنود المواطنين. وقد قام الجنود المحترفون بدورهم، ولكن تدفق المصائب الناتجة عن الصراعات الاستعمارية كان يشمل فى ذلك الوقت الأبناء والأحباب الذين لم يدخلوا الجيش باختيارهم.

وقد كان الشعب أيضاً أكثر وعياً للحملات الاستعمارية فى حينها وكذلك بالقضايا التى تكمن خلفها من خلال أجهزة التلفزيون الجديدة، التى بدأت تنتشر فى المنازل بسرعة بداية من عام ١٩٥٠م وما بعده. وقد أدركت الحكومة بسرعة أنه، عن طريق المعالجة الحريصة، فإن هذه الأداة الإعلامية يمكن التلاعب بها من أجل تصوير الصراعات الاستعمارية بشكل إيجابى. وفى نهاية عام ١٩٥٧م، فإن احتفالية يوم عيد الميلاد فى التلفزيون عرضت "احتفالات الكريسماس فى قبرص وركزت فيها على احتفالات الجنود، بمن فيهم الجنود المواطنون، الذين كانوا يتعاملون هناك مع حالة "طوارئ" أخرى. وقد كان يتم تفقد المجندين من خلال الجيش ووزارة المستعمرات، وقد تم إظهار بعض اللقطات لهم وهم "يقومون بشكل طبيعى بمساعدة المدنيين من سكان قبرص... إلخ" خاصة النساء والأطفال منهم فى الشوارع. وقد بدأ البرنامج بملاحظة إيجابية مع إعلان أن، "قبرص هى جزء من الكومنولث البريطانى"، واستمر فى التأكيد على أن القوات البريطانية كانت هى الوحيدة التى تقوم بمساعدة شعبها^(١). وتساءل المشاهدون الذين لم يندفعوا بهذا التدليل فى الاحتفالات، إذا كان الأمر كذلك، لماذا يقوم سكان قبرص بإطلاق النار على الجنود؟ ولكن آخرين منهم لم يشكوا واقتنعوا وشاهدوا الجنود وهم يقدمون الاحتفال لأطفال قبرص.

كانت حالات الطوارئ من النوع الذى كان فى قبرص نادرة نسبيا. والإمبراطورية البريطانية لم تتحل مثل الإمبراطوريات الفرنسية والبرتغالية وكذلك الروسية بالدم والدموع.

وفى الهند والمستعمرات الأخرى تم اقتراح بديل آخر، هذا البديل كان يتضمن الانسحاب المنظم وبشكل ودى، وترك السلطة لحكومة منتخبة. وفى أحسن الأحوال، من وجهة النظر البريطانية، فإن مثل هذا الترتيب سوف يتم تحقيقه فى أقل حد ممكن من المشكلات، وحيث كان ذلك ممكنا فإن الاحتفاظ بقواعد إستراتيجية سوف يظل خلف مشهد التأثير السياسى والمزايا التجارية. والذى كان يجب تجنبه بشكل مطلق التكاليف عن الانسحاب غير المنظم الذى يترك وراءه فراغا سياسيا أو، وهو أسوأ، فوضى.

وقد احتاج احترام أسرار الدبلوماسية السرية المتعلقة بتفكيك المستعمرات إلى وقت، وبدأ من خلال المحترفين الذين يقومون بالتحرك فى الظلام وتعليم الآخرين أى خطوة يقومون بها. ومع قليل من الإرشادات فإنهم قد رجعوا، وفق النمط البريطانى، إلى الماضى، وقاموا بتبنى قاعدة البناء القديم للإمبراطورية، وهى إيجاد شخص ما لديه السلطة القانونية، مثل رئيس الرأى، والعمل معه. والآن فإن الرجال الذين يقومون على تفكيك الإمبراطورية عليهم أن يعملوا بجد والتزام مع سماسرة السلطة الجدد، وهم السياسيون المحليون. فقيادة الأحزاب والحركات الوطنية المختلفة كان من المفروض أنهم يتحدثون باسم الغالبية من الشعب. وسواء كانوا كذلك بالفعل أم لا، فإن هؤلاء المدافعين عن الشعب وجدوا أنه يتم التعامل معهم على أنهم المتحدثون باسم الأمة والوارثون المحتملون للإدارة الاستعمارية. وقد كان هناك بعض الشعائر، ففى بعض المراحل وجد القادة السياسيون المحليون أنفسهم فى حالة صدام مع السلطات الاستعمارية، وبناء على ذلك تم إلقاؤهم

فى السجون. وفى ذلك الوقت، فمع تحسن مكانتهم الوطنية بسبب احتجاجهم، فإنهم قد منعوأ من أن يأخذوا مكانهم على طاولة المفاوضات الخاصة بشعوبهم. وتم اتباع هذا النمط خلال الثلاثينيات والأربعينيات، عندما تم سجن قادة المؤتمر الهندى، بمن فيهم غاندى، وكذلك نكروما وجومو كينيأتا والدكتور هاستنج باندا، فى ساحل الذهب وكينيا ونيسا لاند على الترتيب.

فمن ناحية فإن أولئك الذين كانوا مسئولين عن تسليم السلطة كانوا يرغبون قبل أى شيء فى تسليم هذه السلطة إلى شخص يستطيع ممارستها بفاعلية وأن يحافظ على النظام. ومن ناحية أخرى، فإن بريطانيا قد تعهدت علانية بأن تتشاور مع الحكومات البرلمانية فى مستعمراتها ومع النظم القانونية التى وضعت لتحافظ على حريات الأفراد. وكان هذا التحول فى المؤسسات من السهل القيام به فى دول الكومنولث البيضاء، حيث كان سكانها قد تشبعوا بالفعل بالتقاليد البريطانية. ولكن فى الهند والمستعمرات الأخرى كانت هناك ثقافة سياسية مغايرة تماما. فالنشاط السياسى المنظم بالأسلوب الغربى قد بدأ فى فترة حديثة للغاية (فى الهند تم تأسيس المؤتمر الهندى فى عام ١٨٨٥، والمؤتمر الأفريقى فى عام ١٩١٢م) ومنذ بدايتهما، كانتا تتمحوران حول قضية واحدة وهى إنهاء الحكم الأجنبى.

قد حدد هذا الهدف المهيمن مسار تطور الحياة السياسية التى أصبح يهيمن عليها أحزاب منظمة تنظيمًا شديدًا، وقد أصبحت كبيرة بشكل كاف لى تحصل على السلطة المنفردة للحكومة. ولذلك فإن الظروف المحيطة قد أعاقَت وجود تعددية حزبية أو نمو اثنين أو ثلاثة أحزاب أو أكثر من الحركات الشعبية الأقل فى الحجم، كما حدث فى بريطانيا ودول الكومنولث البيضاء. ولذلك فإن نشأة دولة الحزب الواحد من تاريخ الصراع الاستعمارى فى الهند كانت من أجل الاستقلال.

وقد أعادت الديموغرافيا الاستعمارية عملية تفكيك المستعمرات. فلم يتخيل أبداً أى ممن كانوا مهتمين بترسيم حدود الإمبراطورية أنهم بذلك يضعون حدوداً لدول مستقلة سوف تحكم نفسها فى المستقبل. فالجماعات العرقية والقبلية والدينية التى تحمل كرها فطرياً بعضها بعضاً قد تم جمعها عادة بعضها بعضاً سواء بإرادتها أو بغير إرادتها. وعندما أصبح مدى عمق التنافر الإثنى والقبلى والطائفى واضحاً، فقد ظن البعض أنه يمكن احتواؤه من خلال إدارة استعمارية قوية ومتسلطة مدعومة بالشرطة والجند. ولذلك ففى كل من الهند وسيلان وبورما وفى كل مكان آخر أصبحت بريطانيا هى الحامى لعدد كبير من الأقليات الذين كانوا يحتمون بها من النيات السيئة لجيرانهم. إلا أن الأحكام المسبقة القديمة لم تنقل لمجرد الخوف من العقاب الاستعماري، ولكنها ظلت ولكن وكأنها كانت مجمدة. وكان على صناعات الحكومات الجديدة أن يجدوا طرقاً للاستمرار فى توفير الأمان للأقليات حتى لو أن ذلك كان يعنى التخفف من المثال الديمقراطي.

ولم تكن أى من هذه العقبات التى واجهت عملية الانتقال نحو الحكم الذاتى من نوع العقبات التى لا يمكن تذليلها، أخذاً فى الاعتبار وجود وقت وصبر لكل من يشارك فى هذه العملية. ولكن لم يبد أن كلا العنصرين متاحان. فبمجرد البدء فى عملية تفكيك المستعمرات، فإنها اكتسبت زخماً ذاتياً، وهو ما جعل من المستحيل على كل من الحكام ورجال الخدمة المدنية والمحامين الدستوريين الذين أشاروا بتكوين حكومات جديدة أن يتوقفوا. فالسياسيون المحليون غير الصبورين وكذلك مؤيدوهم قد فهموا أى تأخير على أنه دليل على تراخ، وأن هناك ماطلة، أيًا كان السبب فى هذا التأخير، وهو ما كان يؤدى بسهولة لاتدلاع الاضطرابات الشعبية من النوع الذى كانت بريطانيا فى حاجة ماسة لتجنبه. فترتيب الإمبراطورية كان عملية

صعبة ومشطبة للهمم، فقد وصف أتيلية علنا عمال مونتباتن (Mountbatten) في الهند على أنهم أبطال بالفعل. وهو ما لم يتفق عليه الجميع، حيث كتب هارولد نيلسون (Harold Nicolson) هذه الملاحظة في يومياته " إنه من الغريب أن نصف الرجل الذي قام بتفكيك الإمبراطورية بأنه بطل مثل كليف (Clive) ووارين هاستينجز (Warren Hastings) ونابير (Napier) الذين نالوا منا. إنها فكرة حمقاء بالطبع" (٢).

وفي ذلك الوقت (يونيه عام ١٩٤٧م) كان استقلال الهند على مرمى أسابيع قليلة، وتحقيق هذا الاستقلال كان يُرْحَب به على أنه انتصار. وقد كانت هناك محاولة تلقائية ولكنها معروفة بدرجة أقل لتفكيك الاستعمار كانت قد بدأت في بورما، وأصبحت مثالا كاملا على التنفيذ الخاطئ. وخدمة أورويل كشرطي في بورما قد أُنْعَمَتْ بشروط الاستعمار، وقد كان ذلك مفهوما لأن الحكم البريطاني كان مكروها من قطاعات عدة في المجتمع البورمي.

لقد ظهرت الانقسامات السياسية والعرقية بجانب الولاءات الإمبريالية الهشة، عندما قامت اليابان بغزو بورما في عام ١٩٤٢م. فقد كان البورميون ميالين للغزاة، في حين كانت القبائل الموجودة في عمق البلاد مثل قبائل الكارينز (Karens) والكاشينز (Kachins)، تؤيد بريطانيا، التي كانت تحميهم من جيرانهم في جنوب البلاد.

وأكثر الوطنيين البورميين شهرة، ثاكين أونج سان (Thakin Aung San)، السكرتير العام لعصبة بورما بلادنا، كان قد هرب إلى اليابان في عام ١٩٤٠، عاد وقد تم تعيينه من قبل مناصريه كقائد للجيش الوطني البورمي. وفي أغسطس من عام ١٩٤٣م، أعلنت اليابان استقلال بورما، ولكن أونج سان، الذي كان انتهازيا بشكل كامل، تولى عن أصدقائه القدامى

وألقي بنفسه وبإتباعه خلف بريطانيا في مارس من عام ١٩٤٥م، عندما كان من الواضح أن بريطانيا سوف تقوم بطرد اليابانيين.

ولم يكن هناك مخطط واضح لوضع بورما بعد الحرب خلاف الوعد بأن بورما سوف تحصل على الاستقلال في إطار الكومنولث. والحاكم العائد، السير رينالد دورمان سميث (Sir Reginald Dorman-Smith) اقترح أن تكون هناك فترة ست سنوات أو سبع لإعادة البناء، وقد خصصت الحكومة البريطانية مبلغ أربعة وثمانين مليون جنيه إسترليني لهذا الغرض. قد أصبحت السلطة المطلقة في يد مونتباتن باعتباره رئيس (SEAC)، حيث اشتبه في أن دورمان سميث وفريقه كانوا مجرد سدج في الاستمرار في عملية الاستقلال^(٣). وقد كان يفضل الوصول إلى اتفاق مع الرجل الذي بدا أنه هو من يحظى بالتأييد الشعبي، وهو أونغ سان. وقد كانت هذه حيلة لا مفر منها، لأن مونتباتن لم يكن يستطيع توفير الجنود البيض لشرطة بورما، وقد كان حذرًا في اختبار طاعة جنوده الهنود في مواجهة البورميين الوطنيين.

بدأت غريزة مونتباتن وكأنها على حق في البداية. حيث حصلت عصبة أونغ سانج المعادية للفاشية المطالبة بحرية الشعب على أغلبية مهيمنة في انتخابات أبريل عام ١٩٤٦م، ولكن النتيجة كانت مضللة. وقد قاطع الانتخابات ثلاثة أحزاب أخرى، ورفضت قبائل الكارين الحصول على الأربعة والعشرين مقعدًا التي تم منحها لياها باعتبارهم أقلية، واختاروا بدلا من ذلك الضغط من أجل الحصول على دولة منفصلة. وعلى الرغم من أن البلاد كانت على حافة التفتت، فإن مونتباتن ضغط على اعتقاد أن البورميين سوف يقومون بحل المشكلات الخاصة بهم. ومن خلال استخدام الأساليب الملتوية فإنه عمل على صرف دورمان سميث في أغسطس^(٤). وهو ما تبعت بالضبط الفوضى التي كان الرجال الحذرون يخافون من وقوعها: ففي

يوليو من عام ١٩٤٧م تم إطلاق النار على أونج سانج وستة من الوزراء الآخرين وقتلهم من جماعة من المنافسين السياسيين، على طريقة آل كابوني، حيث اقتحموا غرفة اجتماع الحكومة بأسلحة نصف آلية، وقد كان هناك انتشار للمظاهرات والاحتجاجات. وبصرف النظر عن هذه المؤشرات التي تدل على انهيار النظام، فقد تم الحصول على الاستقلال الكامل في يناير من عام ١٩٤٨م.

وفي غضون اثني عشر شهرا أعلنت بورما نفسها كجمهورية وتركت الكومنولث، وقد كان هناك متمرّدون من الشيوعيين وانفصاليون من قبائل كارين.

وسواء كانت هذه الأحداث بسبب الحكم البريطاني في بورما أم لا، فإنها كانت مقدمات مشؤمة لعملية تفكيك الإمبراطورية.

وكان تقدم الهند نحو الحصول على الحكم الذاتي بمثابة دراما حافلة بمؤامرات معقدة أصبحت واضحة على مستويين. فعلى السطح، فإن كلاً من رجال الدولة والسياسيين والمحامين والمديرين البريطانيين والهنود كانوا يجلسون في قاعات في دلهي، وعندما تصبح الأوضاع خانقة بشكل كبير، يحاولون بناء جهاز حكومي يمكن أن يرضي جميع الأطراف في الهند. حيث كانوا مشاركين في سباق ضد الزمن على المستوى الأعمق، وفي المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والريف بدأ آلاف الهنود ينقلبون بعضهم ضد بعض ويقتلون بعضهم بعضاً. ولأن العنف كان قد انتشر وتعددت المصائب، فإن المراقبين للأحداث كانوا يخشون من حدوث حرب أهلية؛ حيث إن الفاعلين الأساسيين فيها لن يكونوا قادرين على وقفها.

كان أتيلية الفاعل البريطاني الأساسي، الذي كان يؤمن وهو يقترب من نهاية حياته أنه سوف يُذكر بسبب ما قام به في تسهيل عملية نقل السلطة في الهند. فقد نظر إلى هذه العملية على أنها واجب أخلاقي، حيث قام هو بالواجب الملقى عليه والذي كان يتعهد به لفترة طويلة، ولأنه كان برامجاتي الطابع، يحتفظ لبريطانيا ببعض الميزات. ووزارة الخزانة أصبحت غير مستعدة للمزيد من إنفاق المزيد من الأموال للإبقاء على الحامية البريطانية في شبه القارة، وإذا حصلت بريطانيا على الشروط التي ترغب فيها، فالتجارة سوف تزدهر مع الهند. وقد كان أتيلية يعتقد أيضا أن التبادل السلمي للسلطة والحفاظ على استقرار الهند سوف يضيفان إلى مكانة بريطانيا وتعمل كحصن ضد الشيوعية في آسيا. وقد أراد هو والعاملون معه أن تظل الهند عضوا في الكومنولث، وبقدر الإمكان أن تصبح الهند حليفا تستمر به القواعد البريطانية. وقد أصدر أتيلية أمرا رسميا لمونتباتن، في فبراير من عام ١٩٤٧م، يأمر فيه نائب الملك بأن يعمل على الحفاظ على العلاقات الودية بين كل من الهند والمملكة المتحدة. وإحدى خصائص هذه العلاقة يجب أن تتجسد في معاهدة عسكرية^(٥). وبحلول هذا الوقت، فإن أتيلية كان قد سلم بأن شبه القارة سوف يتم تقسيمها بين كل من الهند وباكستان، وهو ما لم يكن راغبا فيه، لأنه كان يرى أن ذلك ليس في مصلحة بريطانيا. فالهند المقسمة هي هند ضعيفة والجزء الغربي من أكثر أجزائها أهمية، باكستان، يواجه أفغانستان ومن خلفها روسيا. ووفقا لمصطلحات الحرب الباردة، فإن ذلك الجزء من الهند هو عبارة عن حائط صد.

ومونتباتن، الذي اختاره أتيلية لكي يقوم بعملية تسريع التسليم النهائي للسلطة والإشراف عليه، كان هو الأخير من سلسلة مسئولين ووزراء تم إرسالهم للتفاوض مع القيادة الهندية. والذي سبقه في منصب نائب الملك كان

اللورد مارشال وافيل (Wavell)، كان يواجه عملية عصيان متصاعدة طوال عام ١٩٤٦م، وقد يؤس، وتم عزله من جانب أتيلى بسبب تشاؤمه.

وقد كان هذا يرجع بشكل أساسى إلى فشل بعثة حكومة أتيليه المكونة من ثلاثة وزراء، التى كانت قد وصلت إلى الهند فى نهاية عام ١٩٤٦م، حيث حملت تعليمات بوضع دستور يحافظ على وحدة الهند مع الحد الأدنى من الغضب الشعبى بقدر الإمكان. وقد كان كرييس (Cripps)، رئيس هذه البعثة، وهو من الجناح اليسارى المثالى متوافقا مع الطموحات الهندية، حيث كان يعرف ما هو المتوقع من آخر سلسلة من المفاوضات الأخيرة التى قام بها فى عام ١٩٤٢م، ووفقا لما ذكره بيفن، كان مؤيدا للغاية للمؤتمر. واللورد بيتيك (Pethick) لورانس كان أحد الإيتونيين القدامى المؤيدين لحزب العمال والبالغ من العمر أربعة وسبعين عاما، قد تم اختياره أيضا بسبب خبرته فى الشؤون الهندية. والعضو الثالث فى هذه البعثة، أ. ف. ألكسندر (A. V. Alexander)، كان عضوا برلمانيا يحظى بالتأييد ولديه سجل جيد فى الوزارة، ومثله مثل الكثير من وزراء الطبقة العاملة، فإنه كان أحد الاستعماريين العاطفيين. وهذا لم يكن مفاجئا، فبالنسبة له ولغيره من جيله، مثل بيفن، فإنه قد تربي على الشجاعة عندما ينحرف الشعور الوطنى.

وفى مقابل بعثة الحكومة كان هناك عدد من الأشخاص الذين أطلق عليهم وافيل (Wavell)، "المدافعين العظماء عن الشعب الهندي"، وهم نهرو وقيادات حزب المؤتمر الهندى. وقد كان هدفهم هو إحلال المؤتمر محل الراج، وقد كانوا يتحدثون ويتصرفون على أنهم مرآة لكامل الأمة الهندية التى، كما ذكر غاندى، لا يمكن تقسيمها. وقد كان هناك أيضا الدكتور جناح (Jinnah)، الذى كان يعتقد أن ذلك غير صحيح، وأنه يتحدث باسم اثنين وتسعين مليوناً من مسلمى شبه القارة الهندية. ولم يكن وافيل يحب جناح،

الذى اعتقد أنه مصاب بجنون العظمة، وكان يشك أن غاندى يحمل حقدا نحو بريطانيا، ولكنه كان يحترم نهرو ويرى أنه بالفعل رجل عظيم^(٦).

وفى الوقت الذى كان فيه مهندسو مستقبل الهند يتداولون فيما بينهم، كان الشعب يتحول نحو الاضطراب بشكل متزايد. وأثناء شتاء عام ١٩٤٥، ١٩٤٦م، فإن قرار الحكومة بأن تقوم بمحاكمة مجموعة من الرجال المبرزين فى تنظيم المؤتمر الوطنى الهندى INA السابق، بتهمة الخيانة، وفى بعض الأحيان بتهمة القيام بجرائم حرب، فإن ذلك لاقى معارضة شديدة من المؤتمر. وفى سبتمبر من عام ١٩٤٥م قرر المؤتمر أن الآلاف من جنود (INA) يمكن أن يقدموا أكبر خدمة فى الواجب الكبير المتعلق ببناء الهند الجديدة والحررة^(٧). وفى الأشهر القليلة التالية تم تكريمهم كأبطال من جانب المؤتمر ومن منهم كان فى السجن أو ينتظر المحاكمة قد منحوا مرتبة الاستشهاد. وفى يناير من عام ١٩٤٦م فإن صحيفة هندوستان تايمز (Hindustan Times) الغاضبة قد زعمت أن هناك خمسة وعشرين من سجناء INA قد تم طعنهم بسبب غنائم ترنمة "جاء هند" (الهند ذات العمر المديد)، ولكن التحقيق الرسمى قد أظهر أنهم تعرضوا فقط للنخس فى الأرداف^(٨). وقد تعرض غاندى لقضية هؤلاء الرجال، الذى كانت توجهاته نحو تنظيم INA السابق تتسم بكثير من الغموض. فقد كتب "على الرغم من أننى ليس لدى أى شيء بشكل عام يمكن قوله للدفاع عن استخدام القوة المسلحة، فإننى لست أعمى عن مشاهدة البسالة الوطنية التى عادة ما يظهرها الأشخاص المسلحون، كما يبدو فى هذه القضية"^(٩). وهو لم يقل إن تعريفه للوطنية يشمل المليونيين من الهنود الذين حاربوا لا لشيء إلا للعمل ضد بريطانيا.

وفى حين أن القضايا قد توقفت عند عام ١٩٤٦م، فإن الأمن الهندى كان يعتمد على الجيش الهندى والحامية البريطانية. ومن بين الآخرين كان هناك الكثير من الرجال غير المتحمسين للدفاع عن الراج ويرغبون

فى العودة إلى الوطن. وأثناء صيف عام ١٩٤٥م فإن مراقبى الجيش قد كشفوا النقاب عن الكثير من الشكاوى حول "غياب الهدف" فى الخطابات الخاصة بالجنود الذين يخدمون فى آسيا، واعتقد أولئك الذين كانوا فى الهند أن البعثات لها الحق فى تقضية فترات أقصر فى تأدية الخدمة فيما وراء البحار والنقل السريع؛ كانت بمثابة "حقوق لا يمكن التنازل عنها"^(١٠). وفقط خلال عام انخفضت المعنويات الخاصة بالجنود فى الهند وبدأت الشكاوى حول النقل البطيء تزداد^(١١). والسخط كان بلغ أقصاه فيما بين أفراد RAF العاملين فى الهند، فخلال عام ١٩٤٦م كانت هناك مظاهرات متمردة بالعشرات^(١٢). وقد كان هذا مزعجا، لأن أوشينليك (Auchinleck)، قائد القوات فى الهند، كان يخشى من انبعاث المظاهرات التى اندلعت فى عام ١٩١٩م وعام ١٩٤٢م وأن يتم استخدام الطائرات إذا خرجت أعمال الشغب الشعبية عن السيطرة^(١٣).

والذى كان أكثر أهمية هو تآكل معنويات الجنود الهنود. وقد ظهر ذلك فى حدوث تمرد لمدة أربعة أيام من قبل ٧٠٠٠ جندي من قوات البحرية الملكية الهندية (ربع عدد القوات) فى نهاية فبراير عام ١٩٤٦م. والمشكلة بدأت على سطح السفينة الحربية "تالور" (Talwar)، التى كان قائدها، القائد ف. و. كينج (F. W King)، يكرر وصف رجاله بأنهم "النافهون السود" و"الأوغاد الفاشلون" و"الهنود المتوحشون". وإذا أخذنا فى الاعتبار التوتر السائد فى الهند، فإن مثل هذه العبارات المستفزة كانت ترتبط باندلاع ردود فعل عنيفة، وهى الحادثة التى أدت إلى قيام كينج فى تفجر التمرد الذى انتشر بسرعة ليشمل سفنا أخرى للبحرية الملكية فى بومباى. وعن طريق استخدام أجهزة الاتصال اللاسلكية فإن المتمردين فى بومباى قاموا بتبنيه طواقم السفن التى كانت موجودة فى كل من كلكتا ومدراس الذين انضموا إلى الثورة^(١٤). وقد تم رفع أعلام كل من المؤتمر الهندى والرابطة الإسلامية الهندية على

الأسطول الموجود في بومباي، وكانت هناك محاولات لقمع التمرد أدت إلى عمليات شغب خطيرة على السواحل. واستعادة النظام من قبل القوات البريطانية وقوات المهراتا (Mahratha) قد تركت ٢٢٣ قتيلاً وما يزيد على ١٠٠٠ جريح^(١٥).

لقد فشلت المحاولات التي قام بها البحارة لتجنيد قوات الماهراتا، وبعد ظهور الفرقاطة جلاسجو (Glasgow) والتي كانت ترمى السفن المتمردة بقاذفات الموسكيتو، أنهار التمرد. وكل من المؤتمر والحكومة في دلهي صدم من التمرد الذي أظهر أن سلطة كليهما قد تكون على حافة الضياع. وقد قام الكثير من الضباط البريطانيين بالكتابة عن التمرد وأثاره التي كانت كبيرة على نحو غير متوقع، ولكن مصادر المخابرات المحلية كانت تشك في أن بعض التأثيرين الشيوعيين كانوا يعملون في أحواض السفن في بومباي^(١٦). ومنذ ديسمبر من عام ١٩٤٥م كانت المخابرات العسكرية قلقة فيما يخص العملاء الروس الذين يستغلون الأوضاع في الهند، وأخذت في عمليات مراقبة دقيقة للبحث عن أي دليل لوجود اختراق شيوعي^(١٧).

لقد تبع تمرد البحرية الملكية الهندية RIN الكثير من أعمال القلاقل، بما في ذلك ما أطلق عليه عمليات إضراب من جانب القوات الجوية الملكية الهندية، وهو التمرد الذي قام به خمسة وسبعون من جنود الإشارة في مدينة جلال آباد، وكذلك الإضراب الذي قام به ٣٠٠ من رجال الشرطة في دلهي^(١٨). وقد كان هناك أيضاً تيار مستمر من الهروب إلى الإندونيسيين الوطنيين من قبل الجنود الهنود العاملين في سومطرة. وقد أذان المؤتمر مثل هذه العمليات وطالب بأن تقوم الحكومة بالتوقف عن استخدام الجنود الهنود كمرتزقة للاستعمار^(١٩). وبحلول نهاية شهر مارس، فإن المخابرات العسكرية قد اعتبرت أن جميع وحدات الجيش الإضافية وقوات البحرية الملكية الهندية والقوات الجوية الملكية الهندية، أنها لا تزال وحدات مشتبهاً بها، وكانت قلقة حول مستقبل ولاء الجيش الهندي، وكل ما يمكن عمله هو

"السعى فى كل يوم للحفاظ على هدوئه" (٢٠). ومع مثل هذه القراءة الكئيبة التى يجدها وافيل على مكتبة، فإنه ليس من المدهش أن نجده يكتب إلى الملك جورج السادس أن الهند يكتنفها فى الوقت الحالى "إحساس عام بعدم الأمن وعدم الاستقرار" (٢١). وفى يونيو فإن لجنة الدفاع الخاصة بالحكومة قد قررت أنه لا يمكن السماح بأى عملية انسحاب من الهند إذا استمر الجيش الهندى موضع شك. وفى هذه الحالة فإنه سوف تكون هناك حاجة لخمسة أقسام من القوات البريطانية للحفاظ على النظام فى الهند، على الرغم من أن استخدام هذا العدد من القوات سوف يؤدى إلى ضغوط قوية على الالتزامات الأخرى فى الأماكن الأخرى (٢٢).

وما كان مفاجئاً فيما يتعلق بالقلق الموجودة فيما بين الجنود الهنود هو غياب العدائية نحو بريطانيا. ففي الأيام الأخيرة من عمر الراج، فإن العلاقات بين بريطانيا والهنود كانت أفضل مما كانت عليه طوال السنوات الثلاثين الماضية، أو كذلك اعتقد أو شينليك (٢٣). وترجع هذه المودة فى غالبيتها، إن لم يكن فيها كلها، إلى حقيقة أن كل هندی كان يعرف أن البريطانيين كانوا على وشك الرحيل. ولكن لم يكن هناك جدول زمنى لرحيلهم ولم يكن هناك أيضاً، وهذا هو الأهم، شكل محدد لحكومة الهند المستقلة. وفى منتصف الصيف فإن بعثة الحكومة فى عام ١٩٤٦م قد أوصت بوضع دستور لحكومة فيدرالية لكل الهند، وتحت هذه الحكومة يكون هناك مستويان من المجالس الإقليمية والمحلية، التى تمت صياغتها من أجل حماية الأقليات وإرضائها. وفى البداية فإن كلا من حزب المؤتمر الهندى والرابطة الإسلامية قد قبلا بهذه الصيغة، ولكن الشكوك المتبادلة فيما بينهما أظهرت أنها أعمق من ذلك بكثير، وأخذ الجانبان فى الشجار حول التفاصيل والتوازن فى التمثيل المشترك. وقد وصلت هذه الخلافات إلى أقصاها عندما قرر جناح أن يمضى وحده، وأن يطالب بدولة باكستان المستقلة.

وقد دعا جناح لمسيرة للمسلمين في كلكتا في ١٦ أغسطس. وقد تبعها أربعة أيام من أعمال الشغب الديني التي أدت لمقتل ٤٠٠٠ وجرح ١٠٠٠٠ شخص. واعتقد الجنرال البريطاني الذي قامت قواته المكونة من جنود بريطانيين وهنود باستعادة النظام، أن المذبحة كانت أسوأ بكثير من معركة السوم (Somme). والأخبار التي تبودلت حول ما يحدث في كلكتا قد أدت إلى مذابح في بومباي، حيث قتل ١٠٠٠ شخص وجرح ما يزيد على ١٣٠٠٠ شخص. وفي بيهار (Bihar) حيث كان ولاء الشرطة المحلية متذبذباً، قام الهندوس بقتل ١٥٠ من اللاجئين المسلمين في نوفمبر.

وفي هذا المكان، وفي كل مكان أيضاً فإن ضحايا الهوس الديني كانوا من الفقراء والضعفاء، وبعدها ببضعة شهور فإن أحد الصحفيين البريطانيين قد لاحظ أن هناك عدداً قليلاً من جنّتهم لم يطالب أحد باستردادها من الشرطة^(٢٤).

ولأن المذابح الدينية قد أخذت في الازدياد فإن الهند بدت وكأنها تسير نحو حرب أهلية لا ترحم. فبعد أن زار وافيل كلكتا أدرك أن اللعبة قد انتهت وقام بوضع عدد من الخطط الطارئة من أجل سحب جميع المدنيين والجنود البريطانيين. وقد كان ضمان أمنهم أسمى وأهم من أي شيء، وفي حالة الضرورة كان يتم سحبهم قبل القيام بأي تسوية سياسية، وفي بعض الأحيان قبل اندلاع حمامات الدماء التي توقعها وافيل.

وقد كان مشروع وافيل بمثابة الكارثة السياسية بالنسبة للهند وبريطانيا وكذلك حزب العمال. وقد قرر أتيليه أن يقوم بمنعها، وتم عزل وافيل في ديسمبر. وقد خلفه مونتباتن في منصب نائب الملك، حيث اختاره أتيليه باعتباره شخصاً بارعاً في السياسة الواقعية. وقد كان أتيليه يتعرض لضغوط بسبب سلوكه في بورما (فقد كان هذا البلد الذي انزلق في حالة فوضى لم

يتعاف بعد)، وقد كان واحداً من العائلة المالكة وابن أخيه (أو أخته) فيليب، كان على وشك الزواج من الأميرة إليزابيث. وفي ذلك الوقت؛ حيث كانت الأسرة المالكة تتمتع بمظاهر الطاعة، فإن مونتباتن كان بذلك محصناً أكثر ضد النقد الجماهيري من رفاقه في الحياة السياسية البريطانية. والأهم من ذلك، أنه كان يتفق مع أتليه على ما يجب عمله في الهند وبأى سرعة يجب إنجازه. والمذكرة التي قام بتقديمها قد أعطته مهلة في التفاوض، ولكن ظل أتليه هو السيد، ونائب الملك هو خادمه. فقد كان هناك ارتباط حميم بين شارع داون ستريت ودهلي، فقد اقترح هو نفسه أن يقوم أتلي بالذهاب شخصياً إلى الهند لكي يتعامل بنفسه مع الأمور المتعلقة بعملية التقسيم.

وقد وصل مونتباتن إلى الهند في نهاية شهر مارس عام ١٩٤٧م. وقد بذل كل ما يستطيع من جهد في أداء مهامه بحماسة وطاقة واستغل كل قدراته في إقناع وتملق القادة الهنود، على الرغم من أنه كان فظاً مع جناح لدرجة الوقاحة. وقد كانت زوجته، إدوينا (Edwina)، تقوم بمساعدته، حيث كانت تقوم بعمل حفلات كوكتيل مرحة أسرت نهر، الذي كان في ذلك الوقت رئيس الحكومة الانتقالية والمتحدث باسم حزب المؤتمر. وقد كان وجود عائلة مونتباتن في مقر نائب الملك يمثل تغييراً عما كان عليه الوضع في ظل وافيل، فذلك الفيلد مارشال كان عالماً مثقفاً وذا طابع تأملية وشخصية خجولة، حتى إن السيدة مونتباتن قد علقت مرة أن الكونتيسة (viscountess) وافيل كانت ترتدى مثل خادمتها^(٢٥). وأياً كان ما كانت تقوم به عائلة مونتباتن فإنها قد أكدت أنه، على الأقل على المستوى الأعلى، أن الفصل الأخير في دراما استقلال الهند قد بدأ.

وقد كان الواجب الأهم لنائب الملك الجديد هو أن يضع جدولاً زمنياً أقصر بقدر الإمكان لتحقيق الحكم الذاتي، وقد وضع أتباعه هذا الجدول الزمنى.

ففى السابق كان يجب أن يتم تسليم السلطة فى يونيه من عام ١٩٤٨م، ولكن فى ظل التكتيك التدريجى للنظام العام فإن هذا الموعد تم تقديمه إلى ١٥ أغسطس من عام ١٩٤٧م. وقد أعلن مونتانن الجدول الزمنى الجديد فى مؤتمر صحفى فى الرابع من يونيه، وتم استقباله بمزيج من السرور والذهول، وفى بعض الأوساط، بالتشاؤم. وبعد ذلك بوقت قصير للغاية فإنه أصدر لائحة للمسؤولين التابعين له تشير إلى الأيام الباقية من أجل القيام بعملية التقسيم، على أن تبدأ عملية التقسيم من آخر يوم فى العام الدراسى للمدارس العامة^(٢٦). فقد أصبح انفصال الهند الهندوسية عن الهند المسلمة حقيقة منذ الانتخابات المحلية التى تمت فى ديسمبر عام ١٩٤٥م، وفى مارس من عام ١٩٤٦م، وفيها فإن المرشحين الهندوس قد حصلوا على تسعين فى المائة من الأصوات فى الأقاليم غير المسلمة، وحصل المرشحون المسلمون على أعلى الأصوات فى المناطق الخاصة بهم. ولم يكن هناك العدد الكافى من المؤشرات والتوازنات السياسية الذى يمكن أن يمنع عملية الاستقطاب فى الهند ويحفظ استمرارها فى دولة واحدة. وقد اعترف بذلك حزب المؤتمر ولكن بعد تردد، وخلال شهر مايو تمت الموافقة على خطة للتقسيم من جانب كل من مونتانن والقادة الهنود وصدقت عليها الحكومة فى لندن لاحقاً.

وإزالة الراج كانت عملية سهلة نسبياً، وهى التى استمرت بهدوء خلال العشرين سنة السابقة. فبحلول عام ١٩٤٦م، كان هناك أكثر من نصف كبار المسؤولين فى الخدمة المدنية فى الهند البالغ عددهم ١٠٢٦ من الهنود، وإجمالى عدد الضباط الهنود الأصليين فى الجيش ارتفع من ١٠٠٠ ضابط

فى عام ١٩٣٩م إلى ١٥٧٥٠ فى عام ١٩٤٦م. والتقاليد القديمة الخاصة بالانضباط والطاعة، جعلت من الممكن تفكيك الوحدات متعددة الأعراق والأديان فى الجيش الهندى، والفصل بينهم وتوزيع الضباط والجنود على القوى الجديدة لكل من الهند وباكستان. وهذا الانتصار الضئيل قد تم تحقيقه بأقل قدر ممكن من الجلبة، وبقدر معقول من الاتفاق، والفضل فى ذلك يرجع إلى الصبر والحكمة التى تحلى بها أوثنليك، الذى تتبأ أن رجاله سوف يجدون أنه من السهل أن يقوموا بتغيير ولاءاتهم من الإمبراطور الملك إلى دولهم الجديدة. وكما ذكر أحد (Subadar-Major) فإن الأمر كله كان تعبيراً عن العبقرية البريطانية. وأثناء الاستعراض العسكرى الذى تم من أجل التأكيد على استقلال باكستان فإنه أسر إلى أحد الضباط البريطانيين وقال له "آه يا صاحبى، البريطانيون بارعون للغاية. فنحن المسلمين أصبح لدينا باكستان، والهندوس أصبح لديهم هندوستان، والجنود البريطانيون أصبح فى إمكانهم العودة للوطن". وللأسف فإن الأمور لم تكن بهذه البساطة. فليس بعيداً كانت القوات الهندوسية والسيخية غاضبة ورفضت الانضمام إلى العرض الذى كان يمر أمام جناح^(٢٧).

وكان تمردهم مفهوماً إذا أخذنا فى الاعتبار الأحداث التى تمت خلال الشهور الثلاثة السابقة على الاستقلال. فلا يتخيل أحد أنه كان بالإمكان ترسيم حدود من شأنها أن ترضى الجميع، فقد اكتشفوا أنهم جماعات كانوا موجودين على الجانب الخطأ وشعروا بالعزلة والخوف وأنهم أقلية.

والخوف وصل إلى أقصاه فى البنجاب، وفى هذا الجزء من الهند كان هناك خمسة ملايين ونصف مليون من السيخ (واحد من كل ستة من سكان الإقليم)، الذين تم تقسيمهم بين كل من الهند وباكستان. وقد رفض السيخ سيطرة المسلمين عليهم، وردوا على الشعار الجديد الذى صاغه جناح وهو

"باكستان زينباد" (أى باكستان ذات العمر المديد) بشعار آخر وهو "باكستان مردباد" (أى الموت لباكستان). ومع أواخر الربيع فقد تدمر البنجاب نتيجة المذابح والمذابح المضادة وأعمال السلب والنهب وكذلك إحراق المنازل والمباني. فميراث الاضطهاد الذى شهده من المسلمين ورود أفعالهم عليه قد منح السيخ مرونة خاصة ودافعاً قوياً من أجل السعى للانتقام. ويمكن إيجاد مؤشر على معاناتهم وحالتهم النفسية فى أحد المنشورات التى كان يتم توزيعها مع بداية أبريل من عام ١٩٤٧م:

"قد تعرض آلاف من النساء السيخيات والهندوسيات للقتل. وقد تم قص الضفائر واللى الطويلة للمئات من رجالهم، وقد كانت هناك ضغوط كبيرة من أجل تحويلهم إلى الإسلام، وقد تم خطف المئات من النساء.... فالقليل هو ما تم، وهذا مجرد عينة صغيرة لباكستان، وهناك أحداث مروعة سوف تأتى. ولكن نحن المحاربين السيخ مثل جورو (Guru) الذى تعرض أربعة أبناء له للذبح نقول، "إن كان هناك أربعة قد سقطوا فإن هناك الآلاف سوف يبقون أحياء". فعلينا أن نقاتل دولة باكستان الطاغية"^(٢٨).

وقد قام السير سيريل رادكليف (Sir Cyril Radcliffe)، أحد الموظفين المدنيين البريطانيين برسم الخط الذى قسم البنجاب. وقد كان عملاً سيئاً ظلت تبعاته تطارده حتى وفاته. وما كان قد قرره هو وآخرون قد ظل محفوظاً فى خزانة مونتباتن لكى يتم نشره بعد يوم الاستقلال، عندما تصبح الأمور كلها ليست من مسئولية بريطانيا. وقد كانت هناك تسريبات حول مستقبل منطقة شيتاجونج (Chittagong) وهو ما أدى إلى اندلاع صدام خفيف، وكان هذا كافياً لإقناع مونتباتن أن السرية هى الشيء الأفضل.

وقد كان واجبه الأول هو بالأساس نحو الحكومة البريطانية، وقد ذكر سابقاً أن القوات البريطانية سوف يتم إخلاؤها فى أسرع وقت ممكن، وهو ما

جعل هذه القوات بعيدة كل البعد عن القيام بدور الشرطة الاستعمارية فى أثناء عملية تنفيذ التقسيم، وقد كانت لديه رغبة طاغية بأن يتم تسليم السلطة بشكل لائق. والاستعراضات جاءت أولا (كان هناك واحد فى دلهى وآخر فى كراتشى)^(٢٩). وقد مرت المراسم الرسمية بسهولة وقد تم إعلان التقسيم وهو ما جعل اليوم التالى مختلفا.

والمذابح الضخمة التى حدثت فى شمال الهند بعد التقسيم معروفة جيدا. ربما كان عدد القتلى يصل إلى نصف مليون، وعلى الرغم من أنه لم يتم أى طرف بحساب عدد القتلى بالضبط.

وقد تم نقل التفاصيل عن طريق الصحفيين، خاصة الصحفى لويس هيرين (Louis Heren) فى جريدة التايمز. فقد سمع هو وآخرون البيانات الرهيبة عن الانتهاكات التى كانت فى الماضى والتى كانت تبرر بها عصابات القتل جرائمها. وفى أغسطس قام السيخ والهندوس بقتل المسلمين فى البنجاب انتقاما من المذابح التى تمت فى حق نظرائهم فى الدين فى روالپندى (Rawalpindi) فى شهر مارس السابق. وهذا الهولوكوست كان انتقاما لذبح المسلمين بواسطة الهندوس فى بيهار قبل خمسة شهور، وهذه بدورها كانت انتقاما للمذبحة التى تمت فى كلكتا فى أغسطس من عام ١٩٤٦م^(٣٠). حاول الضباط البريطانيون والهنود الذين كانوا يشاهدون - وقف المذابح، عندما كانوا يستطيعون القيام بذلك، إن ما شهده كان أشد رعبا آلاف المرات مما شهده خلال الحرب. وقد كان هناك وصف لأحد شهود العيان، وهو جندى، لما حدث فى لاهور (باكستان) قد يكون أفضل من وصف الآخرين:

"كانت الجثث ملقاة فى إحدى القنوات. وكان فى الجوار حشد من الشرطة المسلمين يتحادثون بشكل غير مركز. وقد وصل أيضا رائد

بريطانى. وقد كان هو وسائقه يقومان بجمع الجثث. البعض كان ميتا والبعض الآخر كان يحتضر ولكن الجميع قد تعرضوا لعملية تشويه مرعبة. لقد كانوا من السيخ. وقد كانت شعورهم وأذقانهم الطويلة مختلطة بالدماء. وكان هناك رجل عجوز، ليست حالته سيئة مثل الآخرين، سألتى أين نقوم بأخذهم. وأجبته "إلى المستشفى" ثم أضفت كى أطمئنه "لا تخف لن تموت"، لكنه قال "إننى سوف أموت، إن كان هناك طبيب مسلم" (٣١).

ولست هناك إجابة بسيطة يمكن إجابتها عن سؤال هل كل هذا كان يمكن تجنبه أم لا. ورد فعل مونبتاتن أظهره على أنه سطحي للغاية، فعندما رجع إلى إنجلترا حاول أن يقلل من حجم الكارثة، وادعى أن ما حدث قد فاجأه (٣٢). ولكن كان هناك تصاعد مستمر فى العنف منذ أغسطس من عام ١٩٤٦م، وقد كانت المخابرات العسكرية تعرف أن هذا العنف يتجه إلى الأسوأ. وإدراكا منه لذلك، فإن أوшинليك كان يرغب فى الاحتفاظ بقوات بريطانية خلفه بعد الاستقلال، ولكن تم تجاهله من مونبتاتن (٣٣). وحتى لو تم اتباع هذه الوسيلة، فإن الجنود البريطانيين سوف يصبحون متورطين فى صراع قد يكون من الصعب تخليصهم منه. وقد نوه الميجور جنرال ت. و. ريز (T. W Rees) إلى أن قوات الحدود فى البنجاب قليلة العدد، ومدة بقائها قصيرة بشكل يدعو للعجب، ولكن هذا لا يعنى أن إضافة المزيد من الكتائب سوف تحقق النجاح.

وكبار العسكريين فى الهند، بمن فيهم أوшинليك، كانوا واضحين مع مونبتاتن، فنزعة التظاهر التى كانت لديه أدت إلى إغضاب إحدى الفرق التى كانت تقليديا تثنى قلة الكلام والسرية.

وقد اتهم نائب اللواء السير رينالد سافورى (Reginald Savory)، أحد معاونين فى الجيش الهندى، بأنه "يحاول أن يجعل الأمر سواء بالنسبة للهند

أو بالنسبة للعالم ولأنفسنا أننا كنا ملتزمين بأداء مهمة نبيلة^(٣٤). وأدى هذا الاتهام إلى تشويه صورة مونتباتن أمام الناس، وكذلك سياسة الحكومة، فقد كان دائما وكيلًا لأتيلي، ويقوم بتنفيذ رغبة الحكومة والبرلمان. وكان يعتقد أنه أدى المهمة التي عليه بأكثر مما هو مطلوب منه، وأنه يعرف أن هذا ما كان سيقال لأنه من السهل نسيان هذه الحقيقة.

وما كان قد حققه بالفعل هو سلوك براجماتي، والذي كان، وفق تقدير أتيليه، رد فعل واعيًا للقوى التاريخية التي اكتسبت الكثير من الزخم خلال ثلاثين عامًا. فلم تكن هناك إمكانية للحفاظ على الراج بالقوة، حيث إن الغالبية العظمى من الهنود كانوا يتمنون زواله، ولم يكن هناك أي سبب للاعتقاد بأن بريطانيا سوف تكون راعية في إطالة عمره على حساب الدخول في حرب قمعية لا نهاية لها. حتى لو كان هناك تفكير في ذلك فإن مثل هذه السياسة كانت تجلب الدمار على الالتزامات البريطانية في كل مكان. فقد كان سيتم إطالة هذه الأحداث حتى تصل إلى نقطة انكسار، عام ١٩٤٦م، فالحكومة كانت قلقة من تداعيات ذلك على الصناعة، حيث إن ٦,١٨ في المائة من حجم القوى العاملة في البلاد كان في مجال الخدمات. والاختيار الذي كان يواجهه أتيلي قد تم تجسيده في أحد رسوم الكاريكاتير التي تم نشرها في جريدة الديلي هيرالد (Daily Herald) في ٢٤ مايو عام ١٩٤٦م. فقد تم رسم سيارتين على إحدهما شعار "حكومة حزب العمال" وعلى الأخرى "دول الكومنولث" تتطلقان إلى الأمام على طول طريق، في حين أن هناك سيارة قديمة مكتوبًا عليها "الوطني يسقط من على الجرف، وكل من سائقها وراكبها الساندين يهتفان "تعالوا من هذا الطريق"، هناك البعض في الجانب الأيمن أعصابهم قلقة على الفشل في الهند وفي كل مكان في الإمبراطورية، ولكن الأعصاب بدون العضلات لن تحافظ لا على الراج ولا على المستعمرات.

وأكثر من شعر بمرارة خسارة الهند هم الرجال والنساء الذين خدموا هناك وكرسوا حياتهم من أجل رفاهية شعبها. فالكثير من الذين خدموا طويلا في الراج قد أحسوا بالمرارة والرعب من السرعة غير المسبوقة لنقل السلطة وتبعاتها المشنومة. ولكن كان هؤلاء الذين كانت لهم صلات مع الراج لا يمثلون إلا قطاعا محدودا من المجتمع البريطانى. ففي يونيو من عام ١٩٤٦م كان هناك ٤٤٥٣٧ من الموظفين و١٠٨٣٧ من ربات البيوت والأطفال فى الهند، بجانب الحامية البريطانية والضباط البريطانيين فى الجيش الهندى. وقد كانوا آخر ممثلين للشعب البريطانى، منذ أيام كليف (Clive)، الذين اضطروا إلى الرحيل. فالرجال والنساء أتوا إلى الهند وقاموا بأداء الواجبات التى أرسلوا من أجل القيام بها، ثم بعد ذلك رجعوا إلى الوطن. ولذلك فكما قيل فى عام ١٩٤٧م، فإن المرشحين السابقين قد وجدوا أنه من الصعب قبول الانفصال العاطفى مع البلد والشعب الذين اعتادوا على حبهم والذين منحوهم أغلب أيام حياتهم. وبعد خمسة وأربعين عاما لاحقة، كانت هناك إعلانات فى الصحف حول إقامة العديد من حفلات العشاء لإعادة توحيد العائلات الهندية، وقد كانت تتم فى الغالب بالملابس العسكرية، فى نوادى لندن وهى شهادة على إحساسهم بالحنين والارتباط مع الراج.

وكانت التبعات الإستراتيجية والنفسية لخسارة الهند هائلة، ولكن كان تأثيرها، فى البداية محدودا. ولم يحسم مونتابتن مسألة التحالف العسكرى سواء مع الهند أو مع باكستان، على الرغم من أن كليهما قد تم اختيارا لدخول الكومنولث. ولكن سيلان كانت أكثر جاهزية ووافقت على السماح لبريطانيا باستخدام قواعدها، وبذلك فإن بريطانيا يمكنها الحفاظ على مكانتها القديمة المهيمنة فى المحيط الهندى. وقد كان هذا بمثابة عزاء صغير عوضا عن السيطرة على كامل الهند. فقد كان قادة الدولة من دزرائيلى (Disraeli)

وحتى بيفن مقتنعين بأن امتلاك الهند هو المفتاح لعظمة بريطانيا. وقد حذر كورزون (Curzon) أنه بذهاب الهند فإن بريطانيا سوف تتراجع إلى قوة من الدرجة الثانية.

وقد اتفق الإستراتيجيون من ويلينجتون (Wellington) وحتى كبار العاملين مع أتيليه على ذلك، وخشى الأخير من أن مستقبل بريطانيا كقوة عالمية سوف يكون في خطر بدون احتياطي الهند من الطاقة البشرية، التي برهنت على أنها عنصر أساسي في حربين عالميتين، وفي العديد من المعارك الاستعمارية الأصغر في كل من الشرق الأوسط وشرق أفريقيا والشرق الأقصى. ففي غضون عام من استقلال الهند، فإن أحد كبار المسؤولين كان يدعو لإقامة جيش بريطاني أفريقي على مثال الجيش الهندي:

"إذا تم دمج الوحدات البريطانية مع وحدات شرق أفريقيا على منوال مشابه، ولكن أصغر من الجيش الحديث للهند، فإن مستوى كفاءتهم ورغبتهم في الانضمام للحياة العسكرية يمكن أن يتحسن إلى مستويات غير مسبوقة. ويمكن ملء الرتب البريطانية الخاصة بالوحدات الأفريقية، خلاصة من يتم جذبه من خلال فرص الرزق والحياة"^(٣٥).

وكما ذكرنا سابقا فقد انحاز أتيليه في آخر الأمر إلى هذه الفكرة، ولكن الحفاظ على أعداد ضخمة من القوات العاملة كان مكلفا للغاية؛ الحفاظ عليها في وقت السلم. ومنذ منتصف عام ١٩٤٦م، فإن المخططين الإستراتيجيين البريطانيين كانوا قد بدأوا التركيز على المصادر الرخيصة، للقوة، التي كانت أكثر ارتباطا بمتطلبات الحرب الباردة، وهي قاذفات القنابل طويلة المدى والقنابل النووية. وباعتباره مصدرا للقوة والمكانة فإن الجيش الهندي قد أصبح غير متوافق مع الاحتياجات العصرية، على الرغم من أن خسارته سوف تحس فيما يطلق عليه معارك "القتال في الأدغال": (bush-fire) في الشرق الأقصى والأوسط أثناء الخمسينيات ومع بداية الستينيات.

وفى هذه السنوات وجد الشعب البريطانى نفسه وحيدا فى مواجهة تداعيات الصدمة المتأخرة لاندثار الإمبراطورية. وبطء رد الفعل يرجع فى أغلبه إلى حقيقة أن الكومنولث كان عاملاً مهماً على امتصاص الصدمات فى السنوات التى تلت عام ١٩٤٧م.

فقد ساعد فى تهدئة جرح الكبرياء الناتج عن خسارة الأرض والمكانة، وبدا كأنه يقدم تعويضا عنهما كليهما. فقد منح البريطانيين وضعا معنوياً خاصاً فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تقاتل فى حربين استعمارييتين دمويتين. وبالنسبة لأولئك الذين كانت آراؤهم السياسية تحدد بالأساس من خلال الاعتبارات الأخلاقية، فإنه كان يجسد كل المثاليات القديمة الخاصة بالاستعمار الخير، بدون أى إحساس بالذنب بسبب ارتباط ذلك بالحكم الأجنبى. وفى تقرير عن الموافقة على عقد مؤتمر الكومنولث الوليد فى عام ١٩٥٦م، فإن جريدة الأوبزيرفر (Observer) أشارت إلى "المنافع المعنوية" التى شعر بها المندوبون من خلال مناقشة قضايا مثل حملات مكافحة الأمية^(٣٦). وقد كان الأمر كله جدياً ويتسم بالود بالنسبة لأولئك الذين ينتمون للوسط واليسار؛ الذين لم يفقدوا اعتقادهم فى فترة ما قبل الحرب فى جدوى التعاون الدولى.

بعد عام ١٩٥٠م، فإن فضائل الكومنولث وقيمه قد أصبحت جزءاً من الإجماع السياسى لتيار الوسط البريطانى الذى قبل بدون أى شك مزايا الاقتصاد المختلط ودولة الرفاهة. وكان كل من قادة حزب العمال والسياسيين فى حزب المحافظين ملتزمين بالحفاظ على الكومنولث، وأعلنوا أنه يمثل إعلاناً على استمرار النفوذ البريطانى فى العالم. حيث كان الكومنولث، وفقاً لراى أحد المدافعين عنه، "نتاج منطقياً لتطورنا"، وأنه وريث الإمبراطورية، وبالمعنى الأخلاقى يمثل الخيار الأفضل على الإطلاق^(٣٧). وقد تم التعبير

عن انحراف التقاليد لكلا الحزبين من خلال الملكة إليزابيث الثانية (Elizabeth II) أثناء زيارتها لواحدة من الدول الأحدث في عضوية الكومنولث، وهي غانا، في نوفمبر من عام ١٩٦١م. وقد أشارت إلى تكوين الكومنولث على أنه بالأساس: "مجموعة من المتساوين، وعائلة من الشعوب المتشابهة في طريق التفكير أيا كانت الاختلافات الدينية والاختلافات في النظم السياسية أو الظروف أو الأعراق، فالكُل توافٍ إلى تحقيق السلام والحرية والرفاهية للجنس البشري"^(٣٨). والشئ الذي كان يحتاجه الكومنولث لكي يزدهر هو "الإيمان" به من قبل جميع الدول الأعضاء فيه. ولكن هذا الحديث كان من الصعب للغاية التسليم به، والأكثر صعوبة هو "الإيمان به، من جانب مضيفها، حيث إن الدكتور نكروما كان لا يزال رهن الاعتقال، وما زالت هناك قيود موضوعة على المعارضين السياسيين".

وقد شوهت الدروس القاسية التي مرت خلال الأربعة عشر عاما المنصرمة هذه النظرة الوردية والمتفائلة للكومنولث. وقد كان هناك عدد من المعارضين غير مستعدين للقيام بالخطوة الضرورية للإيمان بالكومنولث. ففي عام ١٩٥٦م، وهو العام الذي تعرض فيه الوضع العالمي لبريطانيا لاختبار يشكل علامة فارقة، فإن هناك عدداً قليلاً من الأصوات المعزولة كانوا مستعدين لأن يقوموا بطرح أسئلة استفهامية حول القيمة العملية للكومنولث في عالم تزداد العداءات فيه. وفي أحد التحليلات اللاذعة، والتي كتبت بعد فترة قصيرة من انعقاد مؤتمر رؤساء وزراء دول الكومنولث في يونيو من عام ١٩٥٦م، فإن الدبلوماسي المخضرم اللورد فانزيتارت (Vansittart) كان يرى أنه بعيداً عن دول الكومنولث البيضاء القديمة، فإن الكومنولث لا يمنح بريطانيا أي ميزات^(٣٩).

فنظام الأبارتهيد (الفصل العنصري) فى جنوب أفريقيا قد جعل أنه من السخرية القول بأن الكومنولث يدعم المساواة العرقية، وباكستان كانت جمهورية، ولكنها على الأقل كانت تصطف مع الغرب ضد الشيوعية، فى حين أن كلاً من الهند وسيلان، اللتين كانتا قد طردتا بريطانيا أخيراً من قواعدها، كان موقفهما من الحرب الباردة يتسم بالتشويش. فإعلان المؤتمر كان مليئاً "بالتفاهات حول الحياد العرقى" وقد كان الكومنولث، فى رأى مينز (Menzies)، "هو مجموعة مشتتة من الأمم، التى لا يربطها رابط سوى الصداقة".

وعلى الطرف الآخر من الطيف السياسى، فإن السياسيين قد نبذوه كلياً. فالكومنولث كان بالكامل "لا شكل له" حيث كان يفتقر "لأى أساس للوحدة" وإنه يفتقر إلى الآليات لإحداث تعاون سياسى أو اقتصادى أو عسكرى^(٤٠). وقد تكون بريطانيا قد هنأت نفسها حول التحول السلمى، إلى حد كبير، من الإمبراطورية إلى الكومنولث، وأحست ببعض الرضا الأخلاقى عن الذات؛ باعتبارها أصبحت مثالا متألّفاً للتعاون فيما بين الأمم، ولكن ذلك لا يعادل القوة والمكانة التى كانت تمنحها لها الإمبراطورية. ومع ذلك فإنه قد حمى الشعب البريطانى من أن يصبح فجأة وجهاً لوجه مع حقيقة أنه بعد عام ١٩٤٧م قد تضاعلت قوة بلادهم. فمع الإدراك المتأخر فإنه من الممكن أن نرى أن الكومنولث قد مكّن بريطانيا من أن تقبل بخسارة الهند بدون الكثير من الحزن. ومن الغريب القول، أن الحكومة العمالية التى كانت هى المهندس لعملية تفكيك الإمبراطورية الهندية، استمرت فى التصرف كما لو أن بريطانيا ما زالت قوة كونية هائلة. وقد تركت للمحافظين، ورثة هذه العجرفة، لأن يدركوا الواقع الحقيقى.

(٣)

العالم كما هو

المصائب الآتية من الشرق الأوسط

(١٩٤٥-١٩٥٦)

ذكر اللورد ريتشارد كرومان (Richard Crossman) عضو البرلمان "إننا يجب أن نبني سياستنا على افتراض أنه لا يوجد جيش هندي ليتم إرساله إلى البصرة". وقد كان بقوله هذا يدافع عن حزبه ضد الاتهامات له بالارتباك أثناء مناقشة أحوال الشرق الأوسط في يوليو عام ١٩٥١م. فقد كان المحافظون يرون أن السنوات الست الماضية قد شهدت التضحية بالمصالح البريطانية في منطقة كانت في السابق تمثل مجالا نشطا للمصالح البريطانية. وأنه أيضا، أثناء نفس الفترة، فإن حكومة أتيليه قد تحدث الكثير في مسألة تطوير القنبلة النووية البريطانية، بأن امتلاكها سوف يدعم الادعاء البريطاني بأنها ما زالت قوة عالمية.

وقد كان أسهل بالنسبة لحزب العمال أن يكتسبوا مصادر القوة بدلا من ممارستها. ففي عام ١٩٤٥م ورث أتيليه جميع المشاكل السابقة على الحرب والخاصة بالشرق الأوسط مثل: تدهور الصراع بين العرب واليهود، وازدياد غليان المصريين ضد الحكم الأجنبي، وانتشار الشعور بأن بريطانيا هي أكبر عائق للطموحات القومية والوحدة للعرب. وقد كان حزب العمال غريزيا

متعاطفا مع حركات التحرر، فقد كان حزبا تقدما ذا توجه دولي، وكان يعتقد أنه بذلك متوافق مع الاتجاهات السائدة في العالم الحديث. وقد كان المحافظون أسرى الماضي ويتبنون مفاهيم الأسلاف الخاصة بالتفوق العرقي وكان مصبوغا بصبغة رقيقة من العداء للأجانب. وفي أثناء النقاش الذي تم فيه إثارة موضوع شعب بورما فإن جورج ويج (George Wigg) سريع الاستثارة قد صرخ من مقاعد المحافظين:

يعتقد "الرجل الشريف المحترم هو وأصدقاؤه أن كل الناس مثلهم (Wogs)". وبالفعل فإن العضو اليميني المحترم عن وودفورد (تشرشل) كان يعتقد أن المتحضرين يوجدون في كاليس (Calais) ".

لم تكن المبادئ والمثاليات العليا للأخوة الدولية دائما متوافقة مع السعي لتحقيق المصالح البريطانية، خاصة في الشرق الأوسط وفي ظل الظروف التي فرضتها الحرب الباردة. فالحكومة كانت دائما منبّهة للمطالب التي تقدمها الدولة الشريكة لها، الولايات المتحدة الأمريكية، خلال عام ١٩٤٦م، فالإستراتيجيون في كل من البننتاجون والحكومة البريطانية بدأوا يرسمون مسار حرب مفترضة ضد روسيا، وقد خلص كل منهما إلى أن السيطرة على الشرق الأوسط هي أمر حيوي من أجل تحقيق النصر. وإن كان لا بد وأن يهزم الاتحاد السوفيتي، فإنه لا بد أن يتم تكمير جزء كبير من آلتة العسكرية بواسطة استخدام القنابل النووية. والهجوم النووي على مناطق القلب الصناعي لروسيا يتطلب وجود قواعد قريبة نسبيا لحدوده. لذلك ففي صيف عام ١٩٤٦م وافقت بريطانيا سرًا على السماح لمقاتلات بي-٢٩ بالطيران من أجل شن غارات، انطلاقا من المطارات الموجودة في شرق إنجلترا (Anglia) وفي مصر^(١). وقد كانت الأخيرة مهمة للغاية، لأنها تجعل من الممكن القيام بهجوم نووي مركز على حقول البترول ومعامل تكرير البترول

والمراكز الصناعية في منطقة القوقاز وفي حوض الدون. وبوجود هذه الإمكانية فإن قدرة روسيا على شن حرب في غرب أوروبا قد تقلصت بشكل كبير. وقد كانت الأسلحة النووية وحدها القادرة على تعويض عدم التوازن في عدد القوات المسلحة الضخمة في روسيا مقارنة بما يملكه الغرب.

وانطلاقاً من هذه المقدمة المنطقية، قام الخبراء في البنناجون بمراجعة خططهم وتعديلها خلال السنوات القليلة التالية. ونسخ عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨م، والتي حملت أسماء كودية "المشواة" و"الطريق السريع"، قد منحت القوات الجوية الأمريكية (USAAF) خمسة عشر يوماً تقوم فيها باستخدام قاذفات القنابل لديها وشحنات القنابل النووية على مدارج مطارات منطقة القناة^(٢). والدفاع المحلي، وينطبق ذلك على الشرق الأوسط بكامله، قد عهد به إلى القوات البريطانية وقوات الكومنولث^(٣). ونطاق الهجوم ضد "البطن الرخو" الروسي قد ازداد؛ لأن المخزون الأمريكي من القنابل النووية قد ازداد من خمسين قنبلة في عام ١٩٤٨م إلى ثلاثمائة في عام ١٩٥٠م. وفي عام ١٩٤٩م فإن الخطة "دروب شوت" (dropshot)، والتي تحدد سيناريو الحرب في عام ١٩٥٧م، قد افترضت وجود هجوم على جنوب روسيا بواسطة تسع وخمسين من قاذفات القنابل التي تتطلق من مصر^(٤). ومثلها مثل سابقتها، فإن خطة الحرب هذه قد أخذت في حسابها أن بريطانيا سوف تظل مسيطرة على منطقة القناة.

وقد كانت المطارات المصرية جزءاً مهماً أيضاً من البرنامج النووي للقوات الجوية الملكية. وترجع بداية ذلك إلى عام ١٩٤٦م، عندما كان رؤساء الأركان، خاصة قائد القوات الجوية اللورد تيدر (Tedder) والفيلد مارشال مونتجمري (Montgomery)، مقتنعين مثل أتيليه أنه من الضروري

بالنسبة لبريطانيا أن تحافظ على هيمنتها القديمة على البحر المتوسط والشرق الأوسط^(٥). وقد كان دليلهم على ذلك بسيطاً، أن بريطانيا سوف تظل في الصف الأول وقوة كونية، وتتمتع بقدر من الاستقلال عن الولايات المتحدة إذا حازت القنابل النووية ووسائل إيصالها ضد الاتحاد السوفيتي.

في حالة حدوث حرب، فإن جزءاً مهماً من قوة الهجوم النووي البريطانية سوف يطير من منطقة القناة في اتجاه جنوب روسيا. وأثناء السنوات الست التالية، فإن بريطانيا قامت بتنفيذ برنامج نووي طموح. فلقد استمر العمل من أجل تطوير طائرات V قاذفة القنابل النفائفة، وقد دخل أولها إلى العمل في عام ١٩٥٥م. وقبل ذلك بثلاث سنوات أجرت بريطانيا أول تجربة لقنبلة نووية فوق جزيرة مونت بيلو (Monte Bello) على الساحل الشمالي الغربي لأستراليا.

ووفقاً لخطة الحرب البريطانية المسماة "حصان طروادة" (Trojan) والتي تم وضعها في عام ١٩٥٢م (الأسماء الكودية أصبحت أكثر تعبيراً عن الحرب كلما اشتدت الحرب الباردة)، والقنابل التي تم إنتاجها بعد قنبلة مونت بيلو، وسوف يتم إلقاؤها على روسيا، وإذا كانت الأعداد التي أضافتها صحيحة فإن ذلك كان سوف يؤدي إلى تقليص القدرة الصناعية لروسيا بمقدار ٣٠-٤٠ بالمائة^(٦). ومع بداية عام ١٩٥٦م، تم إحداث تغييرات كبيرة للسياسة المستهدفة. فقد كان متوقعاً أن تقوم روسيا بهجوم برى وجوى على نطاق واسع في الشرق الأوسط ضد شرق تركيا وآبار البترول في كل من إيران والعراق. وإذا أخذنا في الاعتبار أن التحذيرات سوف تكون قبل اندلاع الأعمال العدائية بثلاثة أسابيع، فإن بريطانيا سوف تكون في المكان المناسب الذي يمكنها من القيام بهجوم مضاد، وهو ما قد يتضمن القيام بهجمات نووية ضد حشود القوات السوفيتية وضد مطاراتها وخطوط اتصالاتها^(٧).

ولم تفترض أى من هذه التكهّنات أن تبادل الضربات النووية سوف تؤدى إلى نصر تام لأى من الجانبين. وعلى الرغم من أن الأسلحة التقليدية أصبحت معطلة، فإن الأطراف المتعادية سوف، كما كان يعتقد، تظل لديها الإرادة وبعض المال الكافى لى تقوم بالحرب باستخدام الأسلحة التقليدية. وفى مثل هذا الوضع، فإن بريطانيا سوف تضطر لأن تقوم بالدفاع عن الخطوط البحرية، فى العالم، التى تتيح لها الحصول على الطعام والبترول. والبيانات التى تم جمعها من اختبار مونت بيلو تم استخدامها لاكتشاف التأثيرات المحتملة لهجوم نووى على إحدى الموانئ الكبرى، ميناء ليفربول، وقد تم توسيع نطاق هذه الدراسة حتى تشمل قناة السويس. والنتائج كانت حاسمة فى تأكيدها أن كلاً من ميناءى ليفربول وبورسعيد يمكن أن يتم استعادة العمل فيه بعد أربعة أشهر. ومشكلات التلوث يمكن التغلب عليها وإذا انفجرت قنبلة نووية روسية على قناة السويس، فقد كان من المقدر أن معدات جرف التربة التى يتم تشغيلها بواسطة "توبات من الرجال" يمكن أن تقوم بفتح ممر ملاحى فى غضون عدد من أشهر^(٨). وهذه المعلومات المدهشة، والتى تم تقديمها فى تقرير فى يوليو ١٩٥٦م، افترضت أنه سوف يكون هناك عدد كاف من العمال والآلات لما ثبت أنه مشروع شديد الخطورة بالنسبة لأولئك الذين سوف تكون مهمتهم جرف الرمال.

أصبحت منطقة القناة رقماً مهماً فى حسابات الحرب النووية. وإذا كانت هناك إمكانية لكسب صراع من هذا النوع، وقد اعتقد الإستراتيجيون الذين قاموا بوضع عدد كبير من خطط الحرب وكانوا يؤمنون بأن ذلك ممكن، فالسيطرة الإنجليزية الأمريكية على الشرق الأوسط فى هذه الحالة يجب أن تستمر. حتى بدون أى مخططات للبدء فى هجمات الحرب التى يمكن كسبها ضد جنوب روسيا، فإن المنطقة يجب أن يتم الاحتفاظ بها ضمن المعسكر الغربى، ويجب الدفاع عنها من أجل الحصول على البترول الموجود بها.

فقد شهدت الحرب العالمية الثانية تحول نمط استهلاك العالم للبترول. فبحلول عام ١٩٥١م، كان الشرق الأوسط يقوم بتقديم ٧٠ في المائة من احتياجات الغرب البترولية، جميع الاحتياطيّات المستقبلية للبترول كان يعتقد أنها سوف تتركز في المملكة العربية السعودية والخليج الفارسي.

وقد حل البترول والمطارات محل الدفاع عن الهند كسبب لقيام بريطانيا بالسيطرة على الشرق الأوسط. بمعنى أن المقولات الإستراتيجية والجغرافية لكل من دزرائيلي وكورزون لا تزال حقيقية. وكانت هذه المقولات، كانت تتكرر كثيرا خلال الأربعينيات وبداية الخمسينيات، خاصة من أعضاء البرلمان عن حزب المحافظين وفي غرف لجان وزارة الحرب، سواء الخاصة بالقوات البحرية أو الجوية. ولكن هل حافظت بريطانيا على قوتها القديمة، وكانت مستعدة لأن تتصرف بجراً، عندما تواجه بصعوبات؟ على الأقل على الورق، فإن بريطانيا كانت قوة مرعبة في المنطقة في عام ١٩٤٥م لأنها ظلت كذلك لفترة عشرين عاما أو ما يقارب ذلك قبل أن يقوم الشاب ناصر بلعن طائرات القوات الجوية الملكية التي كانت تطير فوق منزله. ففي عام ١٩٤٥م كانت كل من الأردن والعراق وإيران والمشيخات العربية حول الخليج الفارسي لا تزال تحت السيطرة البريطانية. وكذلك أيضا بالنسبة لمصر، المضيف الغاضب لقاعدة قناة السويس الكبيرة، والمخازن والمطارات التي كانت منتشرة حول القناة. وهذه القاعدة، التي كانت تبلغ ١٢٠ ميلاً طولا و ٣٠ ميلاً عرضاً، كانت هي أكبر قاعدة عسكرية في العالم وهي محور القوة البريطانية في الشرق الأوسط وأفريقيا. ويتشعب من منطقة القناة شبكة من المواقع العسكرية والقواعد البحرية في مالطا وقبرص وحيفا وليبيا التي كانت مستعمرة إيطالية سابقا (والتي كانت روسيا تتمناها) وفي الأردن والعراق وعدن وفي الخليج الفارسي.

وقد كانت هذه النقاط القرمزية اللون على خريطة وزارة الحربية تزعج بيفن. فقد كان على وعى بالمزاج الجديد المتشدد والمعادى لبريطانيا في الشرق الأوسط، وقد شجع عليه الرأي الذي كان سائدا على نطاق واسع من أن بريطانيا تمثل عائقاً أمام القومية الهندية. فبريطانيا يمكن أن تتفكك، وفي أول يوم من عام ١٩٤٧م، قام بتحذير أتيليه من أن المشكلات قادمة. "أنت لا تستطيع قراءة التلغرافات القادمة من مصر والشرق الأوسط في هذه الأيام، بدون أن تدرك أنها ليست الهند وحدها هي التي سوف تضيق، ولكن أيضاً مالطا وسيلان والشرق الأقصى يسير في نفس الاتجاه، مع وجود صدى لذلك في الأقاليم الأفريقية"^(٩). وبعد أربعة أشهر، في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا تواجه أزمة مالية أخرى، فإن بيفن اعترف بشكل صريح لبعض من العاملين معه أنه سوف يضطر "لأن يتدخل بنفسه في طريقة التعامل مع شئون الشرق الأوسط"^(١٠).

وقد كانت هناك فوضى على وشك الحدوث. فمنذ نهاية عام ١٩٤٤م، فإن القوات البريطانية كانت تحاول عبثاً احتواء ثورة اليهود في فلسطين. فقد كانت هناك حملة اغتياالات من قبل العصابات وأعمال تخريب يقوم بها المؤيدون لهم، وقد كانت ذات طبيعة جريئة وقاسية مثل الجيش الملكي الهندي IRA.

ومثلها مثل الحملة الأيرلندية فإن الحملة الفلسطينية قد جلبت العار على بريطانيا في الخارج، خاصة في أمريكا، وأدت إلى استهلاك الثروات النادرة. فالنقص في التمويل أصبح الآن يفرض نفسه على السياسة. فالفقراء لا يقنعون المناققين، وعند بداية العام فإن بيفن اضطر إلى سحب المعونات من الحكومات المعادية للشوعية في كل من تركيا واليونان، والتي تم إنقاذها نتيجة ذلك عن طريق المساعدات الأمريكية. وفي نهاية سبتمبر من عام ١٩٤٧م، فإن الحكومة قامت بغسل يديها من الأوضاع الفلسطينية

المحرجة والمكلفة. فمائة ألف جندي لم يستطيعوا كسر دائرة الإرهاب والإرهاب المضاد، وأصبح الإقليم بشكل واضح في حالة فوضى. وقامت بريطانيا بالتنازل عن حق الانتداب للأمم المتحدة مع وعد بالانسحاب بحلول مايو من عام ١٩٤٨م.

وقد كان هذا الإعلان مساوياً للانتصار بالنسبة للعصابات اليهودية، التي دخلت بسرعة في حرب أهلية مع الفلسطينيين. وخلال الثمانية الأشهر التالية، فإن الأمم المتحدة حاولت بدون نجاح أن تقوم بترتيب عملية التقسيم بين العرقين اللذين حاول كل منهما إبادة الآخر. وقد كان الأمر سيئاً للغاية أن تضطر بريطانيا للفرار من المحمية التي قامت بحكمها لما يقارب ثلاثين عاماً، ولكن الأسوأ كان هو ما أعقب ذلك. فالأيام الأخيرة للانتداب البريطاني شهدت مذبحه لـ ٢٤٠ من العرب، وكان فيهم نساء وأطفال، بواسطة إحدى الوحدات اليهودية في دير ياسين. وساعدت هذه الحادثة على دفع الفلسطينيين للهجرة الجماعية، وبحلول عام ١٩٤٩م، كان هناك ٧٢٠.٠٠٠ من اللاجئين قد فروا إما إلى غزة أو إلى الأردن. وقد تم لوم بريطانيا في جعلهم بلا وطن وإقائهم في معسكرات منعزلة، وكان بمثابة رسالة تذكير للعالم العربي بعجزها وخيانتها. وبعد عام ١٩٤٨م، فإن بريطانيا ودولة إسرائيل الوليدة أصبحتا رمزا للاحتلال الأجنبي والضعف العربي. وقد تركت للأمم المتحدة مهمة تقديم مساعدات مالية للاجئين وإعادة توطينهم متى كان ذلك ممكناً.

وأياً كان ما ذكره المتحدثون الرسميون في فترة ما بعد الحرب، والذي يتناقض مع النيات الحسنة لبريطانيا فيما يتعلق بمستقبل الشرق الأوسط، فإن ذلك لم يكن صادماً بالنسبة لسمعتها فيما قبل الحرب باعتبارها قوة طاغية ومتأمرة. وقد يكون لورانس العرب بطلاً في بلاده، ولكن بالنسبة للعرب فإنه كان الأول في صف طويل من المحتالين الاستعماريين الذين كانوا يشتبهون

الحصول على مواردهم وأرضهم. "مكانة بريطانيا في كامل المنطقة كانت غير قابلة للإصلاح. فقد كانوا مكروهين ومشكوكاً فيهم في كل مكان تقريباً" هذا ما خلص إليه استطلاع رأى قامت به جريدة التايم ونشر في بداية عام ١٩٥٢م. وبعد أسبوعين من قيام المجلة بنشر التعليق التالى "اللعبة القديمة الخاصة بمهاجمة البريطانيين بدأت في كل من مصر وفارس"، ويمكن أن نضيف لها أن اللاعبين كانوا يشعرون بثقة أكبر من أى وقت مضى بالنصر النهائي^(١١).

وفى أبريل من عام ١٩٥١م، فاز الحزب الوطنى الذى يتزعمه الدكتور محمد مصدق بالانتخابات العامة فى فارس، أو إيران كما تسمى نفسها الآن، والتي مزقت الاسم المستمد من المجد القديم فى كتب التاريخ. وقد أتى مصدق الضعيف الكبير فى السن إلى السلطة ببرنامج يقوم على الأنجلوفوبيا (الخوف من إنجلترا) والتجديد القومى. فقد فتن الجماهير بقوة بلاغته، وقد كان يصاب بالدوار فى وسط الجماهير، ولكنه كان يتجاوز الضعف البدنى من خلال العواطف المتضمنة فى خطابه البليغ. وقد كان ينظر لنفسه على أنه منقذ بلاده، وفى إحدى المرات قام بإخبار الحضور فى نيويورك أن إيران فى عام ١٩٥١م كانت تفعل ما قامت به أمريكا فى عام ١٧٧٦م، أى أنها كانت تحرر نفسها من حاكم جشع ومتسلط. وفى يناير من عام ١٩٥٢م فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة استمعت لقصة مطولة حول الآثام التى ارتكبتها بريطانيا فى إيران، كما كان يفضل مصدق أن يسميها. والمندوب البريطانى المصاب بالإحراج، السير جلاوين جيب (Gladwyn Jebb)، قد وصف هذه الروايات بالظالمة وأنها "عديمة الجدوى وتقدم تفسيراً عقيماً للأحداث الماضية"، وطلب من مصدق النظر إلى المستقبل.

ومهما كان حجم المطالب المهذبة لنسيان أو حتى غفران الماضى يمكن أن تكفر عن ذنوب بريطانيا فى عيون الإيرانيين، أو كذلك فى عيون القوميين المصريين والعرب. فالذكريات كانت كثيرة ومريرة، فقد كان مصدق كبيراً فى السن للدرجة التى تمكنه من تذكر القوات الهندية وهى تسير فى بلاده أثناء الحرب العالمية الأولى، وكذلك الاتفاقيات غير العادلة والحكومات التى كانت تنصب وتسقط وفقاً لنزوات البيروقراطيين فى لندن أو فى دلهى، وعودة القوات البريطانية فى عام ١٩٤٢م. فالإيرانيون مثلهم مثل الشعوب الأخرى فى الشرق الأوسط، كانت أقدارهم تقرر لهم، والآن فإن مصدق يعتقد أنهم قادرون الآن على صناعة تاريخهم بأنفسهم. وقد كان من غير المجدى أن يتم التوضيح له ولمن يستمعون إلى حديثه أن بريطانيا قد تغيرت، وأنها كانت فى ذلك الوقت مستعدة لأن تقوم بمساعدتهم فى تنمية بلادهم باعتبارها شريكاً صادقاً، أو أن الشركات البريطانية كانت بمثابة أرباب أعمال تقدميين وإنسانيين. وقد كان بالفعل هناك ظلم، ولكن كان هناك فوائد أيضاً من عدم العدالة الذى تم فى السابق، أو كما كان يبدو الأمر بالنسبة لمصدق والملايين من الإيرانيين الآخرين.

وفى مايو من عام ١٩٥١م، فإن مصدقاً أخلص لأولئك الذين صوتوا لصالحه عن طريق تأميم أصول شركة البترول الإنجليزية- الإيرانية. وقد كانت هذه الشركة رمزا لاستعباد إيران ولقوة بريطانيا، وقد كانت بمثابة الطفيل الذى يمتص دم إيران، ويترك شعبها فقيراً وجائعاً. فالثروات التى كان يتم جنيها بواسطة شركة البترول لم يكن يتم توزيعها بالتساوى، وفى السنة السابقة على عملية التأميم، فإن إيران قد حصلت على ٩ ملايين جنيه إسترليني مقابل حقوق الملكية، وهو ما يزيد بمقدار مليون جنيه على العوائد الداخلية لأرباح الشركة. ووفقاً للمصطلحات التجارية الخالصة، فإن شركة

البنترول الإنجليزية- الإيرانية كانت تحتفظ ببعض من أرباحها عن طريق تطبيق نظام النصف بالنصف، وهو النظام الذي كانت تطبقه الشركات الأمريكية المماثلة في كل من العراق والمملكة العربية السعودية، وعلى الرغم من أن هذا قد يكون شاقاً، وهو ما لم يكن يعجب رئيس الشركة وبالطبع أيضاً حملة الأسهم. ولأن الأزمة لم تحل وتفاصيل التاريخ الإنجليزي الإيراني أصبحت معروفة، فقد كان هناك الكثير من النقد الخافت حول ماضيها الأناني في أروقة الحكومة البريطانية^(١٢).

ولكن في العن كان الوزراء والصحافة يظهرون الشركة على أنها نموذج للكرم التجاري.

فبالإضافة إلى أن الحقوق التعاقدية الإنجليزية- الإيرانية كانت ثابتة. فإن البنترول الإيراني كان يمثل إحدى وثلاثين في المائة من واردات أوربا البترولية و ٨٥ في المائة من الوقود الذي تستخدمه البحرية الملكية. بالإضافة إلى أن مصدقاً قد تحدى بريطانيا، وهو ما شجع كل الأطراف اليمينية وعدداً محدوداً من اليساريين، وإذا أخذنا المزاج العام الذي كان سائداً في المنطقة بأكملها، يمكن أن يشكل مثالا يحتذى به في كل مكان. "قمرة واحدة يمكن أن تروعا الدول الآسيوية عن طريق عرض للقوة" هذا ما أعلنته مجلة الإيكونوميست (Economist)، وهي بذلك تردد آراء المحافظين الذين اعتقدوا أن هذا يجب أن يكون الوضع. والمشكلة كانت في أن إيران الآن يمكن أن تقدم احتجاجاً إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول العدوان البريطاني، وسوف تحظى بالدعم من دول الشرق الأوسط، والدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية، وبالطبع، الكتلة الشيوعية^(١٣).

ومع ذلك فإن خليفة بيفن، هيربرت موريسون (Herbert Morrison)، وهو أحد المعجبين المتحمسين ببالمرستون، قد أمر البارجة موريشيوس

(Mauritius) بأن تتجه بعيدا عن جزيرة عبادان (Abadan). وفى غضون ذلك، قام قادة الأركان بالاجتماع ووضع مجموع من خطط الطوارئ التى تم إطلاق أسماء فى منتهى الذكاء عليها، وهى القرصان والقزم، واحدة كانت بهدف التدخل العسكرى، والأخرى كانت من أجل إجلاء ٥٠٠ من الفنيين البريطانيين الذين كانوا يقومون بتشغيل معمل التكرير. وإذا رحل هؤلاء الفنيون فإن الأجهزة سوف تنقل بسرعة إلى الإيرانيين الذين لا يملكون الخبرة اللازمة لتشغيلها. وعلى شاكلة الأطفال المشاكسين الذين يتطفلون على ما لا يستطيعون فهمه، فإن الإيرانيين كانوا يريدون تعلم الدرس. وكما أوضحت مجلة الإكونوميست بشيء من الازدراء: "التأميم هو موضة نصف القرن. على الرغم من أنها تبدو غير مفيدة على الإطلاق فإن الوطنيين سوف يرغبون فى تجربتها"^(١٤).

وقد كان هناك الكثير يعتقدون بأن "القيام بضربة سريعة على مفاصل الأصابع سوف تكون هى الطريقة الأفضل لإرجاع الإيرانيين إلى عقلم، وأن يركعوا لبريطانيا". وقد أثبت هذا الأسلوب أنه أقصى مما أن يتصور فى أول الأمر، من جانب البحرية الذين وجدوا أن هناك مشكلة فى توفير السفن اللازمة لتنفيذ خطة "القرصان" لأن البحرية كانت لديها التزامات شديدة تجاه الحرب الكورية^(١٥). وفى مجلس العموم، فإن المحافظين كانوا غير راضين عن هذا الإجراء وكانوا يريدون الحرب. وفى ٢٠ من يوليو قام تشرشل بفتح النقاش حول إيران عن طريق توبيخ موريسون على نطقه غير السليم للفظـة "الفرات". ثم بعد ذلك تحسر على خسارة الهند، ثم عنف الحكومة بسبب سياستها الضعيفة فى الشرق الأوسط. فبريطانيا ليس أمامها إلا أن تقوم بالضغط الكافى بطريقة أو بأخرى لمواجهة مصادرة حقوقها ومصالحها^(١٦).

وقد قام العميد أنتوني هيد (Anthony Head) باستكمال الهجوم بتوجيه اتهام أن السياسة الخارجية البريطانية يتم حقنها بقدر أكبر من اللازم من "الاشتراكية"، والنتيجة هي أن الجماهير في الشرق الأوسط أصبحت تتصرف بوقاحة في حين أن مكانة بريطانيا آخذة في التدهور. وقد شبه جوليان إمري (Julian Amery)، الذي كان قد ورث عن أبيه بشكل كبير الوطنية الاستعمارية، الوضع بأنه يشبه حانة فندق شبرد.

ووفقا لما ذكره إمري الابن، فإن بريطانيا لم تفهم مشاعر الرجل القادم من البازار، فأحد المصريين قد أخبره ذات مرة: "الاستقلال هو شيء جيد بالنسبة للباشا، سيئ بالنسبة للفلاح. والحكم البريطاني هو شيء جيد بالنسبة للفلاح ولكنه سيئ بالنسبة للباشا"^(١٧). وعلى عكس أفكار إمري، فإن هناك القليل للغاية من الفلاحين ورفاقهم الذين يعتقدون أن بريطانيا تقدم لهم يد العون. وقد أنهى أتيليه النقاش بالإشارة إلى أحد الدروس التاريخية مذكرا بالحرب السابقة التي تم شنّها من أجل حقوق حملة الأسهم البريطانيين: "قسي مصر رايتهم لازالون يتذكرون قذف الإسكندرية بالقنابل. وهذا الشيء يمكن أن يتم في القرن التاسع عشر، ولكن لا يمكن القيام به الآن، فنحن نعمل في ظل ظروف مختلفة تماما"^(١٨).

وقد كان تشرشل يبلغ الثامنة من العمر، عندما ضربت المدافع الإسكندرية في عام ١٨٨٢م، وهو يريد أن يسمع دويها مجددا في الخليج الفارسي. وكما ذكر في وقت لاحق أنه حينما كان رئيسا للوزراء "يُضرب بالبنادق" لكن لم يسمع أو يحس به أحد من الإيرانيين^(١٩). وقد اختار أتيلى خطة "القرم" بدلا من خطة "القرصان". فالأخيرة سوف تؤدي إلى زيادة عدد الجيش بشكل خطر، والقيام بغزو إيران سوف يجعل مصدقا يقوم بسهولة بالتوسل إلى الاتحاد السوفيتي من أجل تقديم يد العون. وقد كانت هذه أيضا

وجهة نظر وزير الخارجية الأمريكية، دين أشييسون (Dean Acheson)، الذى كان يعتقد أنه سواء تم دعوة الروس أم لا، فإنهم سوف ينتهزون الفرصة، لكى يعودوا مرة أخرى إلى شمال فارس، الأرض التى كانوا قد استولوا عليها وتم طردهم منها بصعوبة منذ خمس سنوات مضت.

ولم يكن أتيليه يرغب فى أن يحول إيران إلى ساحة للحرب الباردة. بالإضافة إلى أنه، فى ديسمبر من عام ١٩٥٠م، طار إلى واشنطن لإقناع ترومان بأن يتخلى عن اقتراح الجنرال ماك آرثر (MacArthur) باستخدام قنبلة نووية ضد القوات الصينية فى كوريا. وابتاع أسلوب مرن مع إيران من خلال استخدام دبلوماسية الخطوة خطوة. وفى ٢٧ سبتمبر، سيطر مصدق على مصف بترول عبدان ورحل فريق العاملين به. وقد اشتكت مجلة الإسبكتاتور (Spectator) "إننا فقدنا المكانة على نطاق غير مسبوق"، وأضافت على نحو محزن أن هناك انقلاباً فى الأوضاع يتم الإعداد له، فالعالم الشيوعى والعالم العربى سوف ينظران إلى المعارضة الناتجة عن ذلك على أنها "معركة بسيطة بين كلاب الطبقة العليا وكلاب الطبقة الدنيا"^(٢٠). إلا أنه كان هناك بعض العزاء لأولئك الذين يلعبون بالنار، الذين سوف يتذوقون أصوات مدافع موريشيوس التى سوف تنطلق غاضبة عليهم، وفى ٢٥ أكتوبر فاز المحافظون بالانتخابات العامة بأغلبية بسيطة.

وبعد شهر قليلة من إخلاء جزيرة عبدان، فإن أشييسون صدم إفيلين شوكبرف بقوله: "عليك أن تعيش فى العالم على ما هو عليه"^(٢١). والأحداث التى كانت تجرى فى إيران خلال الشهور القليلة الماضية قد ألمحت إلى ما سيكون عليه المستقبل.

فلم تعد بريطانيا تتوقع العمل لا مع الشيوخ المراعين لرغباتها، الممتنين لمنحهم السيادة، أو المحافظين والسياسيين المذعنين الذين يرتدون

عباءات أو طرايش، الذين يمكن تخويفهم بالتهديد بأن تقوم السفن الحربية بتجاوز الخطوط معهم. فالآن أصبحت بريطانيا تواجه مجموعة من المتمتعين بشعبية الساخطين على الاستعمار. وقد كان مصدق من هذا النوع الجديد من الرجال، فقد كان يرتدي بيجامة خضراء عندما استقبل السير فرانسيس شيبرد (Francis Shepherd)، السفير البريطانى فى طهران. وهذه الإهانة، بجانب عادته بأن يقوم بالانتشاء أمام الجماهير، أقنعت شبرد بأن هذا الإيراني مجنون، وهو الوصف الذى قبلته كل من الحكومة والصحافة البريطانية.

وقد كان هناك معنى مؤلم آخر كامن فى الملاحظة التى أبداهـا أـشـيسـون. فخلال الأزمة الإيرانية، فإن الحكومة البريطانية اضطرت إلى السعى للحصول على المشورة الأمريكية، وفى بعض الأحيان كانت هذه المشورة تعطى لها حتى بدون أن تطلبها. وأغلب هذه النصائح كانت تأتى من جورج ماكجى (George McGhee)، وهو اختصاصى سابق فى جيولوجيا البترول، كان قد خدم لمدة ثلاث سنوات كجاسوس متجول لوزارة الخارجية فى الشرق الأوسط. وباعتباره أكاديميا سابقاً مناصراً لروـدس (Rhodes) فإن ماكجى كان يسهم باعتقاده الراسخ فى "رسالة الرجل الأبيض"، ولذلك فإنه كان أكثر تحملاً تجاه المآزق الحالى لبريطانيا أكثر من الدبلوماسيين الأمريكيين الآخرين. ومع ذلك فإنه كان مشتبهـا به خطأ أن له يدا فى المصالح البترولية الأمريكية، وقد حذر وزير الخزانة موريسون بأن شباب ماكجى، الذى ترعرع فى تكساس وينتمى لأسلاف أيرلنديين، تجعل منه شخصا لا يجب الإنصات لأقواله عندما تتعلق بالمصالح البريطانية^(٢٢).

وكانت التوترات فيما بين إنجلترا وأمريكا قوية بنفس القدر الذى كانت عليه أثناء الحرب، واتجهت إلى ما هو أسوأ عندما تم تعيين جون فوستر دالاس (John Foster Dulles) كوزير للخارجية الأمريكية فى عام ١٩٥٣م.

فدالاس مثله مثل الرئيس كوليدج (Coolidge)، وهو بيورتاني آخر وصل إلى المنصب الرئاسي، كان له سلوك مثل "من فطم على المخل"، وحماسته ضد الشيوعية كانت لا يساويها في القوة إلا كراهيته للاستعمار. والسفير البريطاني في واشنطن، السير روجر ماكينز (Sir Roger Makins)، وصف الأخير بأن "لديه مشاعر كامنة حول الاستعمار، وهو ما كان شائعا لدى الكثير من الأمريكيين، تخرج أحيانا منه وكأنها حمم خارجة من بركان هائج".

والشيء الكامن خلف هذه الانفجارات كان هو الخوف من أن تتعرض الولايات المتحدة لتشويه صورتها بسبب ردائل شريكها في الشرق الأوسط. وإذا كانت أمريكا قادرة على أن تسير وفق ما ترى في الحرب الباردة، فإنها لا تستطيع تحمل الارتباط الشديد مع القوة الآخذة في الأفول والتي، كما أثبت رد فعل الجماهير على الأزمة الإيرانية، تميل أن ترى العالم من على سطح بارجة حربية أو من على منصة إطلاق في مركبة عسكرية. وقد أدرك نائب الرئيس ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) هذا الخطر عندما قام بجولة في آسيا خلال ربيع عام ١٩٥٣م. فقد عاد إلى واشنطن وهو مقتنع أن "البلدان الاستعمارية الأوروبية الثلاثة ترقد على سرير الموت". وعلى أمريكا أن تبعد نفسها عن هذه القوى التي لاتزال متمسكة بأسلوبها الإقطاعي.

وبشكل موح، أخذ في اعتباره المسار اللاحق لتورط أمريكا في جنوب شرق آسيا، وفي عبارة ساخرة، كتب نيكسون عن محاولته التودد إلى القوميين:

"الكثير من الناس في هذه البلدان لا يعرفون عن أمريكا إلا أنها أمة ذات قوة هائلة، صورتها كل من الدعاية الشيوعية والتكبر الأوربي على أنها قاسية وجشعة. وقد قمت بطمأنتهم بأننا لسنا قوة استعمارية ولا نوافق على استمرار الاستعمار من جانب حلفائنا الأوربيين" (٢٣).

وقد كانت السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وأسيا في سبيلها قبلًا لأن تغير اتجاهها. فمُنذ عام ١٩٤٧م، فإن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت في رعاية تركيا، التي التحقت بالناطو في عام ١٩٥١م وقدمت للقوات الجوية الأمريكية مطارات تُضعها تحت تصرفها من أجل القيام بضربات نووية ضد روسيا^(٢٤). وقد رفض الأمريكيون اقتراحًا بريطانيًا بوضع الجيش التركي تحت القيادة البريطانية للشرق الأوسط أثناء مؤتمر التخطيط في إستانبول في عام ١٩٥١م^(٢٥). ومنذ ذلك الحين كان هدف السياسة الأمريكية هو تملق الدول المستقلة في الشرق الأوسط، بدلا من إجبارها على الانضمام للمعسكر الغربي. وأى تصرف قد يتم تفسيره على أنه محاولة لدعم السيادة البريطانية أزيادتها فإنه سوف يكون معاديا للولايات المتحدة. فالتعاون مع بريطانيا كان نفعيا، ولكن بصراحة فإن التعايش سوف يؤدي إلى تشكك أمريكا وخسارة الأصدقاء.

أدى الغزو الأمريكي لمنطقة كانت بريطانيا حتى ذلك الوقت تتمتع فيها باحتكار القوة إلى حالة استياء وإلى مقاومته، في البداية. وقرابة انتهاء الحرب العالمية فإن ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية (واحتياطيات البترول التي لديه) قد تم إغراؤه للدخول في الفلك الأمريكي عن طريق تقديم قرض له يبلغ خمسة وعشرين مليون دولار، ودفع عشرة ملايين دولار مقابل تأجير مطار في الظهران. وقد كان هذا بمثابة انتهاك لحمى بريطانيا، وفي عام ١٩٤٣م فإن وزارة الهند قد لعنت إقامة قنصلية أمريكية في البحرين^(٢٦). وفي غضون عشر سنوات كان من الصعب إيقاف المتطفلين، لأنه وقت الضرورة، فإنهم قادرون على تحرير شيكات كبيرة، وهي إحدى المزايا التي كانت تفتقر إليها بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. فبحلول عام ١٩٦٠م كانت الولايات المتحدة قد قامت بتوزيع ٢٧٠٢ مليون دولار على دول شرق أوسطية.

ففى نفس الوقت الذى كانت فيه أمريكا تقوم باغتنصاب مكانة بريطانيا فى المنطقة، فإنها كانت تشعر أن عليها واجب كبح جماح حليفاتها. فبعد أزمة إيران، عمل دبلوماسيو وزارة الخارجية كوسطاء فيما بين بريطانيا ومصدق وأثناء عملية تبادل الأدوار، وجدوا أنه كان متقلبا بقدر ما كان أعداؤه عنيدين. فعناد الحكومة البريطانية ربما كان يعتمد على اعتقادها أنها بصدد شكل جديد من دبلوماسية سفن المدفعية.

وفى أثناء عام ١٩٥٢م كان جهاز MI6 مشغولا بوضع مؤامرة للإطاحة بمصدق بمساعدة المعارضين الإيرانيين. وهذا الأسلوب فى الهجوم كان معروفا باسم "عملية الحذاء" (operation Boot)، وكان من بين أولئك الذين قاموا برسم هذه المؤامرة كيرمت روزفلت: (Kermit Roosevelt)، حفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وأحد موظفى وكالة المخابرات المركزية مع مسئولى الشرق الأوسط.

وفى بداية عام ١٩٥٣م، فإن الإدارة الجديدة لأيزنهاور (Eisenhower) قامت بتولى عملية الحذاء وإعادة تسميتها أيجاكس Ajax. وقد تعرض محاربو الحرب الباردة الأمريكيون لضربة قوية بسبب خسارة تشيكوسلوفاكيا نتيجة انقلاب عسكري روسى تم فى مارس من عام ١٩٤٨م وهو ما حدث فى الصين أيضا بعد عام. وقد كان ينظر لإيران على أنها مهمة فى الدعاية السوفيتية، وقد أظهر مصدق نفسه على أنه متقلب بدرجة لا تمكنه من القيام بتحالف ثابت. والنتيجة كانت هى تطبيق خطة أجاكس تحت الإشراف القوى من كيرمت روزفلت. وفى أغسطس من عام ١٩٥٣م، فإن الانتفاضة التى تمت فى طهران تم تمويلها وتوجيهها بواسطة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وبمساعدة بريطانية. وتمت الإطاحة بمصدق واستبداله بالشاه محمد رضا بهلوى الذى كان قد تم إقصاؤه، وهو ابن أحد الضباط السابقين فى

قوات القوزاق الذى ساعدته بريطانيا فى الوصول إلى عرش الطاووس قبل ثلاثين عاما. وبذلك تم انتزاع إيران لصالح الغرب، وقام الشاه محمد رضا بهلوى بخدمة مسانديه من الأمريكيين بإخلاص حتى عام ١٩٧٩م. وقد تمت الإطاحة به، أيضا، بواسطة آية الله الخومينى، الذى كان قد كتب فيما يتعلق بأحداث عام ١٩٥٣م أن إيران كانت "عبداً لبريطانيا فى يوم ما، ثم أصبحت عبداً لأمريكا فى اليوم التالي" ^(٢٧). وقد كانت هذه مقارنة مثيرة للاستياء، وهو ما كان صانعو السياسة الأمريكية يجاهدون من أجل تجنبه. وفى حين كان السير أنتونى إيدن، وزير الخارجية الجديد، سعيداً للنتائج التى حققتها الخطة "أجاس"، لكنه كان يشعر بالغيرة لما قد حصلت عليه أمريكا نتيجة انتصارها ^(٢٨).

ففى حين أنه كان فى سبيله للقيام بطرح المسألة الإيرانية أمام الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٥١م، فإن مصدقا توقف قليلا فى القاهرة. وقد وجد فى انتظاره ترحيبا حاراً، كانت هناك أعمال تمرد ضد بريطانيا، وقام بالاجتماع برئيس الوزراء المصرى، مصطفى النحاس، وأعلن "أن إيران ومصر المتحدتين معا سوف تدمران الاستعمار البريطانى".

وقد كان النحاس مدركا بتضعضع أسس القوة البريطانية منذ يناير من عام ١٩٥٠، عندما وصل حزب الوفد إلى السلطة بما يزيد على نصف الأصوات الشعبية. وقد كانت خطته هى نفس الخطة التى كانت لديه خلال العشرينيات والثلاثينيات، وهى إنهاء الوجود العسكرى البريطانى فى مصر واستعادة السيادة المصرية على السودان. والحرب المدمرة التى تمت خلال عامى ١٩٤٨، ١٩٤٩ ضد إسرائيل قد أدت إلى زيادة سخط مصر على بريطانيا، والتى كانت تتهمها بأنها قد حالت دون حصول الجيش المصرى على الأسلحة الحديثة. فبقدر ما كانت بريطانيا مهمة، فقد منحت مصر شيئا تافهاً وتم تجهيزها للحرب بما أطلق عليه بيفن "قمامة" ^(٢٩).

وقد كانت قاعدة منطقة القناة هي مصدر الصراع الرئيسي. فأسلاكها الشائكة ومبانيها الخرسانية وطرقها المعبدة بالأسفلت كانت ترمز لخضوع مصر لقوة أجنبية.

تلك القوة التي كانت تعتقد بأن لها الحق في التدخل في الشؤون المصرية متى رأت ذلك، وقد قامت بذلك فعلاً في عام ١٩٤٢م. بالإضافة إلى أنه بالنسبة لمن يتحكمون في مصيره فإن المصري كان بالنسبة لهم يعيش في حياة منحلة. وأثناء المحادثات التي جرت مع كبار الدبلوماسيين والقادة البريطانيين في عام ١٩٥٠م، فإن جورج ماكجى قد لمس وجود "التنازلات التقليدية" للمصريين، الذين كانوا يتحدثون بشكل عام مثل "العجر" (٢٠). وقد كان الاحتقار يقابله الحق، وقد ذكر سفير أمريكي آخر في نهاية عام ١٩٥١م أن، "البغض ضدهم، أي البريطانيين، كان عامًا وشديداً. فكل من كان في البلاد يشعر به" (٢١).

وقد قدم ماكجى وزملاؤه إلى مصر ورحلوا كجزء من جهود دبلوماسية مكثفة كانت تهدف من أن تنزلق تجاه روسيا. ولكن الجهود التي كانت تهدف لإقناع النحاس وباقي أفراد الحكومة المصرية قد أخفقت لأنهم أصرّوا على أن الإمبريالية البريطانية، وليست الشيوعية، هي العدو الحقيقي لمصر. وقد كانت أمريكا متعاطفة مع ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع تجاهل الأهمية الإستراتيجية لمنطقة القناة والمطارات الموجودة بها، والتي كانت لا تزال مخصصة من أجل القيام بهجوم نووي على روسيا. وقد كانت معاهدة ١٩٣٦م الإنجليزية المصرية تسمح لبريطانيا بترك حامية تبلغ ١٠٠٠٠ فرد، ولكن بحلول عام ١٩٥٠م، فإن القاعدة كانت تضم ٣٨٠٠٠ من الجنود البريطانيين، بمن فيهم ٨٠٠٠ جندي من المشاة مجلوبين من موريشيوس ويعملون كحراس، وكانت بها مخازن تبلغ قيمتها ٢٧٠ مليون

جنيه إسترليني. ومن وجهة النظر الأمريكية، فإنه كان على البريطانيين الانسحاب، وأن يتركوا التجهيزات الموجودة في القاعدة سليمة وجاهزة للدخول في الحرب في أول لحظة لظهور بادرة أزمة دولية، وهو الاقتراح الذي يتوجب على رؤساء الأركان أن يقبلوه. وبذلك يمكن إزالة الخلاف الإنجليزى المصرى، ويمكن دعوة مصر لتتضم مع أمريكا في حلف دفاعى إقليمى مناهض للسوفييت^(٢١). وقد استمرت المفاوضات على هذه النقاط من منتصف عام ١٩٥٠م وحتى خريف عام ١٩٥١م فى أجواء مليئة بالإحباط والحدة.

وفى أكتوبر من عام ١٩٥١م، قام النحاس بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦م من طرف واحد، وهو ما أنهى من الناحية النظرية الاحتلال البريطانى لمنطقة قناة السويس. وقد كان هذا التوقيت خطيراً ومستفزاً، فقد كان آخر الفنيين البريطانيين قد ترك عبدان منذ أربعة أيام مضت، وكانت حملة الانتخابات العامة البريطانية قد بدأت منذ ثلاثة أيام. وفى غضون أسابيع قليلة، ترك ٧٠٠٠٠ من العمال المصريين المهمين منطقة القناة، وبدأت حملة من الإرهاب صاحبها دعم حكومى خفى. ورئيس الوزراء الجديد، تشرشل، استشاط غضباً لذلك. وفى منتصف المناقشات التى دارت حول مصر فى ١٥ ديسمبر، فإنه قام عن كرسيه وتقدم إلى إيدن وهو موجه قبضته. وتمتم قائلاً "أخبرهم، أى المصريين، أننا لن نصبر على وقاحتهم، وأننا سوف ندفع باليهود عليهم ونقودهم إلى أماكن لم يتخيلوا أن يصلوا إليها"^(٢٢).

ثم بعد ذلك جلس واستدعى بانفعال زيارته السابقة للقاهرة فى الأيام التى كان فيها المصريون يفهمون مكانهم الحقيقى فى الخطط الموضوعية.

وقد تمت ترجمة غضب تشرشل إلى خطة تهدف إلى استعادة النظام القديم فى مصر. ومع نهاية شهر ديسمبر، فإن الإستراتيجيين فى الحكومة

البريطانية كانوا قد أعدوا العملية روديو (Rodeo)، وهى نسخة متكررة من خطة احتلال مصر فى عام ١٨٨٢م. فالقوات الموجودة فى منطقة القناة، معززة بوحدات من مالطة وليبيا وقبرص، سوف تقوم باحتلال القاهرة، ودلتا نهر النيل والإسكندرية، والأخيرة سوف يتم الهجوم عليها من البحر. والقوات البرية مع الطائرات يمكن أن يتم حشدها فى غضون ست وثلاثين ساعة، والسفن الحربية فى غضون اثنتين وسبعين ساعة وأهداف الغزو العسكرى يمكن أن تتحقق فى خلال يوم واحد (٣٣).

وفى نفس الوقت تم وضع منطقة القناة تحت الحكم العسكرى، وهو ما يعنى نزع سلاح كل أفراد الشرطة المصرية الموجودة فى نطاق المنطقة. وفى ٢٥ يناير من عام ١٩٥٢م، رفضت إحدى الكتائب فى الإسماعيلية أن تتخلى عن أسلحتها، وتمترسوا فى المبنى الخاص بهم، وتم طردهم فقط بعد أن تم ضرب حصار عليهم تم، قتل خمسين فردًا منهم فيه وجرح المئات. وقد انتشى المحافظون بغرور قائلين على الأقل فإن "غمجمة البنادق" قد سُمعت، وقد "حان الوقت ليتعلموا فيه الدرس". فقد كان ردهم، طبقًا لجريدة الإكسبرس، أنهم أعلنوا أن بريطانيا الآن "أكنت قدرها الاستعمارى بقوة" (٣٤). وقد رد المصريون بتأكيد متساوى فى الدمية على قدرهم، ففى غضون ثلاثة أيام، قامت العصابات فى القاهرة باقتحام قلاع سادتهم البريطانيين فيها وقاموا بحرق نادى تورف (Turf)، وفندق شبرد وهدمها، ومختلف المباني التجارية البريطانية الأخرى، وقاموا بقتل من فيهما.

وبهذا فإن منطقة القناة أصبحت ساحة للمعارك، ولم يعد فى الإمكان الاعتماد عليها فى حالة الطوارئ. ومثلها مثل الحامية البريطانية، فإن الطبقة الحاكمة القديمة فى مصر قد أصبح ظهرهما إلى الحائط. حيث قام الملك فاروق بإقالة النحاس وحكومته فوراً بعد أعمال الشغب، وقد تمت الإطاحة به

هو شخصيًا في يوليو عام ١٩٥٢م بواسطة مجموعة من ضباط القوات المسلحة يقودهم اللواء محمد نجيب. فقد كانت الملكية المترهلة تحاول المراوغة من أجل استمرار وجودها المترف في مختلف أنحاء البحر المتوسط. والحكام الجدد لمصر كانوا جنودا اعتبروا أنفسهم، وتابعوا في ذلك ما سبق وقام به عرابي باشا، أنهم منقذو الأمة، وأن قدرهم أن يقوموا بقيادتها، والحفاظ على شرفها والدفاع عن سلامتها. فقد كانوا مثاليين يرغبون في القيام بثورة اجتماعية، وقد كانت أفكارهم مزيجا من الأخلاقيات الإسلامية ومبادئ الوحدة العربية والاشتراكية.

وقد كان رد فعل بريطانيا على ثورة يوليو مرتبكا. فالسفارة لم يكن لديها أى انذارات حول حدوث مشكلة، وكان السفير في اجازة. وبعد خمسة أيام من الانقلاب العسكرى، فإن القائم بأعمال السفير اقترح أن بريطانيا يمكن لها أن تتحكم في مسار الأحداث من خلال "إظهار موقف حاسم وأن تقوم على الفور بإظهار قوتها في اللحظة المناسبة"^(٣٥). وقد بدا في الصورة أشباح كل من كرومر والنبى وملنر.

وقد كانت المخابرات الأمريكية المركزية لديها معلومات أفضل. فقد كانت تدبر مؤامرة ضد فاروق، ولكنها كانت غير قلقة، فقد كانت تعلم منذ فترة طويلة أن هناك حاجة لإجراء تغيير اجتماعى جذرى داخل مصر. بالإضافة أن الأمريكان كان لديهم سبب وجيه للاعتداد بأن الثوار، وقد كان الكولونيل عبد الناصر هو الأكثر تأثيرا بينهم، قد ينحازون إلى الغرب إذا تم التعامل معهم بعناية. وقد ظلت بريطانيا هي العقبة الرئيسة في سبيل تحقيق مثل هذا الإدراك. وفي وقت لاحق بعد أن تم تعيين دالاس في منصب وزير الخارجية، وصف الوجود البريطانى على التراب المصرى بأنه "حاجز نفسى" يمنع مصر من الانضمام لحلف معاد للسوفييت^(٣٦). بالإضافة أن

منطقة القناة لم تعد هي الفيل الأبيض الإستراتيجى. فالحوادث التى تمت خلال العامين السابقين قد أظهرت إلى أى مدى هى عرضة لأعمال التخريب من قبل المصريين الساخطين، والتقدم الحديث فى الأسلحة النووية الحرارية (قامت أمريكا بتفجير أول قنبلة هيدروجينية فى مارس عام ١٩٥٤م) قد جعلت أن القواعد العسكرية فى المستقبل يجب أن تكون صغيرة ومتفرقة. ولأن المطارات الخاضعة للقوات الجوية الأمريكية فى تركيا كانت الآن جاهزة للعمل، جعل المطارات البريطانية، ومثيلتها المصرية غير مهمة.

ولذلك لم تكن هناك حاجة لاستمرار الوجود البريطانى فى مصر. فقد كانت معاهدة ١٩٣٦م الإنجليزية البريطانية تنتهى مدتها فى عام ١٩٥٦م، وفى يوليو من عام ١٩٥٤م تم الاتفاق على الترتيبات الخاصة بالانسحاب السلمى من القاعدة خلال العامين التاليين. وقد كانت هناك أيضا تسوية للنزاع القديم حول السودان، حيث قامت بريطانيا بعقد تحالف مكرر مع القوميين المحليين الذين كانوا يعارضون أى استعادة للسيادة المصرية على السودان. وفى الأول من يناير عام ١٩٥٦م، أصبح السودان دولة مستقلة.

ومنذ سنوات قليلة مضت، علمت من أحد الذين كانوا من بين آخر الجنود البريطانيين الذين رحلوا من منطقة القناة أنه بمجرد أن ابتعد قاربه عن رصيف الميناء فى بورسعيد، فإن أحد الشباب المصريين قام بخرق رداؤه وقام بنثر المياه على الجنود الموجودين أسفله. وقد انتبه له أحدهم وأطلق رصاصة عليه. وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لا، فإنها تلخص على نحو رمزى الثلاثين عامًا الأخيرة من الوجود البريطانى فى مصر.

(٤)

اضرب مؤخراتهم

حرب السويس وما بعدها

إن عملية إعادة ترتيب العلاقات البريطانية مع مصر كانت أحد الإنجازات التي تعود إلى السير أنتوني إيدن، وزير الخارجية، بالإضافة إلى سمعته كدبلوماسي بارع. وقد كان لديه اعتقاد جازم بقدراته وكان طموحا بشكل كبير، ولكن يبدو أنه كان مقدرًا له أن يخدم في الصف الثاني خلف الشخصيات الأقوى منه. وقد كان شبيها بتشامبرلين، الذي كان يصر على أن يقوم بإجراء المفاوضات المهمة بنفسه، وهي العادة التي كانت لدى تشرشل أيضا، وهو ما زاد من ضيق إيدن. وقد كان هو الوريث الظاهر لمنصب رئيس الوزراء، ولكن قلة صبره كانت تزداد كلما تماسك الرجل العجوز، متجاهلاً الضربتين اللتين تلقاهما. ولم يخف إيدن تملله، وفي إحدى المرات وصف رئيسه بأنه "مخبول". وأخيرا خلفه في المنصب في أبريل من عام ١٩٥٥ عندما استقال تشرشل، ومعه بدأت فرصة الدخول في مرحلة متألفة لبريطانيا في الشرق الأوسط.

وربما كان كل من الأذكياء والأغبياء في وزارة الخارجية يكتبون أن بريطانيا هي أحد الخاسرين في المنطقة، ولكن إيدن كان متأكدا من أن هناك إمكانية لاستعادة مكانة بريطانيا وتحسينها. فبعد كل شيء ما زالت بريطانيا تسيطر على قواعد لها في مالطا وليبيا وقبرص وعدن والخليج الفارسي

والعراق، الذي كان ملكها الهاشمي، فيصل الثاني، مثله مثل ابن عمه الملك حسين ملك الأردن، كانوا أصدقاء لبريطانيا. وبالبناء على هذا الأساس، فإن إيدن اعتقد أنه يستطيع، مع التعاون الأمريكي، بناء تحالف معاد للسوفييت متماسك بنفس تماسك حلف الناتو، وهو ما سوف يؤدي إلى تقوية المكانة الإستراتيجية لبريطانيا في الشرق الأوسط ويعمل كحاجز يحمي آبار البترول فيه.

وفي الفترة ما بين مارس وأكتوبر من عام ١٩٥٥م، فإن كلاً من تركيا والعراق وإيران وباكستان قد تم حثهم للانضمام إلى حلف بغداد.

وقد احتفظت بريطانيا بالمطارات العراقية، وقدم لها وعدا بتزويدها بالرجال اللازمين لصد أي عدوان روسي. وقد كان ذلك يتضمن لواء مدرعا موزعاً على مناطق مختلفة في الشرق الأوسط، بجانب التعزيزات القادمة من دول الكومنولث، واحتياطي الأسلحة النووية التي يمكن أن تعوض أي عدم توازن في عدد الجنود^(١).

وقد كان حلف بغداد بصيب عبد الناصر بالمرارة، الذي شغل منصب رئيس الوزراء المصري ورئيس مصر بدءاً من عام ١٩٥٦م. وقد لعن اتفاقية الحلف باعتبارها قناعاً تخفي وراءه بريطانيا محاولتها لاستعادة سيادتها القديمة وتقسيم العالم العربي. وقد رد عليها بحملة دعاية شرسة من خلال الراديو الذي يبث لجميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وخاطب من خلاله الجماهير وأوضح خطط بريطانيا الكاذبة وجواسيسها. وقد كانت رسالة عبد الناصر بسيطة وشاملة، فمصر هي رأس الحربة في القومية الثورية، وهو، باعتباره صلاح الدين العصر الحديث، مقدراً له أن يقوم بتوحيد كل الشعوب العربية، وأن يقوم بتكمير أعدائهم. وبالنسبة للملايين من العرب الذين كانوا يسمعون أو يقرأون كلماته فإنه أصبح بمثابة المسيح

المنقذ، وهو المحرر الذى سوف يحررهم من الماضى الذى كانوا فيه منقسمين ومستعبدين.

وقد كانت إذاعة القاهرة تتحدث بصخب، والشخصية التى كانت تقف وراءها أيقظت ذكريات مريرة. ومن وجهة نظر إيدن فإن عبد الناصر كان نسخة من موسوليني. وهو مثل نظيره الإيطالى فإنه كان غداً وضيقاً ومصاباً بجنون العظمة، فقد كان يطمح لأن يكون "قيصر على المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط"^(٢). وقد كان ماكمليان، مثله مثل إيدن، معارضاً للتهذئة، وقد اعتبر ناصر بمثابة "موسوليني أفريقيا"^(٣).

وكانت هذه المقارنات الحسنية بمثابة مؤشر على سلوك إيدن اللاحق. فهو ومعه غيره ممن شاركوه قلقه كانوا يقنعون أنفسهم أنهم دخلوا فى اختبار للقوة مع رجل مستبد ومتفجر وقاس مثل موسوليني. وإذا كان عبد الناصر هو ذلك الرجل الذى ظنه إيدن، وأحداث الثلاثينيات كانت على وشك أن تكرر نفسها، ففي هذه الحالة فإن الانتظار سوف يكون بمثابة انتحار. وعرض تنازلات على عبد الناصر سوف يشجعه على طلب المزيد، وسيعلى من مكانته فى عيون العالم العربى وسوف يزيد من الضعف البريطانى.

وفى نهاية عام ١٩٥٥م، كان إيدن ومستشاروه يؤمنون بأنهم بصدد شخص حامل لفيرس يمكن أن يصيب الشرق الأوسط كاملاً، ولكنهم كانوا لا يملكون علاجاً له. وأياً كان ما تتطلبه مواجهة هذا الوضع فإنه لم تكن هناك فرصة للقيام بأى شيء بدون الموافقة الأمريكية وربما المساعدة الأمريكية أيضاً. وهذا سوف يتحقق إذا انحاز عبد الناصر بمصر جهة روسيا، ولكن سوف يكون قد فات الأوان لفعل شيء. وقد اكتشف عملاء جهاز MI6 فى القاهرة أنه بدأ يميل شيئاً فشيئاً تجاه الاتحاد السوفيتى، وقد تأكد ذلك من خلال القرار الذى اتخذه فى سبتمبر بأن يقوم باستيراد أسلحة من

تشيكلوسلوفاكيا^(٤). والإشارات إلى أن مصر وشريكها سوريا قد بدأت فى الاندفاع نحو الاتحاد السوفيتى قد رفعت من احتمالات أن يخسرهما الغرب، وربما أيضا الدول الأخرى الصديقة فى الشرق الأوسط.

وفى أثناء شتاء ١٩٥٥، ١٩٥٦م، فإن الحكومة كان أمامها كم هائل من التقارير التى تجمع على أن بريطانيا قد فقدت زمام المبادرة فى الشرق الأوسط، وأنها فى طريقها لتفقد الجزء المتبقى لها من نفوذها هناك. فالأردن ما زالت حتى الآن حليفا مخلصا، وبدأت وكأنها هدف للدعاية والهجوم الناصرى. وفى الأول من مارس، قام الملك حسين بعزل اللواء جلوب (Glubb)، قائد الفيلق العربى، الذى طالما وصفته إذاعة القاهرة بأنه القوة الكامنة خلف العرش الهاشمى، وأنه عميل ماهر للإمبريالية البريطانية. وقد هبت عاصفة أخرى بعد ذلك بأيام قليلة، عندما تعرض وزير الخارجية سيلوين للويد (Selwyn Lloyd) للسب والضرب من الجماهير أثناء زيارته لما يفترض أنها دولة صديقة أخرى ألا وهى البحرين.

وقد اعترف إيدن فى الثالث من مارس قائلاً "نحن نتعرض لحالة فوضى"، وأضاف "نحن فى أحسن الأحوال نتعرض لحالة فوضى". وقد ازداد الذعر والغضب أيضا خلال الأيام القليلة التالية. فقد تصور رؤساء الأركان أن الأردن أصبح وشيكاً، وهو ما من شأنه أن يحرم بريطانيا من طريق جوى مفتوح تجاه قواعدها فى العراق. والمصائب التى حدثت لسيلوين للويد فى البحرين أغضبت إيدن ورفاقه، الذين أرادوا وضع بعض القوات على الشاطئ "لإظهار أننا ما زلنا أحياء وقادرين على الرفس"^(٥). والمشكلة كانت أنه لم يكن هناك من يقوم بالرفس. ومع نهاية الشهر، كان الغضب على وشك الانفلات من عقاله، أو أن الوضع بدا كذلك فى أحد التعليقات التى قالها أحد عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وهو كنيدي يونج (Kennedy Young)، مدير

جهاز MI6. فبريطانيا، كما يزعم يونج، "إن بريطانيا الآن جاهزة لأن تقوم بأخر معركة لها... وبدون شك وأيا كانت التكاليف، فإننا سوف ننتصر"^(٦).

وقد كان هذا التنبؤ ولم يزل غامضاً. وقد يكون يونج يشير إلى عملية الكفاح، وهي خطة تم وضعها من أجل تجريد ناصر من أى حليف من خلال الإطاحة بالرئيس السوري شكري القوتلى، حيث سوف يتم وضع بلاده تحت حماية العراق الصديقة^(٧). لم يتم كشف هذه المؤامرة التى كانت تتضمن بعض المعارضين المحليين فى دمشق إلا فى نهاية أكتوبر، ولكن سواء بريطانيا هي المحرض عليها أم لا فإن ذلك يظل غير واضح لأن الملفات المرتبطة بها لا تزال مغلقة. وفى ذلك الوقت فإن المخابرات المصرية اعتقدت أن المخابرات المركزية الأمريكية لديها شيء ما تقوم به فى سوريا، وأن هناك لواء بريطانيا، كان فى ذلك الوقت فى قبرص، قد بدأ يتم إعدادة للهجوم ضد سوريا^(٨).

وتشير كلمات يونج أن الحكومة البريطانية لديها شيء ما مخيف تخفيه أكثر من مجرد تكرار نفس طريقة الانقلاب التى استخدمت للإطاحة بمصدق قبل عامين. وقد كان يونج يضع فى ذهنه عملية كورداج (Cordage)، وهي استجابة على تقارير جهاز MI6 بأن هناك هجوماً إسرائيلياً وشيكاً على الأردن حليفة بريطانيا. وقد تضمنت عملية كورداج تدمير القوة الجوية الإسرائيلية وشن غارات بقوات الصاعقة وإقامة حصار بحرى، وهو ما سوف يكون بمثابة إظهار واضح وشديد لتصميم بريطانيا على رعاية أصدقائها فى الشرق الأوسط^(٩).

وقد كان هناك احتمال ثالث قائم وهو أن الحكومة البريطانية كانت بصدد الإعداد لاستخدام القوة القهرية ضد مصر فى المستقبل القريب. فقد كان مزاج الوزراء فى بداية شهر مارس غاضباً، مثلما كان الوضع بالنسبة

لأعضاء البرلمان عن الحزب الليبرالى أثناء المرحلة الأولى من الأزمة المصرية فى عام ١٨٨٢ عندما كانوا، فى حمية غضبهم، لا يريدون إلا قتل شخص معين^(١٠). وقد كان عبد الناصر هو الهدف الواضح، ووفقا لما ذكره العميل السابق فى جهاز MI6 بيتر ريت (Peter Wright)، كانت هناك مخططات موضوعة لقتله^(١١). وقد علمت المخابرات المركزية الأمريكية بذلك فى نهاية شهر فبراير، وكانت السلطات المصرية تعتقد أن هناك على الأقل ثلاثة قتلة مستأجرين بريطانيين وواحدا ألمانيا قد تم إرسالهم إلى القاهرة، ولكنهم جميعا أخطأوا هدفهم^(١٢). وقد اكتشفت تفاصيل خطة بريطانية سرية أخرى فى بداية شهر سبتمبر، بعد اعتقال عدد من المصريين الذين صدرت لهم أوامر بإثارة الاضطرابات فى المدن الكبرى^(١٣). وقد افترضت الحكومة المصرية أن إثارة أعمال الشغب كانت قد تم استخدامها من البريطانيين كذريعة للقيام بتدخل عسكرى كما حدث فى عام ١٨٨٢م.

وهذه المعلومات المتناثرة أشارت أنه بداية من مارس عام ١٩٥٦م، فإن الحكومة كانت مصرة على تدبير خطة لحسم الخلاف مع عبد الناصر. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك، هذا ما سيظل مبهما حتى يتم الكشف عن الوثائق الرسمية كافة. والمعروف حتى الآن يشير بقوة أن المخابرات البريطانية قد تلقت أوامر بخلق أوضاع مماثلة لتلك التى كانت موجودة عام ١٨٨٢م، عندما فقدت الحكومة المصرية القدرة على السيطرة وخرجت الاضطرابات الداخلية عن سيطرتها. ومثل هذه الظروف، بالطبع، تمثل ذريعة ممتازة للتدخل العسكرى وتنصيب إدارة تكون بمثابة الدمية، وهذا ما كان يريده إيدن بالفعل.

إلا أن هناك اقتراحاً قدم بأن الإطاحة بعبد الناصر هي عملية شديدة الخطورة. ولكن إيدن كان مستعداً لقبول المخاطرة، وقد كان هناك اطمئنان من نفس الشيء، وإن كان على نطاق أصغر، كان قد نجح في إيران. ومسألة وجوب إزاحة عبد الناصر ستكون قضية لا جدال فيها إن كانت بريطانيا لا تزال تحتفظ بمكانتها وأصدقائها في الشرق الأوسط. ومن وجهة نظر إيدن، وبدرجة ما ماكميلان أيضاً، فإن القضية أصبحت ثأراً شخصياً وقد اتخذ قراراً بالسعى لوضع خطط لاغتيال عبد الناصر أيضاً.

ومن الناحية السياسية، فإن إيدن قد أصبح يقف على أرض غير صلبة منذ بداية العام، عندما قام أجزاء من حزبه وجريدة التليجراف بالمطالبة بما أسموه "حكومة حازمة". والشكاوى التي نتجت عن هذه الخطابات قد تفسر جزئياً الغضب الذي انفجر أثناء شهر مارس، والإلحاح الذي تلاها من ضرورة عمل شيء مع عبد الناصر. فقد كان أيضاً إيدن بمثابة كبش فداء للإذلال الذي عانت منه إيران ومصر خلال الأعوام الستة الماضية.

لقد كان خسارة الإمبراطورية البريطانية غير الرسمية في الشرق الأوسط له وقع على النفس أشد من الرحيل من الهند. على الأقل فإن بريطانيا قد غادرت الهند بكرامة، وبإحساس أنها قامت بإنجاز، في حين أن التخلي عن المجالات القديمة للنفوذ في إيران ومصر كان بمثابة ارتداد في مواجهة الإهانات والنقد اللاذع. فقد جرح الكبرياء الوطني، فقد كانت قدرة بريطانيا على الهيمنة على الشرق الأوسط بمثابة مقياس لمكانتها في العالم. والآن فقد تم طردها وذلها وإجبارها على أن تدعن لرغبات الولايات المتحدة التي بدت كأنها قد اغتصبت مكانتها القديمة.

ومن المستحيل لنا أن نطالع الصحف خلال النصف الأول من عام ١٩٥٦م، بدون أن نشعر أن بريطانيا كانت تشعر بنفسها تغرق، وأنها

أصبحت تحت رحمة الجميع فى كل مكان مع ازدياد المظالم الموجهة ضدها. فقد كانت العناوين الرئيسية لها تعلن عن عمليات القتل العشوائى للجنود، وفى بعض الأحيان زوجاتهم بواسطة (EOKA) (المنظمة الوطنية للمقاتلين القبارصة) التى كانت تطالب بالاستقلال والوحدة مع اليونان. وقد كانت هناك أيضا تقارير عن أعمال شغب فى عدن فى مايو، عندما قوبل نائب الوزير بالحشود المطالبة بالاستقلال. وقد كان هناك دائما عبد الناصر يتهم بريطانيا ويحكي المؤامرات ضدها. وقد بدت بريطانيا وكأنها بلا حول ولا طول وفى طريقها نحو الانحدار، وهو ما كان مزعجا وغير مفهوم بالنسبة للأجيال التى ترعرعت فى عالم لم يكن يجرو أى شخص فيه على تحدى بريطانيا بدون أن يعاقب، وعلى وجه الخصوص مصر. وأولئك الذين عاشوا فى هذه الفترة يكونوا قد أدانوا أنفسهم ولكن الكم الهائل لما قيل وكتب أثناء أزمة السويس وبعدها يعطى انطبعا قويا بأن بريطانيا كانت تعاني من صدمة متأخرة لتفكيك الاستعمار وما صاحب ذلك، من العجز عن التعامل مع الشئون الدولية.

فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى، عندما كان هناك خوف مماثل فيما يتعلق بمستقبل البلاد كقوة من الصف الأول، فإن السلطة البريطانية على العالم: كان يُظن أنها جزء من الاتجاه العام للأخلاق الوطنية. وقد بدأ ذلك يأخذ منحني نحو الأسوأ منذ بداية الخمسينيات. فأفلام الرعب وأجهزة التسجيل وموسيقى الجاز والروك أند رول وشباب الهيبز (Teddy boys)، كلها كانت بمثابة معالم على طريق الانحدار الذى أدى إلى فساد كامل لدى الشباب، وهذا كان بمثابة المرحلة الأخيرة من الانحدار الوطنى ^(١٤). وكل هذه الاختراعات المغرية أتت من الولايات المتحدة، القوة التى حلت محل بريطانيا فى العالم، وهذا من دون شك قد زاد من حدة تنمر الكثير من الكتاب،

وأعضاء البرلمان من المحافظين، ورجال الكنيسة والقضاة والحكام الذين رأوا في أنفسهم أنهم الحراس على القيم البريطانية القديمة. ومناقشة هذا الموضوع مع الأصدقاء، بمن فيهم السيدة روبرت ماكينز Robert Makins، زوجة أحد الدبلوماسيين وصاحبة رواية: منزل إيفلين: "العمة المحتضرة" (Evelyn Home agony aunt)، فإن إيفلين شاكبرج (Evelyn Shuckburgh) استنتجت أن بريطانيا قد أصبحت "عاجزة وبلا حياة"^(١٥).

وقد اعتقد ناصر نفس الشيء، وأثناء النصف الأول من عام ١٩٥٦م فإنه وضع مصر في موقع الصدام مع بريطانيا. وكان الأمر سوف ينتهى باختبار للقوة فيما بين البلدين، والذي، كما كان يعتقد عبد الناصر، سوف يؤدي إلى توازن جديد للقوة في الشرق الأوسط لصالح مصر. فأولاً، قام بجولة موسعة لدول عدم الانحياز في آسيا، وذلك لكي يحصل على شهادة اعتماد باعتباره قائداً لكتلة عدم الانحياز ومعادياً للاستعمار. وقد أظهر أنه رجل حر الإرادة من خلال اعترافه بالصين الشيوعية واستقباله للبعثات الروسية في القاهرة.

وفي داخل مصر فإن جل اهتمامه انصب على القيام بمشروع السد العالي ومستقبل شركة قناة السويس، التي كان لازال المستثمرون الأجانب يملكون ٤٩% من أسهمها. وعلى السطح فإن مسألة أى من القوتين سوف يتعهد بتقديم المساعدة في بناء السد العالي وتأمين قناة السويس كانت من الموضوعات المهمة دائماً. وفي ١٩ يوليو أبلغ دلاس مصر بشكل فظ أن أمريكا لن تقوم بتقديم قرض للمساعدة في بناء السد، وكرد فعل على ذلك قام عبد الناصر بتأمين قناة السويس بعد سبعة أيام. وفي الواقع فإنه كان يعتزم مصادرة قناة السويس وأصولها منذ مدة. ومن البداية فإنه كان يعلم أن هذا التصرف يعد مقامرة، ولكنه اعتقد أن الظروف سوف تكون في صالحه.

فأمريكا سوف تكون مشغولة في حملة الانتخابات الرئاسية مع بداية شهر نوفمبر، وفرنسا يداها مقيدتان في الحرب الجزائرية، وبريطانيا وحدها هي التي قد تقوم بالتحرك.

ولذلك فقد صدرت الأوامر للمخابرات المصرية بتقييم مدى جاهزية بريطانيا. وباستخدام مصادر في داخل (EOKA) وقادة النقابات العمالية في مالطا، اكتشف ناصر أن بريطانيا لم يكن في مقدورها القيام برد فعل فوري، وأنه على الأقل أمام بريطانيا ثمانية أسابيع لكي تستطيع التحرك للقيام بغزو مصر^(١٦). ويعتمد كل شيء على عزيمة إيدن، وناصر، استنادا للقاء منفرد تم بينهما قبل عامين، قد أدرك أنه من ذلك النوع من الرجال الذي يخفى الضعف الداخلي بالتظاهر بالشجاعة أمام الجماهير. ففي البداية سوف يؤيد بقوة شن حرب، ولكن فرص القيام بحرب سوف تقل مع مرور الوقت، وقد قدر عبد الناصر أن احتمالات الحرب سوف تكون ٩٠ بالمائة قبل العاشر من أغسطس، ثم بعد ذلك تهبط إلى ٢٠ في المائة في النصف الثاني من شهر أكتوبر^(١٧). ولم تكن إسرائيل ضمن حساباته.

وقد كان إيدن يجلس لتناول العشاء في داوونينج ستريت مع الملك فيصل الثاني ملك العراق ورئيس وزرائه، نوري السعيد، الصديق المخلص لبريطانيا، عندما علم لأول مرة بأخبار تأميم قناة السويس. وقد ألح نوري على استخدام القوة مع عبد الناصر، وقال لإيدن. "يجب أن تضربه بقوة ويجب أن تضربه الآن". وقد فارقهم إيدن لكي يقضى باقي الأمسية في حساب توقيت الحرب، الذي كان يعتقد أنه سوف يكون في خلال أسبوعين أو ثلاثة^(١٨).

وأشار رئيس الوزراء والمجموعة الداخلية المكونة من ستة وزراء عليه بأن مصر لها هدفان طموحان. ويجب أن تتم إزاحة عبد الناصر عن

السلطة فى مصر، ويجب وضع حكومة فى مصر تقر بسيادة بريطانيا على بقية أنحاء الشرق الأوسط.

يجب أن توضع القناة تحت الإشراف الدولى لإحباط أى تهديد مستقبلى لإمدادات البترول لبريطانيا وأوروبا. وبضربة واحدة سوف يتم استعادة مكانة بريطانيا ويتم الحفاظ على حلف بغداد. وكانت المسألة الملحة، هى نوع الضربة التى نحتاجها؟

وقد تم تبنى خطتين للتحرك. فمن جهة تقوم بريطانيا بحشد الدعم الدولى للقيام بهجوم دبلوماسى قد يجبر عبد الناصر على التخلي عن القناة. ومن الجهة الأخرى، تقوم بريطانيا بالاستعداد لشن حرب، وأن تقوم بتعبئة قوات الاحتياط فى الثانى من أغسطس. وقد كانوا فى حاجة لتطبيق عملية الجندى المسلح (Musketeer)، والتى كانت قد أخذت الشكل النهائى لها بحلول منتصف سبتمبر. والقوات الإنجليزية الفرنسية سوف تقوم بتنفيذ قصف جوى للأهداف الإستراتيجية المصرية (بما فى ذلك إذاعة القاهرة)، وأن تقوم بعملية إنزال فى بورسعيد، وتحتل قناة السويس. وبعد أن تتم هزيمة مصر، ومن ثم الإطاحة بعبد الناصر، سوف تقوم ثلاث وحدات أو أربع باحتلال البلاد حتى يتم تنصيب حكومة مناسبة. وقد كانت الحكومة تتوقع أن تكون هناك فترة انتقالية يقوم فيها حكام بريطانيون بالمساعدة فى حكم مصر.

وقد كان هذا مبالغاً فيه، فإذا نظرنا للظروف المحيطة ببريطانيا وطبيعة رأى العام العالمى فى عام ١٩٥٦م، فإن التجزؤ لمحاولة استعادة الإمبراطورية غير الرسمية يحتاج إلى دعم قوى فى الداخل والخارج. ومنذ البداية فإن بريطانيا كانت تحظى بالدعم المطلق من فرنسا، التى كان عداؤها لعبد الناصر يرجع إلى مساعدته للقوميين الجزائريين. وقد كان موقف الكومنولث مانعاً، فكل من الهند وباكستان وكندا وقف بشدة ضد أى استخدام

للقوة، ووقفت جنوب أفريقيا موقفا محايدا، فى حين كانت كل من أستراليا ونيوزيلاندا ولأيهما متذبذبا، فقط اتحاد وسط أفريقيا (الذى كان مكونا من نياسلاند وروديسيا الشمالية والجنوبية) هى التى قالت إنها سوف تدعم بريطانيا فى أى تصرف تقوم به. وكل من أستراليا ونيوزيلاندا قد طالبتا بالحيلة وحذرا بريطانيا من أن تقوم بالتصرف بتهور أو بدون الموافقة الأمريكية. فقد كان الأمر يبدو كأن أزمة تشاناك (Chanak) وميونخ (Munich) تتكرر مرة أخرى.

وداخل بريطانيا، كان هناك انقسام فى الرأى. فقد كان كل من إيدن وماكمليان وأليك دوغلاس هم الوزراء الأكثر عدوانية، وكان خلفهم هناك دائرة خارجية من المترددين تشمل "ر. أ بوتلر: (R. A Butler) (وهو يملك غريزة تميل إلى التهدة وكان يريد ألا يتم التعامل مع هتلر إلا فى صيف عام ١٩٤٠م)، وإدوارد هيث (Edward Heath) وإيان ماكلويد (Iain Macleod). وما كان يقلق هؤلاء الرجال، وهو نفس الشعور الذى كان لدى هيو ج جايتسكيل (Hugh Gaitskell) زعيم حزب العمال والعديد من أعضاء حزبيه، هو المماثلة الحكومية. وإذا نظرنا إلى فحوى المناقشات التى دارت فى مجلس العموم أثناء الأيام الأولى من الأزمة فإننا سوف نجد أن إيدن قد اشتط فى الانتقام بالاستعادة السريعة للقناة.

ولكن إمكانيات الجيش والبحرية والقوات الجوية لم تكن تفى بمتطلبات إجراء هذه العملية الجراحية. والنتيجة هى سياسة اندفعت فى اتجاهين متضادين، فقد كانت كل من بريطانيا وفرنسا تستعدان بتؤدة للحرب، وفى نفس الوقت يقومان بتشجيع تسوية دولية من خلال المفاوضات. والورد كيليرن (Killearn)، الذى كان مثل السير مايلز لامبسون (Miles Lampson) لديه خبرة فائقة فى تنفيذ هجوم مكثف ضد المصريين؛ كان يرى أن التأخير

هو أمر مشئوم. فقد كتب "لكى نسمح لأنفسنا بأن ننشغل بصخب اللجان والمؤتمرات يعنى أننا نسمح للمعتدى بأن ينجو بجريمته" (١٩).

وقد كان هناك، بالطبع، الكثير من فرسان الحرب الذين تنوقوا طعم الدم وكانوا يعتقدون أنه حان الوقت على الأقل من أجل توجيه بعض الضربات القاسية على الطريقة القديمة. والعميد م. ف فاركوهارسون روبرت - الذى كان قد عين رئيساً لجمعية قدامى المحاربين فى ديربى (Derby) كان ضجرا من خطوات الحكومة المتناقضة. وقد أرعد قائلاً "السياسيون لا يعرفون الشرقيين كما نعرفهم نحن" وأضاف "فهم لا يعرفون أن الطريقة الوحيدة للتعامل معهم هى أن نقوم برفس مؤخراتهم" (٢٠). وعضو البرلمان العمالى صائد الذئب العظيم رينالد باجيت (Reginald Paget) تساعل فى غضب، "كم سوف نظل نعطى لمصر ولا نأخذ فى المقابل إلا لكمات فى الوجه وإلى متى؟" (٢١). وعدم فعل شيء كان بمثابة دعاية لقلّة الحيلة البريطانية. وقد زعم ماكميلان أنه "إذا نجا عبد الناصر بفعلته هذه، فسوف نندم على ذلك" (٢٢). فالديكتاتور المصرى لم يكن أكثر من "شخص أجوف ضعيف صانع للمشكلات"، وقد ذكر الكابتن تشارلز واترهاوس، وهو أحد المتحدثين البارزين فى عصابة المراقبة من حزب المحافظين، أنه يمكن ويجب سحقه (٢٣). وقد سخر منه دينيس هيلى (Denis Healey) باعتبار أنه "من الديناصورات" و"شخص تافه"، ولكن رجال الدولة الجدد قد وصفوهم على نحو أعمى فى إطار الحكومة البريطانية بأنهم "يعيشون فى فترة صدور الدبلى ميل فى عام ١٩٢٠م، الوقت الذى كانت فيه بريطانيا الاستعمارية قادرة على أن تقوم بإصدار أوامر موجزة وحاسمة للأجانب فى الخارج والطبقة العاملة فى الداخل" (٢٤).

وقد كان صخب طبول الحرب يدوى صداها في قصر ويستمنستر هو ما نبه إيزنهاور، الذي كان يسعى للحصول على فترة رئاسية ثانية، ودالاس. وقد أخبر الأخير ماکمليان أن بريطانيا تقوم بضجة مبالغ فيها فيما يتعلق بعبد الناصر، وهو ما يظهره "كشخصية أكثر أهمية مما هو عليه بالفعل". وقد أصر كل من وزير الخارجية والرئيس الأمريكى أن على بريطانيا أن تتراجع عن فكرة الحرب وأن تسعى، بالتعاون مع الولايات المتحدة، لإيجاد حل من خلال المفاوضات^(٢٥).

وعلى الرغم من القيام بسلسلة من المؤتمرات واللقاءات فيما بين القادة، فإنه حتى ١٥ سبتمبر لم تكن هناك أى إشارة على وجود أى اتفاق، وهو التاريخ الذى كان قد حُدد فى الأصل للقيام بهجوم على مصر، والغريب فى الأمر، أنه خلال ثمانية أسابيع كان عبد الناصر قد استعد للتحرك البريطانى.

وأصبحت الحكومة الآن فى قبضة ألتها الحربية وجدولها الزمنى الثابت. وقد أدت ظروف الطقس إلى تأخير العمليات لما بعد ٢١ من نوفمبر. وأصر رؤساء الأركان على أن يكون ٣١ أكتوبر هو الموعد الأخير للبدء فى العمليات لتوفير فرصة مناسبة للنجاح. وفى بداية شهر أكتوبر، كانت هناك همسات خافتة من السخط متداولة بين نحو ٢٠٠٠٠ من جنود الاحتياطى الذين كانوا على أهبة الاستعداد لما يزيد على شهرين، وقد كانوا يريدون العودة مرة أخرى لعائلاتهم ووظائفهم. وقد كان عنصر الأفراد يسبب مشكلة منذ ٣١ يوليو، عندما وافقت الحكومة على تعديل الحد الأدنى من السن للجنود المشاركين فى خطوط القتال بتقليل مستواه من تسعة عشر كما كان فى الحرب الكورية إلى ثمانية عشر عاماً ونصف عام. وعلى الرغم من ذلك فإن البحرية كانت تشكو من النقص فى عدد جنود الإشارة المدربين، ومن برامج التدريب المعطلة وقلة أعداد الجنود فى الأسطول المجاور للأرضى

الوطنية وأسطول البحر المتوسط. والنقص في جنود الأسطول يعنى أن مدافع الفرقاطات البحرية من عيار ست بوصات يمكن أن تصوب من اثنين فقط من أبراجها الأربعة، وتشغيل برجين فقط يعنى أنها سوف تكون قادرة على الدفاع عن نفسها ضد هجمات الطائرات الحديثة^(٢٦).

وقد بدا الأمر وكأن الوقت يسير في صالح عبد الناصر وضد إيدن. وبسبب عدم قدرته على تحقيق حل من خلال الدبلوماسية، فإنه لم يكن أمامه إلا أن يأخذ قراراً إما ببدء الهجوم أو بالتهدئة. وفي استطلاع رأى سريع أجرى في أغسطس كان ٥٩% من البلاد يؤيدون استخدام مزيج من الحزم والمرونة الدبلوماسية ولكن، بحلول منتصف سبتمبر، فإن هذه النسبة انخفضت إلى ٤٩ في المائة. وقد كانت هناك صعوبات ظاهرة في بداية أكتوبر، عندما كان هناك مؤشرات تدل على أنه بعد الارتفاع المفاجئ لشن الغارات عبر الحدود، فإن إسرائيل الساخطة يمكن أن تقوم بمهاجمة الأردن، وهو ما كان من شأنه أن يجبر بريطانيا على التدخل لإنقاذ حليفها. وفي الحادى عشر من أكتوبر تم تقديم إنذار رسمى بأن بريطانيا سوف تدافع عن الأردن^(٢٧). وبعد ثلاثة أيام، فإن المناقشات التى جرت في الأمم المتحدة فيما يتعلق بقضية القناة وصلت إلى طريق مسدود، عندما قامت روسيا باستخدام حق الفيتو فى مجلس الأمن.

ولعدد من الأسابيع قام الفرنسيون بإغراء الإسرائيليين، الذين اعتقدوا أنهم يمكن أن يساعدوا فى الوصول إلى حل للإخفاق الدبلوماسى. فقد كانت خدعة حربية بسيطة، ولذلك لم يقتنع بها أحد فى حينها، على الرغم من أن التفاصيل الكاملة لصفقة السفاح المشنوق (hugger-mugger) لم تعرف جيداً إلا بعد عشرين عاماً. فقد قامت إسرائيل بمهاجمة مصر وتقدمت قواتها فى أراضى سيناء، وذلك قدم ذريعة لكل من فرنسا وبريطانيا لاحتلال قناة

السويس بحجة الدفاع عنها والفصل بين المتقاتلين. وقد اقتنص إيدن الفرصة التي بدت كأنها جاءت في اللحظة الأخيرة حتى يتجنب ذل التهذئة، وفي السابع عشر من أكتوبر فإن قاذفات القنابل الثقيلة كانبرا (Canberra) كانت في طريقها إلى المطارات في قبرص. وبعد ستة أيام، سافر سيلوين للويد إلى باريس، حيث اجتمع مع جوى موليه (Guy Mollet)، رئيس الوزراء الفرنسي، ونظيره الإسرائيلي، دافيد بن جوريون، واللواء موشى ديان في مخبأ سرى في ضاحية سيفير (Sevres).

وقد كانت نتيجة هذا الاجتماع هو عقد معاهدة سيفير السرية، التي يبدو أنه لم يبق منها أى نسخة، ولكن الخطوط العريضة لها كانت واضحة للغاية من خلال الأحداث التي تمت في يومي ٢٩، ٣٠ أكتوبر (٢٨).

وقد كانت هناك حرب السويس في نوفمبر عام ١٩٥٦م. الأولى كانت تقاتل فيها القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية والقوات المصرية في شبه جزيرة سيناء وفي بورسعيد وعلى طول شاطئ قناة السويس. والثانية كانت تجرى في مجلس العموم البريطاني، وفي أعمدة الصحف وفي أى مكان يتجمع فيه الناس في بريطانيا، وكانوا يتناقشون ما إذا كانت الحكومة البريطانية قد تصرفت بحكمة وأمانة أم لا.

وجرت الحرب الأولى وفقا للجدول الزمني لاتفاقية سيفير، وقد أخذت عبد الناصر على غرة؛ لأنه لم يكن يتوقع أن تقم إسرائيل نفسها في الصراع حول القناة. وبالفعل بعد أن مر شهر سبتمبر فإنه قام بجمع معلومات من مصادر أمريكية جعلته يظن أن مصر لن تتعرض لهجوم. وقد ادعى كل من أيزنهاور ودالاس أنهم فوجئوا أيضا، وهو شيء عسير على الفهم إذا عرفنا أن طائرة التجسس الأمريكية يو ٢ U-2 (والتي كان يقودها جارى بورز: Gary Powers) الذي أسقط فيما بعد في روسيا) كانت قد قامت بمسح

لمنطقة شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط في ٢٧ سبتمبر، وكاميراتهما لا يمكن أن تخطئ استعدادات القوات الإنجليزية والفرنسية والبوارج الحربية في قبرص^(٢٩). وبالطبع فإن هذا يمكن أن يؤخذ كدليل على التواطؤ، ولكن الوزراء البريطانيين اعتقدوا أنهم لم يجدوا شيئاً في كلام دالاس يشير أن أمريكا سوف تعارض بشكل قوى أى تدخل عسكري في مصر. وقد كان يعتقد، خطأً كما اتضح فيما بعد، بأن الهم الأساسي لدالاس هو ألا يندلع القتال قبل يوم الانتخابات الأمريكية، في ٦ نوفمبر. والعادة والكياسة جعلتا حكومات دول الكومنولث تميل جزئياً للسياسة البريطانية، ولكن بعد توقيع اتفاقية سيفير فإن تدفق المعلومات انقطع.

وقد بدأت حرب السويس في الوقت المحدد، مع قيام إسرائيل باقتحام سيناء في ٢٩ أكتوبر. وفي اليوم التالي، في الوقت الذي كانت فيه القوات الإسرائيلية والقوات المدرعة تهاجم الجيش المصري المتفاجئ، فإن كلاً من فرنسا وبريطانيا قامتا بإصدار إنذار مشترك، أعطى هذا الإنذار كلا الجانبين مهلة اثنتى عشرة ساعة لكي توقف كل منهما القتال. ولكن تم تجاهل هذا الإنذار، وفي الأول من نوفمبر بدأت قاذفات القنابل كانبيرا في الهجوم المكثف على المواقع الإستراتيجية المصرية وعلى المدن، في حين كانت الوحدات المحمولة جواً والبرمائية تستعد لعمليات الإنزال في بورسعيد. وفي اليوم التالي، فإن الولايات المتحدة (مدعومة من جانب أستراليا وآخرين) دعمت اقتراح الأمم المتحدة بالتوقف الفوري عن إطلاق النار من جميع القوات المتحاربة. وقد تملك كلاً من بريطانيا وفرنسا الذعر.

وبدأتا في المناورة من أجل كسب الوقت وأصرتا على أنهما لن تقوما بالموافقة، على الهدنة إلا إذا قامت قوات الأمم المتحدة بالسيطرة على القناة، وفي نفس الوقت سرعنا من الموعد النهائي للغزو.

ومن خلال اتباع جدول زمنى جديد، فإن أول دفعة من قوات المظليين قد هبطت فى الخامس من نوفمبر وكانت القوات البرمائية قبالة السواحل فى السادس من نوفمبر. وفى نفس الوقت كان هناك نداءان آخران من الأمم المتحدة بعقد هدنة، ولأن القوات البريطانية والفرنسية كانت قد احتلت بورسعيد وقطاعاً طوله ثلاثة وعشرون ميلاً من القناة، فإن كلتا الحكومتين استجابت لعقد الهدنة فى مساء السادس من نوفمبر. وباستخدام المصطلحات العسكرية الخالصة، فإن العملية كللت بنجاح باهر، فالخسائر المصرية زادت على الألف فى حين أن الخسائر البريطانية والفرنسية كانت أقل من مائة. وقد أخبر أحد الكولونيلات أحد الصحفيين "إن الأمر كان مثل تدريب دموى جيد، وكان يحوى كثيراً من المرح والمتعة" (٢٠).

وحرب السويس الأخرى أيضاً كانت لها مراحلها. فالتحركات التى قام بها إيدن فى الفترة ما بين ٣٠ أكتوبر والسادس من نوفمبر كانت حافزاً للصدام فيما بين السياسيين، وهو ما زلزل الأمة بكاملها. فداخل مجلس العموم، كان بيان الحكومة حول مصر إشارة للاضطراب، فقد تم تبادل الضرب بالكلمات والسب. فالمحافظون كانوا "فاشييين" و"قتلة" (هذا من وجهة نظر السيدة بسى برادوك: (Bessie Braddock) والأعضاء عن حزب العمال كانوا "جبناء"، حيث طعنوا بلادهم فى ظهرها. وقد بدأت الصحافة فى الضرب بالهراوات، كان أغلبها من نصيب الحكومة، وواحدة خارج مجلس العموم، والأخرى فى ميدان (الطرف الأغر): (Trafalgar)، حيث أدان أنيورين بيفان (Aneurin Bevan) ما فعله إيدن. وقام الميثوديون (Methodists) الشرقيون بمسيرة خلال الشوارع، وقد اتهموا بأنهم "ناصريون أقدار" من قبل من شاهدوهم، الذين كانوا يرون، وهو رأى كان سائداً بشكل كبير فى هذا الوقت، أن أولئك الذين أدانوا إيدن هم حلفاء ناصر، وهم فى الحقيقة لا شيء سوى مجموعة من الخونة.

وقد كان هناك أيضا العديد من التراشقات الحادة فى كل مكان اجتمع فيه الناس وتحدثوا. وأنا أتذكر ذلك فى مدرستى، التى كانت فى منطقة تخص الطبقة الوسطى ويهيمن عليها المحافظون، فأولئك الذين لم يأخذوا خط الداعمين للحرب كان يتم سبهم، وفى بعض الأحيان يتعرضون للركل فى أثناء سيرهم. وقد اعتقد أعضاء البرلمان عن حزب المحافظين أن الطبقة العاملة تساند الحكومة وغاضبة على حزب العمال بسبب قلة وطنيتهم. وأحدهم، الذى كان نائبا عن دائرة جنوبية، علق بشكل صريح قائلاً: "لقد فقدت المؤيدين من الطبقة الوسطى، ولكن هذه الخسارة على الأقل تم تعويضها من خلال الدعم الذى حظيت به من الناخبين المنتمين للطبقة العاملة الذين كانوا طبيعيا يصوتون للاشتراكيين، والذين فضلوا القيام بعمل قوى فى قضية السويس" (٣١).

وحتى جل قراء صحيفة الأوبزرفر من المنتمين للطبقة الوسطى أصيبوا بالاضطراب من المقالة الافتتاحية لها فى الرابع من نوفمبر، التى زعمت فيها "أن بريطانيا العظمى لم تجعل نفسها مكرومة عالميا بهذا القدر منذ عام ١٧٨٣م". فالبلاد الآن "تقف معزولة فى مازق أخلاقي"، وعادة التأكيد على ولعها القديم بالاستعمار العسكرى ونبذت التوجه الدولى (internationalism) الذى قاد سياستها الخارجية منذ عام ١٩٤٥م.

وخلال الأسبوع التالى، استلم رئيس التحرير ٨٦٦ رسالة تدافع عن الحكومة (من ضمنها ٥٠٠ يلغى فيها أصحابها اشتراكاتهم) و٣٠٢ رسالة تدعم موقف الحكومة (٣٢).

والجدال حول السويس الذى تم فى نوفمبر عام ١٩٥٦م كان مثله مثل الجدالات الأخرى التى ثارت طوال مائة عام المنصرمة، والتى كانت فى جوهرها تهتم لطبيعة علاقة بريطانيا بباقى العالم. وفى أحد الأطراف هناك

الصقور الذين يرون أن العالم هو مجال لصراع لا ينتهى، وفيه فإن الأقوى والأكثر تصميمًا هو الذى يبقى من خلال استخدام مزيج من المكر والقسوة والقوة. فقد اعتقدوا أن الإمبريالية ما هى إلا انعكاس للنظام الطبيعى، واعتبروا أن النفعية وسعى الدولة لتحقيق مصالحها هى المبادئ الوحيدة التى يجب أن تتأسس عليها السياسة الخارجية. فى الماضى كان هؤلاء الصقور يهتفون للجنرالات والأدميرالات المنتصرين والعائدين إلى أرض الوطن بعد الحروب، وبالمثل لكل من بالمرستون وذرانيلى وجوزيف تشامبرلين وتشرشل، والآن أصبح إيدن هو بطلهم. وفى الطرف الآخر هناك فريق الحمائم. لقد كانوا يحلمون بعالم متجانس فيه يتم التخلّى عن الصراع من خلال التعاون فيما بين الدول، وكانوا يكرهون الإمبريالية لأنها تمثل قهر القوى للضعيف، ولكنهم كانوا يتسامحون مع الأشكال الحديثة للاستعمار الخير. ومن خلال نبذ العنف من خلال الاعتماد المتزايد على الأساليب السياسية، اعتقد فريق الحمائم أن المكانة الخاصة لبريطانيا فى العالم سوف تتبع فقط من القيم الأخلاقية لها. وفى الماضى كان فريق الحمائم هم الذين يدعمون كوبدين: (Cobden)، وبرايث: (Bright)، وجلادستون: (Gladstone) وعصبة الأمم.

ومنذ الحرب، فإن فريق الحمائم أصبح متفائلًا فيما يتعلق بمستقبل العالم الذى بدا كأنه يتجه إلى الاتجاه الصحيح. فقد تراجعت الإمبريالية، وازدهرت الأمم المتحدة، على الرغم من الحرب الباردة، وبدأت بريطانيا كأنها قد ابتعدت عن أساليبها الاستبدادية القديمة. والآن كل ذلك تغير بواسطة إيدن. والأسوأ هو أن غزو مصر قد ترافق مع المراحل النهائية من قمع الانتفاضة المجرية بواسطة الجيش السوفيتى. فكيف يمكن للغضب الأخلاقى أن يعبر عن نفسه فى وسط كل هذه البربرية، عندما توجه القائد الروسى السفاح،

نيكيتا خروشوف (Nikita Krushchev)، إلى بريطانيا باللوم فكيف له أن يتهم
كلًا من بريطانيا وفرنسا بأنهما تفتقران مصر؟

وهذا الافتقار إلى الأساس الأخلاقي قد ظهر بشدة في الولايات المتحدة
الأمريكية التي خفت حدة معارضة الجماهير بها للوحشية السوفيتية بسبب
سلوك حلفائها في مصر. وعندما كان يتوجب على العالم أن يركز غضبه
تجاه روسيا، فإن عليه أن يوجه بعضا من هذا الغضب تجاه بريطانيا
وفرنسا. وحتى الأصدقاء القدامى شاركوا في ذلك، فالثالث من نوفمبر كان
يوم "كراهية بريطانيا" في باكستان وقام زعيم حزب العمال الأسترالي بإدانة
"العدوان المكشوف" الذي قام به إيدن.

وفي بريطانيا فإن فريق الحماة، الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم قبل
كل شيء على أنهم واقعيون، قد تلقوا صدمات خطيرة.

وبعد أن وافقت الحكومة على عقد الهدنة فإنها أصرت على أن
الوحدات الإنجليزية- الفرنسية في مصر لا بد أن تظل، وأن تشكل جزءا من
قوة الأمم المتحدة التي من المحتمل أن تسيطر على القناة. وقد أصرت أمريكا
على الانسحاب غير المشروط، تبعتها لفترة وجيزة اختبار للإرادة من جانب
واحد، وهو ما عرض بريطانيا لضعف مالي شديد.

وفي الأيام الأولى للأزمة، فإن المالكين الأجانب ومن دول الكومنولث
للإسترليني كانوا مصابين بعصاب شديد، خاصة حكومات دول الشرق
الأوسط التي خافت من أن يتم تجميد ودائعها كما حدث لمصر إذا سارت في
الطريق الخطأ. فخلال شهر أغسطس تم سحب نحو ١٢٩ مليون جنيه
إسترليني من الحسابات الموضوعة بالجنية الإسترليني. وتوقف هذا النزيف
في سبتمبر، ولكنه بدأ مرة أخرى في أكتوبر، عندما تمت إزالة ٨٥ مليون

جنيه إسترليني بسبب اشتداد الأزمة. والصدمة الكبيرة جاءت بعد أن تم غزو مصر، وتم فقد ٢٧٩ مليون جنيه إسترليني (بما في ذلك ودائع هندية تبلغ ١٥٠ مليون جنيه إسترليني) بواسطة تحويلها إما إلى ذهب أو إلى الدولار. وبحلول نهاية ديسمبر فإن احتياطات بريطانيا قد انخفضت إلى ١٩٦٥ مليون جنيه إسترليني، وبدا كأن أيام الجنية الإسترليني كأكبر عملة دولية أصبحت معدودة. وفي يأس قام ماكميلان بمناشدة صندوق النقد الدولي أن يمنح بريطانيا قرضًا قيمته ٥٦٠ مليون دولار. وقد رفضت الحكومة الأمريكية طلبه، واشترطت أن تقوم بريطانيا بسحب كامل قواتها من مصر كي توافق عليه. وفي العاشر من ديسمبر، ذكر ماكميلان أن هناك حاجة لمبلغ ١٣٠٠ مليون دولار تكون تحت تصرف بريطانيا من أجل المساعدة في دعم الجنية الإسترليني. وبحلول شهر يناير من عام ١٩٥٧م، فإن قيمة الجنيه الإسترليني مقارنة بالدولار عادت إلى مستوياتها السابقة على الأزمة.

ولم يكن أمام بريطانيا شيء تفعله بسبب ما سماه ماكميلان "الضعف الموروث من اقتصاد ما بعد الحرب". وقد كان هذا حقيقياً إلى حد كبير. فعمليات السحب الكارثية التي تمت على الجنيه في عام ١٩٣١م وعام ١٩٤٧م وعام ١٩٤٩م كانت هي السبب المباشر للعجز الحاد الذي أصيب به الاقتصاد. وما حدث في عام ١٩٥٦م أدى إلى إطلاق خوف السياسيين من أن بريطانيا قد تضخم من قدراتها الذاتية، وتتورط في حرب في الشرق الأوسط، وهو ما لم تكن بريطانيا تستطيع تحمله.

وحتى قبل أن يبدأ ماكميلان في زيارة واشنطن، فإن الواقعيين داخل حزبه، قد بدأوا في التعامل مع العالم كما هو. ووفقاً لما ذكره عضو البرلمان أنجوس مود (Angus Maude)، فإن نتائج حرب السويس جعلت بريطانيا لا تملك إلا خياراً واحداً وهو "أن نعترف للعالم بأننا الآن تابعون لأمريكا". وقد

كان الخضوع للولايات المتحدة، فى بعض جوانبه، أصعب فى تقبله من الاعتراف بأن أيام حكم بريطانيا للشرق الأوسط قد انتهت أخيراً.

فالإمبراطورية غير الرسمية، كما كان يُنظر لها عندما قام ولسلى (Wolseley) بالإطاحة بعرابى باشا، لم تؤد إلى الاختفاء الفورى للجنود البريطانيين العاملين فى بورسعيد. ففى فبراير عام ١٩٥٧، فإن قاذفات القنابل التابعة للقوات الجوية الملكية قامت بقصف مواقع المدفعية اليمنية على حدود عدن انتقاماً من القذائف التى قامت بإطلاقها أخيراً.

وإذا أخذنا فى الاعتبار المناخ الحالى للرأى العام الدولى، فإن القذف الانتقامى للأهداف اليمنية كان محظوراً^(٣٣). وبعدها بوقت قصير فإن الطائرات البريطانية قامت بهجوم آخر فى عمان، لكى تساعد على حماية سلطانها ضد رعاياه الأكثر تقدماً. وفى وقت قصير بعد ثورة القصر التى حدثت فى عام ١٩٥٨م التى أدت للإطاحة بالعميل البريطانى، الملك فيصل الثانى ملك العراق، فإن القوات البريطانية اندفعت إلى الأردن من أجل إنقاذ ابن عمه، الملك حسين من أن يلقى نفس المصير. وقد تم إحباط محاولة العراق ضم الكويت لها فى عام ١٩٦١م، نتيجة وصول الوحدات البريطانية. وبالمقارنة مع حرب السويس فإن كل ذلك كان بمثابة عمليات محدودة النطاق، ومبررة من خلال الالتزامات التعاقدية وتم تنفيذها بمباركة أمريكية.

فالبترول والحرب الباردة كانتا تعنيان أن هناك عملاً دائماً للوحدات الصغيرة ذات التخصص العالى فى جنوب الجزيرة العربية. ولأنها قد فقدت مركز مجال نفوذها القديم فى الشرق الأوسط، اضطرت بريطانيا إلى الانسحاب للأطراف حيث كان هناك حكام مستبعدون من العرب الغاضبين الذين يحتاجون إلى حماية من القرن العشرين والأفكار التى أتى بها. وقد كان

هناك عدد كبير من الفرص لحدوث مناوشات على نمط ج. أ هينتي (G. A Henty) على جوانب المرتفعات العارية، والتي كانت تعسكر تحت النجوم مثل ما كان يفعل لورانس العرب، وكذلك القيام بقيادة فرق من رجال القبائل غير المنظمين الذين قبلوا التراتبية للقديمة ولم يكونوا قد سمعوا أبدا عن عبد الناصر. والممارسون للنمط القديم من الإمبريالية في العصر الحديث، وكذلك آخرهم، القائمة على القوة المسلحة ذات مرة عرض لهم مظهر حرب السكان الأصليين في فيلم زولو (Zulu). وكما كان متوقعا، فإن ذلك أدى إلى إثارة الروح القتالية لهم، وقام العديد منهم بإطلاق النار على المتهمين من الزولو الظاهرين على شاشة العرض.

والعمليات التي تمت في جنوب الجزيرة العربية كانت تتم لصالح السلطان تيمور بن سعيد سلطان عمان، وهو أحد الحكام المطلقين المنتمين للعصور الوسطى، الذي أطيح به لحسن الحظ في عام ١٩٧٠م بسبب إعاقته للشركات البريطانية، وتم نفيه وحبسه في فندق دورشستر (Dorchester). وقد قام ابنه، قابوس، بالبدا في برنامج إصلاح، باستخدام العائدات البترولية الضخمة، وعملية تحديث مقيدة. وعلى خلاف أفريقيا والهند فإن الجزيرة العربية ومنطقة الخليج لم تشعر أبدا بنقل رسالة التحضر البريطانية، وكذلك الحكام المحليون الذين سُمح لهم بالاحتفاظ بالتقاليد القديمة، والتي كان قد تم التخلي عنها في أماكن أخرى بسبب إصرار المقيمين البريطانيين فيها. ولم يتم إلغاء الرق رسميا حتى عام ١٩٤٩م في الكويت وعام ١٩٥٢م في قطر. وقد كان الرق شائعا في المشيخات القريبة من عدن حتى بداية الخمسينيات، وفي عمان حتى عام ١٩٧٠م. وسواء كان الحكام في هذه الدول وفي المملكة العربية السعودية يعنون بالفعل ما قالوه أم لا، عندما أعلنوا إنهاء الرق وظلت تجارة الرقيق قضية تلقى معارضة كبيرة. وقد تم جلب أعداد كبيرة من

العمال الآسيويين، خاصة الفلبينيين، إلى هذه المنطقة كعمال وخدم في المنازل تحت شروط قد يعتبرها محبو الإنسانية والقنصلية في العصر الفيكتوري أنها تمثل عبودية.

وفي سنوات الحرب الباردة التي تلت حرب السويس، فإن بريطانيا كانت تحتاج إلى اكتساب الكثير من الأصدقاء في الشرق الأوسط، ولذلك فإنها لم تكن قادرة على تحمل الصدام مع الطابع الأخلاقي الذي يهيمن على المنطقة.

وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٥، ١٩٧٥، قامت القوات البريطانية بالمساعدة في الحفاظ على العرش العثماني ضد المعارضين الماركسيين، وحتى عام ١٩٦٧، حاولت الاحتفاظ بحدود المنطقة المجاورة لها. فبعد تنفيذ العديد من الحيل السياسية التي صُممت من أجل الاحتفاظ بالحكم الملكي للشيوخ المحليين، وقيام حرب عصابات في الميناء وحولها، فإن الحكومة قامت بالتخلي عن القاعدة التي كانت في ذلك الوقت قليلة الأهمية من الناحية الإستراتيجية. وبمجرد أن غادرت آخر الفصائل، قامت فرقة موسيقية بالعزف. وبعد حرب داخلية قصيرة بين الفصائل المختلفة للمعارضة تم الإعلان عن قيام جمهورية جنوب اليمن. ولم تنضم إلى الكومنولث.

(٥)

العلم القديم

ردود فعل إمبراطورية تحتضر

إن الاحتجاجات التي نجمت عن إصابات العدوان الثلاثي وأخطائه على مدينة السويس توقفت عند انسحاب الجيش البريطاني من مدينة بورسعيد. وقد دخل هذا الحدث التاريخ حيث كان مدلوله واضحاً: فقد كان علامة واضحة أشارت في وقت واحد وجود منعطف، وحذرت من التصرفات المتهورة، وقدمت نصائح لإيجاد حلول أسرع، وأشارت أن هذا المنعطف صار في سبيله للهبوط. وبعبارة أخرى، تحتم على بريطانيا: (Britain) أن تودع الأيام التي كانت فيها سيدة العالم. لقد فشلت وأن الأوان لتحل أمريكا محلها. وهبوط قوة بريطانيا ومنزلتها أصبح أمراً واقعاً مفروضاً عليها.

وبالإضافة إلى تواريخ تقلص قوة الشعب البريطاني وسطوته، فقد فرض عليه مواجهة تفكك إمبراطورية مستعمراتها. وعقب الأعوام الثلاثة عشر التي تلت عملية السويس، نالت تقريباً جميع المستعمرات الأفريقية والموجودة بالشرق الأقصى وغرب الهند استقلالها وأصبحت جزءاً من كومونولث (Commonwealth) (أي حلفاء) موسع. لم تكن الصدمة في كل من بريطانيا ومستعمراتها شديدة. فقد إندهش كل الأجانب، وعلى نحو أقوى بعد انهيار الجمهورية الرابعة عام ١٩٥٨، وعملية تمرد واسعة النطاق في الجيش الفرنسي عام ١٩٦١، والمظاهرات العنيفة في العاصمة باريس (Paris)

والأعداد الكبيرة من الاستكارات الناجمة عن العمليات الإرهابية التي قامت بها المقاومة الجزائرية وOAS (Organisation de l' Armée Secrète) (تنظيم الجيش السري) أثناء عامي ١٩٦١ و ١٩٦٢. لقد كان انفصال البرتغال من الإمبراطورية بنفس القدر من العنف والدموية: فقد تم نشر ١٣٥٠٠٠ فرقة برتغالية بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٦ ضد الأنصار القوميين في كل من موزمبيق (Mozambique) وأنجولا (Angola) وقد تسببت أيضًا الثورة التي أطاحت بالجناح اليميني للرئيس كايانو (Caetano) في شهر أبريل عام ١٩٧٤ في نفس بلده. وأثناء الشهر الذي منحت فيه بلجيكا (Belgium) الكونغو (Congo) استقلالها (أي زائير) Zaire في شهر يونيه عام ١٩٦٠ فقد تفتت الفوضى في الدولة الجديدة والحرب الأهلية والمجازر ضد السكان البيض.

لم تسلم بريطانيا من تلك التغيرات العنيفة، فقد تجنبت بحذر خوض حروب لا فائدة منها، فلم يحتج جنودها على طلب المستعمرات للاستقلال، كما لم يفجر البيض في كينيا وروديسيا الجنوبية قنابل في شوارع لندن (London).

وفي شهر فبراير عام ١٩٦٣، نسب عالم اجتماع أمريكي موال للإنجليز النظام النسبي الذي تفككت به الإمبراطورية نظرًا لتطور الحس القومي الواضح المفهوم:

"إن التغير الخلقى المتوالى الذي تم التعبير عنه في الرغبة في رفض التبعية للإمبراطورية تم التعبير عنه في عدم الرغبة في الاستمرار مع النظام القديم. فإن احترام حقوق الهنود والأفارقة جزء من الطموحات في تحسين مستوى المعيشة ومستوى الذوق وتنمية كل القدرات لكل شعب وتأسيس العدالة في المجتمع والاستقلالية والإنسانية^(١)".

كانت تلك الأفكار تسعد كل من يسمعها، كما أنها كانت تتسبب فى دهشته أيضا. ولمدة ثلاثين عامًا على الأقل، فقد وعد سياسيو الطرفين أكثر من مرة أن المستعمرات فى سبيلها للاستقلال، على الرغم من أنهم لم يكونوا واضحين فيما يتعلق بكيفية الحصول عليه وتوقيته. لقد آمن الرأى العام الرسمى للإمبراطورية بأنه من المستحيل لأى حكومة تبرير حروب طويلة للقمع، من أجل الحفاظ على السيادة البريطانية إلى الأبد.

وعندما تم إثبات حتمية ذلك، كما حدث فى ماليزيا، تم بذل جهود مضنية من أجل إثبات أن الهدف من النزاع هو إثبات مدى اهتمام بريطانيا برعاياها. وفى منتصف الحملة التى شنت ضد مؤيدى الشيوعيين الماليزيين، وصف المشير "جيرالد تمبلر" (Gerald Templer) أهدافه لنائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون (Nixon):

"إن ما أحاول عمله هو إقناع كل الزعماء الوطنيين أن تلك الحرب حربهم، وأنهم يقاتلون من أجل استقلالها، وعندما ينهزم من يشنون حروب العصابات فستعود بلادهم لحكمهم، وسوف يكون قرار دوام العلاقة مع بريطانيا ودول الحلفاء فى الكومنولث قرارهم"^(٢).

ربما كان لحسن الحظ أن اختراع جهاز التليفزيون نقل آخر حملات بريطانيا الاستعمارية من موقع الحدث مباشرة. لم تشارك الجماهير البريطانية التجربة المزعجة التى قامت بها أمريكا فى منتصف الستينيات فى عمليات فيتنام أثناء حدوثها. وما تم عرضه صدم الشعب الأمريكى مما ضاعف من حدة الاحتجاجات ضد الحرب. وقبل عشر سنوات، شعرت الحكومة البريطانية بأهمية تأثير التليفزيون على الرأى العام واهتم الكثير بمعرفة ما نقلته فرق الكاميرات التى كانت فى ساحات الحروب. وتم حذف المشاهد المؤثرة مثل المشاهد التى بها أعمال عنف. وبعد تصوير البى بى

سى لفيلم تسجيلى عن قبرص (Cyprus) عام ١٩٥٨، حذر المحافظ، السيد هيوفوت وزارة المستعمرات من يقومون بالرقابة بحذف أى مشاهد لقرى تحاصرها فرق من الجنود قاموا بصلب سكانها على الحوائط، وتم أيضاً فرض الرقابة على النصوص المكتوبة أيضاً مثل عبارة "هرولنت قبرص نحو استقلالها عندما كانت مستعمرة منذ عدة سنوات"، فتحولت إلى "اتجهت قبرص بهدوء نحو استقلالها عندما كانت مستعمرة منذ عدة سنوات". ربما كلمة "هرولت" رسمت صورة لإدارة غير مسئولة وغير مريثة. عند اطلاعنا على باقى النصوص نرى كلمة "الإرهابيين" حلت محل كلمة "العدو"^(٣).

ولم تستثن الحرب الباردة إضفاء بعض القوة للشيوخ برغم أن الوزراء المحافظين قد سعدوا للتحالف مع تنظيمات متضامنة من الحركات القومية. لقد كانت السياسات المناهضة للاستعمار، بمعناها الواسع، ثنائية الولاء مع الميل لحزب العمال للتعجيل بهذه العملية. تحتم على المحافظين أن يكونوا أكثر حذراً لأن العناصر اليمينية فى الحزب لم تثق فى القوميين أو كانوا مؤيدين تجاه جاليات البيض فى شرق أفريقيا ووسطها. وجدت هذه المجموعة الأخيرة حلفاء طبيعيين فى صفوف المجندين الذين لم يرضوا بسياسات أعطت اهتماماً مفرطاً للقوميين، ولم تكترب لزعماء القبائل مطلقاً. ووفقاً لما صرح به السيد مرفين ويتلى (Mervyn Wheatley)، وهو كان حاكماً سابق لمقاطعة سودانية ولاحظ أن "الإداريين ذوى الخبرات" يمكنهم فهم عقلية "الرجال القبليين المتحضرين" ومعرفة ما الأشياء التى يريدونها فعلاً^(٤).

إن سلوك السياسيين الاستعماريين تسبب فى عدم الثقة والمهازل بشكل متساو فى صفوف من كانوا خارج الحزب اليميني. وبحلول عام ١٩٥٠، غضب المحارب القديم المنتمى لحزب التورى (أى المحافظين) الكابتن

"جامانز" (Gammans) عندما تم إيدال لفظ الجلالة باسم "إن كروماه" أثناء القداس وأناشيد السيد المسيح القديمة والمعاصرة في ساحل الذهب^(٤).

وقد سخر "بيتر سمبل" (Peter Simple) كاتب الأعمدة المنتمى للحزب اليميني بجريدة "ديلى تلغراف: Daily Telegraph" باستمرار الديمقراطية الأفريقية الوليدة الفجة. وقد أضحتت كثيرا تعويضات المعالجين بالسحر والأصنام التى تم عرضها فى الإنتخابات التى أجريت عام ١٩٥٦. وقد حدث موقف هزلى آخر عند انعقاد جامعة مؤيدى الحكم الإمبراطورى عام ١٩٥٤ من أجل الدفاع عن مصالح الإمبراطورية. وقد ضم كبار رجالها مجموعة من كبار الضابط ذوى أفق ضيق الذين لم يتقبلوا انهيار الأشياء التى اعتزوا بها؛ فالأحلام التى تبعث إلى الحنين التى تحدث عنها رجال ونساء ينتمون إلى طبقات المجتمع العليا والوسطى، كما شرد بهم التفكير عن إنجلترا أثناء شربهم مشروب الجين فى شرفات منازلهم التى شيدها فى المستعمرات التى طرودا منها عند عودتهم إلى أرض الوطن، ولم يكن ضغط الدم العالى والمشاعر الحزينة شيئا مدهشاً، وقد عانت الجمعية منهما كليهما، فقد تذكر من يخططون مستقبل بريطانيا السياسى عصرها الذهبى الذى حكمت فيه البحار والعالم بينما كانت مخطئة^(٥).

فقد كانت مناهضة للقوميات الآسيوية والأفريقية والهجرة الوافدة من البلاد الأفريقية والأمم المتحدة والحزب المحافظ الحالى و"هارولد ماكميلان" (Harold Macmillan) واليهود والولايات المتحدة مع تأييدها للتفرقة العنصرية والرغبة فى استعادة أمجاد الإمبراطورية.

لقد نظرت الجمعية إلى مهماتها كما لو أرادت تخلص البلاد من نشوتها الليبرالية، وبذلت معظم طاقتها على سلسلة من الدعايات غرضها نشر أسبابها ووضع خصومها فى مأزق، وفى عام ١٩٥٨، قام ناشطو الجمعية بحل مؤتمر للمحافظين.

وترتب على ذلك طردهم منه، وفي شهر يوليو عام ١٩٦٢، اقتحموا حفل عشاء أقامه ماكميلان (Macmillan) إكراما لأمين الأمم المتحدة آنذاك "يوثانت" (Uthant) وعلى نمط الجماعات المتطرفة اليمينية واليسارية، كانت الجمعية في غاية الهشاشة، وقبل أن يهجرها أعضاؤها البالغ عددهم بسضع مئات من أجل اعتناق مبادئ غريبة تحقيقها ميثوس. ولم تشكل معجزاتهم التافهة سوى القليل من عناوين الجرائد.

وقد كان "هارولد ماكميلان: Harold Macmillan" هدفاً معتاداً من عصابة الأمم هو وأتباعه الشباب لدى صحف التسعينيات. وقد آمن رئيس الوزراء منذ شهر يناير عام ١٩٥٧ حتى شهر أكتوبر عام ١٩٦٣، أن التيار المحافظ الأبوى أولى ليكون في أمة واحدة، وفيما يتعلق بالأمور الخاصة بالإمبراطورية ومكانتها في العالم، لأنه كان رجلاً نفعياً واقعياً فلقد حصلت المستعمرات والبلاد التي كانت تحت الحماية البريطانية على استقلالها تحت حكمه، وكانت: ساحل الذهب (أى غانا) ومالاييا (المضمومة مع بورنيو Borneo الشمالية (ساباح) من أجل إنشاء دولة ماليزيا (Malaysia) عام ١٩٦٣ وقبرص ونيجيريا وصومالي لاند مع صوما ليلاند الإيطالية على أنها الصومال (Somalia) وسييراليون (Sierra Leone) وجامايكا وتجانيقا وأوغندا وكينيا وجامبيا. وكانت أيضاً شمال روديسيا (أى زامبيا) في طريقها للحصول على الاستقلال ونيازالاند (أى ملاوى) وإنشاء اتحاد دول غرب الهند. وبشكل آخر، لم يكن أى رئيس وزراء آخر مسئولاً عن برنامج كاسح مثل ذلك لتفكيك المستعمرات.

لقد تسبب ذلك في ذهول من ينتمون للأحزاب اليمينية. وذات مرة لم يتمكن موظف لدى مكتب المستعمرات من فهم قبول حزب المحافظين لهذا الأمر؛ كان من الممكن الصمود أمام الأمريكيين. كما كان من الممكن

الصمود أمام الروس، كما كان بإمكاننا الصمود أمام حزب العمل. إذن لماذا لم نتمكن من الصمود أمام ما كان حزب العمل والجناح اليسارى لحزب المحافظين؟^(٣).

ولأجل جذب الانتباه، فشل فى ذكر مواجهته أناساً قوميين محليين. ما فشل هو وغيره، فى فهمه خاصة سكان أفريقيا البيض أنه منذ عصر ذرائلى ظل حزب المحافظين مجموعة من المنصاعين ومن أتباع الأقوياء، بعيداً عن كل الشكوك التى أعاقَتْ خصومه. لم يعد حزب التورى يلعب على وتر الإمبريالية؛ لأنها لم تعد تجذب الأصوات، حتى لو جذبت القليل منها. وعند إتباعهم لمنهج وضعه بالدوين، جذب حزب المحافظين أصوات الناخبين باللجوء إلى الوعود بالرخاء والشعور بالانتماء. ظهرت مشاعر الحنين إلى العصر الإمبريالى فى البرامج الانتخابية لكن مع الافتقار إلى عنصر التشويق. والبرنامج الانتخابى الذى ظهر فى الخمسينيات وعنوانه "هذه هى السبيل الصحيحة" الذى تناول تدعيم كل رابطة مع أمم إمبراطوريتنا والكومنولث (Commonwealth) (أى الحلفاء) وذلك الذى ظهر فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ وعنوانه "سوف نفوز بفضلنا" صرح بفخر أن الإمبراطورية البريطانية ودول الكومنولث تعد النجاح الأعظم للشعب البريطانى فإن التماسك الوطنى، ولكن على نحو جاد وصريح، دعا المستعمرات إلى العودة للماضى.

كان هناك رابطة من أعضاء البرلمان المنتمين للحزب اليمى الذين تسببوا فى عدة ضجبات بتحالفهم مع جريدة "ديلى إكسپريس" (Daily express) وبشكل أقل وضوحاً مع جريدة "ديلى تلغراف": (Daily Telegraph) وقللوا من سرعة تدهور الإمبراطورية. لكن ماكملان منح تعويضات لكل من قاموا بإحباط الجماهير عن اللجوء إلى سياسة خارجية طموح وعسكرية وضعت للرفع من شأن بريطانيا بالمقارنة بغيرها من الأمم.

وعند مطلع شهر أغسطس عام ١٩٥٥ أدركت بريطانيا بمرارة أنه ليس بإمكانها تكريس سوى ١٠ بالمائة من إجمالي ناتجها الخام للجيش. لذا تم اقتراح تقليص عدد المجندين من ٨٣٥٠٠٠ مجند إلى ٧٠٠٠٠٠ خلال السنوات الثلاث التالية. وتسببت حرب السويس في زيادة مدى الخلل الموجود في خزانة الدولة.

لكن بحلول شهر يناير عام ١٩٥٧، بدأ وزير الدفاع الجديد، "دونكان سانديز" (Duncan Sandys) بوضع خطط لفحص إستراتيجية الدولة ومضاعفة عوائدها على المدى البعيد شملت ثلاث نقاط. لقد استهلكت وزارة الدفاع أموالاً لم تكن بريطانيا قادرة على سدائها، وقد عرضت حرب السويس عدم قدرة قوات بريطانيا التقليدية على احتواء أزمة، وعلى أي حال فإن هذه النوعية من المغامرات صارت جزءاً من الماضي، وقد أصبح امتلاك ترسانة نووية قادرة على تسديد ضربات - كما هي الحال مع روسيا - أمراً حيوياً.

وكما حدث مع حزب العمال عام ١٩٤٦، لم يثق حزب المحافظين في الولايات المتحدة الأمريكية لمساندة بريطانيا عند الضرورة القصوى، وقد برر هذه المخاوف سلوكها أثناء حرب السويس.

وعند تحويل هذه الأفكار النظرية إلى واقع إستراتيجي تسبب ذلك في صدور مرسوم بحلول شهر مايو عام ١٩٥٧ أدى إلى استياء المؤسسات الحكومية. وقد تم تقليص جنود الجيش والبحرية والقوات الجوية ليصل إلى ٣٧٥٠٠٠ فرد عند حلول عام ١٩٦٢، وثم بعد قد يعتمد الأمن القومي على مخزون من الأسلحة النووية الاندماجية وأنظمة صواريخ من أجل حماية البلاد.

كما سيتم إلغاء الموانئ القديمة في جنوب المحيط الأطلسي وأمريكا الشمالية وغرب الهند، كما سيتم تقليص أعداد القوات القابعة شرق قناة

السويس على نحو مفاجئ وعنيف. ومنذ ذلك التاريخ، لم يكن بوسع بريطانيا إعداد القوات اللازمة لخوض حملات استعمارية بعيدة المدى. وبحلول عام ١٩٥٩، تم تقليل عدد المجندين من أجل إدخال اليأس في قلوب الحراس القدامى المحتجين الذين ظنوا أن الانحطاط والفوضى بين الشباب قد يزدادان على نحو أسرع من المعتاد.

إن القوات المسلحة التي قام سانديز (Sandys) بتغيير ملامحها تم قبولها بمزيج من الغضب والضجر من قبل كبار ضباط الجيش. وعند أول مناظرة مع الوزراء، لجأوا للأفكار القديمة التي كانت تنادي بتجنيد أعداد زائدة من جنود المستعمرات الأفريقية التي أمنت بفكرة رجوع تلك البلاد تحت الحماية البريطانية مرة أخرى في السنوات القادمة. وفي النهاية، انصاع قادة الجيش للأوامر وقاموا باستدعاء جميع الكتائب ومعها قاموا بطى الخرائط التي كانت تحتوى على كل البلدان التي كانت تشكل الإمبراطورية غير الرسمية ولكن بحبر بال وباهت. وقد كانت القوات التي تم سحبها من عدن والشرق الأقصى حتى نهاية الستينيات عندما امتنعت حكومة جديدة عن إنفاق الأموال على ذلك: فرحة عارمة لحزب العمال، وقد تكرر هذا الموقف كثيرًا أثناء تفكك المستعمرات البريطانية في ختام القرن العشرين، على الرغم من أن سيناريوهات حصول المستعمرات على الاستقلال لم يكن لها تأثير يذكر على الميزانية العامة، وبحلول عام ١٩٦٣، بلغت تكلفة الجيش ١٧٢١ مليون جنيه إسترليني مما شكل نحو عشر الناتج القومى الخام.

وفى شهر مايو عام ١٩٥٧، عند اجتماع الوزراء واللواءات ولواءات البحرية والقوات الجوية لمناقشة ما ينبغي أن تكون الحال عليها، نجحت بريطانيا فى تفجير أول قنبلة هيدروجينية فى جزيرة كريسماس التى تقع فى غرب المحيط الهادى وتم تفجير ثلاث قنابل أخرى قبل شهر نوفمبر، ثم

قامت الحكومة بفرض عقوبات على من يمتلك صاروخاً بعيد المدى أطلق عليه أسم "بلوسترايك" وفي نفس الوقت، أنشغل "ماكميلان" بتحسين علاقات بلاده مع الولايات المتحدة الأمريكية متخيلاً مثلاً فعل من سبقوه ومن خلفوه أن العلاقات الخاصة قد تضيف من بريق مكانة بريطانيا في العالم وفي عام ١٩٥٧، قبلت بريطانيا بالاحتفاظ على صواريخ أمريكية أطلق عليها أسم "ثور" كما سمحت في عام ١٩٦٠ بصناعة الغواصات "بولاريس" النووية في قاعدة "كلايد" وبعد مرور عامين، أقنع "ماكميلان" الرئيس "جون كينيدي" بتزويد بريطانيا بصواريخ من طراز "بولاريس"، مع أن مشروع الصواريخ "بلوسترايك" تم الاعتراض عليه نظراً لارتفاع ثمنه وامتلاك ترسانة مستقلة من القنابل الهيدروجينية وضعت بريطانيا ومن بعدها فرنسا في صف الدول العظمى. كما منحت امتيازات انتخابية مفيدة لصالح حزب المحافظين كما حدث إنشقاق في صفوف حزب العمل فيما يتعلق بالأسلحة النووية عند حدوث حملة مناهضة لنزع السلاح النووي، مع وجود أغلبية فيها تطلب بفرضها، ولفترة عند مطلع الستينيات وجد حزب العمل نفسه في مأزق لنزع الأسلحة النووية من بريطانيا؛ اللجوء لمفردات قديمة لهذا الغرض والوعد باستخدام أسلحة تقليدية. لذا، تحت قيادة ماكميلان الحكيمة، تخلصت بريطانيا من أعبائها الإمبريالية، ولكنها ما زالت قوة عظمى ولو حتى بشكل نظري على مقاومة الحرب النفسية التي يشنها الاتحاد السوفيتي بزيادة إنتاجها للأسلحة النووية، بشرط أن الولايات المتحدة الأمريكية انتهجت نفس الأسلوب. وبشكل ظاهري على الأقل لم يكن الفشل الإمبريالي ملازماً لفقدان هيبة بريطانيا أمام كل العالم، ومن الممكن أن يكون الجناح اليميني لحزب المحافظين أن يشعر ببعض الطمأنينة، ولم يهتم أغلب الناخبين سوى للموضوعات اليومية التافهة وعندئذ تسبب "ماكميلان": (Macmillan) في إثراء حزب المحافظين، ويمكن خصومه ادعاء التضخم لاحقاً.

شهدت نهاية الخمسينيات ارتفاع مستوى المعيشة في البلاد كلها، فإن ما يعتبر رفاهية للأغنياء أصبح من الضروريات للفقراء، وهذا ما صرح به "ماكميلان": (Macmillan) الذى أوضح أن هذا الرخاء من صنع سياسات حزبه الاقتصادية، إن كلمة "ماكميلان" الرائدة والسارية (وإنكم لتحيونا فى هذا الرخاء) حازت على مصداقية كبيرة، كما جذبت الكثير من الأصوات، وما حدث بمدينة السويس، واقترب فناء الإمبراطورية لم يتسبب فى إرباك الناخبين على نحو واسع حتى لم يشعروا بلوم إزاء القمع الذى جرى فى "نياسلاند" والمعاملة الوحشية التى عانى منها معتقلو الماو ماو فى معتقل "هولا". وفى عام ١٩٥٥ حازت الانتخابات العامة على ٩,٤٧ بالمائة من الأصوات، وهى أعلى نسبة منذ بداية الحرب فى أكتوبر عام ١٩٥٩ نال الحزب على ٣,٤٩ بالمائة من الأصوات مما تسبب فى فوز "ماكميلان" بجدارة.

برغم أنه من الصعب قياس الأمر بدقة، فيبدو أن جماهير الناخبين البريطانيين لم يكثرثوا إطلاقاً لتفكك المستعمرات التى حملت طوابع البريد أسماءها. لم يكن هناك أى حزب دمج الإمبريالية مع أيديولوجيته. ولم يقل احترام أى بلد لنفسه بسبب تفكك مستعمراته، ولكن بالعكس زاد هذا الاحترام منذ تبنيها لأخلاقيات أسمى وكان يتم تنفيذها بدون مجازر أو عمليات قمع.

والنظر ملياً إلى كيف كانت كل من فرنسا والبرتغال بمثابة درس مفيد لعدم خوض سياسات عنترية، كان هناك جماعات صغيرة ندمت على نهاية الإمبراطورية، ولكن برغم ارتفاع احتجاجاتهم فهم أثروا إلى حد ما الحياة السياسية.

والقليل من الناس خارج أندية لندن والمطاعم العسكرية كانت تؤرقهم فكرة انسحاب بريطانيا من منطقة الشرق الأوسط، أو أن السكان البيض فى

شرق أفريقيا ووسطها كانوا على مقربة من مواجهة مستقبل يحكمه رجال سود، ولكن كانت لجماعة المستوطنين نفوذ في دوائر حزب المحافظين اليميني؛ ولذا تحتم على "ماكميلان" التعامل مع السياسة الأفريقية بحرص، إن أراد تأمين موقفه داخل الحزب، وقد قبلت على مضض إحدى المدافعات باستماتة عن المستوطنين وهي ماركيزة "سالزبوري" عودة الأسقف القبرصي القومي ويدعى "ماكاريوس". لكن لم تخطئ الماركيزة، كما لم تنتشر الفوضى في الحزب، وصار الأسقف أول رئيس عام لقبرص، وسمح لبريطانيا بإنشاء قاعدة على الجزيرة وفيما بعد شارك بفاعليته في مؤتمرات الكومنولث.

ولم يخسر أى شخص وظيفته، كما لم يتم إغلاق مصانع أو تتم عرقلة أى فرص للاستثمار كنتيجة لفقدان المستعمرات. وزادت صادرات بريطانيا لدول الكومنولث بشكل ملحوظ، ففي عام ١٩٥٨، صار الإجمالي ١٢٤٠ مليون جنيه إسترليني، وفي عام ١٩٦٢، ١١٦٣ مليون جنيه وفي عام ١٩٦٩، ١٤١٩ مليون جنيه، وبالمقارنة، ازدادت الصادرات تجاه بلاد المجموعة الأوربية للاقتصاد محققة ٢٦٣٤ مليون جنيه إسترليني عام ١٩٦٩ برغم أنه كان من اللازم أن تنتظر بريطانيا مرور أربع سنوات للتمتع بعضوية كاملة وداخل أعضاء الكونولث، تضاعفت التجارة على نحو سريع مع أعضاء يبحثون عن أسواق جديدة ومصادر للمواد الخام خارج المجموعة. وقد قفزت قيمة الصادرات الكندية إلى الولايات المتحدة الأمريكية من ٣٢٩ مليون جنيه إسترليني عام ١٩٥٨ إلى ٥٣٤ مليوناً عام ١٩٦٢^(٨).

ولم تعط الدول الجديدة التى حلت محل المستعمرات القديمة امتيازات تجارية معينة بشكل تلقائي، أما فى أفريقيا كانت تقدم كل من جامبيا وملاوى (نياسلاند سابقاً) مستوردين بريطانيين مميزين عام ١٩٦٧ معاً مع دول جنوب أفريقيا التى غادرت دول الكومنولث قبل ست سنوات مضت.

ليس هذا المكان المناسب من أجل رسم الطريق الطويل والشاق كثيراً مضجراً، وشقت به بريطانيا سبيلها إلى المجموعة الأوروبية للاقتصاد. وتم اتخاذ الخطوات الأولى عام ١٩٥٧ وبشكل ما، كان هناك من يقول إن بريطانيا تبحث عن دور جديد في العالم وقد يتم استبدال القوة الإمبريالية والعالمية لأفضل البدائل أو الزعامات لغرب أوروبا، وقد أدرك الزعيم "شارل دي جول" الذي أصبح رئيساً لفرنسا، عندما بدأت بريطانيا تفقد سلطاتها الدولية ومستعمراتها.

كما أراد أيضاً تعويض "مجده السابق" ولم يرغب في السماح بوجود شريك في سيادة أوروبا، وترتب على ذلك أن تقدم بريطانيا في أوروبا كان أمراً أكثر إيلافاً أمام شعبها عند انسحابها من الإمبراطورية.

وفي بعض الأحوال بدت طريقة تعامل بريطانيا مع دول أوروبا تتسم بالحرص وعدم التحمس. وسبب ذلك الأمر هو عدم رغبتها في نسيان الماضي تماماً، والاعتراف بأن الكومونولث أصبح رهاناً خاسراً وحاولت مقالة مكتوبة من حزب المحافظين في جريدة التايمز في شهر أبريل عام ١٩٦٤ محور الذكريات القديمة عن أجندة حزبه والبلد لإسقاط ضحايا إلى (الإحباط الذاتي على مدى بعيد).

في تقديرهم كان وجود القوة الحقيقية في العالم المعاصر، فقد كانت دول الكومونولث غير معروفة وغير قابلة للتعريف، وتم وصف ثلاثة من زعمائها وهم "تهرو"، و"تكروماه" (Nkrumah)، و"ماكاريوس" (Makararios) على أنهم متطفلون: إنهم لم يقدموا شيئاً يذكر فهم يحصلون على أى امتياز قريب منهم، كما هي الحال في القواعد المنسية وعديمة الفائدة الموجودة في عدن وعبر المحيط الهندي؛ كانت بمثابة أماكن تساعدنا على الوصول إلى أماكن لسنا في حاجة للذهاب إليها^(٩)، فقد نمت ألمانيا الغربية واليابان بدون

قواعد ولا حتى كومونولث، ولهذا السبب قد يعول تخلف الاقتصاد البريطاني، وقد أزعجت هذه الواقعية المفرطة أحد أعضاء حزب المحافظين الذى عاد إلى اتحاد الكومونولث عن طريق أعمدة المراسلة فى إحدى الجرائد، وفى نفس الوقت الذى كانت تخسر فيه بريطانيا، فى كانت تخسر أيضا الكثير من قدراتها على التعبير عن نفسها، وبحلول عام ١٩٦٠، صار الميسور معترفاً به قانوناً، كما خسر الناج القضية التى رفعها ضد الكاتب د. هـ "لورانس" وكتابه عشيق السيدة تشاترلى، فى عام ١٩٦٥ ألغيت الرقابة على الأعمال المسرحية ثم فى عام ١٩٦٧ أبيع الشذوذ الجنىسى كما أبيع الإجهاض، وفى عام ١٩٦٩ صارت إجراءات الطلاق أسهل مما كانت عليه، وبدأت بريطانيا كما لو كانت قللت من تأثير مدينة لندن التى كانت عاصمة للإمبريالية، والتى ضرب بها المثال فى المستجندات والموضة، وكما أباحت الجنس الذى أصبح أمراً مألوفاً فى الستينيات ولم يعد هناك شىء أوضح من إضمحلال النظام الجديد وقوانينه. ومن النجوم الذين نادرًا ما يخلقون رؤوسهم ومقاليدهم الذين يرتدون سراويل من الجينز ويغنون ويرقصون بشكل صاخب، وهذا ما أحيا الإمبراطورية المتمثلة فى معطف رجال الجيش الأحمر القانى وأسوأ ما حدث هو انتهاك الإمبراطورية، وهى التى شقت طريقها إلى كل شىء بدءاً من سراويل النساء حتى أكياس التسوق.

لقد كان انتهاك الماضى ومقدساته أحد مظاهر التغيير الجذرى الذى يمر به المجتمع البريطانى، فقد كان سلوك البريطانيين أقرب إلى ثورة، ويمكننا ذكر نفس الشىء عند فحص فكر الشعب نفسه وأفكار وعقليته ورأيه عن نفسه فى مطلع الخمسينيات فى بادئ الأمر، كان هذا التغيير بطيئاً وغير متنوع، ولم يكن بوسع أحد التنبؤ بإيقاع هذا التغيير أو حتى مصيره، لقد تزامن هذا التغيير مع تفكك الإمبراطورية لسببين؛ أولهما شمولى على هجوم

جنرى على القيم والاتجاهات التقليدية وغالبيتها معروفة من الإمبرطورية، ومن صنعوها، وزعموها ولو كانت أفكارهم المثالية مغلوطة فربما أدى هذا إلى تآكل المؤسسة من الداخل، وثانيهما عندما بدأ إيقاع هذا التغيير يزداد بسرعة فإن الجماهير وخاصة الشباب وجدوا أنه ينبغي عليهم إنفاق المزيد من المال على لهوهم ولم يعد ضعف بريطانيا أمرا مهما لديهم، على أى حال كان هناك كثير ممن لا يكترون بأمجاد بريطانيا وعلى استعداد للضرب عرض الحائط بها.

وأول شعار تم رصده فى عادات البريطانيين وإخلاقيات يتمثل فى كلمة غضب، وأول رابطة مشتركة بين الكتاب الشباب فى الخمسينيات كانت تحتوى على مجتمع يفتقر إلى التغيير، كانت كل الأشكال النشاط الإنسانى والمشاعر الإنسانية يعرقلها تيار محافظ لا يكثرث لثقافة، كما أن هذا التيار راضٍ عن نفسه ومحيط بكل شيء، وقد كان احترام الماضى شيئا يعكر صفو الحاضر وكان سببا لعرقلة التقدم، وقد كان الغضب شيئا يشعر به معظم الشباب، وقد ردوا بالاشتراك مع من هم أكبر منهم فى العمر بالإجابة بحفاوة للكتاب الذين ترجموا الإحباط الذى يعانون منه. وكل ضربة كان يتم تسديدها للنظام القديم ورموزه تستقطب متمردين آخرين، والكثير منهم كانوا يعتقون المستجدات المدمرة لكل ما هو قديم فى الحال مثل الروك أند رول الأمريكى وموسيقى الجاز والتغييرات التى كانت تتسبب فيها خصوصيات المجتمع. ولكن فى أحد النصوص المتعلقة بهذه الفترة فإن الكتاب الناظر إلى الغضب وكاتبه جون أوسبورن والمؤيد الرئيس جيما بورتر (Jimmy Porter) نعى قلة الأسباب من أجل الاستمرار على هذه الحال، فقد اشتهر بوصفه أنه لا يزال فى منتصف فترة الثورة الفرنسية، فإنه لا يعرف أين موقعه ولا حتى مصيره، وبدون قصور يمكن مهاجمتها، فقد قضى بورتر وأتباعه على قيم النظام القديم ومحرماته فلم يكن سوى إمبراطورية واحدة.

فقد كانت في نفس الوقت تعبيراً و فرعاً جديداً للاهتمام الاجتماعي والتيار المحافظ الذي احتقره، وفضلاً عن ذلك، تم إنشاؤه وكان يتم قيادته من ممثلي هذه الطبقة التي كانت تحتكر السلطة التي كانت السبب الرئيسي للشلل الذي تعاني منه البلاد حينذاك، وقد اصطدمت نظرة سريعة بهذا السركن من الإيديولوجية الإمبريالية، وهي المصدر الفطري لعنفوان العرف البريطاني ومصدر قوته بواسطة كتاب وليام جولدوينج وعنوانه ملك الذباب (عام ١٩٥٤).

إن حزب "جولننج" يشبه تلاميذ يستغيثون على جزيرة مدارية مثلما فعل "روبنسون كروزو": (Robinson Crusoe) لم يعتمدوا على سواعدهم وقاموا بترويض البيئة المحيطة بهم، ولكن حدث ما كان متوقعاً فتحولوا إلى "وحوش بدائين" وكانوا أشبه بالوحوش التي تعامل معها المغامرون الذين خاضوا البحار الجنوبية، والتي كانت تسرد قصصهم في المدارس الفكتورية. أصبحت هذه الأقصوصة الأخلاقية التي تنتقد هشاشة قيم الحضارة نصاً مهماً في المدارس، وهي إجابة متشائمة لقصة "بالانتين" وعنوانها "جزيرة المرجان" وصدرت في منتصف خمسينيات القرن العشرين.

وقد هوجم أحد أبطال الإمبريالية، وكان لورانس (Lawrence) العرب، وقد كان خصمه رجلاً غاضباً ومسنناً ويدعى ريتشارد ألدينجتون (Richard Aldington) عام ١٩٥٥. وقد عرضت قصة حياة لورانس على أنه رجل خدع العرب ثم أصدقاءه ثم نفسه. فتسبب سلوكه الأقرب بسلوك المتسولين في وصفه على أنه "رجل مناسب لطبقته الاجتماعية وزمنه". وإن المدافعين عن لورانس وطبقته الاجتماعية وإنجازات زمنه فضحوا ألدينجتون على أنه فظ، وفي أحيان أخرى على أنه في منتهى الفظاظة. لقد تسببت شدتها في إيضاح أن سمعة الكثير من الرجال كانت في خطر. وبتلطيف سمعة لورانس، أعاد ألدينجتون النظر في قيم الدولة التي خلدت ذكراه.

وليس من الوارد أن حوار "الدينجتون" قد يكون قد تسبب فى نفس ردود الأفعال التى ظهرت بعد حرب السويس.

إن حرب السويس وبزوغ روح الوطنية التى أوجدتها موضوعات لكتاب "جون أوزبورن" (John Osborne) وعنوانه "المحاور" ظهر لأول مرة فى شهر أبريل عام ١٩٥٧. فقد مزجت هذه الرواية نعيًا لموسيقى الملاهى الليلية وسخرية من أدب الطبقات الكادحة وكل من الطبقات الوسطى والدنيا. ومحاور عنوان الكتاب وهو "أرشى رايس" (وقام بدوره لورانس أوليفيه: Lawrence Olivier) مجرد ممثل فاشل، ولكنه مرح ويقرن حواراته المضحكة مع الأغانى العاطفية.

وانتمت وجهات نظره وأفعاله على حد سواء للزمن الذى تغنى فيه مجموعات المغنين أغنية "جنود الملكة". كما أن لـ "رايس" أيضا ديوانًا لأناشيد متشابهة:

إن الجيش والبحرية والقوات الجوية يمثل كل ما نحن فى حاجة إليه، من أجل الإثبات لكل من يريدون تلويث سمعتنا أن كل شيء لا يزال تحت سيطرتك، ويتمثل ذلك فى اللون الأحمر والأبيض والأزرق لا تزال قطع من اللون الأحمر على الخريطة ولن نستسلم بدون قتال.

وفى معركة السويس، لقي نجل أرشى حتفه، وكان يدعى "ميك" Mike مما تسبب فى حزن بالغ لأبيه. وتنتهى المسرحية مع رايس مستأنفا حياته الروتينية مبتدئًا بموسيقى الـ "روك أند رول" الصاخبة أمام شاشة ببيضاء تظهر خلفها بريطانيا (Britain) الناجية من أجل قبة مصنوعة من سبيكة من الزنك والنحاس.

فإن إمبراطورية "أوزبورن" مثل إمبراطورية "رايس" (Rice) صارت متداعية ومشرفة على الانهيار.

وقد اقتبس كاتب مسرحي غاضب ويدعى "جون أرن" من حلقة من حلقات الحروب التي خاضتها بريطانيا وعنوانها "رقصة الشاويش ما سجريف" التي ظهرت في شهر أكتوبر عام ١٩٥٩. تدور أحداث هذه الرواية في السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن الإشارة إلى الإرهابيين وإلى "حالة الطوارئ" توحي بأن السيناريو أشبه بالزمن الحالي باستثناء الملابس. وفي هذه القصة، يعود أربعة جنود إلى مسقط رأس أحد زملائهم وهم يحملون رفاتهم، وجدير بالذكر أن هؤلاء الأربعة هربوا من الجيش، ومسقط رأس هذا الزميل يعاني من التلوث الذي تسببه الصناعة والخلفات التي تتجم منها. لقد لقي هذا الجندي حتفه إثر إصابته بغيار نارى فى ظهره من جندي لا ينتمى لجيش نظامى، وقد تسببت وفاته إلى مظاهرة جمعت مشبوهين مما تسبب فى مقتل ثمانية وثلاثين من المدنيين. وعندما تسلم "ماسجريف" برشاش جاتلينج سرقه قرر الانتقام بشكل غريب من أهل البلدة التي تسببت فى مقتل هذا الشاب باسم الإمبراطورية.

تنتمى فكرة هذه الرواية إلى منتصف القرن العشرين. لقد وصف "ماسجريف": (Masgreave) الحرب التي خاضها بأنها حرب ظالمة وجائرة وتسببت فى خسائر فى الأرواح هباءً وأطلق على أعداء الإمبراطورية اسم وطنيين. وقد صرح قاضى دينى بتحمل بريطانيا لمسئوليات خاصة ، وجدير بالذكر بأنها على مستوى عالمى. وهى أيضاً على مستوى من النبل. وهى مسئوليات لسلطة من أعظم السلطات. ومن الجائز أن تكون قد أوحى هذه الكلمات بالجنة. وإن إمبراطورية "أرن" مصدر للفساد، وخاصة فيما يتعلق بالطبقة الكادحة التي تحيا وتموت ولا تتوقف عن أداء الأعمال الوضيعة.

وقد ذكر مؤلف رواية "رقصة الشاويش ماسجراف" الكثير من التقاليد اليسارية المتطرفة المناهضة للإمبريالية في روايته. وعلى الرغم من "أردن" (Arden) وكتاب المسرحيات الرواد الذين ينتمون لأواخر خمسينيات القرن العشرين ومطلع ستينيات نفس القرن رغبوا في قيادة عناصر الطبقة الكادحة، كما أن السواد الأعظم من الذين واطبوا على مشاهدة مسرحياتهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى. وبرغم ذلك، فقد دخلت أعمالهم وأفكارهم في العقدين التاليين في فصول المدارس الثانوية مروراً بمقررات الاختبارات. وقد شكل التلغاز معظم ما عبرت به الطبقة الكادحة عما بداخلها، وهذا مع ابتعادها شيئاً فشيئاً عن دور العرض.

وقد تم تعريف مشكلات الإمبريالية عن طريق بعض البرامج الحوارية مثل برنامج "هذا المساء" و"بانوراما" التي كثيراً ما قدمت حوارات وتقارير في مكان حدوثها. لقد وضعت هذه النوعية من البرامج الحكومة في وضع حرج، وعلى الأقل التي حاولت وضع الرقابة على تغطية الموضوعات الحساسة المتعلقة بالاستعمار. وبحلول شهر مارس ١٩٥٩، أعلن حاكم نيازالاند حالة الطوارئ في مستعمرته، دعماً لقمع ثورة وهجمات ضد الأوروبيين. ومن أجل استبعاد فكرة - على نحو يائس - أن بريطانيا كانت تقاوم القوميات الأفريقية، كما طلبت وزارة المستعمرات من رئيس محطة الـ بي بي سي، وكان وقتذاك اللورد "هيل" من قدم يد العون.

وقد علق البيروقراطيون على هذا الأمر قائلين: "من الأفضل اختيار مصيرنا من الاشتراك في برنامج معرض للإطاحة أعده مستجوبون ثقيلو الظل أو من متحدث باسم حزب معارض. وبعبارة أخرى رحب "آلان لينوكس: (Alan Linux) بتحرير نص للتعبير عن نفسه أو بإجراء حوار صحفي. لقد رفض اللورد "هيل": (Hull) تلك المحاولة السخيفة من أجل

رفض أى حوار مفتوح، كما لاقى لينوكس بويد (Linux Boyd) نفس المعاملة التى يلاقيها وزير آخر سياساته قائمة على الجدل^(١١). فقد عرض حالته بشكل يتسم بالبساطة فى جريدة "بانوراما" وفى المساء التالى، عبّر "جيمس كالاجان" (James Callagan) عن وجهات نظر العمال ومشكلاتهم فى جريدة "هذا المساء": (Tonight).

ومن ضمن أكثر ما تسبب فى الضجيج فى قضية نياسلاند اغتيال عشرين متظاهرا رمياً بالرصاص فى مدينة "إن كاتا بي". وقد كان مقتبساً من مجزرة "أمريستار" عام ١٩١٩ ولكن فى الوقت الحالى فكرة المسرحية التليفزيونية "نزاع فى كالاندي" التى عرضتها محطة الـ بي بي سى BBC عام ١٩٦١. وقصتها هى ثورة إحدى المستعمرات البريطانية فى الشرق الأوسط، وسبب ثورة هذه المستعمرة افتقار حاكمها للكفاءة. وقد بدأ تدخل قائد الجيش المحلى الذى أعلن حالة الطوارئ، كما بدأت فرقة فى إطلاق النار على جماعات المتظاهرين مما تسبب فى مقتل والإصابة لسبعمائة شخص. بالإضافة إلى ذلك فقد زاد من حالة التوتر هذه قدوم ابنة الحاكم البريطانى من مدينة أوكسفورد (Oxford) متشعبة بالأفكار اليسارية المناهضة للاستعمار. وفى نهاية المطاف، تم عزل هذا الحاكم بعد عملية تفشيش رسمية. فإن عملية خدمة الإمبراطورية فى ستينيات القرن العشرين كانت عملية شاقة وتحتّم على الجنود طاعة الأوامر بلا أى رحمة.

لقد كانت هذه التخييلات لتلك النزاعات الإمبريالية، والتى تلت وجودها، أمراً غير مألوف. وأينما ذكرت الإمبراطورية، فضلت محطة الـ بي بي سى والهيئات المستقلة الاستناد إلى وثائق ملموسة. وإثر إعدام ستة وسبعين من السود رمياً بالرصاص فى مدينة "شارب فيل" التى تقع على مقربة من مدينة "جوهانسبورج" فى شهر مارس عام ١٩٦٠، قامت ITV (محطة

التلفزيون المستقلة) باتخاذ خطوة جريئة متمثلة في إلغاء أحد البرامج الشهيرة وعنوانه "ضاعف من رصيدك" واستبدال برنامجاً آخر به وعنوانه "الاتحاد المقسوم" الذى قدم تقريراً دام لمدة ساعة عن دولة جنوب أفريقيا. وبعد فترة وجيزة، دافع برنامج "هذا الأسبوع" الذى بثته ITV عن الزعيم السياسى لـ "نياسلاند" ويدعى "هاستينج باندا" لسفره إلى العاصمة "لندن" من أجل إجراء حوار مباشر فى أحد البرامج، مما تسبب فى غضب جريدة (Daily Express) التى لم ترغب فى بث هذه الآراء. وفى نهاية العام، عرضت جرائداً فيلماً تسجيلياً عن حرب الـ "بوير": (Boer) على أنه تفسير جزئى للنزاع الراهن فى دولة جنوب أفريقيا. وأطلق عليها، على نحو غريب الشكل فى ضوء بعض أحداثها، "الحرب المؤدبة".

ولأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية، واجهت الجماهير البريطانية حقائقها، وبالإضافة إلى ذلك، وفى إحدى المراحل الحرجة لاستقلال مستعمرات أفريقيا، كان الجميع مكلفاً بالتوجه إلى البلد مباشرة. إنها تحاول المراهنة على سير تاريخ الإمبريالية التى حصلت على هذا الامتياز منذ ثمانين عاماً أو مائة عام.

ولم يتوقف منتجو الأفلام التى عرضت بعد الحرب عن استخدام خلفيات وموضوعات متصلة بالإمبريالية. وبرغم ذلك، طرأت تغييرات واضحة فى النبرة والنهج اللذين أثبتا تغييرات شكل المقابلات الرسمية خلال السنوات العشرين الماضية. لقد كان حكام المديرية يفرطون فى مدح الحكومة البريطانية الاستعمارية، ومع ذلك توقف السكان الوطنيون عن تقديم إمبراطور بريطانيا. وفى بعض الأحيان، كان من الجائز أن ترتعد شفاة بعض الناس من فرط الرعب. وبرغم ذلك، فلم يتغير تأثير كل من الفعل والجاذبية.

إن رواية "الحدود الشمالية الغربية" التي صدرت عام ١٩٥٩ عبارة عن وصف دقيق عن حال الهند التي كانت عليها في عهد الإمبراطور إدوارد (Edward). ولكنها تحتوي على تيارات تحتية خاصة بالعصور الحديثة: مثل المجازر التي قامت بين معتقّي الديانات المختلفة وغياب التسامح القائم على العنصر وبشائر القوميات الوليدة. ينجى أحد الضباط البريطانيين (ألا وهو كينيث مور: Kenneth Moor) غلاماً، وكان هذا الغلام أحد أبناء حاكم هندي، وبعد مغامرة مثيرة في أحد القطارات، يصل به إلى بر الأمان. وعلى نقیض ذلك، فإن روايته المختلفة شكلاً وموضوعاً عن التي سبقتها وعنوانها "الطبله" (The drum)، يقر فيها الأمير أن الاعتراف بالجميل لن يكون سبباً في حبه لبريطانيا. وعندما صار رجلاً، شب على عدم الثقة في البريطانيين، لذا فإن قوى التاريخ لم تعد في صف الحاكم الهندي.

هناك الكثير من الأعمال الدرامية في الفيلم وعنوانه "لورانس العرب" (إنتاج عام ١٩٦٢) ولكن يعاني البطل من التأنيب، كما أن هناك من يلمح شنوده الجنسي، والقصة تبدى بوضوح أن بريطانيا تتأفق العرب. ومن أفضل الأفلام التي تناولت موضوع الإمبريالية عنوانه "زولو"، فهي يسرد قصة "مجيدة" عن تاريخ الإمبريالية، ألا وهي دفاع روك دريفت: (Rook Drift) أثناء حرب الزولو ولكن موضوع هذا الفيلم هو الإصرار الذي يبديه رجال عاديون في ظروف غير عادية. وأهم ما يميز المعركة الرومانسية التي كانت تنسم بها كما يرى المشاهدون الاشتباكات بين الرجال البيض والسود وكلهم أبطال ويتقاتلون دون معرفة لأسباب هذا القتال. إن الحالة المزاجية الطاغية في ذلك السياق هي السوداوية والتشاؤم، وكما يقول أحد جنود السود: "نحن مواجدون لأنه لا يوجد أشخاص سوانا". فإنه يقاتل مثل غيره من أجل حماية أرواح زملائه. وليس هناك من ينكر الملكة أو حب الوطن.

إن القضاء على الإمبراطورية كان موضوع الفيلم الذى يحتوى على الكثير من القلق والتنبؤات وعنوانه "مسدسات فى مدينة باتاسي" (إنتاج عام ١٩٦٤) الذى قام فيه "ريتشارد ألتنبوروج" بدور ضابط قاسى يقوم بتدريب الفرق الأفريقية حتى يحصل وطنهم على الاستقلال. وقامت إحدى الفتيات بنشر أخبار فى جامعتها بإنجلترا أن NCO عنصرى وإمبريالى للنخاع. وهو فى الواقع، شخص واقعى مجرد من أى مشاعر. ويبوح لها: "إن صفاتنا مثل صفاتهم وغيوبنا مثل غيوبهم".

إن الجو المحيط ملئ بالغيوم مع احتمالات ظهور الفساد وتدخل الجيش فى شئون السياسة. وما برر هذا الشاؤم، حدوث انقلاب عسكرى عام ١٩٦٦ أطاح برئيس غانا "تروما"، وكانت غانا أولى المستعمرات البريطانية التى حصلت على استقلالها.

لقد شهدت نهاية الإمبريالية هجمات على مبرراتها الأخلاقية كما روجت بعض الأكاذيب. لقد كان "شارلتون هستون" الذى قام بدور "جوردون" فى آخر ملحمة إمبريالية كتبها عام ١٩٦٦، وعنوانها "الخرطوم" ممن تيقنوا أن لن يكون هناك إعجاب لهذه النوعية من الأفلام. كما صرح لصحفى من الـ بي بي سي عام ١٩٦٩، أن "الخمسينيات من القرن العشرين لم تعد وقتاً مناسباً للأبطال"^(١٢).

كما يبدو أن اهتمام المجتمع منصب على الضحايا أكثر من اهتمامه على الأبطال. "فقد آن الأوان ليتحدث فيه حثالة المجتمع".

إن التاريخ الإمبريالى بدأ عام ١٩٦٤ مع أول إنتاج لـ "بيتر شافز" (Peter Shavez) لفيلمه الرائع "الصيد الملكى للشمس". تدور أحداث هذا الفيلم حول قصة غزو بيسارو لمملكة "الإنكا: Inca" فى بيرو فى القرن السادس عشر، وعزل ملكها ثم قتله، واستعباد شعبها إرضاء لطمع الإسبان

ورياء الكاثوليك. فقد محيت ثقافة بأسرها بشكل منهجي كما تم استئصالها من جنورها بلا رحمة باسم حضارة تدعى أنها أرقى. وهذا ما حدث في أمريكا الجنوبية لم يمت بأى صلة لما حدث فى العالم على مدار الأعوام المائتين وخمسين التالية.

لم تصف الإمبريالية شيئا جديدا سوى استغلال القوى للضعيف. لكن الشيء الجديد هو افتراض أن هناك ناسا بلا أى عون لم يلحقوا بقطار التقدم يتم استغلالهم. وعند تفكك الإمبراطورية البريطانية، أصبح أقوى شيء الرغبة فى الانتقام. إن الحضارة السامية المزعومة التى قدمت رعاياها أسيادا علينا لم تكن مصادفة، وبالطبع هذا ليس مبررا لتدمير باقى الأنظمة تدميرا تاما. ينبغى أن تشعر بريطانيا بالخل بدلا من الشعور بالفخر إزاء ماضيها الإمبريالى. وفى شهر نوفمبر ١٩٦٧، أصدر "دينيس بوتر" المنتمى للحزب اليسارى المستهزئ بالشئون الدينية الأرثوذكسية الوليدة كالاتى: "ربما أسمى شيء يشعر به مؤرخ شهير يتمثل فى شعوره بالخل إزاء أجدادنا.. فالآن، أصبح الناتج المثير للسخرية فيما يتعلق بتراث الرجال البيض هو شيئا اختفى من كتب تاريخ تلاميننا".

كان دخول الإحساس بالذنب الذى تلا مرحلة ما بعد الإمبريالية لدى قلوب الجماهير فى نهاية ستينيات القرن العشرين أمرا سهلا نسبيا. وكانت صورة الإمبراطورية كما تعرضها الأخبار اليومية التى يبثها التلفاز كانت صورة للقمع الذى تتم ممارسته فى كل من فييتنام وموزمبيق وأنجولا ودولة جنوب أفريقيا وفيما بعد روديسيا الجنوبية. فأخبار تلك البلاد التى تخلصت من الاحتلال نقلت اللا مبالاة والدموية التى تمت بها هذه العملية. وبحلول عام ١٩٦٦، أثناء مؤتمر الكومونولث فى مدينة لاجوس، حدث انقلاب عسكري فى نيجيريا وآخر فى غانا.

وقد شهد عام ١٩٦٧ بداية حرب أهلية فى نيجيريا دامت ثلاث سنوات وموجة من الانقلابات العسكرية فى كل من غانا وسيراليون. كما حدثت انقلابات عسكرية فى السودان عام ١٩٦٩، وبعد مرور عامين، أخذ الجنرال الطاغية "عبدى أمين" زمام الحكم فى أوغندا وبدأ معه عصر من الرعب. ولرعاياه السابقين، بدا ميراث الإمبراطورية على أنه صورة من صور الفساد السياسى وتتابع من الحكومات الكاذبة والحروب الأهلية. والأمر الذى لم يكن غريباً، طواف فرق ممثلى البريطانيين فى دول أفريقيا، الذين حازوا على إعجاب الجماهير لمسرحيات "ماكبث" و"يوليوس قيصر: Julius Caesar" و "رينشارد الثالث"، وقد عكست كل من هذه المسرحيات الحياة السياسية فى تلك البلاد، وكان من الطبيعى فى كل الدول الوليدة اللاحقة، وحتى فى بعض ربوع بريطانيا استنكار هذا اللوم الموجه لتلك الإمبراطورية.

وعند مواجهتها لفشل مهمتها الإمبريالية، كانت بريطانيا تحاول إعادة تقييم مبادئها للمرة الأخرى التى حذا حذوها حكامها السابقون والإمبراطورية برمتها.

وفى منتصف خمسينيات القرن العشرين، انهمك علماء الأنثروبولوجيا فى تحليل ما أطلق عليه اسم "التأسيس". قام هؤلاء العلماء بدراسة وتحليل العالم وقيم شبكة فريدة من نوعها امتدت إلى نوادى لندن والسياسة والخدمة العسكرية العليا وكليات جامعة "أوكسفورد": Oxford، و"كامبريدج: Cambridge" ومجالس إدارة المصارف وكبرى الشركات ومنصات الأساقفة والقضاة وقادة الخدمات العسكرية. لقد وضع التعليم الحكومى وتعليم "أوكسبريدج" رابطاً مشتركاً وساعداً على تشكيل مظهر خارجى مشترك وإنسانى ومحافظ ومهتم بما حوله. فقد كانت قوانين بريطانيا هى نفس قوانين الإمبراطورية. رأت هذه المؤسسة أن ممارسة سلطتها حق من حقوقها، كما

أن أعضائها سعوا بحكم الهند والإمبراطورية منذ ما كانوا قادرين على القيام بذلك دون الاكتراث كثيرا بمطالب الشعب^(١٤).

إن كل من أيدوا وجود الإمبراطورية كانوا أيضا من انتقدها. وكانت الحجة العامة السائدة هي أن كل من أمسكوا بزمام الأمور سرًا، ولكن بإحكام لمدة بهذا الطول: كانوا مسئولين على المدى البعيد عن الانحطاط القومى والركود. كما كانوا قادرين أيضًا على ارتكاب أخطاء جسيمة. وكان من رأى أحد محلى شئون الإمبراطورية، كان أحد أعضاء البرلمان السابقين المنتمى لحزب التوري: "بعد ما رأيناه فى عملية السويس فلا يمكننا أن نثق بعد ذلك فى مصداقية تلك الحكومة"^(١٥). لقد كان من الجائز أن يقال نفس الكلام، وهذا ما حدث، إلى حد ما بلهجة أقل حدة، بعد الاتيهار الذى حل، على سنغافورة. كان الفرق يكمن فى أن كل الأمور استفحلت خارج بريطانيا فى منتصف خمسينيات القرن العشرين. والشئ الوحيد الذى كان بوسع الإمبراطورية فعله هو اللجوء للحلول التقليدية مثلما فعل "إيدن" أو البقاء فى الصفوف الخلفية، وهى فى حالة ارتباك. لقد نعى "جلوب" باشا حاله من الجناح العسكرى للإمبراطورية قائلاً: "بينما يتناقش المواطنون البريطانيون خططاً نبيلة من أجل تحسين السلالات البشرية، فإن جزءاً كبيراً من العالم على يقين من أن بريطانيا طماعة لأبعد الحدود ولأغراض ليس منها سوى استغلال الأمم الأخرى"^(١٦).

وبما أن سكان الدول الأجنبية أساءوا فهم بريطانيا، فإن بريطانيا كانت تحترق فى عقر دارها، كما بدت عاجزة عن إيجاد الثقة الكافية للدفاع عن نفسها.

إن البرنامج التليفزيونى "كان هذا الأسبوع الذى كان (That was the week) والمجلة الهزلية (Private eye) "عين خاصة" وقد

ظهرت عام ١٩٦١ التى سخرت من الشخصيات العامة بوقاحة غير مسبقة منذ القرن الثامن عشر.

وفى عام ١٩٦٣، فجرت فضيحة "بروفومو: Profumo" ضجة أطاحت فيما بعد بالإمبراطورية عن طريق تصريح بأن بعض أعضائها كانوا مغرمين ومقلدين للحياة الجنسية التى عاشها الناس فى القرن الثامن عشر. فالاستهزاء من الإمبراطورية وفضح فسادها الأخلاقى أسهمتا فى فوز انتخابات "هارولد ويلسون: Harold Wilson" العامة فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٤. وعند إجراء الانتخابات، قام حزب العمل بانتقاد الحرس القديم الرجعى ووعد بعصر جديد من الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى من شأنه محو كل ما مضى.

فمهاجمة الإمبراطورية وقيمها رافقت هذا التغير، كما تمت مهاجمة بعض الأرستقراطيين التافهين فى المسرحية الاستعراضية وعنوانها "يا لها من حرب لطيفة" (إنتاج عام ١٩٦٤) والفيلم وعنوانه "مسئولية السرية التافهة" (إنتاج عام ١٩٦٧). وهذا الفيلم المذكور فى المقام الثانى متقف للغاية، بالنسبة لفيلم يحمل نفس الاسم وبطله "إيرول فلين" قد تم عرضه منذ ثلاثين عامًا، وموضوعه قصص خيالية لا تمت بأى صلة للتاريخ ومليء بالأعمال البطولية التى ربطت بطولات الخيالة البريطانية فى الهند مع السرية الشهيرة. اتجهت الطبعة الجديدة على نحو أفضل نحو التشابه التاريخى، وإدانة التعطش للدماء بكرائية، كما تمت إدانة الطبقات الاجتماعية لأن من رأيها أنها تنتمى لجنس أسمى.

وقد هاجم "أندرسون" نفس الطبقة الاجتماعية وقيمها المتوارثة بضراوة فى كتابه وعنوانه "لو... "If" عام ١٩٦٩، وقام فى نفس الكتاب بوصف مثاليات الإمبراطورية التى كانت فى طريقها للفناء. ووضع هذا الفيلم

فى مدرسة حكومية عصرية؁ فقد كان عنوانه مقتبساً من أفضل قصيدة كتبها "كيبلىنج: Kipling" الذى كان بمثابة نجم قاد أجيالاً من معلمى المدارس الحكومية وهم فى طريقهم لتغيير مصائر غيرهم. وعلى الرغم من إيمان ناظر المدرسة بالزعامة فى العالم الحديث؁ فمدرسته أشبه بحكم الطغاة ويقوم بإدارتها نظار أشخاص سادىون أشبه بأعضاء البرلمان الذين يتحدثون فى بعض المناسبات عن مفهوم القدرة وأسلوب خدمة البلاد على طريقة أبطال "هنتى: Henty". وكان خصومهم؁ وثلاثة طلاب مدرسىون متمردون؁ ينتمون لحركة سنالكى وشركائهم؁ ولكن على خلاف أقرانهم فهم لم يلجأوا لنشاطهم وإبداعاتهم لأجل بناء الإمبراطورية. فهم أشبه بمن دمروا الإمبراطورية؁ ومن ضمنهم مقاتل أسود لا ينتمى لجيش نظامى ظهر على لوحة فى دراستهم^(١٧).

ضمت ذروة أحداث الفيلم هؤلاء الثلاثة؁ بالإضافة إلى خليفة أحدهم وخليل آخر فى أثناء إحيائهم لذكرى ما. وقام بإلقاء الخطبة الرئيسية رجل ذو شارب كث ومغطى بالشارات العسكرية الذى كان من الممكن أن يمثل فى فيلم موضوعه الإمبريالية ثم إنتاجه فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وكان يحرك شفتيه بنفس الطريقة المعهودة آنذاك: إن هذا أمر مؤسف. ولكنه من الوارد حالياً فى بريطانيا الاستخفاف بالتقاليد. فالنظام القديم الذى جعل من أمتنا قوة حية هو أمر يبغضه الأطباء النفسىون والقساوسة والمتفقون من كل نوع... ولا نبالى باعتراضات قساة القلوب. فلنكن صادقين مع الاحتفاظ بشرفنا... وقدرتنا ووطنيتنا.

لقد هاجم المتمردون المسلحون بالرشاشات والقنابل اليدوية؁ وقام زعيمهم بتنظيم حركة المقاومة. وزعيم هؤلاء المتمردين امرأة فى منتصف عمرها تتحدث بلكنة سكان جنوب أفريقيا أو روديسيا.

وفى الكتاب وعنوانه "لو... " تحتل قيم الإمبراطورية ومن قاموا بتأسيسها مساحة واسعة، كما أنها هدف إصابته مرغوبة، واحتلت الإمبراطورية العقول بشكل صامت. وفى الوقت الذى ظهر فيه الفيلم لأول مرة على شاشات دور العرض، كانت الإمبراطورية قد اضمحلت بشكل مادمى وملموس، فاستمر "هارولد ويلسون: Harold Wilson" فى سياسة الاستسلام التى سلكها من سبقوه. ونوعاً ما، فإن فكرة هذا الفيلم أشبه بمن يقاتلون طواحين الهواء، فمن المستحيل أن يكون مصير غلمان هذه المدرسة مشابهاً لمصير رؤساء المديريات فى "صومالى لاند: Somaliland" أو يكونوا مشرفين لدى حرس الحدود، حتى لو كان تشديد المدارس على نوعية الألعاب الجماعية وتدريب ضباط الشرطة يستلزم تمارين أخرى. أما فيما يتعلق بواقع هؤلاء الرجال، فإن الإمبراطورية التى عليهم الالتحاق بها ثم البلدة التى سوف تكون تحت سيادتها، كلها مجرد احتمالات، فكل تلك الأفكار خاضعة لأنماط قديمة من العقلانيات التى يمكن للعنف الإطاحة بها.

فإن ظاهرة الاختلافات فى الآراء الاجتماعية والسياسية والفكرية التى جسدتها الرواية لو "كانت مثلاً لخلفية آخر أيام الإمبراطورية. لقد شهدت نفس الحقبة وصول جيل من الصعاليك أصبحوا أثرياء، وهم من أفادوا من مرسوم التربية والتعليم الصادر عام ١٩٤٤، والذى لم يعط أولوية مباشرة فى الحفاظ على النظام القديم. كما أنهم لم يرفضوا هذه الصورة لبريطانيا والعالم، وقد تحدث التلميذ المنهمك فى دراسة قواعد اللغة ويدعى "هارولد ويلسون" وعن تاريخ بريطانيا لكونها قوة عظمى كما قاله "إستونيان كورزون: Estonian Curzon" إلى درجة قوله إن بلاده يمتلك ترسانة نووية تفوق الخيال.

وقد وضعت القنابل الهيدروجينية وصواريخ بولاريس (Polaris) والغواصات النووية (وأولها أطلق عليها اسم دريدنوت: Dreadnought) فى صف القوى العظمى، وكانت تعويضًا عن إمبراطورية تتفكك شيئًا فشيئًا. وعند اختفاء هذه الإمبراطورية، امتثلت للماركسية الإمبريالية المضادة التى كانت قائمة فى نهاية القرن التاسع عشر، وكانت الماركسية صيحة جديدة وقتئذ ثم تألفت معها. لقد كانت كل المستعمرات الموجودة خلف البحار امتدادًا للرأسمالية التى قمعت رعاياها واستغلتهم بلا أى رحمة. وأصبح الأبناء والأحفاد الذين اعتادوا أن يفخروا بالإمبراطورية البريطانية خجولين من هذا الأمر. لقد قللت بريطانيا من شأن الإمبراطورية كما أفسدته، وسواء كان ذلك خطأ أم لا، فمعرفة ذلك الأمر جعلت خسائره أمرًا محتملاً.

(٦)

الحرية

تضييق الخناق

(١٩٥٩-١٩٨٠)

لن تتمكن بريطانيا من وضعنا تحت رحمة قطيع من القردة السوداء. فانظروا إلى جنوب أفريقيا، هكذا يمكننا التعامل معهم. إن الاستماع إلى هذه العبارة بشكل غير مقصود في خمارة بمدينة "سالزبوري" جنوبي "روديسيا" في فصل الربيع لعام ١٩٦٣، وكان من نطق بها مهاجر سكوتلندي ينتمي إلى الجيل الأول من هؤلاء المهاجرين^(١)، وقد بدأت أفريقيا في التغير حينذاك، لكن ظل هذا العقل الروديسي ثابتاً في هذا الماضي غير المعقد عند انتشار أعمدة جرائد "رودس" وأصبحت الإجابة للمشكلة الوطنية، ألا وهي مدفع الماكسم من أهم الموضوعات، كما أخبرت صحيفة أخرى في نفس الحقبة وكان الماركيز سالزسبوري، مجلس اللوردات في شهر مارس عام ١٩٦١ سوف أتحدث مثلما يتحدث شخص يئن ويتألم، ولن أتحدث مثل من يتمعنون في القسوة، ولن يقوم أى شخص في أفريقيا بمهمتي بنفس الحماسة، وشرع يشرح أن إعطاء حق تقرير المصير للشعوب السوداء لا يشكل جزءاً من مهمته. لقد كان مفرطاً في البخل عندما كان رئيساً للشركة البريطانية في جنوب أفريقيا، ولكنه كان شديد العداء عندما تناول أحدهم هذا الموضوع مع التأكيد أن ليس لذلك الأمر أى أثر على حكمه^(٢).

أما فيما يتعلق بالشباب المخمور المذكور آنفاً والماركيز، فقد بدأ الوضع في أفريقيا يستفحل، وكان التغيير القائم وقتذاك يشكل خطراً على نزية البيض من الرجال والنساء الذين ترعرعوا على هذه الأرض لمدة لا تقل عن سبعين عاماً. وفي نفس الوقت، كان هناك رأى قوى سائد في بريطانيا في حزب العمال والجناح الليبرالى لدى المحافظين؛ الذين كان من رأيهم أن هذه المدة بمثابة ميلاد جديد لقارة أفريقيا. ومن الصعب فى الوقت الحاضر فهم أن التفاؤل ساد الدول الأفريقية أثناء حصولها على الاستقلال عند مطلع الستينيات، وقد صاحب يوم الاستقلال درجة عالية من التفاؤل فى جو أشبه بجو الحفلات الصاخبة.

ولم يكن لبريطانيا أى رد فعل يذكر أثناء رفع الأعلام، كما أعربت عن نيّاتها الحسنة إزاء الدولة الوليدة. ولقد كانت ظروف الفترة التى تلت الاستعمار مبشرة: فقد كانت هناك اقتراحات سرية وجماعات انتخابية، مع متحدثين يرتدون الشُّعر المستعار وعباءة المحامين. إن القضاء الأفارقة الذين تلقوا تعليمهم فى محاكم النقض الإنجليزية "ارتدوا الثياب الحمراء والفراء". قاموا برئاسة جلسات مشابهة للجلسات الإنجليزية، كما بدأ وجود الديمقراطية وسيادة القانون فسعدت بريطانيا لدى معرفتها بقيادة الأمور على نحو حكيم واتخاذها الطريق الصحيح.

لقد كانت هذه الفرحة سابقة، لأوانها كما كانت غالباً ساذجة. ففيما يتعلق بالسودان وغانا وسيراليون ونيجيريا وأوغندا، كانت سبيل الفترة التى تلت الاستقلال بعيدة تماماً عن الديمقراطية وسلسلة من الانقلابات العسكرية والديكتاتورية العسكرية والفساد وعدم الاستقرار السياسى المزمّن أمراً جديراً بالذكر؛ لأن الأيام أثبتت صحة ذلك وعدم قدرة الأفارقة على إدارة شئونهم السياسية، كما قيل فى سالزسبورى مما عجل بقول البعض "هذا ما توقعناه".

كما كان آخرون أصابهم الإحباط لفشل تجربة من أنبل التجارب، وبرروا ذلك بأن واقع أفريقيا اليوم نتيجة مباشرة للعصر الإمبريالي. وقد تم رسم حدود للدول إرضاءً للبيروقراطيين أو لنزوات الدول العظمى وتمثيلها، كما أدى ذلك إلى خلط قبائل مختلفة الأطوار مما أدى إلى تنافرها. وعلاوة على ذلك، لقد شهد الاستعمار تفكك أنظمة اجتماعية واقتصادية عتيقة وعملية، وكان من الحماقة تخيل أن الحكومات الاستعمارية التي لم يُكتب لها الدوام لفترة طويلة قد تتسبب في خلق حس قوى للهوية والتماسك وعلى أى حال، لم يكن هذا غرضها الأساسى مطلقاً.

وكان من الحقيقى بالطبع أنه على الأقل حتى عام ١٩٤٨ لم تر الحكومة البريطانية أن الوقت قد حان للحصول على الاستقلال سوى قبل الربع الأخير للقرن العشرين وعلى أى حال، فإن تأجيل جدول الأعمال وفقاً للتغيرات السياسية لأهالى البلاد الأصليين والتجربة التي يتمتع بها هؤلاء الذين سوف يمسون بزمام الحكم فى البلاد.

ولكن الأيام أثبتت أن التعسف قد يؤدى حتماً إلى ظهور أعمال العنف، وبرغم ذلك، فإن لهذه المستعمرة باعاً أطول عن غيرها من المستعمرات فيما يتعلق بالديمقراطية. ومنذ عام ١٨٩٤، تمكن دافعو الضرائب من التصويت بالنيابة عن نصف سكان الريف ومجالس المدن، ولكن هذا حق لم يطبقه سوى القليل من الناس. وفى عام ١٩٢٢، لم يتقدم سوى ٤٦ فرداً بمدينة أكبر لصناديق الاقتراع، بينما كان تعدادها ١١١٧ نسمة، ولم يتقدم أى فرد من مدينة "سيكوندي" التي وصل تعدادها إلى ٧١٧ نسمة.

لقد ازداد النشاط السياسى فى غرب أفريقيا بين فترات الحروب، كما كان فى غاية الوضوح لدى صفوف المتقنين المنتمين للتعليم الغربى، كما حاول الطامعون فى السلطة الاستفادة من العلوم السياسية أثناء فترات النفى

الطويلة في كل من بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أمضى نكروما عشر سنوات في الجامعات الأمريكية، بالإضافة إلى عامين آخرين في لندن قبل العودة إلى مسقط رأسه عام ١٩٤٧. وقد كان "كينياتا" خارج كينيا بين عامي ١٩٣١ و ١٩٤٦ وانهمك في الدراسة وشغل عدة أعمال في إنجلترا من ضمنها مساعد في جريدة (Sanders of the River) كما قرأ "باندا" الكثير عن الطب في العديد من الكليات الأمريكية بين عامي ١٩٢٧ - ١٩٣٧ وكان طبيباً ممارساً بين (١٩٣٩ - ١٩٥٣) في إنجلترا. ثم قضى أربع سنوات في غانا؛ حيث تعلم آليات تشكيل الأحزاب وكيفية تعبئة الرأي العام. وكان أكثر الأشياء وضوحاً في تلك الخبرات السياسية التي اكتسبها هي تلك الخبرة الإدارية المتمثلة في إدارة شئون الحزب. وقد عمل سياسيون محترفون مع موظفين بريطانيين عن قرب في المجالس البلدية التي كانت بمثابة مدارس للسياسيين في المستقبل. وقد سجل الزعيم النيجيري "بينجامين أزيكو" (الذي كان محاضراً لعشر سنوات في الجامعات الأمريكية) رقماً قياسياً في الخدمة في الإدارة المحلية من بعد عام ١٩٤٤ و"توم إمبويلا" (كلية راسكين، جامعة أكسفورد) الذي خدم في الاتحادات الكينية التجارية والحكومة المحلية في العقد الذي سبق استقلال كينيا.

لقد كان هؤلاء من أبرز الرجال ضمن طبقة من السياسيين الذين كان بإمكانهم التعاون مع الإدارة البريطانية. وتم وضع الحلفاء القدامى من الطبقات الحاكمة المسنة بهدوء على جانب واحد مما أثار غضب البعض. وقد أبدى أحد زعماء الـ"يوروبا" غضبه قائلاً: "إن الناس الذين يفكرون بصدق عن الأشياء بدأت تشعر أن عجرفة الإدارة البريطانية أفضل من استغلال زعمائنا القوميين". لقد كانت مخاوفه سهلة الفهم من السياسيين الأفارقة المتكالبين على السلطة لاقترب الأيام الفاصلة للاستقلال، وكان هؤلاء السياسيون يملكون مسلك الموظفين الاستعماريين والوزراء البريطانيين.

تشابهت السياسات الأفريقية شكلا وموضوعا مع السياسات التي سبقت استقلال الهند ومصر أثناء مكافحتهما الاحتلال البريطاني. وقد مالَت الحركات السياسية الأفريقية إلى الاتفاق على نموذج مؤثر كان زعيما لحزب أحادى أعضاؤه متفاهمون، كما أن هذا الحزب يتكلم باسم الأمة برمتها. ثم تلحين أناشيد الكنائس التبشيرية وردود لوضع مذهب قومي يمكن ترديده على أنه كلمة السر للجماهير. وقد لحن الشعب الكيني هذا النشيد:

"أوهورو" (أى الحرية).

"أوهورو"

"أوهورونا أوموجا" (الحرية والوحدة)

"أوهورونا كانو" (الحرية واتحاد الوحدة القومية الكينية)

"أوهورونا كانو"

"أوهورونا كينيا" (الحرية وكينيا)

"أوهورونا كينيا".

لقد كانت هذه النوعية من الكلمات ضرورية لإقناع الجماهير من أجل زيادة حماسة الأفارقة وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، فقد تذكر "توم إم بوي" في عام ١٩٥٢، كيف نصحه والده ومن هم أكبر منه عمرا وينتمون لنفس قبيلته بعدم الانخراط فى أمور السياسة: "لا يمكننا منافسة الأوربيين إطلاقا لأنهم يستقلون الطائرات، بينما نحن نسير على أقدامنا كما يستقلون السيارات ويقتنون المسدسات". والآن فقد حصلت غانا على استقلالها بعد خمس سنوات، وأصبحت لفترة وجيزة من أبطال القوميات الأفريقية. وفى عام

١٩٥٨ عقد في مدينة "أكرا" أول ملتقى لمؤتمر كل الشعوب الأفريقية التي نادى باستقلال جميع دول القارة من سطوة الإمبريالية.

أما فيما يتعلق بالحكومة البريطانية، فهي لم تحفل بتفكك الإمبراطورية الأفريقية من عدمه، ولكن كان شغلها الشاغل عن توقيت حدوثه وكيفية. فتمت هذه العملية على نحو سهل نسبيا في "غانا" ومن ثم مع مستعمرات غرب أفريقيا التي كان كل سكانها من نوى البشرة السوداء. ولكن لم تكن هذه العملية سهلة في شرق أفريقيا ووسطها؛ لوجود سكان بيض ينتمون لأصول بريطانية، الذين من رأيهم أنهم السند الاقتصادي لمستعمراتهم، كما أنهم ترعرعوا وهم يحتقرون السود. وفي جنوبي "روديسيا" تمتع البيض بالحكم الذاتي منذ عام ١٩٢٣، لكن أغلقت وزارة المستعمرات بكل ما في وسعها من أجل عرقلة أى محاولة من المستعمرين للحصول على الاستقلال السياسى.

وقد يتذكر سكان كينيا البيض إلى حد ما عنف ثورة "الماو ماو" التي بدأت عام ١٩٥٢. وكانت الثورة قاصرة على قبيلة الكيكويو، وهي موجهة بشكل كامل ضد كل ما هو أوربي، إنها اتحاد ارتبط أعضاؤه بقسم أقسموا على إنجاز أعمال وطقوس جنسية مرعبة، وكانت غالبية الضحايا بسبب الماو ماو مخلة لتعاونهم مع السلطات الاستعمارية. وكان رد فعل هؤلاء إعلان حالة الطوارئ. وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ زج بأكثر من المشتبهين المنتمين لقبيلة الماو ماو فى السجون، كما تم عزل ١٢٠٠٠ شخص من مناصبهم وشنق ١٥٠ فردا. لقد كانت حربا ضروسا وجائرة وبدأت من نوفمبر ١٩٥٢ حتى أبريل ١٩٥٣، كما أعدم ٤٣٠ سجيناً رميا بالرصاص لمحاولتهم الهروب، كما تم رصد حالات تعذيب أخرى^(٥).

لقد تسببت حركة الماو ماو فى نشوب حرب أهلية بين صفوف قبيلة "الكيكويو" وهم أغلبية متواطنة مع البريطانيين الذين كانوا ممسكين بزمام الأمر حتى آخر لحظة. لقد كان أعداؤهم مسلحين بالقليل من الأسلحة النارية ولم يكونوا على استعداد لمواجهة قوات المستعمرين. لقد لقى القليل من المستعمرين حتفهم على يد الماو ماو، رغم أن المردود النفسى لتلك العمليات كان هائلا، كما هزمت الماو ماو هؤلاء البيض برغم قلة عددهم وعزلتهم. لقد كانت حركة الماو ماو بمثابة كابوس للبيض مكوناته سحر أفريقيا المخيف والخوف من هجمات رجال قبليين غاضبين مسلحين بالرماح والدروع. لكن الكينيين تمكنوا من البيض بعد شعورهم ببعض الخوف بالخلود للنوم فى هدوء بفضل العساكر البريطانيين المدربين (الذين قاموا بعمل ضباط الشرطة) والجنود النظاميين وأفراد الجيش والقوات الجوية.

وبحلول عام ١٩٥٦ تم القبض على حفنة من المقاومين، بينما لقى غيرهم حتفهم فى المعتقلات، وتم الزج بغيرهم فى السجون كما تعرضوا لغسيل مخ غرضه محو معتقداتهم.

تعلمت حركة الماو ماو أساليب التدمير من خيال غيرهم من الأفارقة وقد صاح أحد الأفارقة فى مؤتمر "لوساكا: روديسيا الشمالية" فى عام ١٩٥٣^(٦): " نرغب فى وجود الماو ماو هناك لأننا ضيقنا ذرعا من وجود الأوربيين بينما كما نرغب فى قتلهم. إن ضابط المخابرات الذى دون تلك الكلمات لاحظ أن "هارى إن كومبولا"، (وكان طالبا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن، منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠) وكان رئيسا للمؤتمر الأفريقى القومى لروديسيا الشمالية، حث مستمعيه على شن حرب كلمات.

لقد كان النزاع في روديسيا الشمالية ضد اتحاد وسط أفريقيا، لقد كانت هذه الدولة الهجين عبئا على حكومة العمال في عام ١٩٥١، بسبب موظفين استعماريين يفنقرون إلى الأفق الواسع، وآمنوا أنها قد تقدم حلولاً للمشكلات الاقتصادية والسياسية المستقبلية لكل من جنوب وروديسيا الشمالية و"نيسالاند". لقد كان هذا الاتحاد مؤقتاً؛ حيث فرضت المعاشرة بين مستعمرتين مع قلة من البيض وغيرهم الذين حكموا "روديسيا" الجنوبية. وعند ميلادها عام ١٩٥٣، كانت نسبة البيض إلى نسبة السكان السود تفوق ١ إلى ٦٦ في الاتحاد الأفريقي الأوسط. وغالبية من عاشوا في "روديسيا" الجنوبية يتراوح عددهم ما بين ٢٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٣ ملايين أفريقي. لم يثق السود إطلاقاً في هذه الدولة الجديدة التي رأوا فيها أنها سوف تحرمهم من حقوقهم السياسية وتضعهم تحت رحمة "روديسيا" الجنوبية. وتطلب هذا في الخمسينيات نسخة من دليل "روديسيا" الجنوبية للمهاجرين الوافدين البريطانيين. إن الرجال ذوي الخبرات كان مرغوباً فيهم، لأن السكان الأفارقة لا يقومون سوى بالأعمال التي لا تتطلب أى خبرة أو خبرة قليلة جداً. ومن ضمن الوعود المطروحة، الحياة الكريمة خاصة للنساء: "لأغلبية فإن ربات البيوت الروديسية يعشن حياة أكرم من قريناتهن في إنجلترا".

لقد كان عدد الخادمت السوداوات كبير جداً، ولكن كان ينبغي للمستجدات أن يدركن أن معدل الخادمت الأصليات شيء واضح جداً، وأن لديهن استعداداً لارتكاب السرقات الصغيرة مما يتطلب بعض الحزم^(٧).

كان التمييز العنصري مطبقاً بصرامة في كل مكان. وعندما كان السيد هيو جرين يقوم بزيارة للبلاد في عام ١٩٥٥ من أجل إيداء الرأي عن أنظمة الإذاعة، فالتقى السيد هيو جرين مع السيد جودفري هاجينز، ثم مع رئيس وزراء الاتحاد الذي صرح له بأنه كان من الممنوع أن يتناول أعضاء البرلمان

البيض والسود طعام العشاء على نفس المائدة. ولم يتغير الوضع منذ زمن "رودس" و "جيمسون". كما صرح مدير أحد المصانع لـ "جرين" بالتالي:

لقد كان أحد أصدقائي من "روديسيا الشمالية" معي منذ عدة أيام وصرح لي أنه من بواعث السرور رؤية أحد الرجال أثناء ضربه بعصا أو كرباج. كما أضاف لو حركت ذراعك أمام أحد هؤلاء الشباب، فسوف ينتهي بك الأمر في قسم الشرطة^(٨).

ذات مرة، ضرب رجل أبيض أحد خدامه حتى الموت، فحكم عليه بالحبس لمدة عام وبدفع غرامة مالية قيمتها مائة جنيه إسترليني. كما تم القبض على أحد الأفارقة متهمًا بسرقة ستة عشر قميصًا، فحكم عليه بالحبس لمدة عام^(٩). ولهذا السبب، لم يكن إشعال الحماس في صالح الاتحاد بين صفوف السود في "روديسيا الشمالية" و"نياسالاند" أمرا غريبا لدى وزارة المستعمرات (Colonial Office)

كان العداء جليا للاتحاد في "نياسالاند" حيث تولى دباندا عند رجوعه منصب رئاسة المؤتمر الأفريقي الوطني. وقام الحاكم "روبيرت إرميتاج" بتقديم الولاء والطاعة للاتحاد كما كان حزم "باندا" وأتباعه أمرا تسبب في إزعاج "روبيرت إرميتاج" ولأجل إسكات تلك الحركة وعدم البقاء مكتوفي الأيدي قام "إرميتاج" بإعلان حالة الطوارئ في "نياسالاند" في يوم الثامن عشر من فبراير عام ١٩٥٩ كما استند إلى مخطط حكم به الماو ماو لقتل ٨٠٠٠ من البيض حتى يكون ذريعة لأفعاله^(١٠). وسواء كان هناك مخطط أم لا، فحقيقة ذلك المخطط بعيدة تماما عن الصدق، فقد حصل "إرميتاج" على فرصة لإسكات الحركة المناهضة للاتحاد وكشف قوتها الحقيقية. إن إبطال الحقوق القانونية الطبيعية والإجراءات القضائية أتاح الفرصة للقبض على الناس، والزج بهم في السجون وشن حملات اعتقالات واسعة في الفجر.

لقد تم اعتقال "باندا" ونقله إلى "روديسيا" الشمالية و"تجانيقا" من أجل احتواء الاحتجاجات التي لم يكن مفر منها هناك.

وخلال أربعة أسابيع وصل عدد من لقوا حتفهم في المظاهرات إلى اثنين وخمسين فرداً^(١١).

لقد تسببت أفعال "إرميتاج" في إرباك الحكومة في وقت كان يتم اتهامها بقتل الماو ماو في معتقل "هول" في كينيا. وكما رأينا، فقد كان وزير المستعمرات "لينوكس بويد" قلقاً إزاء الانتقادات حول حالة الطوارئ في التليفزيون، كما انتقد مجلس العموم رقابة سلطات "نياسالاند" على الصحفيين الموجودين هناك^(١٢). إن الضغط المقاوم القادم من "روديسيا الجنوبية" حيث تم الترحيب برفض ما حدث في "نيسا لاند" أمر "ماك ميلان" بتتصيب قاض متمكن وعضو في مجلس الشيوخ ويدعى "لورد ديفلين" للتحقيق في أسباب إعلان حالة الطوارئ.

ظهر تقرير "ديفلين" في منتصف فصل الصيف وتسبب في إثارة المتاعب. فتم تجريد "إرميتاج" وعتق "باندا" ووصفت "نياسا لاند" بخضوعها لحكم بوليسي فاستشاط "ماكميلان" غضباً، ووصف أن القاضي خرق جميع الأعراف السابقة والشخصية، فقد كانت إيرلندا مسقط رأسه (لا مجال للشك في أن الدم الإيرلندي في الأصل لا يقبل الخضوع لأي حكومة) ورجل كاثوليكي لا يمارس طقوسه الدينية في وجود أخ يسوعي (الذي كان في الأصل مبشراً في "روديسيا الشمالية" وآثر العودة لوطنه لعدم تنصيبه وزيراً للعدل)^(١٣). لقد رفضت الوزارة "ديفلين" وحرر مذكرة، كتبها "إرميتاج" دون الاستناد لأي دليل مادي وتم نشرها في نفس يوم صدور حكم المحكمة.

ومع الأخذ في الاعتبار كل الجرائم المرتكبة في معتقل "هولا" والأخطاء الجسيمة في "نياسالاند" أدلة قاطعة لوجود سياسة استعمارية فقدت إدارتها والقيم الأخلاقية. اجتمع "أينوك باول" وهو رئيس وزراء سابق مع زملائه من أجل المداولة حول مدى جدوى الحجة التقليدية التي تنص على أن السلطة الإمبريالية لا يمكنها البقاء في فراغ أخلاقي أو بدون الاكتراث بمطالب رعاياها. لقد كانت المقولة التالية ممنوعة منعاً باتاً: "لدينا مستويات في أفريقيا وفي آسيا وربما أيضاً في بريطانيا" ثم استطرد:

إن أية حكومة وأى تأثير يجريه رجل على آخر يرتكزان على الرأي العام. وكل ما نقوم به في أفريقيا وأينما لا يزال لنا حكم قائم، ولن يستمر طويلاً يتوقف على أفعال الرجال الإنجليز. ولن نستطيع، كما لن نجرو، في أفريقيا وفي غيرها التنازل عن قيمنا ثم إنكار مسئوليتنا تجاه هذه الممارسات^(١٤).

لقد تم إضافة تحذير لهذا الوعظ الصادر من أوجه الإمبريالية الخيرة من قبل صفوف المعارضة وزعيمها "أنورين بيفان" كما أن بريطانيا ليست على استعداد لتكبد ما تكبدته فرنسا في نزاعها مع الأفارقة. وقد أثبتت دولة "أفريقيا الوسطى" صحة الجزائر البريطانية^(١٥).

لقد كان "ماكميلان" مصراً على منع حدوث ذلك. وعند بداية تمرد "نياسالاند" قرر إرسال لجنة تحت رئاسة "ولتر مونكتون" الذي كان محامياً فصيح اللسان ومحكماً، خبيراً، من أجل معرفة الرأي العام في دولة "أفريقيا الوسطى". كانت هذه بعثة استطلاعية لرئيس وزراء الاتحاد الجديد ويدعى "روى ولنسكي" الذي كان رئيساً سابقاً للسكك الحديد، ورجلاً محباً للمنافسة ولم يسبق له التراجع أبداً في أى قضية.

وفى عام ١٩٥٧، تتبأ ولاحظ أنه لم يؤمن أبداً بـ "لم يكن للشعب الروديسى شهية أقل إلحاحاً من المستعمرين الأمريكيين". وقد أصدر الرجل الذى سبقه فى منصبه ويدعى "هاجينز" (وهو الآن لورد مالفرن) نفس التهديد. وعند حديثه عن جيش "روديسيا" لاحظ الآتى: "أتمنى ألا نستعبدهم كما فعل مستعمرو أمريكا الشمالية، وهذا لأننا نتعامل مع حكومة حمقاء فى المملكة المتحدة"^(١٦). وقد تعامل "ماكميلان" مع هذا الحديث بشكل جاد للغاية وتخيّل أنه لو تزعم حزب العمال للإشراف على الانتخابات العامة المقبلة، فقد يتسبب ذلك فى تمرد "روديسيا الشمالية".

وبحلول شهر أغسطس، كلف "ماكميلان" "مونكتون" ببذل كل ما فى وسعه لإنشاء دولة متعددة الأعراق فى وسط أفريقيا. وقد يؤدى الفشل إلى تحويل كينيا وكل المنطقة إلى أتون من القلاقل سوف يحترق الجميع بلهيبه. كما أضاف أن سيادة البيض بدأت فى الاضمحلال ولكنه تمنى تحقيق شيء ما لتكثيف المستوطنين البيض الذين كان وجودهم أمراً حيويًا بالنسبة للقارة برمتها^(١٧). أما الخيار الآخر، فكان يتمثل فى النزاع الذى لن ينقطع وسوف يبيء بالفشل مثلما حدث بالجزائر. فمن المستحيل أن تجازف بريطانيا بمالها وأرواح أبنائها من أجل الدفاع عن سيادتها فى شرق أفريقيا ووسطها. وقد عزز دفاعه عن حزب المحافظين فوزه الكاسح فى شهر أكتوبر، مما أهله على لخوض سياسة أفريقية راديكالية. وكانت أدواته المختارة رجلاً فى السادسة والأربعين من عمره يدعى "بين ماكلو" وكان رجلاً محافظاً موهوباً. ونكيا لاذع الآراء وكانت طباعه تؤهله للتعامل مع السياسات الاستعمارية. وتوعد رئيس الوزراء، آنذاك بأسوأ العواقب عند فشله. وبعد مرور عام من توليه منصبه برر "ماكليود" أفعاله فى مؤتمر حزبه على أساس أنهم امتداد فى أفريقيا وفقاً لمبادئ "نزرائيلي" التى تنص على "أمة واحدة". ينبغى

معاملة السود والبيض على قدم المساواة كما هي الحال مع فقراء الشعب وأغنيائه في عصر الملكة فيكتوريا.

لم تكن عملية توفير حلول وسط وخلق التعاون أمرا ميسورا، ولكن "ماكليود" كان يجيد إدارة المفاوضات، كما كان يتمتع بقدر وافر من الصبر وقادرا على الخروج من أجل تفقد الظروف: ومن أول الأشياء التي قام بها وضع حد لحالة الطوارئ القائمة في كينيا: وفي شهر أبريل عام ١٩٦٠، أعاد الحكومة لحالتها العادية في "نياسالاند" وبعد مرور شهرين، أفرج عن "باندا" برغم غضب "إرميتاج" و"ولنسكي".

وقد أعلن "ماكليود" أمام الجميع أنه كان حليف القومية الأفريقية رغم مطلب الجميع لوضع حد لحالة الطوارئ في "نياسالاند" التي كانت بمثابة عبء ثقيل على كاهل موارد المستعمرة المحدودة، وفي عام ١٩٣٩ كانت الفاتورة الإجمالية للبوليس ٢٢,٠٠٠ جنيه. وبحلول عام ١٩٦٠ قفزت إلى مليون جنيه إسترليني، وهذا ما يمثل سدس الميزانية الاستعمارية.

إن أعظم إنجازات "ماكليود" تكمن في مراجعة تواريخ حصول الدول على استقلالها والإشراف على التفكك السلمي لاتحاد دول وسط أفريقيا. ولم تكن عملية انتقال السلطة أمرا هينا؛ لأنه ترتب عليها إعادة صياغة الدساتير ومناقشتها عند انعقاد المؤتمرات التي لم تحظ بإعجاب الجماهير. لقد اشتهرت أعمال "ماكليود" على الأقل من قبل الأفارقة باسم "تين" الذي أصبح علما يطلق على المسيحيين في "أوغندا" و"نياسالاند" وتم إطلاق اسم شارع "ماكليود" على إحدى الطرق الرئيسية في "بلانتير". وكان ذلك نوعا من الاعتراف بالجميل للعمال الذين شاركوا في استقلال "تنجانيقا" عام ١٩٦١ و"أوغندا" في عام ١٩٦٣ وتفكك اتحاد دول أفريقيا الوسطى في نفس العام.

وفي العام التالي حصلت كل من "نياسالاند" و"ملاوى" و"زوديسيا الشمالية" و"زامبيا" على استقلالها.

لقد كان "ماكميلان" القوة الموجهة وراء كل هذه التغيرات. لقد وصف الإمبراطورية بمفردات عقلانية بدلا من الانصياع لعواطفه، مع السؤال عن القيمة الاقتصادية أو الإستراتيجية التي كانت تمثلها المستعمرات لبريطانيا. وقد طاف الدول الأفريقية الموجودة جنوب الصحراء الكبرى في مطلع الستينيات على أنه رجل نفعى. لقد أبحر على سواحل مدينة "أكرا" كما فعله المستكشف "ساندرز" في الأنهار الأفريقية، كما وجد في "نيجيريا" خليفة لمركز افتراضى يذكر البعض بـ "جيمس روبرتسون" الذى كان الحاكم العام للمستعمرة. وقد أخبر "روبرتسون" "ماكميلان" أن الشعب النيجيرى فى حاجة إلى خمسة وعشرين عاما حتى يتمكنوا من تقرير مصيرهم، فمن الأفضل منحهم هذا الحق فى الحال. فقد يُحول أى تأجيل هؤلاء الرجال الأذكاء الذين تم إعدادهم لتولى زمام الحكم إلى متمردين، مما يترتب عليه ظهور العنف والحدة والكراهية. وكان الخيار محصورا بين نوال الأوهورو للاستقلال بعد عشرين عاما من القمع^(٢١).

أما فيما يتعلق بجنوب أفريقيا، فأصبح دور "ماكميلان" خطبة موجهة للسكان البيض الموجودين فى أفريقيا. كما كانت موجهة إلى برلمان جنوب أفريقيا فى مدينة رأس الرجاء الصالح، وتم افتتاح تلك الخطبة بدرس من التاريخ. "حتى بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية، أصبحت إحدى المسلمات الثابتة فى الحياة السياسية "أورو" سببا لظهور أمم مستقلة". لقد بدأت تلك العملية تنتشر فى دول أفريقيا، لكن اصطلم "ماكميلان" بجمودها خلال طوافه بها.

لقد بدأت رياح التغيير تهب فى القارة، وسواء أحببناها أم لا فإن نمو الحس الوطنى مسلمة سياسية. ينبغى أن نتقبل هذه المسلمة، كما أن سياساتنا الوطنية عليها أن تأخذها بعين الاعتبار.

لقد أعجب أعضاء برلمان دولة جنوب أفريقيا وصفقوا باحترام ولكن استلزم الأمر ثلاثين عاما حتى يتحقق ما قاله "ماكميلان".

أما فيما يتعلق بالسكان البيض فى المستعمرات البريطانية، كان "ماكميلان" و"ماكليود" بالنسبة لهم زوجا من الخونة أدت كلماتهم وأفعالهم إلى نشوب شكل من أشكال الخيانة. "لقد كنا دوما مخدوعين من حكومة بريطانية شريرة"، وهذا ما أقره مزارع كينى عام ١٩٦٢. "لن نقدم أى ولاء لشخص لا يرغب فى سحب راية بلده اللعينة من أرضنا". لقد جاء لأول مرة إلى البلاد عام ١٩٣٨، ووقع على عقد مدته ٩٩٩ عاما على أرضه ومزرعته، وتم تشجيعه بشكل رسمى ليكون معلما فى مدرسة للسود وقال: "لست مبشرا لأننى أكره رؤية الأطفال غير الشرعيين. لكننى جئت هنا لزراعة الأرض وللعناية بهؤلاء الأطفال. إنهم ينظرون إليكم كما لو كنتم آباءهم، كما أنهم يأتون إليكم وهم يصطحبون أحكامهم على الأشياء ومغامراتهم. والآن قال رئيس وزراء كينيا، وكينيئاتا رئيس البلاد، إن أى شخص كينى أبيض يرغب فى حمل لقب "بوانا" عليه إعداد حقايبه وترك البلاد". إن هذا الأسلوب والاحترام الذى يحمله فى طياته كان يعنى الكثير لبعض الناس: فقد هبط عدد سكان كينيا البيض من ٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٩ إلى ١٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٥.

قام السيد "مايكل بلندل" الذى كان زعيم البيض المعتدلين بشرح هذه الهجرة الضخمة مستخدما مفردات علم النفس. إن الهجرة الوافدة بعد عام ١٩٤٥ كما رأى:

"النوع الذى لا يمكنه التعامل مع حكومة عمالية. وإذا لم يكن بوسعهم التكيف مع حكومة عمالية، إذن كيف يمكنهم التكيف مع قارة أفريقيا برمتها؟^(٢٣). لو أصبح نظام المساواة البريطانى غير محتمل، يمكن للطبقات

الوسطى، والتي تقع بين الوسطى والعليا أن تلجأ إلى أفريقيا حيث القيم القديمة ما زالت محفوظة والخدم موجودون بوفرة. وكان من رأى دوق "مونروز" أن روديسيا الجنوبية بمثابة ملجأ لبريطانيا من بإصابتها بسرطان أخلاقي فى آخر أطواره وتم تحديد أعراضه فى خطبة فى تاريخية أُلقيت فى مجلس اللوردات فى شهر مارس عام ١٩٦١. وقد صرح بالتالى: "لقد نقشى مرض فظيع فى إنجلترا. فالأخلاقيات تبدو كما لو كانت بريئة: فالأدب الذى رفضه آباؤنا (وعلى سبيل المثال رواية "عشيق السيدة تشارترلي") طرحناه للجميع... فالإشكال ليس فقط فى أفريقيا فحسب: فهو موجود فى بلادنا أيضا... فمن أجل الهروب من هذا الوباء، كان الدوق معدا على تركه فى أحضان الطبيعة: لم يكن فى خاطرى، عندما كنت غلاما أن أبى سوف يقوم بغسل الأواني، مع أنني قمت بهذا العمل قبيل وفاته. ولكنه لم يعترض ولا حتى لو تم تكليفى بعمل نفس الشيء فى أفريقيا".

لقد كانت هذه المهاترات هجوما شرسا على سياسة "ماكميلان" الأفريقية الجديدة التى كان يقودها عملاق إقطاعى آخر كان يشن حربا ضد التطور اسمه "ماركيزه سالزبورى". فقد لام "ماكليود" لوما شديدا: "إنه كان مفرطاً فى ذكائه. وأنه نهج، خاصة عن طرق علاقته مع جاليات البيض فى أفريقيا، نهجا خاطئاً".

وترتب على ذلك أن البيض، عن طريق تدخل جماعات تفتقر إلى الذكاء، آمنوا بتبديل سياسيين سود موالين لبريطانيا فى أفريقيا^(٢٤). وقد أيد تسعون عضواً محافظاً من أعضاء البرلمان مخاوف الماركيزه وقاموا بتوقيع مذكرة معارضة لممارسات "ماكليود". لقد كانت أغلبية المعارضين ضمن اليمينيين فى الحزب أمثال الكابتن "ووترهاوس" (الذى كان رئيسا لامتيازات تتجانيقا) وجذب اهتمام الاتحاديين. وقد كان من الجائز أن خليفته لم يعان كثيرا مع البيض المقيمين جنوبى نهر الزامبيزي.

لقد كانت الثورة ضد السياسة الأفريقية عبارة عن مستتق ابتلع الكثير دون إيذائهم. ولم تتسبب قضية الأقليات البيضاء في إثارة نفس الحماسة كما كانت الحال في فرنسا، ولم يتسبب في تفكك حزب المحافظين بسبب موضوع هامشي كهذا إلا وكان أمرا انتحاريا تافها. ورغم ذلك، فقد كان من الممكن أن تكون ليبرالية "ماكليود" مجدية لتولى رئاسة الحزب بعد انسحاب "ماكميلان" في شهر أكتوبر عام ١٩٦٣. وقد كان "هارولد ويلسون" مستفيدا غير مباشر لم ينكر الجميل كما قيّم "ماكليود" على أنه أكثر شخص يستحق الهيبة من بين صفوف المحافظين.

إن الأدلة التي استمعت إليها لجنة "مونكتون" أننت بنهاية اتحاد دول وسط أفريقيا. لقد كرهها جميع السود في نيبس لاند "وشمال روديسيا" وكانت بسبب ذلك غير قابلة للخضوع عن طريق التهديد.

وقد قاد جنازتها خليفة "ماكليود" وكان يدعى "بايكر" أثناء انعقاد مؤتمر عند شلالات "فيكتوريا" أثناء صيف عام ١٩٦٣. لقد استأنفت كل من "روديسيا الشمالية" و"نياسا لاند" مفاوضات استقلالها، كل بما يرغب، بينما استعدت جنوب "روديسيا" لنفس الشيء بضجر وهدوء. وشارك حزب جديد يدعى "جبهة روديسيا" في الحياة السياسية من أوسع الأبواب.

وبين أعوام (١٩٦٣ و ١٩٨٠) عانت الحكومات البريطانية المتتالية من المشكلات في "روديسيا" التي لا علاج لها. فكان ذلك بمثابة سبب لمتاعب على المستوى الدولي، كما كان سببا لمناقشات لا نهاية لها بين صفوف الحلفاء ووسيلة للهروب من المشكلات الأوروبية القائمة. فقد كانت هذه القضية بمثابة آخر تركة تم الترحيب بها، ومن الممكن أن تتدخل بريطانيا في هذا الشأن، وهذا ما قاله الحلفاء والأمم المتحدة مرارا وتكرارا أثناء تفكك الاتحاد الأفريقي الأوسط، لقد شعر سكان "روديسيا" البيض بأنهم هم من رسموا

الخطوط العريضة لمصيرهم. وقد تم وضع دستور عام ١٩٦١ عند حصولها على الاستقلال، مع أنه قد داوم على إعطاء بعض الامتيازات للسكان البيض. وكثيرا ما قال "يان سميث" الذي كان قائد جبهة "روديسيا" لن تكون هناك أى سيادة لأغلبية سوداء طوال حياته أو حياة أبنائه. وتولى منصب رئيس الوزراء عام ١٩٦٤ وعمره خمسة وأربعون عامًا. لم يكن من المحتمل أن يكون لـ"سميث" دور يذكر فى أرجاء الإمبراطورية، لأنه رأى نفسه وأقرانه أنهم أنسب تعبير للفضائل الإمبريالية العتيقة التى تليق بالرجال، وكان من الممكن أن يشيد بها "هنرى". لم يكن "سميث" رجلا متقفا (ولكنه فيما بعد كان عاجزا عن التمييز بين كلمتى (حالي) و(واقعي)، ولكنه كان مولعا بالرياضة وبارعا فى لعبة التنس والكريكت والرجبي. لقد كان "سميث" طيارا عسكريا اثناء الحرب، وكان "تشرشل" قدوته السياسية، كما أنه آمن دائما بأنه كان من المستحيل ترك زمام الأمور فى "روديسيا" للسود. وكمفاوض، كان "سميث" مولعا وماهرا بالتفوق على غيره. أما كسياسي، فهو كان بليغا للغاية ومحبا لوطنه لأبعد الحدود وفقا لوجهات نظره. وكان عدد معجبيه فى الجالية البيضاء ضخما للغاية، وفى الانتخابات التى أجريت فى شهر مايو عام ١٩٦٥، فازت جبهة "روديسيا" بكل المقاعد المخصصة للبيض وبلغ عددها خمسين مقعدا.

وقد أعطت هذه الانتخابات إشارة البدء للإعلان الأحادي للاستقلال، الذى بدأ يوم الحادى عشر من نوفمبر. وقد سبقتها مفاوضات يائسة فى اللحظة الأخيرة بين كل من "سميث" و"هارولد ويلسون" وسرعان ما وصلت أنبأوها إلى "سالزبورى".

وقد أصر رئيس الوزراء البريطانى، وقد حذا حلفاؤه حذوه، أن للبرلمان البريطانى الحق وحده فى منح "روديسيا" الحق القانونى فى

الاستقلال، وفي حين أن البيض والسود يتمتعون بحق التصويت. فشلت المحادثات وعاد ويلسون ومعه فشل ذريع. وأثناء إحدى المآتب، تعرض لسخرية دوق "هونث روسي" وإمعانا فى السخرية، أخذ يرقص وبشيء من الحزن^(٢٥)، وهذا الرجل الأرستقراطى لم يتحمل الانحطاط المتفشى الذى أفصح عنه لمجلس اللوردات منذ أربع سنوات.

وعند عودة "ويلسون" لأرض الوطن، صرح علنا أن بريطانيا لن تلجأ للعنف إزاء إعلان الاستقلال الأحادى من أجل وضع "روديسيا" تحت سيادتها. لقد كان هذا الموقف مليئاً بالمتناقضات، مما شجع "سميث" الذى كان يعاني من القلق نوعا ما لأن جيشه وقواته الجوية لن تتمكن من محاربة البريطانيين. لم يكثرث "ويلسون" بهذه المخاوف، ولكنه كان على يقين بأن القوات الروديسية كانت جيدة التسليح، وعلى قدر عال من التدريب، وأن الزعماء البريطانيين كانوا قلقين إزاء توريطهم فى عملية مد خطوط الاتصالات. وفضلاً عن ذلك، فإن تأسيس قاعدة حصينة فى "زامبيا" أمر يستلزم وقتاً طويلاً. وحتى لو تم التغلب على مشكلات التمويل، فلم يعد هناك أى حماسة للقتال لدى الجماهير، على الرغم من أن أسقف "كانتربروري" و"جوجريموند" الزعيم الليبرالى، كانا على خلافات مدوية. وقد اقترحت الاستفتاءات العامة أن هذه الخلافات كانت بعيدة تماماً عن رأى العام الذى لم يؤيد الحرب مع "روديسيا".

وكان هذا الأمر ينال إعجاب "ويلسون" الذى لم يكن عدوانياً بطبعه وخشى أن يترتب على أى قرار عنترى معضلة، مثل ما حدث عند تأميم قناة السويس أو حتى أسوأ كما حدث فى "فيتنام". والوسيلة الوحيدة للنيل من "روديسيا" هى فرض عقوبات اقتصادية عليها.

لقد خسرت بريطانيا حرب إخضاع "روديسيا" إليها. لقد تضاعفت حالة التمرد وازدادت الثقة بها. وبين أعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٣ هاجر إليها ٣٩٠٠٠ نسمة من أجل الحياة في ظل رخائها. ووفقا لمراسل محطة "بى بى سى المحلي" أغلبهم جاءوا إلى "روديسيا" من أجل العيش في حياة كريمة^(٢٦). ومما لا شك فيه أنهم قد حصلوا عليها. واستمرت المفاوضات في نجاح. النقى "ويلسون" و"سميث" مرتين الأولى كانت على متن الباخرة "تايجر" عام ١٩٦٦ والثانية كانت على متن الباخرة "فيرلي" في شهر أكتوبر عام ١٩٦٨. وانتهى كلا اللقائين بعدم الاتفاق على غالبية العناصر. وأثناء اللقاء الأول على الباخرة تايجر ومرة ثانية في أكتوبر ١٩٦٨ على ظهر السفينة فيرلس (Fear less) إن "سميث" كان طيبا ومسنا و"ويلسون" كان دمويا ومسنا أيضا. ولكنهما غيرا وجهة نظرهما بعد معايشة سكان "روديسيا" بشكل لصيق ولاحظوا أنهم كانوا عدوانيين وعنصريين وفي غاية الحدة أثناء محادثاتهم في "ميس" الضباط.

إن هذه الصفات التي اتسم بها سكان "روديسيا" قال البعض عنها إنها منفرة، ولكنها جذبت غيرهم خاصة خارج الجناح اليميني لحزب المحافظين. وقال أحدهم وهو عضو في البرلمان ويدعى "هارولد سوريف" إن: "روديسيا" تمثل بريطانيا عندما كانت تعيش في سلام: فأهلها وطنيون ومعتمدون على أنفسهم ومتضافرون محترمون للقوانين والنظام كان مجتمعهم صحا من كل الجوانب^(٢٨). فقد كانت "روديسيا" بريطانيا في أحلى صورها. لقد كانت هذه الجنة الأخرى معروفة باسم "شجيرة في مستنقع"، وإرهاصات لفترة سبقت حرب الطبقة الوسطى تم نقلها عبر خط الاستواء، مع العناية بنوادى التنس والجولف، واستعمرها رجال عدوانيون أصحاء يرتدون السراويل القصيرة والمعاطف وأربطة العنق، ويتحدثون كثيرا عن الرياضة، ونساء يعرفن

مكانين. وهكذا كان سلوك الرجل الأسود. وسرعان بعد الإعلان الأحادي بعد الاستقلال، أخبر مجند سابق في الشرطة أحد الصحفيين أنه "ينبغي سحق الأفارقة والقائهم هناك" (٢٩).

وكان لا مفر من دفاع الأفارقة عن أنفسهم. فقد تم حظر الحركات القومية للسود كما اعتقل زعمائهم أو تم نفيهم. وقد بدأ الكفاح المسلح ببطء عقب الإعلان الأحادي للاستقلال، ولكن ازدادت سرعته بحدة في عام ١٩٧٢. لقد كان شكل الحرب مألوفاً، فاشتملت عمليات الاغتيال على يد العصابات المسلحة التي أطلق عليها اسم "غلمان العصا" الذين تم اختيارهم لتحطيم مخططات العدو. لقد كان هناك جيشان من المؤيدين وهما: الجيش القروي الشعبي التابع لـ "جوشوانكومو" من زيمبابوي (zipra) والجيش القومي الأفريقي التابع لـ "روبرت موجابي" من "زيمبابوي" أيضاً (zanu). لقد عرفت تلك العصابات ما أرادت، كما كانت مسلحة بالأسلحة السوفيتية الحديثة، ولا سيما الصواريخ، كما تلقت تدريبات في معسكرات فسيحة في "زامبيا" ومنذ عام ١٩٧٥ في "موزمبيق".

كما كانت حرب العصابات المضادة حرباً مجردة من أى هدف، كما ابتلعت الكثير من رجالها وأموالها. وبحلول عام ١٩٧٩، استهلكت ٤٧ في المائة من عوائد "روديسيا" من أجل الحرب، وتم إرغام الحكومة على تعبئة أعداد متزايدة من الرجال لسد احتياجات الجيش، وفي نفس الوقت، بدأ أعدائهم أقوى مما كانوا عليه، وبحلول شهر سبتمبر عام ١٩٧٨، استخدم المقاتلون صاروخ سام ٧، تجذبه الحرارة من أجل إسقاط طائرة في خط فسكونت في رحلة داخلية، كما دمرت طائرة أخرى في شهر فبراير عام ١٩٧٩ بنفس الطريقة. بدأ سكان روديسيا يشعرون بأنهم على مقربة من النصر واطمأنوا لذلك، وبين ١٩٧٧ - ١٩٨٠، هاجر ٤٨٠٠٠ من السكان البيض من البلاد مما يشكل خمس الجالية الأوروبية.

كانت الحقيقة في كينيا، كما كان الوضع عليه في المستعمرات البرتغالية، أن المستعمرين لم يكن بوسعهم الحفاظ على وضعهم بدون القوة العسكرية للدولة المضيفة.

وعلاوة على ذلك في نهاية السبعينيات أخذت الفجوة الفنية بين عتاد قوات روديسيا وأعدائها في الانكماش، فإن تدمير الطائرتين كان دليلاً مؤسفاً لذلك. ويمكن تلقى درس مشابه أكثر إيلاماً مثل ما عاناه الاتحاد السوفيتي في مطلع الثمانينيات عند شنه حرباً إمبريالية جبرية في أفغانستان انتهت كما انتهى الجيش البريطاني أي بمأساة.

عند حلول عام ١٩٧٨ كان أمام سميث وجبهة روديسيا اختياران أولهما القتال ثم الانهزام بعد حرب استنزاف، أو حماية أنفسهم مما قد يمنح تنازلات ضخمة لصالح السود. انتهى الأمر باختيار العنصر الثاني، ثم تحالفوا مع أحزاب أفريقية مسالمة أولها حزب الأسقف "أبيل موزوريوا" وهو رئيس المجلس الوطني الأفريقي و"شيف شيرو" وهو زعيم منظمة شعب زيمبابوي المتحدة، وكانت النتيجة، إنشاء معسكر داخلي ووضع دستوري ضاعف تمثيل السود، وفي شهر أبريل ١٩٧٩، أصبح الأسقف "موزوريوا" رئيس وزراء لدولة جديدة تضم كلاً من زيمبابوي وروديسيا، وبعد انقضاء شهر فاز المحافظون تحت رئاسة السيدة مارجريت تاتشر بالانتخابات العامة مما زاد من احتمالات عودة بريطانيا في روديسيا. إن قضية روديسيا كانت من ضمن المشكلات العويصة التي ورثتها السيدة تاتشر ممن سبقوها، فقد كانت مصرة على العمل بحزم وبسرعة، كما عملت على إثبات مهارة الحكومات السابقة. وفي مؤتمر لوساكا للكونغولث الذي تم انعقاده في فصل الصيف، أصرت أنه بوسع بريطانيا إيجاد حل لمعضلة روديسيا. فكان الحل في وضع البلاد تحت حكم حكومة بريطانية تقوم بالإشراف على الانتخابات

تشارك فيها كل الأحزاب بما فيها حزبا "موجابي" و"نكومو" (الذى قاطع اقتراح شهر أبريل) قد يتنافسان. وقد وافق وزراء الكومنولث الذين لم يكن لديهم اقتراح آخر على ذلك، كما وافقت كل من دولتي زيمبابوى وروديسيا على هذا الاقتراح، عقب خروجهما من حرب ضروس، وحتى برغم عدم حصولهما على اعتراف دولي على ضمهما. لقد اجتمع كل ممثلى الفصائل بمن فيهم "يان سميث" (الذى أتاحت له حصانة من الإدانة تهمة الخيانة) فى العاصمة لندن فى فصل الخريف. وقد عالج مشكلة روديسيا مؤتمر لانكاستر جيت تحت رئاسة وزير الخارجية نورد كارينجتون، وعادت البلاد مرة أخرى للحكم البريطانى وحاكمها الجديد اللورد سومز، وبصحبه مجموعة من العسكريين قاموا بالإشراف على حسن سير عملية الاستسلام ونزع سلاح الجنود المتطوعين وإقامة انتخابات عامة وقد فاز بها موجابى الذى أصبح رئيسا لوزراء لحكومة ائتلافية تتكون من الاتحاد الوطنى الأفريقى لزيمبابوى واتحاد الشعب الأفريقى بزيمبابوى تحت قيادة نكومو. وقد حصل السيد سميث على مقعد واحد من ضمن العشرين الآخرين المخصصة للبيض فى برلمان جديد فى زيمبابوى، وأول عمل قام به كان هدم تمثال لـ "سيسيل رودس".

(٧)

مهمة لم تنته

بينما كان شعب زيمبابوى يُسقط تمثال رودس، حاول البريطانيون نسيانه ونسيان ماضيهم الإمبريالى. وقد تذكر الجميع وجود بقاع شهيرة على كوكب الأرض، ألا وهى جبل طارق وأسانسيون وسانت هيلين وترىستان دا كونهما وجزر فوكلاند. وغيرهما من الجزر التابعة والأراضى الجليدية التابعة وجزيرة بيتكارن، وهذا هو مسقط رأس متمردي سفينة باونتى وزوجاتهم من تاهيتى وهونج كونج وبارامودا وجزر كايمان ومونسيرا. لم يعرف الكثير موقعهم على الخريطة، وتم تركهم بمفردهم حتى يعرفوا كيفية الحصول على هذه البقاع وسبب ذلك. لقد كانت موروثات إمبريالية، كما كانت سلامة سكان هذه الأماكن على مسئولية بريطانيا.

إن امتلاك هذه المستعمرات لم يكن أمراً ملائماً لأمة دخلت فى الثمانينيات من القرن العشرين بحثاً عن هوية جديدة تالية لعصرها الإمبريالى وكان ذلك أمراً صعباً. لقد كانت بريطانيا على مر الأعوام الأربع عشرة الماضية قوة أوربية مترددة وفاترة ومعادية لأغراض خصومها، وفى نفس الوقت زبوناً مخلصاً لأمريكا. لم تتغير حال الكومنولث، ويضم اليوم تسعة وأربعين عضواً، ما يمثل ربع سكان الأرض، ويعكس حجمها حال الإمبراطورية فى أوج مجدها، وخير دليل على تأثير بريطانيا على العالم. لقد صنعت بريطانيا تاريخ أمريكا الشمالية، وأغلب دول أفريقيا والهند

والشرق الأوسط والأقصى، وفي العديد من هذه المناطق اللغة الإنجليزية هي لغة القانون والتجارة والحكومة والتربية. وحتى الآن وبدون أسباب بدأت تتراجع أهمية ذكر دور بريطانيا في العالم في مقررات التاريخ بمدارسها. سوف ينمو جيل بالكامل ونعرفه عن الإمبراطورية، وكيف نشأت وماذا قدمت لرعاياها مأخوذة من القصص والأفلام، وبما أن الكومنولث قوة سياسية في العالم فقد تم تحديد إنجازاتها بشكل صارم. وخلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، كانت اجتماعات رؤساء وزراء تلك الدول مسرحا لخلافات حادة مع رؤساء وزراء بريطانيا؛ لأنه فرض عليهم الاستماع إلى خطب بكسنيبيان عن احتوائه لأزمة روديسيا ومنذ فترة أقرب، وزعمه السوري لدعم العقوبات الاقتصادية ضد جنوب أفريقيا. وكان من رأى "تاتشر" أن تلك مثيرة، مثيرة للضجر، وأصبحت في بعض الأحوال عما بداخلها. وذات مرة، أثناء مؤتمر ناسو (Nassau) عام ١٩٨٥، تحدث مع أحد أعضاء الوفد الأوغندي الذى أعطاهما محاضرة عن التفرة العنصرية، ثم ذكرته عن طرد بلده المخجل لشعبها الآسيوى. إن الدول الأفريقية والآسيوية فى غاية الحساسية عندما يلفت أدهم انتباهه إلى العنصرية. وفضلا عن ذلك، فإن الخطب عن حقوق الإنسان، التى يقولها زعماء دول الحلفاء، يقومون باعتقال من يعارضونهم أو إسكات المناظرات السياسية، أشياء لا معنى لها.

ومن ناحية أخرى، أصبحت وظائف دول الكومنولث أكثر فاعلية فى المستويات الوسطى والدنيا. فإن تبادل الأفكار والتعاون فى مجالات مثل التربية والطب والزراعة والتكنولوجيا، تضع همزات وصل لا تقدر بثمن بين الأعضاء الأغنياء والفقراء. إن الأعمال الخيرة المتنوعة التى ترعاها وكالاتها، توفر مساعدة حيوية للأمم النامية، وبشكل ما، تعتبر تحقيقاً للمثاليات القديمة للإمبريالية الجادة. يشعر البعض أن "جوزيف تشامبرلين"

قد نال رضا الأطباء البيطريين الذين كانوا يعملون على تحسين سلالات العجول الكينية، أو الشباب والفتيات البريطانيين الذين كانوا يدرسون اللغة الإنجليزية في المدارس الهندية. وهو، وكل من يؤيدون نفس الإراء كانوا سعداء لرؤية أسماء أفريقية واسيوية وصينية على تروؤم خريجي الجامعات البريطانية في مجالى الحقوق والمحاسبة. وما أطلق عليه "إنموند بورك" اسم الكتائب الصغيرة" على الأفراد الذين تجمعهم مصالح مشتركة ويعملون معا ويتمتعون بالقوة والفاعلية فى دول الكومنولث. وما يتمتعون بتطبيقه يفسر التحاق مستعمرين برتغاليين سابقين لهما وهما أنجو لا وموزمبيق.

إن جولات بريطانيا فى دول الكومنولث لا تزال مستمرة. إن هذه التطورات تولد الكثير من النيات الحسنة وتعطى الكثير من الإثارة والمرح لكل من يشاركونهم ذلك. وهذه هى الحال عند جذب انتباه الناس للبروتوكول. إن الملكة "إليزابيث" الثانية مشهورة بولعها بدول الكومنولث وتقوم بالتزاماتها تجاهها برقة وكما ينبغى. إن لزياراتها وتلك التى قامت بها عائلتها معنى أعمق مما نتصوره؛ فهى توفر حسا للدوام التاريخى للراعايا السابقين للإمبراطورية ومن ينسبون إليها. وفى بعض الأحيان، قد يشعرون بالحنين لماضيهم الإمبريالى ولكنهم يشعرون بالعجز على الرجوع للخلف ولقاداتهم السابقين. تمثل الملكة ذلك الماضى، وأنه من الممكن الرجوع لمستعمرات حدودها مع الترحيب، ويمكن لأحد ضيوفها أن يقول خطبة قصيرة عن قوانين الإمبريالية وكيف انتهت.

إن حكومات المحافظين التى حكمت بريطانيا منذ عام ١٩٧٩ لم تعط حسا قويا للتاريخ. وبالطبع، لم يرق للسيدة تاتشر وكل من شاركوا أيدىولوجيتها الحجج التى تنادى بالتقاليد العتيقة وخاصة من ينتمون لحزبها. لا توجد ولو حتى غرفة واحدة فى السوق الحرة للمشاعر عن الأيام السالفة

أو مؤسسات عامة يعيش من نجا منها على أيام انقضت. وضمن النقاط الثالث الأخيرة، فإن وزارة الكومنولث والمجلس البريطاني وخدمات البي بي سي العالمية قد عانت من العجز في ميزانياتها. وقد تم اختلاق هذا العجز باسم الاقتصاد، وعلى الرغم من الحجج التي لجأت إليها تلك المؤسسات لاستمالة القلوب والعقول والحلفاء من جميع أنحاء المعمورة. إن سمعة بريطانيا الدولية تتمتع بقوة أخلاقية وثقافية لا يمكن قياسها عن طريق المكاسب والخسائر.

إن الفلسفة السائدة بين مؤيدي تاتشر وجون ميجور تمثلت في الإمبراطورية ودول الكومنولث، وكل ما صاحبهما على هيئة التزامات صارت جزءًا من الماضي. والأحداث التي لم تكن في الحسبان التي وقعت في جزر فوكلاند عام ١٩٨٢، أنذرت عن اقتراب نهاية الحماية البريطانية في هونج كونج دامت تسعة وتسعين عامًا حتمت على رئيس الوزراء آنذاك بعدم الهروب من مفرزة التاريخ. وقد كان الاجتياح الأرجنتيني لجزر فوكلاند في يومى ٢ و١ أبريل عام ١٩٨٢ بمثابة مفاجأة غير سارة. وقد صرح من نقنوا الحرب أن انسحاب قطعة بحرية في جنوب المحيط الأطلنطى قد شجعت الحكومة الأرجنتينية التي قادت هذا الانقلاب، كما ارتكب رجال مخابراتها أخطاء جسيمة. لنفترض أنه لم يكن الوضع كذلك، يمكننا افتراض أن حفنة الضباط القدامى لم يترثوا، وأن الاستيلاء على الجزر تم التخطيط له في أقل من أربع وعشرين ساعة.

لقد كان رد فعل بريطانيا مزيجًا من الدهشة والغضب. أما للسيدة تاتشر فكان الموضوع جليًا، ومن ضمن محتوياته:

"لا بد أن تعود جزر فوكلاند والجزر المحيطة بها للسيادة البريطانية. ولا يمكن لأى اعتداء أو اجتياح التأثير على الواقع. وهدف الحكومة هو

التأكد من تحرير الجزر من الاحتلال ووضعها تحت السيادة البريطانية فى أسرع ما يكون... فإن شعب جزر فوكلاند شأنه شأن الشعب البريطانى شعب جزري... فإن عددهم قليل، ولكن من حقه العيش فى سلام، وتحديد مصيره واختيار أسلوب حياتهم وتحديد من يدينون له بالولاء. إن هذا الأسلوب فى الحياة هو الأسلوب البريطانى ألا وهو ولاؤهم للنجاح.

برغم أن فوكلاند كانت مستعمرة فى الماضى، فقد كانت امتداداً لبريطانيا. وصرح مايكل فوت الذى كان زعيم حزب العمال فى مجلس العموم أن حكومة الانقلاب لم تكن سوى مجموعة من البلطجية أيديهم ملطخة بدماء أقرانهم. ولا بد من تحرير سكان فوكلاند من هؤلاء الطغاة؛ لأن من حقهم الحياة مع بريطانيا، كما أن لدينا قدرات أخلاقية وسياسية وغيرها من القدرات التى ينبغى التأكد من حمايتها".

لقد كانت حالة مجلس العموم المزاجية سيئة للغاية ومؤيدة للحرب؛ لقد تحدث جوليان أمرى أمام الكثير عن الشقين عند إشارته إلى "وصمة عار فى حق بريطانيا".

عندئذ، أعدت بريطانيا عدتها لخوض آخر حرب إمبريالية لها من أجل النأر لشرفها واستعادة آخر مستعمراتها. وكان من الهزل أن العديد من السفن الحربية التى أبحرت فى جنوب المحيط الأطلنطى تم الإتفاق عليها من وزير الدفاع جون نوت. وقد كان توت تارة سفيها وتارة أخرى كئيها وظهر بانتظام فى التلفاز وبصحبتة شاب يودى خدمته العسكرية، وكان يقوم بشرح سير عمليات الحرب بصوته الجنائزى. وفى نفس الوقت، أهدى فريقاً من الخبراء العسكريين خدماته، كما لو كانت نصيحة لم يرغب فيها أى شخص. إن هؤلاء العسكريين المفترضين كانوا بديلاً للحرب، فور حدوثها، التى لم يكن من الممكن إرسال أخبارها مباشرة.

اعتمدت نتائج الحرب على تعاون الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تخوض حربا باردة كبرى وصغرى. لقد كان الرئيس ريجان فى صف بريطانيا برغم أن اعتذاراته كادت تتسبب فى قطع علاقاتها مع غيرها من دول أمريكا الجنوبية. وأثناء هذه الحملة، كانت كل أسلحة الولايات المتحدة وجهاز مخابراتها فى خدمة بريطانيا.

عندما كان الإنجليز فى طريقهم للعودة لوطنهم، أطلق مذيعو الأخبار الأمريكيون على الحرب "الإمبراطورية تعيد هجماتها". وكان هناك داخل بريطانيا شعور حاد وكره بأن البلد كثيرا ما عانى من تلقى الصفعات الآن. وظهر اتجاه غريب فى الصحف الشعبية، وظهرت فى مانشيت جريدة "صن" فيها صورة للسفينة الأرجنتينية واسمها "جنرال بلجرانو" أثناء غرقها. إن غرق هذه السفينة الحربية كان من أهم أحداث الحرب. فقد صدرت أوامر اعتراضها وتدميرها إثر صدور إشارات من المخابرات أن تلك السفينة كانت على استعداد لمهاجمة الجيش البريطانى.

ومن كانوا، مبدئيا، معارضين لفكرة الحرب صرحوا بأن الطوربيدات التى تسببت فى غرق السفينة الحربية بلجرانو استنفدت كل فرص المفاوضات من أجل السلام الذى يتم التفاوض عليه على الرغم من افتراض أن حكومة الانقلاب الأرجنتينية كانت فى سبيلها للتراجع. وما تسبب فى غضب اليساريين أكبر من مصير سفينة بلجرانو هو الطريقة التى أفصحت الحرب بها عن عمق الوطنية العدائية وشذنتها على طريقة "جون - بول". وقد بدت بشكل قوى وسط قطاعات الطبقة الكادحة، وبعد مرور أيام قليلة لاجتياح جزر فوكلاند واجتماع بعض البلطجية حليقي رؤوسهم أمام مكتب متطوعين فى "ميدلاندز" طالبين بنادق، وأعربوا عن غضبهم عند علمهم بأن هذا الأمر يستلزم بعض التدريبات. ولم يتذكر أحد المشاعر العتيقة

والجياشة عند تفكك الإمبراطورية، وظهرها مرة أخرى أثناء الحرب مع العراق عام ١٩٩١. ويقال أيضا إنه قلما تسبب فريق كرة قدم إنجليزي فى إثارة نفس الحماس أثناء مباراة له خارج البلاد. يحترم فريق من الرجال الكادحين مباراة تجرى خارج أوروبا على أنها فرصة لتعبئة معنوياتهم، ومن المستحيل إيقافها. ويوجد المزيد من القتل اليدوى خاصة فيما وصفه د. جونسون بالوقاحة بين الجماهير فى وقت السلم عند تجاهلهم لقيمة الشجاعة. وأيا كان تأثير ذلك على الطابع القومى، فإن ضياع الإمبراطورية والقوة العالمية لم تعمل على التقليل من عدوانية البريطانيين.

وكانت إعادة غزو جزر فوكلاند فى أواخر شهر مايو، دليلاً قاطعاً لشجاعة المقاتلين البريطانيين وجلدهم ودليلاً على حكمة القرارات التى تتخذها رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر كما أضفت بريقاً للهدف القومى الذى نساه البعض لعدة سنوات بعد انسحاب الإمبراطورية والتخلف الاقتصادى الذى لحق بها، والخلافات الداخلية المتعلقة بالصناعة. وتحولت بريطانيا فى ظلام دامس من أمة سلبية إلى أمة يشيد بها العالم.

وما كان فى الواقع آخر حرب إمبريالية خاضتها بريطانيا، فهى قد قاتلت فى ظروف فريدة من نوعها، بل عجيبة الشكل وذكرت العالم بالمدلة التى لحقت بها فى السويس. كما كانت سببا فى تسمية تاتشر بلقب المرأة الحديدية وأتاحت لها فترة رئاسة ثانية عام ١٩٨٣.

إن الانسحاب من هونج كونج لم يكن مفخرة على الإطلاق. فتم الاستيلاء على هذه المستعمرة من الصين عام ١٨٩٨، وتم ضمها إليها كنتيجة لحرب الأفيون التى اندلعت عام ١٨٣٩، وانتهت عام ١٨٤٢. واعتمد وجود هذه المستعمرة منذ عام ١٩٤٩ على قبول جمهورية الصين الشعبية التى حصلت على حق إعادة الاستعمار، كما هى الحال مع الإقطاعيين المانشو،

للأراضي التي تركها من هم سبقوهم. ولتلك الأسباب، لم تتعامل الحكومات البريطانية مع هونج كونج مثلما تعاملت مع سائر أجزاء الإمبراطورية، ولم يكن شعبها قادرا على الحكم الذاتي في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وكان المنطق السائد بين هونج كونج والصين هو "ازداد ثراء" فانتشر للرخاء في المستعمرة، وأصبحت عند مطلع الثمانينيات مركزا مصرفيا وتجاري رائدا في الشرق الأقصى. وبما أن باقى أراضي الصين بدأت المشاركة فى المحيط الهادى، وحاولت اعتناق مذهب الرأسمالية، فبدأ الوضع مناسباً لوضع يدها على هونج كونج، فهي تعاملها كما لو كانت صيدا ثميناً.

وكان من الممكن أن يكون هذا المنطق مبشراً، وتم وضعه لطمأنة سكان هونج كونج وتسهيل مهمة الحكومة البريطانية. وبدءاً من عام ١٩٨٤، أصبح من المحبذ السماح بحكومة تمثيلية فى هونج كونج، ووعد بتحمل المؤسسات الديمقراطية لعملية انتقال السلطة. تم قبول شروط هذا بحلول عام ١٩٨٩، ولكن كانت احتجاجات مؤيدى الديمقراطية فى ميدان "تيانانمان" بمثابة مؤشر عنيف على ديكتاتورية نظام الحكم الصينى. لقد واجهت الحكومة الصينية مأزقا، فقد عرفت من ناحية أنها تمتلك قوة قاهرة لا يمكنها المراهنة عليها، ومن ناحية أخرى، كانت تحت ضغوط من هونج كونج لتعجيل عملية الديمقراطية. ولكن من أجل متابعة هذا النظام، قد ترتب عليه استياء الصين وتحويل هونج كونج إلى ساحة معارضة بين المبادئ وتطبيقها.

إن الحاكم الجديد الذى كان وزيرا محافظا ويدعى "كريس باتين" وتم تعيينه عام ١٩٩٢ قد تبنى نهجا تقليديا أبويا مع التشديد على المقولة: "إن مسئوليتنا تجاه مواطنى هونج كونج تأتى فى المقام الأول. وقد ضغط على الصين من أجل الحصول على تعديلات للانتخابات التى أجريت عام ١٩٩٤ التى انسحبت من تلك القضية أساسا. إن ذلك الحل بعيد عن الحرب حالياً، ولكنه ليس من المؤكد أن الصين سوف تصمت طويلاً.

إن مشكلة مستقبل هونج كونج أمر يفوق عدم الاتفاق الإمبريالي. إن هيئة الحاكم ومؤيديه قد وضعوا حججا إمبريالية تضم رعايا بريطانيا. وكان من رأى خصومهم أن تلك المسؤوليات الأخلاقية على درجة من الفخامة تفوق قدرات بريطانيا. فالدبلوماسيون المحترفون الذين أفنوا حياتهم للتفاوض مع الصين آمنوا بأن التودد من أفضل الطرق لاستمالة بكين التى قد تضر بتجارة بريطانيا حال عدم رضاها.

وفى السنوات الأربع عشرة الماضية، اختلفت وجهات النظر فيما يتعلق بالتجارة والدوائر التابعة ل تاتشر فى حزب المحافظين. بينما كانت تحاول أن تكون رسولا للديمقراطية فهى حاولت استقطاب الأوتوقراطيين مثل الملك فهد بالمملكة العربية السعودية وشيوخ الخليج العربى الذين كانوا مستوردى الأسلحة البريطانية. وما يمكننا أن نطلق عليه اسم "سياسة الطبنجات" قبل وضع المبادئ أدى إلى استسلام حكومتها للسعوديين عام ١٩٨٢ بعد عرض فيلم تليفزيونى اسمه "وفاة أميرة". وعلى النقيض، تعاملت تاتشر بحدة مع حليف صادق وهو الملك حسين ملك الأردن المتمتع بالخلق الرفيع والإنسانية، وعندما حاول التعامل مع جاره القوى وهو العراق قام باجتياح الكويت عام ١٩٩٠. والأمر الحتمى الأخلاقى الذى كان وراء حرب جزر فوكلاند لم يمتد إلى مجالات أخرى من السياسة الخارجية.

وقد ظهرت قضية أخلاقية أخرى أثناء المفاوضات المتعلقة بمسقبل هونج كونج. وكانت مسألة قبول أعداد كبيرة من سكان هونج كونج من أصول صينية لدى بريطانيا، عام ١٩٤٨، تم مد المواطنة البريطانية لرعاياها فى جميع المستعمرات. وكما مرت السفينة البخارية وسط مجلس العموم فقد مرت نفس السفينة وتدعى إمباير وندرش بميناء تلبرى، ونزل معها أربعمائة مهاجر من غرب الهند. وكما فعل الإنجليز، فإن الأسكوتلنديين والأيرلنديين

الذين عبروا المحيط الأطلنطي في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، فقد هاجروا من بلادهم بسبب الفقر وجاءوا طلبا للحياة الكريمة.

إن السنوات التي شهدت تفكك الإمبراطورية جعلت الهجرات واسعة المجال أمرا ممكنا. وبدءا من عام ١٩٤٨، هاجرت أعداد ضخمة من سكان جزر الهند الغربية وباكستان وأعداد أصغر من سكان غرب أفريقيا ومالطا وقبرص. بدأ عدد المهاجرين يتناقص في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات ثم صدر مرسومان في عامي ١٩٦٢ و١٩٦٨ لوضع قيود على الهجرة. ليس لدينا مجال لمناقشة نتائج هذه التيارات من الهجرة على بريطانيا التي أصبحت في السبعينيات مجتمعا متعدد الأعراق برغم إقامة أغلبية المهاجرين في لندن وميلانو والمدن الصناعية التي تعاني من التلوث شمالي إنجلترا. تباينت ردود الأفعال إزاء هذا التغير الديموغرافي، وغالبا ما صاحبه بعض العنف من ناحية الأيرلنديين في القرن التاسع عشر. وقد كانت الاتجاهات الإمبريالية الخاصة بالسمو العرقي أدت إلى الاستعلاء أو حتى الاستهزاء بالغير، ولكن، في نفس الوقت، أملت الإمبريالية الموروثة أبا عن جد أنه ينبغي معاملة السود والآسيويين معاملة لائقة وعادلة. هذا، لأن أبناء المهاجرين سوف يعتمدون كلية على الحس الأخلاقي للشعب البريطاني ومرونته.

إن قصة الصعود والسقوط المتسارعين للإمبراطورية البريطانية كانت مبنية على افتراضات وجود الصفات بوفرة، وهكذا التجرد من الإنسانية والشراسة المفرطة. وإلقاء نظرة سريعة على ماضي بريطانيا الاستعماري يؤدي إلى نتيجة؛ أن تأخر عنصرين كانا في المقدمة، ولكن كانت هذه الفكرة مضللة. لقد تمتعت الإمبراطورية البريطانية بقوة أخلاقية ومحبة الحق. وقد قال نلسون مانديلا كلمة الختام عندما تذكر حياته المدرسية في مدينة ناتال في العشرينيات:

"لا تنسوا أنى ترعرعت فى مدرسة بريطانية، وفى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا موطناً لأسمى الأشياء فى العالم، فإننى لم أستبعد التأثير الذى لعبته بريطانيا والثقافة البريطانية علينا. لقد كنا ننظر إليها على أنها عاصمة العالم برمته، وزيارتها كانت أمراً مشوقاً؛ حيث إننى كنت أزور أجمل بلد فى العالم. ينبغى أن نتذكروا أن بريطانيا موطن الديمقراطية البرلمانية، ونحن كشعب يقاتل أحد أشكال الطغيان متمثلة فى هذا الوطن، فنحن ننظر إلى بريطانيا على أنها عون لنا لمقاومة التفرة العنصرية".

إن عدد الإمبراطوريات التى زوت رعاياها بكل اللازم للتخلص من حكامها، لم ينج أى شخص بفضل هذا الكم من المحبة واحترام الأخلاقيات.

Part Four: The Age of Imperialism is Ended: 1914-45

1: *E is for Empire for which We Would Die: 1914-18*

- 1 Drew, 13.
- 2 Killingray, 'Labour Exploitation &c.', *JCont.H.* 24, 485.
- 3 Page, 'The War of Thangata &c.', *JAH*, 19, 94-5.
- 4 Killingray, 'Repercussions of World War I &c.', *JAH*, 19, 49.
- 5 Willcocks, 300; G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 93.
- 6 Osuntokun, 97; PRO, CO 318/350.
- 7 Waite, 62.
- 8 PRO, WO 33/946, 9762.
- 9 PRO, WO 33/960, 9961; CO 123/296.
- 10 *Ibid.*
- 11 Fuller, 50-51, 161, 167.
- 12 *Ibid.*, 76.
- 13 PRO, FO 141/466/1429, 1.
- 14 Greenhut, 'The Imperial Reserve &c.', *JICH*, 14, 106.
- 15 NLS, Haig, 5 May 1915.
- 16 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 106.
- 17 Marder, *Fear God and Dreadnought*, 389.
- 18 PRO, WO 30/57/69.
- 19 PRO, Cab 42/11.
- 20 Osuntokun, 152-3.
- 21 Busch, 80.
- 22 Beatty, 393.
- 23 Vansittart, 168.
- 24 Amery, *Dianies*, 1, 229.
- 25 *Ibid.*, 134.
- 26 *Hansard*, 5th Series, 100, 2211.
- 27 Yate, 'Britain's Buffer States &c.', *JRCAS*, 5, 13.
- 28 W. Wilson, *Collected Papers*, 45, 552.

- 29 Amery, *Diaries*, I, 147.
- 30 Ronaldshay, III, 199.
- 31 *Statistics of the Military Effort of the British Empire &c.*, 61-3, 237, 474-8.
- 32 Malone, 'The New Zealand School Journal &c.', *NZJH*, 7, 22.
- 33 *Oh Canada: a Medley of Verse*, 62.
- 34 Read, 98.
- 35 Fuller, 36.
- 36 Amery, *Diaries*, I, 229.
- 37 Page, 'The War of Thangata &c.', *JAH*, 19, 78-9.
- 38 Killingray, 'Labour Exploitation &c.', *JCont.H.* 24, 484.
- 39 Osuntokun, 45.
- 40 Willan, 'The South African Labour Contingent &c.', *JAH*, 19, 63-4.
- 41 L. James, *Mutiny &c.*, 253.
- 42 Willan, 'The South African Labour Contingent &c.', *JAH* 19, 78-9.
- 43 PRO, CO 318/350.
- 44 Gandhi, 14, 428-9.

2: *Clear Out or Govern: Troubles, mainly Irish, 1919-39*

- 1 PRO, FO 848/2, Balfour to Wingate, 26 March 1919.
- 2 *Times*, 16 June 1919.
- 3 *Hansard*, 5th Series, 131, 1718.
- 4 Jeffery, 161.
- 5 PRO, WO 33/699, 9.
- 6 Jeffery, 161.
- 7 Griffiths, 352-3.
- 8 Lockman, 'British Policy towards Egyptian &c.', *IJMES*, 20.276.
- 9 PRO, CO 537/1735, 9.
- 10 PRO, WO 33/5916.
- 11 PRO, Air 2/125, B11395; WO 33/5916.
- 12 PRO, Air 8/104, D.1.36.
- 13 PRO, WO 106/3793, 162A.
- 14 Murphy, 'Walter Long &c.', *IHR*, 25, 95.
- 15 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 49-50; *Crawford Papers*, 422.
- 16 *Saturday Review*, 28 May 1921.
- 17 Macready, II, 426, 434.
- 18 Ash, 257-8, 268.
- 19 Calwell, II, 241.
- 20 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 61.
- 21 *Ibid.*, 42.
- 22 Jeffery, 86.
- 23 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 77.
- 24 Townshend, *British Campaign &c.*, 186-93.
- 25 Lawrence, *Letters &c.*, 308, 322.
- 26 Ward, *Ireland in Anglo-Irish Relations &c.*, 252-4.
- 27 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 74-5.
- 28 Lawler, 'Ireland from Truce to Treaty &c.', *IHS*, 12, 53-4, 57-8.
- 29 Gilbert, *Churchill*, IV, (Companion volume, Part 3), 1681, 1685.
- 30 *Spectator*, 8 October 1928.
- 31 Jeffery, 93

- 32 *Ibid.*, 76.
- 33 Gandhi, 21, 17.
- 34 Fisher, *Foreign Affairs*, 1, iii, 84.
- 35 *Hansard*, 5th Series, 150, 144.

3: *Their Country's Dignity: Egypt, 1919–42*

- 1 James, *Imperial Warrior*, 203.
- 2 Stephens, 29.
- 3 Sadat, 23.
- 4 PRO, FO 848/2.
- 5 Amery, *Diaries*, 1, 207.
- 6 Eg: PRO, FO 371/3714, 53, 98; WO 95/4372, June 1919, Appendix C1.
- 7 Bishku, 58; PRO, FO 848/5, 77.
- 8 James, *Imperial Warrior*, 208.
- 9 PRO, FO 141/825/1132, 14, 16, 52, 65; WO 33/981, 11045; WO 154/164.
- 10 PRO, FO 141/825/1132, *passim*.
- 11 PRO, WO 33/981, 11043.
- 12 *Daily Mail*, 24 August 1920.
- 13 PRO, FO 141/502/17490, 23A.
- 14 Brown, *Peasants Against the State &c.*, 239–40.
- 15 Lloyd, II, 23–4.
- 16 Charmley, 153.
- 17 Lloyd, II, 5.
- 18 Morsy, 'Wartime Policy in Egypt &c.', *MES*, 25, 68, 82.
- 19 *Ibid.*, 64.
- 20 Nasser, 13–14.

4: *The Haughty Governess: The Middle East, 1919–42*

- 1 Bell, 3–4, 5, 7.
- 2 *Hansard*, 5th Series, 150, 79–80.
- 3 *Ibid.*, 97.
- 4 Jeffery, 60.
- 5 *Ibid.*, 36.
- 6 Sykes, 'Persia and the Great War &c.', *JRCAS*, 9, 187.
- 7 Jeffery, 143; Ironside, 153.
- 8 A. Wilson, 'Revolt in the Desert'. *JRCAS*, 14, 151.
- 9 PRO, WO 32/1584.
- 10 PRO, WO 32/9614.
- 11 Vinogradoff, 'The 1920 Revolt &c.', *IJMES*, 3, 134–6.
- 12 PRO, WO 95/5214 (15th Sikhs).
- 13 PRO, WO 32/5191.
- 14 Jeffery, 153.
- 15 PRO, Air 8/529.
- 16 PRO, Air 5/1292, Operational Summaries, 1932.
- 17 PRO, Air 8/46, Report 5.
- 18 Boyle, *Trenchard*, 389–90.
- 19 Salmon, 'The Air Force in Iraq', *RUSI*, 70, 497.
- 20 PRO, Adm 116/3190.
- 21 Atiyah, 152.

- 22 *Ibid.*, 175.
- 23 *Ibid.*, 198–9.
- 24 James, *Golden Warrior*, 232.
- 25 PRO, WO 32/9614, 22.
- 26 Wasserstein, 8–12.
- 27 'Service Problems in Palestine', *RUSI*, 81, 804.
- 28 PRO, CO 733/315/6, 16; WO 32/9618.
- 29 PRO, CO 733/315/6, 8; Townshend, 'The Defence of Palestine &c.', *EHR*, 103, 919.
- 30 PRO, WO 106/1594C.
- 31 PRO, CO 537/1735, 10.
- 32 PRO, WO 106/1594C; *Hansard*, 5th Series, 349, 897.
- 33 Wasserstein, 28.
- 34 Al-Qazzaz, 'The Iraqi War &c.', *IJMES*, 7, 594.
- 35 PRO, Air 9/146.
- 36 Al-Qazzaz, *op. cit.*, 595.
- 37 Hinsley, 1, 409–10; 574.

5: *A New Force and New Power: India, 1919–42*

- 1 Draper, 90–91.
- 2 PRO, Air 8/46, Report 5, 9.
- 3 PRO, WO 208/774.
- 4 Griffiths, 302–3.
- 5 Norman, I, 118.
- 6 *The Indian Public School*, viii, 34.
- 7 Mangan, 179–91.
- 8 *University of Mysore: The Calendar for the Year 1925–1926*, 87–8.
- 9 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 106.
- 10 Jeffery, 3–4.
- 11 Tinker, 'India and the First World War &c.', *JCont.H*, 3, 89.
- 12 Gandhi, 15, 130–31, 136, 145, 157.
- 13 *Ibid.*, 221, 234.
- 14 *Ibid.*, 185.
- 15 *Ibid.*, 16, 375.
- 16 *Hansard*, 5th Series, 131, 1710.
- 17 Ash, 268.
- 18 *Spectator*, 20 December 1919.
- 19 *Hansard*, 5th Series, 383, 302–5.
- 20 Gandhi, 76, 50.
- 21 *Ibid.*, 3.
- 22 Talbot, 'The Role of the Crowd &c.', *JICH*, 21, 313–14.
- 23 Rizvi, 25–26, 122.
- 24 *Ibid.*, 125.
- 25 *Ibid.*, 131; Prasad, 48.
- 26 PRO, WO 106/3723, 125.
- 27 *Constitutional Relations Etc.*, 1, 49.
- 28 PRO, WO 208/819A.
- 29 Gandhi, 76, 49.
- 30 *Ibid.*, 49–50.

- 31 Prasad, 169–70.
- 32 *Ibid.*, 167.
- 33 *Congress Responsibility &c.*, 23, 27–28, 32; PRO, WO 106/3721; WO 208/761A.
- 34 *Hansard*, 5th Series, 383, 295–6.

6: *For the Benefit of Everyone: Concepts of Empire, 1919–39*

- 1 Pugh, 'Popular Conservatism &c.', *JBS*, 27, 274, 280.
- 2 *Hansard*, 5th Series, 342, 1226–7.
- 3 *Listener*, 2 June 1937.
- 4 *Hansard*, 5th Series, 342, 1243, 1247.
- 5 *Picture Post*, 29 April and 27 May 1939.
- 6 *Hansard*, 5th Series, 342, 1247.
- 7 Philips, 'The New Africa', *Nineteenth Century and After*, 22, 587.
- 8 Hooper, 41.
- 9 Hyams, *Empire and Sexuality*, 199.
- 10 Fraser, *Impressions: Nigeria 1925*, 114.
- 11 Marston, 'Lands Something New', *National Geographic Magazine*, 71, (January 1937), 125.
- 12 *Punch*, 3 January 1934.
- 13 Birley, 'Africa and the Blight of Commercialism', *Nineteenth Century and After*, 87, 1083–4.
- 14 Osuntokun, 76, 87.
- 15 *Listener*, 31 May 1933.
- 16 PRO, CO 537/1224, 6, 4.
- 17 *Ibid.*
- 18 *Times*, 14 June 1919.
- 19 Hyams, *Empire and Sexuality*, 205.
- 20 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 103.
- 21 PRO, Air 8/46 Report 5, 9.
- 22 Birley, 'Africa and the Blight of Commercialism', *Nineteenth Century and After*, 87, 1085.
- 23 Quoted in *New Statesman*, 2 October 1943.
- 24 J.M. Winter, 'The Webbs &c.', *JCont.H*, 9, 183–4.
- 25 Hyams, 'The Political Consequences of Seretse Khama &c.', *HJ*, 29, 927.
- 26 Knatchbull-Hugessen, 82.

7: *The Bond of One Spirit: The Public Face of Empire, 1919–39*

- 1 Ross Smith, 136; *Listener*, 28 December 1932.
- 2 R. McCormack, 'Missed Opportunities &c.', *IHR*, 11, 210.
- 3 *Ibid.*, 223.
- 4 R. McCormack, 'Imperial Mission &c.', *JCH*, 9, 95.
- 5 PRO, CO 874/1097, 67.
- 6 *Listener*, 20 October 1930.
- 7 Richards, *The Age of the Dream Palace*, 134, 135.
- 8 Pronay, 'The Political Censorship of Films &c.', in ed. Pronay and Spring, *Propaganda, Politics and Film*, 106, 137–8.
- 9 *Ibid.*, 136.
- 10 *Picture Post*, 8 April 1939.
- 11 *Hansard*, 5th Series, 342, 1271, 1306–7.

- 12 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.' *JICH*, 15, 65.
- 13 *Spectator*, 26 April 1924.
- 14 Mackenzie, 111.
- 15 *Times*, 24 December 1934.
- 16 Ziegler, *Edward VIII*, 113-14.
- 17 *Ibid.*, 113.
- 18 *Ibid.*, 137, 139, 191.
- 19 Storrs, 488.
- 20 *Spectator*, 10 September 1932.
- 21 *Sphere*, 28 January 1933.
- 22 *Spectator*, 27 January 1933.

8: *No Good Blustering: The Limits of Imperial Power, 1919-36*

- 1 Hitler, *Mein Kampf*, 563.
- 2 *Morning Post*, 24 May 1919.
- 3 Grattan, 'The Future of the British Empire', *Harpers*, 179, 489.
- 4 PRO, WO 106/3793, 43A, 48A.
- 5 Hitler, *Table Talk*, 435-6.
- 6 Ferris, 'The Greatest Power on Earth &c.', *IHR*, 13, 743-4.
- 7 Gooch, 'Hidden in the Rock &c.', in ed. Freedman, Hayes and Gooch, *War Strategy &c.*, 162-3.
- 8 Marder, *Old Friends and New Enemies*, 55.
- 9 PRO, WO 106/106.
- 10 Barnett, *The Collapse of British Power*, *passim*.
- 11 McKercher, 'Our Most Dangerous Enemy &c.', *IHR*, 13, 755.
- 12 Gooch, 'Hidden in the Rock &c.', *op. cit.*, 155.
- 13 Thorne, 98-9.
- 14 Cooper, *Old Men Forget*, 229.
- 15 *Imperial Commerce and Affairs*, 2 February 1921.
- 16 Heap, 'The Development of Motor Transport &c.', *JTH*, 2, 31-2.
- 17 Hargreaves, 93-4.
- 18 Cadogan, 15.
- 19 Sales, 'W.H. Hughes and the Chanak Crisis &c.', *AJPH*, 17, 405.
- 20 Thorne, 4-7.
- 21 *Ibid.*, 4.
- 22 Murfett, 'Living in the Past &c.', *WS*, 11, 80-81.
- 23 *Ibid.*, 85.
- 24 Marder, *From Dardanelles to Oran*, 84n.

9: *We Shall Come to No Good: The Empire Goes to War, 1937-9*

- 1 Harvey, *Diplomatic Diaries*, 289.
- 2 Cadogan, 53.
- 3 *Ibid.*
- 4 *Morning Post*, 25 May 1936.
- 5 *The Road to War*, 15.
- 6 Hasluck, 88-9.
- 7 Cadogan, 15.
- 8 J.P. Harris, 'British Military Intelligence &c.', *Intelligence and National Security*, 6, 413-14.

- 9 *Documents in British Foreign Policy, 1919-1939*, 2nd Series, 18, 968.
- 10 PRO, Air 8/529.
- 11 *Documents in British Foreign Policy, 1919-1939*, 2nd Series, 18, 982.
- 12 McCarthy, 'Australia and Imperial Defence &c.', *AJPH*, 17, 20.
- 13 *Ibid.*, 24, 29-30; Gillison, 51.
- 14 *Ibid.*, 71.
- 15 *Canada Today*, 65-6.
- 16 Fuchser, 203.
- 17 *Documents on Australian Foreign Policy*, 1, 430.
- 18 *Ibid.*, 464.
- 19 Pickersgill, 12.
- 20 Cadogan, 92; Roskill, II 442-3; Cooper, *Old Men Forget*, 239.
- 21 *Spectator*, 30 September 1938.
- 22 Feiling, 329.
- 23 *Ibid.*, 297; Cooper, *Old Men Forget*, 239.
- 24 Cassells, 'Deux empires &c.', *Guerres Mondiales et Conflits Contemporains*, 161, 83-4.
- 25 See, Hauner, 'One Man Against Empire &c.', *JCont.H*, 16, *passim*.
- 26 Asante, 129, 173.
- 27 *Economist*, 15 October 1938.
- 28 I.E. Hollis, 'Chamberlain's Policy', *Review of Politics*, 1 (1939); see also Fuchser, 202, 226-8.
- 29 *Documents on Australian Foreign Policy*, 2, 20-21.
- 30 Fuchser, 354.
- 31 Smuts, VI, 181.
- 32 G. Martin, 'Mackenzie King &c.', *British Journal of Canadian Studies*, 4, *passim*.
- 33 Hasluck, 85.
- 34 *Documents on Australian Foreign Policy*, 2, 432.
- 35 *Ibid.*, 75, 175.
- 36 *Ibid.*, 83-84, 94, 99, 143, 151.
- 37 *Ibid.*, 153; Murfett, 'Living in the Past &c.', *WS*, 11, 91.
- 38 Roskill, II, 437.
- 39 *Documents on Australian Foreign Policy*, 2, 257.
- 40 *Ibid.*, 143.
- 41 Smuts, VI, 190.
- 42 Rock, 17.
- 43 Acheson, 10.
- 44 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 27.

10: *Finest Hour: The Empire at War, 1939-41*

- 1 *Listener*, 31 October 1940.
- 2 Haglund, 'George C. Marshall &c.', *JCont.H*, 15, 746-7.
- 3 Moran, 395.
- 4 Hyam, 'Churchill and the British Empire', in ed. Blake and Louis, *Churchill*, 175.
- 5 E.g. Barnett, *The Audit of War*, and Ponting, *1940: Myth and Reality*.
- 6 Haglund, 'George C. Marshall &c.', *JCont.H*, 14, 747-51.
- 7 PRO, CO 537/1879, 46.
- 8 Harvey, *Wartime Diaries*, 90.
- 9 Marder, *From Dardanelles to Oran*, 222-3.

- 10 *Journal of the Royal African Society*, 41, 21.
- 11 Ojan, 'Drums and Victory &c.', *Journal of the Royal African Society*, 41, 31.
- 12 D. Day, 'Anzacs on the Run &c.', *JICH*, 14, 188.
- 13 *Documents on Australian Foreign Policy*, 5, 10.
- 14 See D. Day, *Menzies and Churchill at War*.
- 15 D. Day, 'Anzacs on the Run &c.', *JICH*, 14, 189; Hasluck, 357-8.
- 16 Thorne, 63.
- 17 Hasluck, 347.
- 18 *Ibid.*, 346.
- 19 Morison, 1, 54-5.
- 20 *Independent*, 26 January 1993.
- 21 Ross, *Royal New Zealand Air Force*, 81-2.
- 22 *Ibid.*, 23.
- 23 PRO, WO 208/819A.
- 24 Gillison, I, 143.
- 25 Aldrich, 'Conspiracy and Confusion &c.', *IJNS*, 7, 340.
- 26 Hinsley, Thomas, Ransom and Knight, 2 76-7.
- 27 Morison, 1, 167.
- 28 Aldrich, 'Conspiracy and Confusion &c.', *IJNS*, 7, 340.
- 29 Gillison, 1, 220.
- 30 PRO, CO 968/13/3, 9, 42.
- 31 *Sunday Times*, 31 January 1993.
- 32 Thorne, 203.
- 33 I am indebted to David Elder for this observation.
- 34 PRO, WO 208/819A.
- 35 Marder, Jacobson, Horsfield, *Old Friends and New Enemies*, 2, 14.
- 36 PRO, Air 8/629.
- 37 Eisenhower, 1, 252.
- 38 PRO, Air 8/629; *Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946*, 113.

11: Steadfast Comrades: The Stresses of War

- 1 *Documents on Australian Foreign Policy*, 5, 559.
- 2 Eisenhower, 1, 78.
- 3 Harvey, *Wartime Diaries*, 111.
- 4 *Listener*, 1 June 1944.
- 5 Haycock, 'The Myth &c.', *WS*, 2, i, 73.
- 6 PRO, Air 8/374, 3, 9; Air 8/675, 6, 57.
- 7 Quinault, 'Churchill, Australia &c.', *WS*, 6, ii, 57.
- 8 *Hansard*, 5th Series, 377, 98, 621; *Economist*, 7 March 1942.
- 9 *Economist*, 28 February 1942.
- 10 *Times*, 23 February 1942.
- 11 PRO WO 32/1577Z, 16A.
- 12 *Times*, 27 February 1942.
- 13 *Hansard*, 5th Series, 377, 198, 550.
- 14 *Ibid.*, 378, 171.
- 15 Thorne, 97.
- 16 Eisenhower, 1, 85, 115.
- 17 PRO, WO 32/1577Z, 74A.
- 18 Furse, 230-31.

- 19 Storrs, 199.
- 20 F. Watson, 'India Returned', *Life and Letters*, 49, 12-13.
- 21 *Times*, 13-14 March 1942.
- 22 PRO, CO 537/4005, 9.
- 23 Smuts, 6, 366-7.
- 24 PRO, WO 208/803; *Constitutional Relations Etc.*, 6, 50-51.
- 25 *Ibid.*
- 26 PRO, WO 208/804A.
- 27 PRO, WO 208/761A (Intelligence Report, 31 August 1945).
- 28 PRO, WO 208/804A.
- 29 *Constitutional Relations Etc.*, 5, 1284-5.
- 30 PRO, WO 208/803, 105A.
- 31 *Constitutional Relations Etc.*, 5, 1128.
- 32 PRO, WO 208/803, 82A; WO 208/819A.
- 33 *Ibid.*
- 34 PRO, WO 208/804A (Guidance Notes on Psychological Warfare Directed to Indians in Japanese Occupied Territories).
- 35 PRO, CO 537/3735, 10.
- 36 *Constitutional Relations Etc.*, 6, 50-51, 273, 319.
- 37 Killingray, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast &c.', *JMAS*, 21, 527-8.
- 38 PRO, CO 537/1224, 6.
- 39 *Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946*, 111.
- 40 Eisenhower, 1, 208-9; Killingray, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast &c.', *JMAS*, 21, 525.
- 41 A. Palmer, 'Black American Soldiers &c.', *JICH*, 14, 205.
- 42 Sandler, 'Home Front Battlefield &c.', *WS*, 11, 1, 103-5, 110.
- 43 Thorne, 275.
- 44 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.', *JICH*, 14, 73-4.
- 45 *Ibid.*, 78, 81-2.
- 46 Djan, 'Drums and Victory &c.', *Journal of the Royal African Society*, 41, 31.
- 47 PRO, CO 874/1097, 67.
- 48 Ageron, 'Les Populations du Maghreb &c.', *Revue de l'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale*, 114, 31.
- 49 Perry, 227; PRO, CO 537/1879, 31, 35.
- 50 PRO, CO 968/3/15, 5.
- 51 *Ibid.*, 28.
- 52 *Ibid.*, 8.
- 53 *Ibid.*, 89, 99.
- 54 *Ibid.*, 89.
- 55 *Ibid.*, 5, 50.
- 56 Pickersgill, 238.
- 57 Hall, Wagley and Scott, 455.
- 58 Summerfield, 'Education and Politics &c.', *International Review of Social History*, 26, 144.
- 59 PRO, WO 32/15772, 74A.
- 60 *Hansard*, 5th Series, 395, 1903.
- 61 PRO, WO 208/761A (Fortnightly Security Review, 12 October 1945).
- 62 *Ibid.*
- 63 Hanley, 'Resettling the East African', *Army Quarterly*, 52, i, 125-8.
- 64 Hanley, 'Bantu in Burma', *Spectator*, 19 January 1945.

12: *The Defence of Archaic Privilege: The Empire Restored, 1942–5*

- 1 *Hansard*, 5th Series, 430, 337.
- 2 Thorne, 209, 592–3.
- 3 *Ibid.*, 593.
- 4 PRO, CO 968/10/3, 1, 5, 12.
- 5 Acheson, 133–4; Thorne, 593–4.
- 6 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 126.
- 7 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.', *JICH*, 14, 74, 76.
- 8 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 13.
- 9 Orwell, 58–9.
- 10 Thorne, 97.
- 11 Macmillan, 325.
- 12 Cunard, 'On Colour Bar', *Life and Letters*, 32, 172.
- 13 *Hansard*, 5th Series, 430, 430, 364.
- 14 Thorne, 238.
- 15 *Ibid.*, 149.
- 16 *Times*, 10 January 1945.
- 17 *The Old War and New Society*, 21.
- 18 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 14.
- 19 *The British Way and Purpose*, 461.
- 20 Summerfield, 'Education and Politics &c.', *International Review of Social History*, 26, 137.
- 21 *The British Way and Purpose*, 495.
- 22 Moran, 124.
- 23 Ziegler, *Mountbatten*, 169–70, 221.
- 24 Thorne, 450.
- 25 *Ibid.*, 337.
- 26 Ziegler, *Mountbatten*, 303–4.
- 27 *World Affairs*, June 1946, 22–4.
- 28 PRO, WO 203/4460, 8 January 1946.

Part Five: The Setting Sun, 1945–98

1: *The Colonialists are on the Rampage: The Empire in the Post-war World*

- 1 Macmillan, 721; Cameron Watt, 'Britain, the United States &c.', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments &c.*, 50–53; Leffler, 47.
- 2 Leffler, 61, 92, 183, 236.
- 3 James, *Imperial Rearguard*, 135.
- 4 Orwell, 397.
- 5 Nkrumah, 57–8.
- 6 *Hansard*, 5th Series, 395, 1907.
- 7 PRO, CO 1015/463, Report, November 1951.
- 8 Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. Ovendale, *op. cit.*, 98.
- 9 Shuckburgh, 32.
- 10 PRO, CO 537/1288, 18.
- 11 Hennessey, 262–3.

- 12 *Ibid.*, 267–9.
- 13 E.g. Carton de Wiart, 173; Wavell, 130–31; Cadogan, 776.
- 14 Acheson, 270–71.
- 15 Leffler, 238.
- 16 Hennessey, 271–2.
- 17 Jayal, 'Towards the Baghdad Pact &c.', *Int. HR*, 9, 416.
- 18 PRO, CO 537/5324, 2, 25.
- 19 P. Edwards, 'The Australian Commitment &c.', *HS*, 22, 610.
- 20 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 340–41; PRO, Air 8/1459, 2–3, 7–8, 28–30.
- 21 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 338.
- 22 PRO, WO 216/724.
- 23 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 341.
- 24 PRO, WO 216/799; Adm 1/27285.
- 25 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int. HR*, 11, 493.
- 26 *Listener*, 26 January 1950.
- 27 PRO, CO 537/5120.
- 28 PRO, CO 537/3333, 12.
- 29 PRO, CO 537/5120.
- 30 PRO, CO 822/461, 31, 68.
- 31 PRO, CO 537/5120.
- 32 Furedi, 'Creating a Breathing Space &c.', *JICH*, 21, 93, 98–9.
- 33 PRO, CO 822/461, 29.
- 34 Castle, 259.
- 35 PRO, CO 537/7618, 1, 2, 5.
- 36 PRO, CO 822/461, 29, 94.
- 37 *Ibid.*, 90; CO 1015/463, Report, February 1953.
- 38 PRO, CO 537/7542, 1, 7.
- 39 *Ibid.*, 4.
- 40 *Listener*, 6 July 1950.
- 41 Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments &c.*, 110–13.
- 42 PRO, CO 1037/80.
- 43 Furedi, 'Creating a Breathing Space &c.', *JICH*, 21, 98.
- 44 Furze, 306.
- 45 *Country Life*, 12 August 1949.
- 46 J.P. Barker, 'The Karamojo District &c.', *JAH*, 3, 123–4.
- 47 NAM, Stockwell Papers, 1, 6–26.
- 48 IWM, Lydford Papers, Box 6.
- 49 *Ibid.*, Box 7.
- 50 PRO, CO 587/7417, 45–6; CO 537/2449, 50; CO 537/2450, 24, 32, 42.
- 51 *Time*, 7 December 1949.

2: *Friendly Relations: India and the Liquidation of Empire, 1945–7*

- 1 PRO, CO 1027/317, 27.
- 2 Nicolson, 24.
- 3 Thorne, 611.
- 4 *Ibid.*, 684–5; Ziegler, Mountbatten, 323.
- 5 Moore, 223.

- 6 Wavell, 437, 439.
- 7 *Constitutional Relations*, 6, 273.
- 8 Gandhi, 72, 378.
- 9 *Ibid.*, 438-9.
- 10 PRO, WO 32/15772, 74A.
- 11 *Ibid.*, 104A.
- 12 *Hansard*, 5th Series, 430, 1581-2.
- 13 PRO, WO 208/761A.
- 14 I owe these details to John Hailwood.
- 15 PRO, 208/761A (Intelligence Summary 25 March 1946).
- 16 *Ibid.*, (Situation Report 8 March 1946).
- 17 *Ibid.*, (Intelligence Summary December 1945).
- 18 *Ibid.*, telegram GHQ to cabinet, 3 April 1946.
- 19 *Ibid.*, (Intelligence Summary December 1945).
- 20 *Ibid.*, (Intelligence Report 25 March 1946).
- 21 *Constitutional Relations*, 6, 1233.
- 22 *Ibid.*, 7, 926.
- 23 *Ibid.*, 8, 75.
- 24 *Times*, 11 July 1947.
- 25 Hamid, 172.
- 26 *Ibid.*, 179.
- 27 Henniker, 'Early Days of Pakistan', *RUSI*, 93, 117.
- 28 Hamid, 158-9.
- 29 Ziegler, *Mountbatten*, 418-19, 422.
- 30 *Times*, 25 August 1947.
- 31 Henniker, 'Early Days of Pakistan', *RUSI*, 93, 118.
- 32 Ziegler, *Mountbatten*, 432-3; Hamid, 297.
- 33 *Ibid.*, 435.
- 34 *Ibid.*, 297.
- 35 W. Platt, 'East African Forces &c.', *RUSI*, 93, 410.
- 36 *Observer*, 8 July 1956.
- 37 *Ibid.*, 24 June 1956.
- 38 *Daily Telegraph*, 11 November 1961.
- 39 *Daily Telegraph*, 10 July 1956.
- 40 *New Statesman*, 30 June 1956.

3: *The World as It Is: Middle Eastern Misadventures, 1945-56*

- 1 Clark and Wheeler, 116, 120; Leffler, 77, 113, 225.
- 2 Leffler, 238, 286.
- 3 Leffler, 238.
- 4 Clark and Wheeler, 124.
- 5 Hennessey, 262.
- 6 Clark and Wheeler, 153.
- 7 Navias, *Nuclear Weapons &c.*, 41-3.
- 8 PRO, Adm 1/26927.
- 9 *Constitutional Relations*, 9, 432.
- 10 W.R. Louis, *The British Empire and the Middle East*, 13.
- 11 *Time*, 7, and 21 January 1952.
- 12 McGhee, 342.

- 13 *Economist*, 30 June 1951.
- 14 *Ibid.*, 23 June 1951.
- 15 PRO, Adm 1/27285.
- 16 *Hansard*, 5th Series, 491, 978.
- 17 *Ibid.*, 1020.
- 18 *Ibid.*, 1178.
- 19 Brands, 'The Cairo-Teheran Connection &c.', *IHR*, 11, 440-1.
- 20 *Spectator*, 5 October 1951.
- 21 Shuckburgh, 27.
- 22 McGhee, 339.
- 23 Nixon, 134.
- 24 Leffler, 124-5, 239, 288-9.
- 25 McGhee, 270.
- 26 Lawson, 'The Iranian Crisis &c.', *IJMES*, 21, 309-10.
- 27 Khomeini, 214.
- 28 Shuckburgh, 105.
- 29 W.R. Louis, *The British Empire and the Middle East*, 586.
- 30 McGhee, 371.
- 31 Leffler, 477.
- 32 Shuckburgh, 29.
- 33 PRO, WO 216/799.
- 34 Mason, 'The Decisive Volley &c.', *JICH*, 19, 50.
- 35 Heikal, 29-30.
- 36 Leffler, 484-5; Brands, 'The Cairo-Teheran Connection &c.', *IJMES*, 21, 446.

4: *Kick Their Backsides: The Suez War and Beyond*

- 1 Navias, *Nuclear Weapons and British Strategic Planning*, 42-3, 46.
- 2 Shuckburgh, 318-19, 329.
- 3 Horne, *Macmillan 1894-1956*, 395.
- 4 Shuckburgh, 327, 341.
- 5 *Ibid.*, 344.
- 6 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 490-91.
- 7 *Ibid.*, 491; *Times*, 1 January 1987.
- 8 Heikal, 187, 191.
- 9 Cohen, 'A Still Stranger Aspect &c.', *Int.HR*, 10, *passim*.
- 10 See page 271.
- 11 Wright, *Spycatcher*, 84-5.
- 12 Heikal, 154n., 215n.
- 13 *Ibid.*, 153 note 3.
- 14 Pearson, 19-20.
- 15 Shuckburgh, 163.
- 16 Shaffy, 'Unconcerned at Dawn &c.', *Intelligence and National Security*, 5, 10-11, 49.
- 17 *Ibid.*, 30.
- 18 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 493.
- 19 *Daily Telegraph*, 6 November 1956.
- 20 *New Statesman*, 15 December 1956.
- 21 *Hansard*, 5th Series, 559, 1631.
- 22 Horne, *Macmillan, 1894-1956*, 393.

- 23 *Hansard*, 5th Series, 559, 1618.
- 24 *Ibid.*, 1626; *New Statesman*, 17 November 1956.
- 25 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 504-6.
- 26 PRO, Adm 1/26826.
- 27 Cohen, 'A Still Stranger Aspect &c.', *Int.HR*, 10, 261.
- 28 S. Lloyd, *Suez*, 170-94.
- 29 Shaffy, 'Unconcerned at Dawn &c.', *Intelligence and National Security*, 5, 41, 56.
- 30 *Time*, 17 November, 1956.
- 31 *Spectator*, 9 November 1956.
- 32 *Observer*, 4 and 11 November 1956.
- 33 PRO, CO 1015/202, 1.

5: *The Old Red, White, and Blue: Reactions to a Dying Empire*

- 1 *Sunday Times Magazine*, 24 February 1963.
- 2 Nixon, 134.
- 3 PRO, CO 1027/317, 40, 43.
- 4 *Daily Telegraph*, 24 August 1956.
- 5 *Hansard*, 5th Series, 478, 2766.
- 6 *Daily Telegraph*, 17 July 1956.
- 7 Oliver, 'The Two Miss Perhams &c.', *JICH*, 19, 26.
- 8 Navias, 'Terminating National Conscription &c.', *JCont.H*, 24, 202.
- 9 *Times*, 2 April 1964.
- 10 I am indebted to Professor Fred Crawford for these details of the Lawrence-Aldington affair.
- 11 PRO, CO 1027/177, 1-3, 14-16.
- 12 *Listener*, 30 October 1969.
- 13 *Daily Telegraph*, 23 November 1967.
- 14 H. Thomas, *The Establishment*, 10-11, 19.
- 15 *Ibid.*, 187.
- 16 *Daily Telegraph*, 5 July 1956.
- 17 Richards and Aldgate, 158.

6: *Uhuru: Tying up Loose Ends, 1959-80*

- 1 *New Statesman*, 10 May 1963.
- 2 *Hansard*, 5th Series (House of Lords), 229, 305, 431.
- 3 *New Statesman*, 10 May 1952.
- 4 Mboya, 64.
- 5 PRO, CO 822/474, 20.
- 6 PRO, CO 1015/463 (Report April 1953).
- 7 *Southern Rhodesia: Facts and Figures &c.*, 1, 13.
- 8 *Listener*, 31 July 1969.
- 9 *New Statesman*, 30 January 1956.
- 10 Darwin, 'The Central African Emergency &c.', *JICH*, 21, 223-4.
- 11 *Hansard*, 5th Series, 602, 1506.
- 12 *Ibid.*, 1509-10.
- 13 Horne, *Macmillan*, 1957-1986, 181.
- 14 *Hansard*, 5th Series, 610, 237.
- 15 *Ibid.*, 422-3.

- 16 *Ibid.*, 426.
- 17 Horne, *Macmillan, 1957-1986*, 181-2.
- 18 McCracken, 'Coercion and Control &c.', *JAH*, 27, 141.
- 19 Fisher, *Iain Macleod*, 160, 163.
- 20 Horne, *Macmillan, 1957-1986*, 187-8.
- 21 *Ibid.*
- 22 *Sunday Times Magazine*, 3 June 1962.
- 23 Caute, 88.
- 24 *Hansard*, 5th Series, 229, (House of Lords), 401, 409-10.
- 25 Pimlott, 270.
- 26 *Listener*, 5 December 1968.
- 27 Pimlott, 451.
- 28 Caute, 90.
- 29 *Sun*, 15 November 1965.

7: *Unfinished Business, 1979-98*

- 1 *The Times*, 27 June 1997.
- 2 Clarke, 'Constraints &c', *Defense Analysis*, 14, 70.
- 3 Thatcher, 162, 164.
- 4 *Hansard*, 6th Series, 21, 638.
- 5 *Sunday Times*, 2 May 1982.
- 6 Private information.
- 7 Thatcher, 235.
- 8 *International Security*, 20 (4), 119.
- 9 Cable and Ferdinand, 'China &c', *Foreign Affairs*, 70, ii, 253.
- 10 I am indebted to Jonathan Fenby for this point.
- 11 I am indebted for this point and much else that follows to Lord Wilson of Tillyorn.
- 12 *The Times*, 8 June 1989.
- 13 *Hansard*, 6th Series, 154, 364-5.
- 14 *Ibid.*, 164, 368, 374.
- 15 *New Statesman*, 16 June 1989.
- 16 *The Economist*, 16 December 1989.
- 17 Dimpleby, 2; private information.
- 18 *Ibid.*, 14.
- 19 *The Times*, 7 June 1997.
- 20 I am indebted to Jonathan Fenby for this point.
- 21 *The Times*, 25 May 1998.
- 22 *Sunday Times*, 1 September 1996.

ملحق الصور



١- فيرجينيا جولد: هندی يستمتع بالغيلون المملوء بالتبغ وهى سلعة سوف تغزو بسرعة مستعمرة فيرجينيا وبريطانيا، ١٦٢٣، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



٢- منشأة ثروة الهند الغربية: صاحب مزرعة يناقش إنتاجيتها مع المشرف، بينما يجنى عبيده محصول قصب السكر، ١٨٣٠، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



٣ موطى قدم فى أمريكا، قلعة فى تشارلستون، جنوب كارولينا تحجز الهنود فى أحد الخلعان، بينما تحمل سفن التجار شحنات من القطن المحلي، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



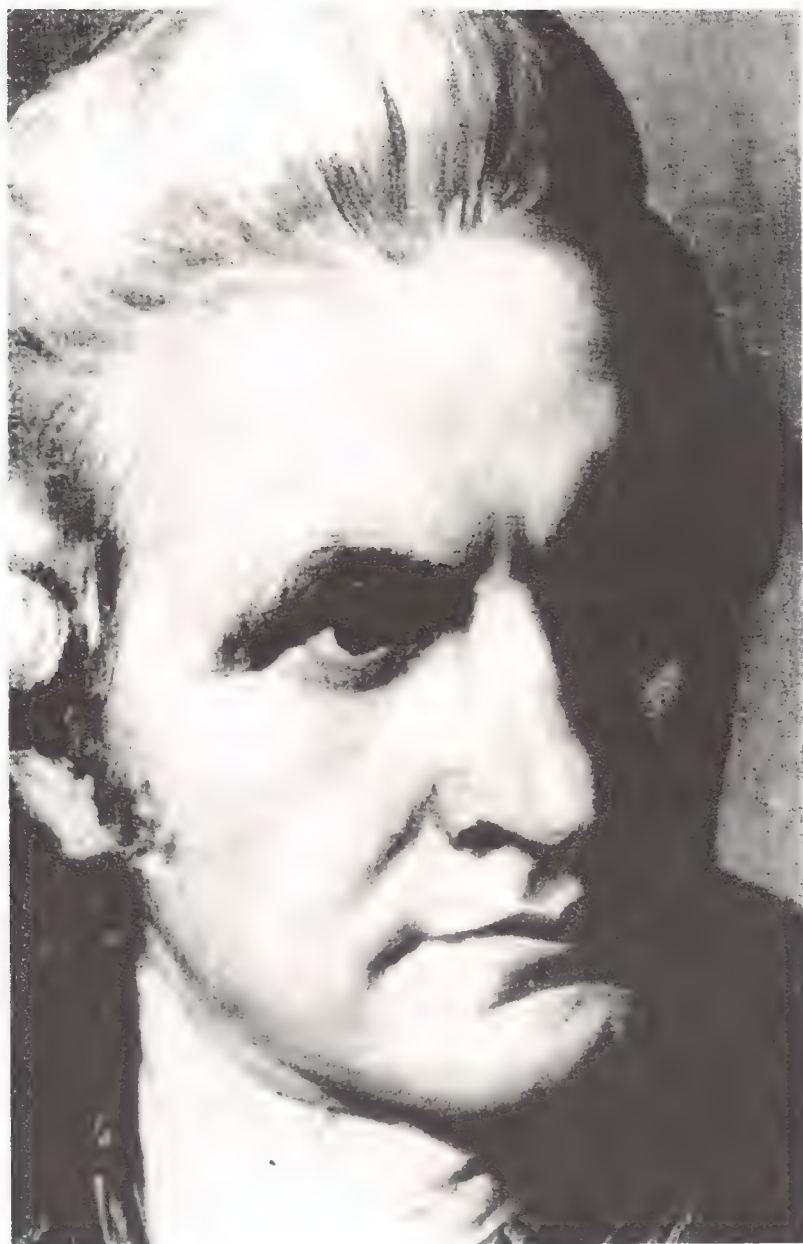
٤- أدميرال الملكة ان يستعد لمحاربة الفرنسيين مرة ثانية باعتباره أحد رجال الحرب، بيتر نيوارك، صورة تاريخية.



٥- ضياع إمبراطورية: الجنرال بروجون يستسلم بجيشه، وفرص البريطانيون لسحق المستعمرين الأمريكيين، ساراتوجا، ١٧٧٧، هولتن دويتش.



٦- انتصار إمبراطورية: روبرت كلايف يقبل استسلام ميرجافير بعد معركة بلاسي، البنغال، ١٧٥٧، صورة توفان.



٧- الباحث عن إمبراطورية، جيمس كوك، هولتن دويتش.



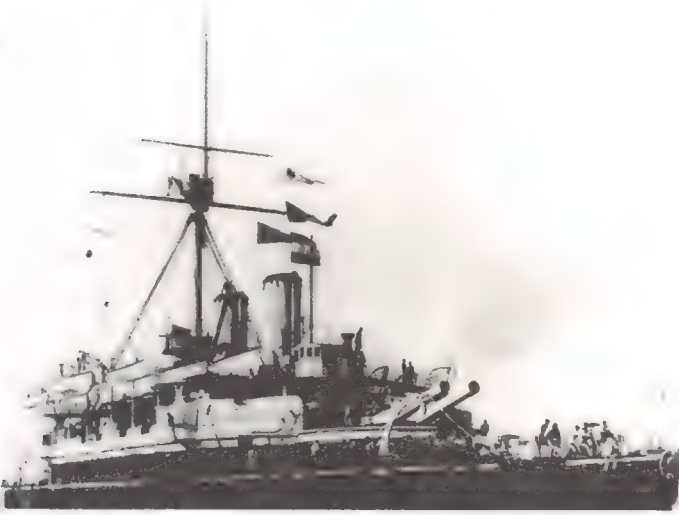
٨- فى عين القرصنة ر. ن، سفن التجديف البخارية، وهبوط مجموعات للهجوم على قرية القراصنة، نورث بونيو، ١٨٤٥، مجموعة المؤلف الخاصة.



٩- حياة مهاجر، أحد حفارى الذهب وعائلته تستعد للبحث عن حياة جديدة وربما الثروة، حقول ذهب ملبورن، ١٨٥٣، مجموعة المؤلف الخاصة.



١٠- قيادة أعالي البحار، سيادة كالبسو وسفينة أخرى ترفع أشرعتها، ١٨٨٠، المقابض الحديدية تعتمد على الشراع والبخار المنتشر حول العالم، وتشرف على المصالح البريطانية، وكانت المدينة دليلاً على أن بريطانيا تتحكم وتسير البحار، متحف الحرب الإمبريالي.



١١- سفينة سيادة كامبردون، ١٩٠٠، عرض لمثل هذه القوة، والمعركة الحربية تسيطر على ادعاءات بريطانيا كقوة عالمية، ولكن تبني بشكل كاف لمنع المنافسين، إلا أنه صار عبثاً، متحف الحرب الإمبريالي.

١٢- أبطال الإمبراطورية، تشارلز موردون
الشهيد المحارب في الخرطوم في
زى رسمى لجنرال مصرى، هولتون
ديوتش.



١٣- الباقون على قيد الحياة من ردف ت برك، يقفون بعد معركتهم الملحمية ضد
قبائل الزولو، ١٨٧٩، مكتب وزارة الخارجية والكومنولث.

١٤- صور الغزو، انتكاسة حرب
أفغانستان، ١٨٧٩، ميدالية توضح
مدفعًا يحمله الفيلة ويحرسه الرماة
مرتدين القبعات، حرب البوير
١٨٩٩، وميدالية أخرى توضح
بريطانيا وهي تمسك بأكاليل لرجال
الإمبراطورية المحاربين. مجموعة
المؤلف الخاصة.



Pattison's WHISKY
Victorious all along the line



١٥- روح الإمبراطورية: صب الويسكى بعد الانتصار الحديث في أم درمان
عام ١٨٩٨، مجموعة المؤلف الخاصة.



١٦- جاك تارت يحرك جهاز بندقية على الثوار المصريين في شوارع الإسكندرية
١٨٨٢، مجموعة المؤلف الخاصة.



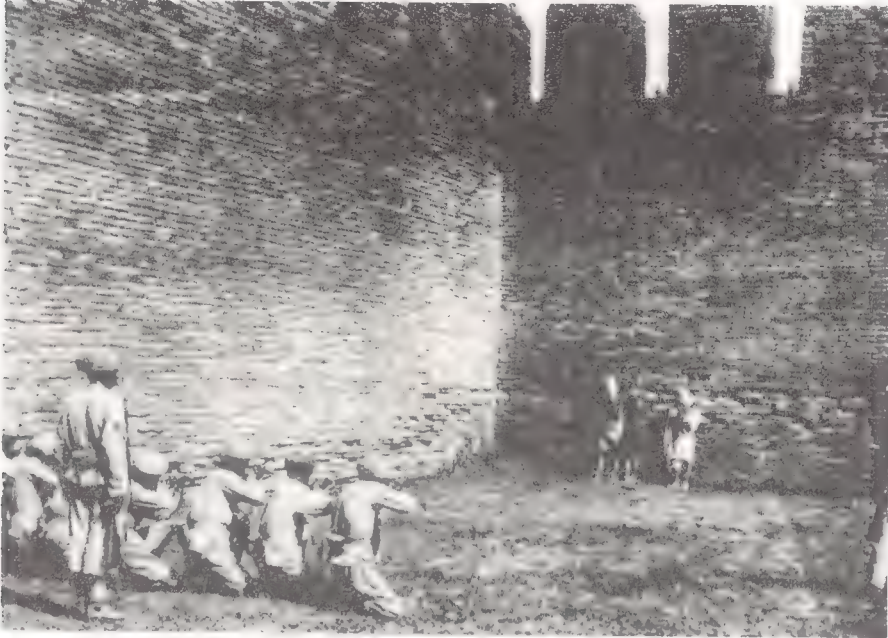
١٧- بحثة التمدين، نظرة سخرية في المستقبل مع كوماس غانا تحولت إلى حي بريطاني معاصر بعد غزو لها
 عام ١٨٩٥، مجموعة المؤلف.



١٨- بوليس شركة جنوب أفريقيا البريطانية يركب في مدينة دنبيلى ١٨٩٦، صور كهذه أظهرت الاحتجاج ضد الاستعمار البريطاني، مجموعة المؤلف.



١٩- الداكوت يلفون برجال المشاة - بورما ١٨٨٥، المكتبة البريطانية.



٢٠- الجلاء من بورما ١٨٨٥، المكتبة البريطانية.



٢١- خدم الرجال، اثنان من الأسياد الهنود يستعدون لممارسة تدريب على ظهر الحصان، بينما تناول ثالث الشاي، ويحيط به خدم مستعدون لتلبية احتياجاتهم ١٩٨٠، صور مكتبة بارنياي.



٢٣- مساهيس يقوم بزيارة - عربة تحمل ثلاث نساء في جولة اجتماعية، سيلان ١٩٢٥، مصدر تصوير توبهام.



٢٣- الملك الإمبراطور جورج الخامس يستريح بعد تنويعه فى دربان بطريقة المغول السابقين عام ١٩١٢، صور تاريخية من بيتر نيوارك.

٢٤- أنجلوس أكسون، منطوعون للبحث عن البوير، جنوب أفريقيا ١٩٠٠، متحف الحرب الإمبريالي.





٢٥- عربة مدرعة رولزرايس تسير في طريق، مصرى كعضو من طبقة الأفندية ١٩٣٦.



٢٦- إنجلترا فى الهند، صيد الميسور مع الهنود فى ١٩٦٣.



٢٧- السود والتانز والبوليس المساعد يمرون فى شارع إيرلندى، بينما النساء
تتظر بعصبية من النوافذ.



٢٨- عرب ينتظرون التفتيش من الجنود البريطانيين عام ١٩٣٨ في القدس.



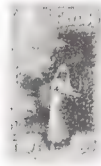
٢٩- النواب والنائبات الهنود في زي رسمي عام ١٩٢٣.



٣٠- المهاتما غاندى فى زى المزارع الرسمى، يحضر مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ١٩٣١، وكان مظهره قد أثار غضب تشرشل.



٣١- أفريقيا تكرم أمير ويلز، وإدوارد الثامن يجلس محاطا بأبهة الرئيس الأعلى، جنوب أفريقيا، ١٩٢٥، هولتون دويتس.



٣٢- صور إمبراطورية، طوابع بريد ملكية لثلاثينيات القرن العشرين، وأربعينياته تحتفل بالمناسبات الملكية وتعلن عن التاريخ الطبيعي للإمبراطورية، مجموعة المؤلف الخاصة.



٣٣- آسيا للأسيويين، بورما تحيي رجال مشاة اليابان كمحررين ١٩٤٢، وتحول التهليل إلى دموع عندما اكتشف البورميون أن حكامهم الجدد أشد قسوة من البريطانيين.



٣٤- انهزم الغزاة: أسرى يابانيون من سجن شنغهاي يعرضون أنفسهم أمام الضابط البريطاني، سنغافورة ١٩٤٥.



٣٥- ذراع الانتقام للإمبراطورية، قاذقات القنابل تطير فوق مصر في عام ١٩٣٦ وهو منتصر مرعب بين الآخرين، ناصر الصغير.



٣٦- الإمبراطورية تترنج: المدمرة برنس أف ويلز تصل إلى سنغافورة عام ١٩٤١م.



٣٧- المحتجون الهنود ضد بريطانيا - بيتزنيوارك - صور حربية.



٣٨- مؤسسة الكومنولث: الطراد الكندي أوغنده.



٣٩- المنافسون: الكولونيل ناصر والسير أنتوني إيدن في عام ١٩٥٤، وكلاهما
يعتقد أن وطنه سوف يسيطر على الشرق الأوسط.



٤٠- المستمعون يتجاوبون، مظاهرات حسب تقاليد راديكالية ضد الاستعمار، على مدى أكثر من مائة عام.



٤١- تونى بن ينتظر دوره للحديث فى ميدان الطرف الأغر، نوفمبر ١٩٥٦.



٤٢- العلم البريطاني ينزل من نيروبي- كينيا- الاستقلال ١٩٦٣.



٤٣- الملكة والأمير فيليب يزوران فيجي.

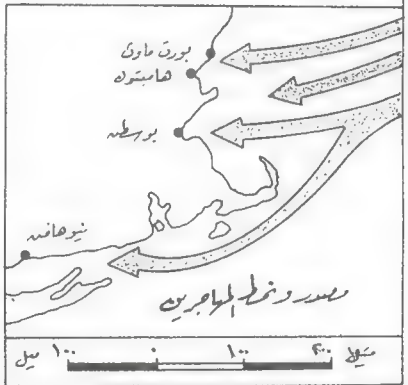


٤٤- مشهد من فيلم The Drum، مجموعة خاصة بالمؤلف.



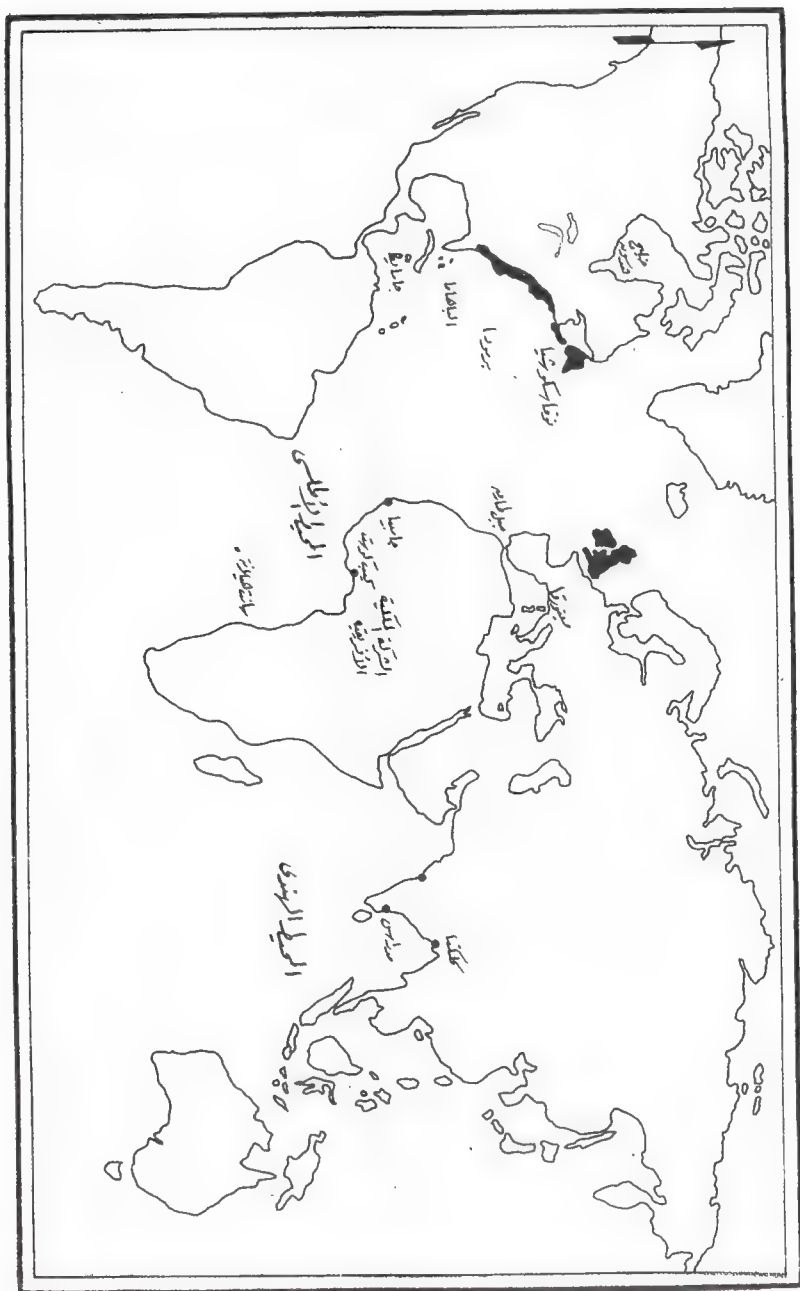
٤٥- مشهد من فيلم Novel Coward's - مجموعة خاصة بالمؤلف.

شکل رقم (۱)



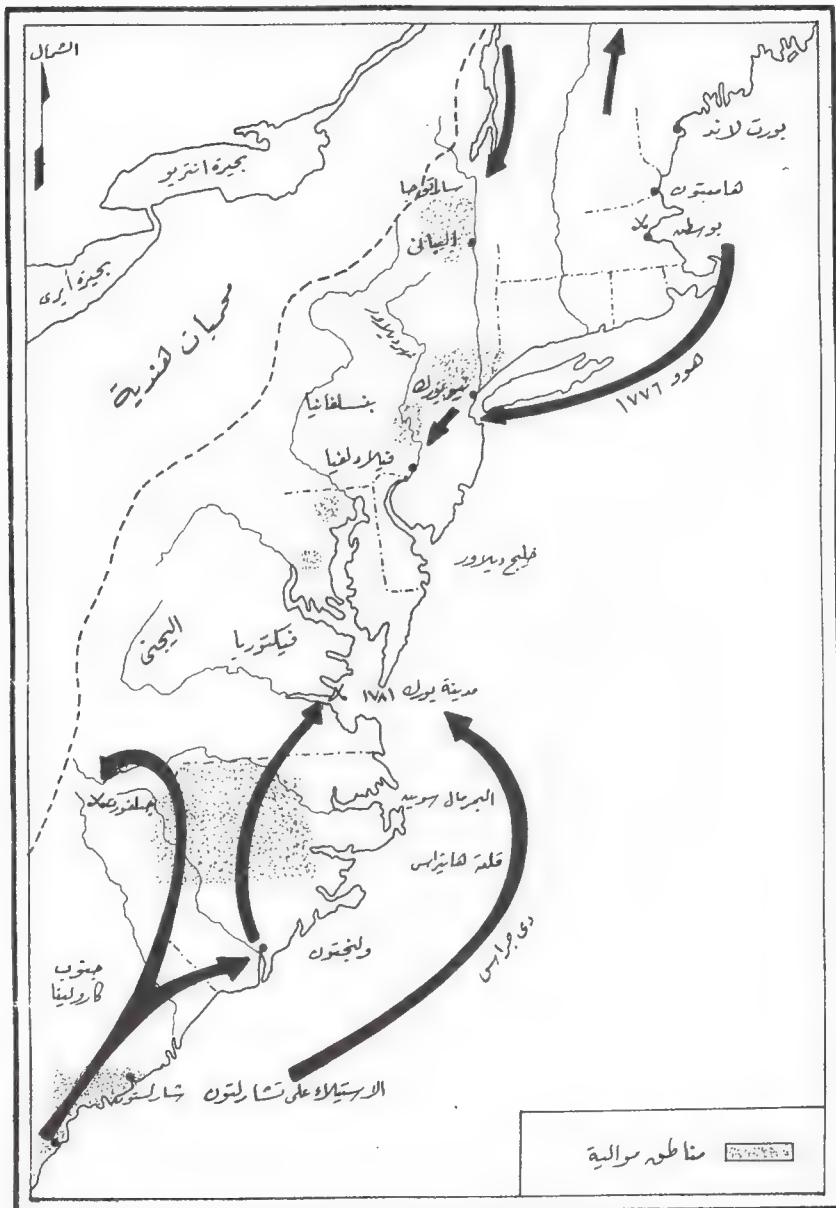
البريطانية البرطانية ١٧١٣

شكل رقم (٣)



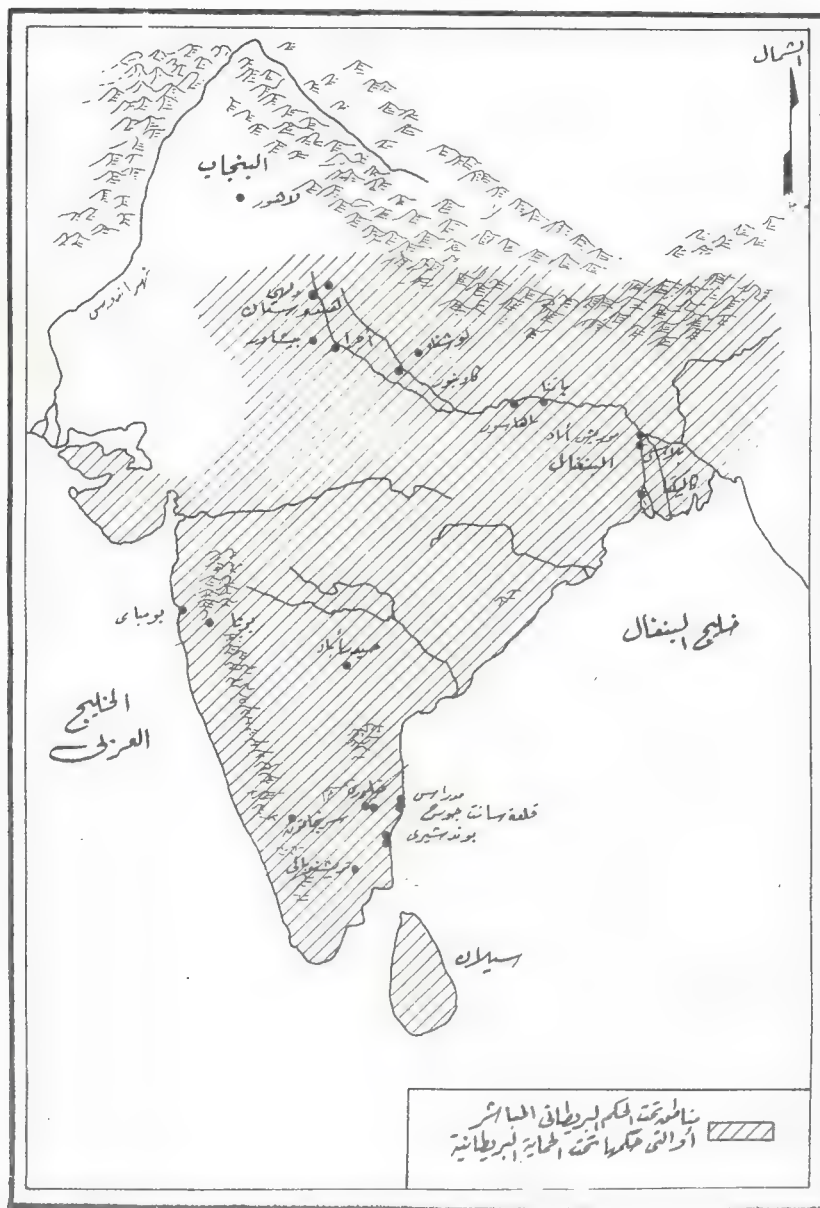
حرب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٦ - ١٧٨٣

شکل رقم (۵)



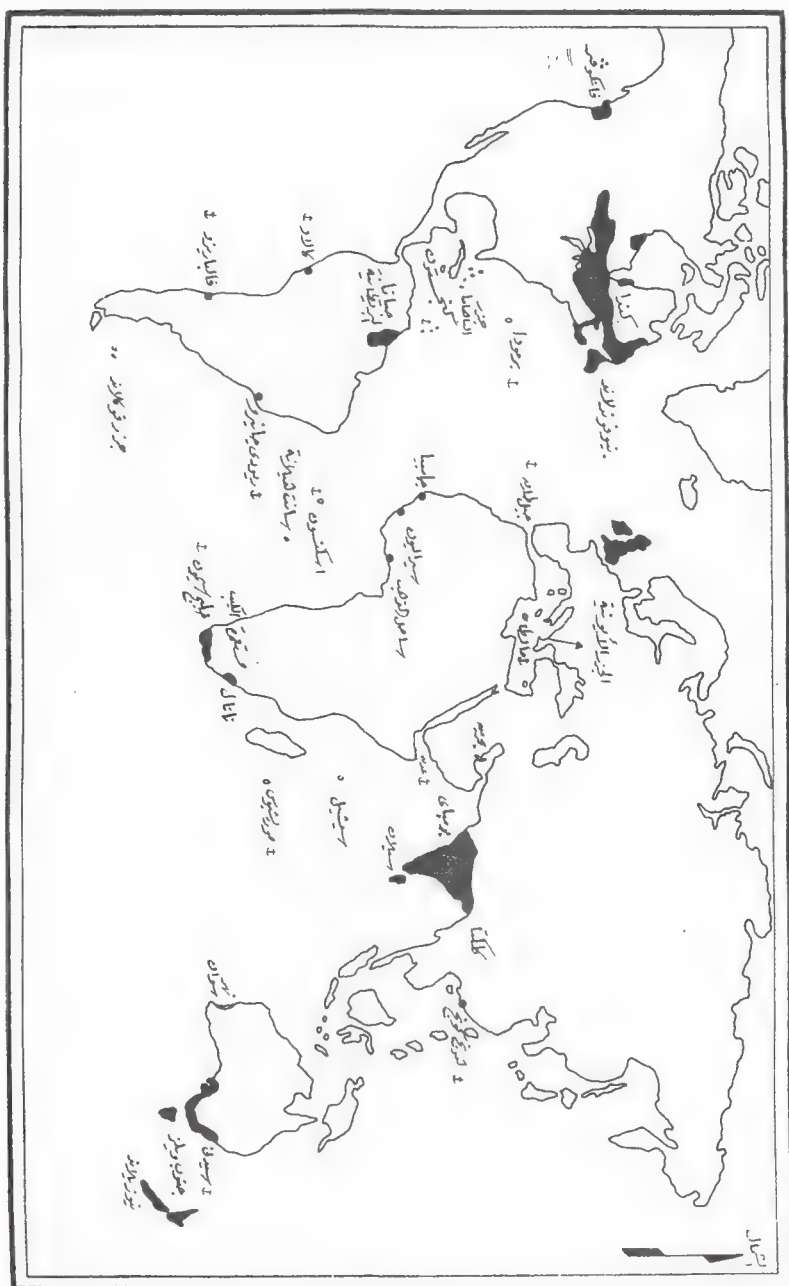
الهند في القرن الثامن عشر

شكل رقم (٦)



البحر الطرقة البرطانية ١٨٥٠

شكل رقم (٧)

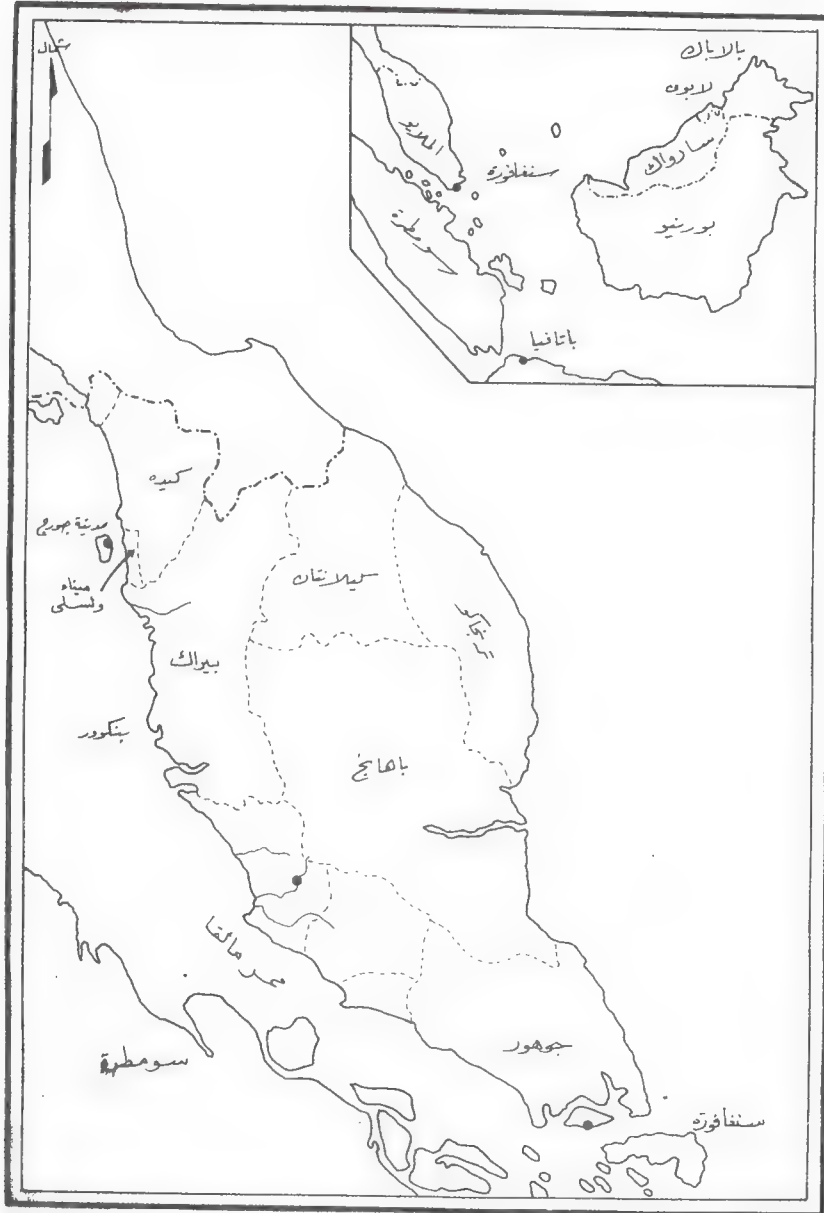


الصِّين ١٨٣٩ - ١٩٠٠

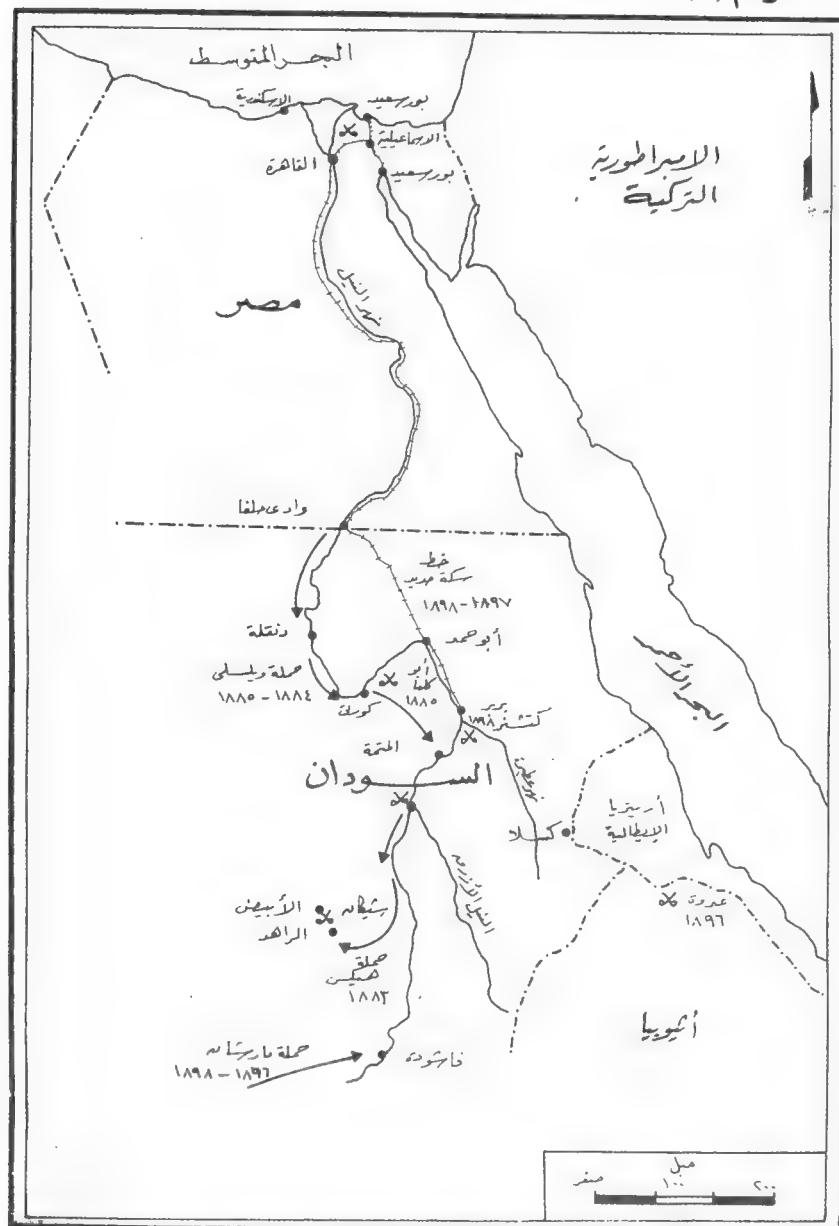


اللابوني (القرن التاسع عشر

شكل رقم (١٠)



وادی النيل ١٨٨٢ - ١٨٩٨
بمحرّم (١٢)



شبه أفريقيا في القرن التاسع عشر (شكل رقم ١٣)



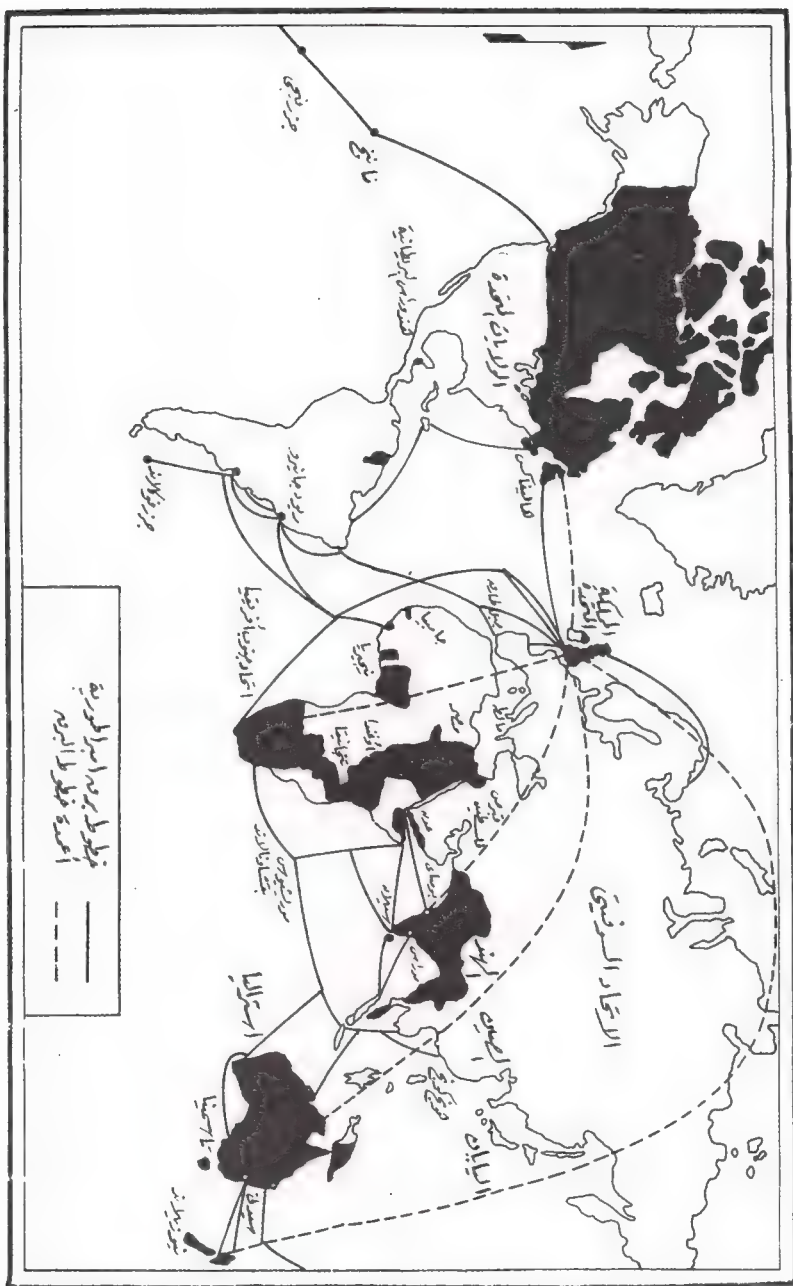
تقسيم أفريقيا ١٩١٤

شکل نم (۱۵)



البريطانية البحرية ورسالة المرساب ١٩٣٠

شكل رقم (١٧)



Bibliography

PRO	Public Record Office
RHL	Rhodes House Library
RUSI	<i>Royal United Services Institute Journal</i>
SRO	Scottish Record Office
WMQ	<i>William and Mary Quarterly</i>
WS	<i>War and Society</i>

Sources

Unpublished

India Office Library

Letters and Papers Military and Political

Imperial War Museum

Papers of Air-Marshal Sir Harold Lydford

Liddell Hart Centre for Military Archives

Papers of Brigadier-General Sir James Edmonds

National Army Museum.

Anon (Private of 5th Dragoon Guards and 11th Light Dragoons). *Memoirs*

Brigadier-General Sir Archibald Eden. *Diary*

Lieutenant William Fleming, 45th Regiment. *Letters*

Private John Mitchell, 58th Regiment. *Memoirs*

Surgeon Pine. *Diary*

Private J. C. Rose, 2nd Rifle Brigade. *Papers and Diary*

Major Stockwell. *Diary and Papers*

National Library of Scotland:

Papers of General Sir George Brown

Colin Campbell, 'Voyage of the Unicorn'

Papers of Admiral Sir Alexander Cochrane

Papers of Admiral Charles Graham

Papers and Diary of Field-Marshal Lord Haig

Papers of Major Alexander Murray

Papers of George Murray

Letters of Charles Cochrane, 4th Regiment (in Stuart-Stevenson Papers)

Papers of the Marquess of Tweeddale

Public Record Office:

Admiralty Adm 1, Adm 53; Adm 116; Adm 123; Adm 125

Air Ministry Air 5, Air 8; Air 9, Air 20; Air 24

Colonial Office CO 23, CO 123; CO 201; CO 227; CO 318; CO 773, CO 856, CO 874; CO 968; CO 1015; CO 1027; CO 1037

Home Office HO 51

Foreign Office FO 141; FO 195, FO 371; FO 406; FO 413; FO 848

War Office WO 1, WO 3, WO 32, WO 33; WO 86; WO 90; WO 92; WO 95; WO 208; WO 216

Rhodes House Library, Oxford

Papers of Captain Abadie

Scottish Record Office:

Clerk of Penycuik Papers

Dalrymple Papers

Dundonald Papers (Sudan Diary and Letters of Captain Lord Cochrane)

Logan Hume Papers

Lord Loch Papers

Lieutenant Colin MacKenzie, Letters

Lieutenant Stewart Mackenzie, Letters

Captain John Peebles, 42nd Regiment, Diary

General Robertson, Letters and Papers

Published

Magazines and Newspapers:

Africa; *The Anti-Jacobin*; *Asiatic Journal*; *Blackwoods Magazine*; *British and Foreign Review*; *Coburn's United Service Magazine*; *Contemporary Review*; *Daily Express*; *Daily Graphic*; *Daily Herald*; *Daily Mail*; *Daily Telegraph*; *Edinburgh Review*; *Foreign Affairs*; *Fortnightly Review*; *The Graphic*; *Harpers*; *Illustrated London News*; *Imperial Commerce and Affairs*; *The Independent*; *Journal of the Royal Africa Society*; *The Listener*; *London Magazine*; *Manchester Guardian*; *Morning Post*; *National Geographic Magazine*; *National Review*; *New Statesman*; *Nineteenth Century*; *Nineteenth Century and After*; *The Observer*; *Picture Post*; *Private Eye*; *Quarterly Review*; *Review of Politics*; *Round Table*; *Saturday Review*; *Spectator*; *Sphere*; *Standard*; *Sun*; *Sunday Times*; *Time*; *The Times*.

Articles and Books (all published in London unless stated otherwise):

- D. Acheson, *Present at the Creation: My Years at the State Department* (1970).
C.A. Ageron, 'Les Populations du Maghreb face à la Propagande Allemande', *Revue d'histoire de la Deuxième Guerre Mondiale*, 114 (1979).
R.G. Albion, 'The Timber Problem of the Royal Navy', *MM*, 38 (1952).
M. Alston (Mrs Conyers Alston), 'Women and the Overseas Empire', *National Review*, 79 (1917).
R.D. Altick, *The Shows of London* (Cambridge, Mass., 1978).
R. von Albertini and A. Wirz, *European Colonial Rule: the Impact of the West on India, South East Asia and Africa*, trans. O.G. Williamson (Oxford, 1982).
R.J. Aldrich, 'Conspiracy or Confusion? Churchill and Roosevelt and Pearl Harbour', *Intelligence and National Security*, 7 (1992).
L.S. Amery, *My Political Life, I: England before the Storm, 1896-1914* (1953).
———, *The Leo Amery Diaries, I: 1896-1929*, ed. J. Barnes and D. Nicholson (1980).
E. Ames, *An ABC for Baby Patriots* (1898).
K.R. Andrews, *Elizabethan Privateering: English Privateering during the Spanish War, 1585-1603* (Cambridge, 1964).
Anon, Review of R. Perceval, *An Account of the Island of Ceylon*, *Edinburgh Review*, 2 (1803).
Anon, *A Concise History of the English Colony in New South Wales from the Landing of Governor Philip in January 1788 to May 1803* (1804).

- Anon, *Review of A. von Humbolt, Tableaux Physiques des Régions Equatoriales*, *Edinburgh Review*, 16 (1810).
- Anon, 'Transactions of the Missionary Society in the South Sea Islands', *Quarterly Review*, 2 (1811).
- Anon, *Slavery No Oppression, or Some New Arguments and Opinions Against The Idea of Africa Liberty*, (n.d. . 1815-20).
- Anon, 'Emigration to the Cape of Good Hope', *Blackwoods Magazine*, 15 (1819).
- Anon, (A Field Officer of Cavalry) (Digby Macworth) *The Diary of a Tour through Southern India, Egypt and Palestine in the Years 1821 and 1822* (1823).
- Anon, 'A Convict's Recollections', *London Magazine*, 2 (1825).
- Anon, 'The Invasion of India', *Blackwoods Magazine*, 22 (1827).
- Anon, (Madras Officer) *A Sketch and Review of Military Service in India* (Glasgow, 1833).
- Anon, (Citizen of Edinburgh) *Journal of an Excursion to the United States and Canada in the Year 1834: With Hints to Emigrants &c.*, (Edinburgh, 1835).
- Anon, 'The Battle of Chillianwalla', *Colburn's United Service Magazine* (1850 Pt.3).
- Anon, (9176 IV) (P. Sturrock) *The Fifes in South Africa: Being the History of the Fife and Forfar Yeomanry in the South African War, 1900-1901* (Cupar, Fife, 1903).
- Anon, 'The British and the German Fleets', *Fortnightly Review*, New Series, 77 (1905).
- Anon, 'The Native and the Settler and the Administration in British East Africa', *Contemporary Review*, 118 (1920).
- Anon, *The Road to War* (Left Book Club, 1937).
- Anon, *Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946* (1947).
- J.C. Appleby, 'An Association for the West Indies? English Plans for a West India Company', *JICH*, 15 (1987).
- M. Archer, *India and British Portraiture* (1979).
- S.K.B. Asante, *Pan-African Protest: West Africa and the Italo-Ethiopian Crisis, 1934-1941* (1977).
- B. Ash, *The Lost Dictator: A Biography of Field-Marshal Sir Henry Wilson* (1961).
- C. Atkinson, *The Emigrants Guide to New Brunswick, British North America* (Berwick-on-Tweed, 1842).
- E. Atiyah, *An Arab Tells His Own Story: A Study in Loyalties* (1946).
- R. Attwood, *The Hessians: Mercenaries from Hessen-Kassel in the American Revolution* (Cambridge, 1980).
- B. Bailyn, *The Peopling of British North America: An Introduction* (1986).
- B. Bailyn and B. de Wolfe, *Voyages to the West* (1986).
- The Endeavour Journal of Joseph Banks*, ed. J.C. Beaglehole (2 vols, 1962).
- J.P. Barber, 'The Karamoja District of Uganda', *JAH*, 3 (1962).
- J. Barker, 'The Diary of Lieutenant John Barker, November 1774 to May 1776', *JS:HR*, 7 (1928).
- C. Barnett, *The Collapse of British Power* (Gloucester, 1984 ed.).
- Real Old Tory Politics: The Political Diaries of Sir Robert Sanders, Lord Bayford*, ed. J. Ramsden (1984).
- C.E.W. Bean, *Official History of Australia in the War of 1914-1918*, 1 and 2 (Sydney, 1938 and 1940).
- The Beatty Papers, 1 (1902-1918)*, ed. B.Mcl. Rault (Navy Records Society, 1989).
- H. McD. Beccles, 'A notorious unruly lot: Irish Indentured Servants and Freemen in the English West Indies, 1644-1714', *WMQ* 47 (1990).
- H.R. Beddoes, *Report on the Military Operations in Ashanti, 1900* (1901).

- G. Bell, *From Amurath to Amurath* (1910).
- C. Beresford, *The Memoirs of Lord Charles Beresford* (2 vols, 1914).
- C. Berger, *Broadsides and Bayonets: The Propaganda War of the American Revolution* (Philadelphia 1961).
- H. Bindloss, *In Niger Country* (1897).
- J. Binney, *The Legacy of Guilt: A Life of Thomas Kendall* (1968).
- M.B. Bishku, *The British Empire and the Question of Egypt's Future, 1919-1922* (Ann Arbor, 1988).
- J. Black, 'Anglo-Spanish Naval Relations in the Eighteenth Century and the Anglo-Spanish Naval Race', *MM*, 77 (1991).
- J. Black and P. Woodfine ed., *The British Navy and the Use of Naval Power in the Eighteenth Century* (Leicester, 1988).
- R. Blake and W.R. Louis, ed., *Churchill* (Oxford, 1988).
- W. Bligh, *A Voyage to the South Seas Undertaken by the Command of His Majesty for the Purpose of Conveying the Bread-Fruit Tree to the West Indies in His Majesty's Ship the Bounty* (1792).
- W.S. Blunt, *Secret History of the English Occupation of Egypt* (New York, 1967 ed.).
- Hoscauwen's Letters to his Wife, 1755-1756, ed. P.K. Kemp, in *Naval Miscellany 4* (Navy Record Society, 1952).
- G. Bouchier, *Eight Months Campaign against the Bengal Sepoy Army during the Mutiny of 1857* (1858).
- F. Bourne, 'Rorke's Drift' ('I was there'), *Listener*, 30 December 1936.
- John Bowle, *The Imperial Achievement: The Rise and Transformation of the British Empire* (1974).
- T. Bowrey, *A Geographical Account of the Countries around the Bay of Bengal, 1669-1679* (Hakluyt Society, 1905).
- A. Boyle, *Trenchard: Man of Vision* (1962).
- H.J. Brands, 'The Cairo-Teheran Connection in Anglo-American Rivalry in the Middle East', *Int. HR*, 11 (1989).
- Lord Brassey, 'The Diamond Jubilee in Victoria', *Nineteenth Century*, 42 (1897).
- J.S. Bratton, R.A. Cave, B. Gregory, H.J. Holder and M. Pickering, *Acts of Supremacy: The British Empire and the Stage, 1790-1930* (Manchester, 1991).
- H.H. Breen, *St Lucia: Historical and Statistical Description*, (1844).
- British Parliamentary Papers: Industrial Revolution, I (Trade)* (Shannon, 1968).
- British Parliamentary Papers: Colonies I (Report of the Select Committee on Ceylon and British Guiana)* (Shannon, 1968).
- The British Way* (Directorate of Army Education, 1944).
- C. Brooke, *Ten Years in Sarawak* (2 vols, 1856).
- J. Brown, *An Estimate of the Manners and Principles of the Times* (1757).
- N.J. Brown, *Peasants Against the State: The Political Activity of the Egyptian Peasantry, 1882-1952* (Ann Arbor, 1988).
- W.H. Brown, *On the South African Frontier* (Bulawayo, 1970 ed.).
- R. Buchanan, 'The Voice of the Hooligan', *Contemporary Review*, 76 (1899).
- R.N. Buckley, 'The Destruction of the British Army in the West Indies, 1793-1815: A Medical History', *JSAHR*, 56 (1978).
- J. Burchett, *Memoirs of Transactions at Sea during the War with France beginning 1688 and ending in 1700* (1703).
- The Correspondence of Edmund Burke*, V (Oxford, 1965).
- W. L. Burn, *The Age of Equipose* (1968 ed.).
- B.C. Busch, *Britain, India and the Arabs* (Berkeley, Calif., 1971).

- J. Butler, 'The German Factor in Anglo-Transvaal Relations', in ed. Gifford and Louis, *Britain and Germany in Africa*.
- V. Cable and P. Ferdinand, 'China as an Economic Giant: Threat or Opportunity?', *Foreign Affairs*, 70, 2 (1994).
- The Diaries of Sir Alexander Cadogan, 1938-1945*, ed. D. Dilks (1971).
- P.J. Cain and A.G. Hopkins, 'The Political Economy of British Expansion Overseas', 1750-1914 *Ec.HR*, 33 (1980).
- Calendars of State Papers, America and the West Indies, 1574-1738* (44 volumes, 1860-1969).
- R.M. Calhoun, *The Loyalists in Revolutionary America, 1760-1781* (New York, 1965).
- C.E. Callwell, *Field-Marshal Sir Henry Wilson, his Life and Diaries* (2 vols, 1927).
- Canada Today* (1927).
- L.G. Carr and L.S. Walsh, 'The Planter's Wife: The Experience of White Women in Seventeenth Century Maryland', *WMQ*, 24 (1977).
- A. Cassels, 'Deux Empires face à face: La chimère d'un rapprochement anglo-italien (1936-1940)', *Guerres Mondiales et Conflits Contemporains* 161 (January 1991).
- B. Castle, *Fighting All the Way* (1993).
- D. Caste, *Under the Sun: The Death of White Rhodesia* (1983).
- J. Chamberlain, 'A Bill for the Weakening of Britain', *Nineteenth Century* 33 (1893).
- M. E. Chamberlain, 'The Alexandria Massacre of 11 June 1882 and the British Occupation of Egypt', *MES*, 13 (1977).
- George Chapman, Ben Jonson and John Marston, *Eastward Ho*, ed. R.W. Fossen (Manchester, 1979).
- J. Charmley, *Lord Lloyd and the Decline of Empire* (1987).
- Chambers Information for the People* (1842).
- N. Chauduri, *Clive of India* (1975).
- E. Childers, *In the Ranks of the CIV* (1901).
- I. Clark and N.J. Wheeler, *The Origins of British Nuclear Strategy, 1945-1955* (Oxford 1989).
- M. Clark, 'Constraints on United Kingdom Foreign and Defense Policy', *Defense Analysis*, 14, i (1998).
- The American Revolution: Sir Henry Clinton's Narrative of his Campaigns, 1775-1782*, ed. W.B. Willcox (Yale, 1954).
- W.L. Clowes, *The Royal Navy from Ancient Times* (7 vols, 1897-1903).
- A.J. Cobham, *My Flight to the Cape and Back* (1926).
- S.A. Cohen, 'A Still Stranger Aspect of Suez: British Operational Plans to Attack Israel', *Int.HR*, 10 (1988).
- S. Cohen, 'Mesopotamia and British Strategy, 1903-1914', *IJMES*, 9 (1978).
- (Lt. Collins) *A Concise History of the English Colony of New South Wales* (1803).
- R.O. Collins, *Shadows in the Grass: Britain and the Southern Sudan, 1918-1956* (1983).
- Congress Responsibility for the Disturbances* (New Delhi, 1943).
- S. Constantine, ed. *Emigrants and Empire: British Settlement in the Dominions Between the Wars* (Manchester, 1990).
- Constitutional Relations between Britain and India: The Transfer of Power, 1942-1947*, ed. N. Mansergh and E.W.E. Lamby (12 vols, 1970-1987).
- S. Conway, 'British Army Officers and the American War of Independence', *WMQ*, 41 (1984).
- _____, 'The Recruitment of Criminals into the British Army', *BIHR*, 58 (1985).
- D. Cooper, *Old Men Forget* (1953).

- The Cornwallis Correspondence*, ed. J. Ross (3 vols, 1859).
- The Letters and Prose Writings of William Couper, 1750–1781*, ed. J. King and C. Ryskamp (Oxford, 1979).
- N.F.R. Crafts, 'Industrial Revolution in England and France: Some thoughts on the Question, "Why was England First?"', *Ec.HR*, 30 (1977).
- Lord Cranworth, *Profit and Sport in British East Africa* (1919).
- The Crawford Papers: The Journal of David Lindsay, Twenty-Seventh Earl of Campbell and Tenth Earl of Balcarres*, ed. J. Vincent (Manchester, 1984).
- D. Cressy, 'A New Letter from America: Newfoundland in 1610', *MAJ*, 72 (1986).
- , *Coming Over: Migration and Communication between England and New England in the Seventeenth Century* (Cambridge, 1987).
- Lord Cromer, *England in Egypt* (2 vols, 1908).
- F. Crouzet, 'The Sources of England's Wealth: Some French Views on the Eighteenth Century', in ed. P.L. Cottrell and D.H. Aldcroft, *Shipping, Trade and Commerce* (Leicester, 1981).
- N. Cunard, 'On Colour Bar', *Life and Letters*, 32 (1942).
- H. Cunningham, 'The Language of Patriotism, 1750–1914', *History Workshop* 12 (1981).
- H.G. Dalton, *The History of British Guiana* (2 vols, 1855).
- M.W. Daly, *Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan, 1898–1934* (Cambridge, 1986).
- J. Darwin, 'The Central African Emergency, 1959', *JICH*, 21 (1993).
- A. Davin, 'Imperialism and Motherhood', *History Workshop*, 5 (1978).
- K.G. Davis, *The North Atlantic World in the Seventeenth Century* (Oxford, 1974).
- R. Davis, *The Rise of the English Shipping Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries* (1962).
- D. Day, 'Anzacs on the Run: The View from Whitehall, 1941–1942', *JICH*, 14 (1986).
- De Latocnaye, *Promenade autour de la Grande Bretagne* (Edinburgh, 1795).
- Lord Denman, *A Letter from Lord Denman to Lord Brougham on the Final Extinction of the Slave Trade* (1848).
- A. Desmond and J. Moore, *Darwin* (1992 ed.).
- Development and Welfare in the West Indies, 1940–1942* (1943).
- D.R. Devereux, 'Britain, the Commonwealth and the Defence of the Middle East, 1948–1956', *JCont. H*, 24 (1989).
- H.T. Dickinson, 'Popular Conservatism, Militant Loyalty, 1789–1815', in ed. H.T. Dickinson, *Britain and the French Revolution* (1989).
- J. Dimpleby, *The Last Governor* (1997).
- O.S. Djan, 'Drums and Victory: Africa's Roll Call to the Empire', *Journal of the Royal African Society*, 42 (1942).
- F.D. Djang, *The Diplomatic Relations between China and Germany since 1899* (Shanghai, 1936).
- Documents Concerning English Voyages to the Spanish Main, 1569–1580*, ed. I.A. Wright (Hakluyt Society, 1932).
- Documents of the American Revolution, 1770–1783* (21 vols, Shannon, 1972–81).
- Documents of British Foreign Policy, 1919–1939*, ed. W.N. Medlicott, D. Dakin and G. Bennett, 2nd Series, 18 (1980).
- Documents of Australian Foreign Policy, 1937–1949*, ed. R.G. Neale, P.G. Edwards and H. Kenoway (6 vols, Canberra, 1975–1983).

- D. Dodds, M. Giles, I. Orr-Ewing, M. Ross, P. Wall, *A Presence East of Suez* (1969).
- H.J. Dooley, 'Great Britain's "Last Battle" in the Middle East: Notes on Cabinet Planning during the Suez Crisis, 1956', *Int. HR*, 11 (1989).
- Captain Doveton, 'The Company's Troops', *AJ 3rd Series*, I (1843).
- _____, 'The Bangalore Conspiracy of 1832', *AJ 3rd Series*, II (1844).
- A. Draper, *The Amritsar Massacre: Twilight of the Raj* (1985 ed.).
- H.T.B. Drew, *The War Effort in New Zealand* (vol. 4 of the Official History, Auckland, 1923).
- T. Eddy and D. Shreuder, *The Rise of Colonial Nationalism* (Sydney, 1988).
- G. Edmondson, *A Narrative of Personal Adventures at Banda and elsewhere during the rebellion of 1857* (1858).
- H. Edwardes, *A Year on the Punjab Frontier, 1848-49* (2 vols, 1851).
- P. Edwards, 'The Australian Commitment to the Malayan Emergency, 1948-1950', *AHS*, 22 (1987).
- C.C. Eldridge, ed. *British Imperialism in the Nineteenth Century* (1984).
- The Papers of Dwight David Eisenhower: The War Years*, I, ed. A.D. Chandler, S.E. Ambrose, J.P. Hobbs, E.A. Thompson and E.F. Smith (Baltimore, 1970).
- Empire Day Book* (1912).
- K. Feilung, *The Life of Neville Chamberlain* (1946).
- J.R. Ferns, 'The Greatest Power on Earth' Great Britain in the 1920s', *Jnt. H*, 13 (1991).
- J.M. Fewster, 'Prize-Money and the British Expeditionary Force to the West Indies of 1793', *JICH*, 12 (1983).
- D.K. Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. R. Ovensdale, *The Foreign Policy of the British Labour Government*.
- H. Finber, *Rival Empires of Trade in the Orient, 1600-1800* (Minneapolis, 1976).
- First, Second and Third Reports for the Select Committee on Emigration from the United Kingdom* (Shannon, 1977).
- D.H. Fischer, *Albion's Seed, Four British Folkways in America* (Oxford, 1989).
- H.A.I. Fisher, 'Mr Lloyd George's Foreign Policy, 1918-1922', *Foreign Affairs* 1 (September, 1922).
- N. Fisher, *Iain Macleod* (1973).
- R. Fisher and H. Johnston ed., *Captain Cook and his Times* (Seattle, 1979).
- A.C. Flick, *Loyalism in New York during the American Revolution* (New York, 1901).
- G.E. Fox, *British Admirals and Chinese Pirates, 1823-1869* (1940).
- The Papers of Benjamin Franklin*, 17 (Yale, 1978).
- D. Fraser, *Impressions: Nigeria 1925* (1926).
- C.J. French, 'Productivity in Atlantic Shipping Industry', *JIDH*, 17 (1987).
- A.I. Friedberg, *Change, Assessment and Adaptation: Britain and the Experience of Relative Decline, 1895-1905* (Ann Arbor, 1987).
- A. Frost, 'New Geographic Perspectives and the Emergence of the Romantic Imagination', in ed. Fisher and Johnston, *Captain Cook and his Times*.
- I.W. Fuchser, *Neville Chamberlain and Appeasement: A Study in the Politics of History* (Ann Arbor, 1982).
- J. Fuller, *Troop Morale and Popular Culture in British and Dominion Armies* (Oxford, 1990).
- F. Furedi, 'Creating a Breathing Space: The Political Management of Colonial Emergencies', *JICH*, 21 (1993).

- R. Furse, *Aniparus: Recollections of a Recruiting Officer* (Oxford, 1962).
- J.S. Galbraith, 'British War Aims in World War I: A Commentary on Statesmanship', *JICH*, 13 (1984).
- The Collected Works of Mahatma Gandhi*, (82 volumes, Delhi, 1958–80).
- N.G. Garson, 'South Africa and World War I', *JICH*, 8 (1979).
- D.B. Gaspar, 'The Antigua Conspiracy of 1736: A Case Study in the Origin of Collective Resistance', *WMQ*, 35 (1978).
- P. Gifford and W.R. Louis ed., *Britain and Germany in Africa*, (Yale, 1967).
- , *France and Britain in Africa*, (Yale, 1971).
- P. Gifford and T.C. Westell, 'African Education in a Colonial Context: French and British Styles', in ed. Gifford and Louis, *France and Britain in Africa*.
- M. Gilbert, *Winston S. Churchill* (6 volumes, 1966–1983).
- D. Gillison, *Royal Australian Air Force, 1939–1942*, (Australia in the War of 1939–1945, Series 3; I) (Canberra, 1962).
- W.E. Gladstone, *Speeches in Scotland* (3 volumes, Edinburgh, 1879–80).
- J. Goldberg, 'The Origins of British-Saudi Relations: The Anglo-Saudi Treaty Revisited', *HJ*, 28 (1985).
- H. Goldwin, *The Empire: A Series of Letters* (1862).
- J. Gooch, 'Hidden in the Rock: American Military Perception of Great Britain, 1919–1940', in ed. L. Freedman, P. Hayes and R. O'Neill, *Essays in Honour of Sir Michael Howard* (Oxford, 1992).
- S. Gopal, *British Policy in India* (Cambridge, 1965).
- D.C. Gordon, *The Dominion Partnership and Imperial Defence, 1870–1914* (Baltimore, 1965).
- B.M. Gough, *The Royal Navy and the Northeast Coast of North America, 1810–1914: A Study in British Maritime Supremacy* (Vancouver, 1971).
- R.J. Goven, 'British Legerdemain at the 1911 Imperial Conference: The Dominions, Defense Planning, and the Renewal of the Anglo-Japanese Alliance', *JMH*, 52 (1980).
- B.I. Grainger, *Political Satire in the American Revolution, 1763–1783* (Ithaca, NY, 1960).
- M. Green, *Dream of Adventure, Deeds of Empire* (1980).
- J. Greenhut, 'The Imperial Reserve: The Indian Corps on the Western Front, 1914–1915', *JICH*, 12 (1983).
- L.D. Gregg, 'Shipmasters in Early Barbados', *MM*, 77 (1991).
- W. Gregory, 'Egypt in the Soudan', *Nineteenth Century*, 17 (1885).
- The Grenville Papers*, ed. W.J. Smith (7 volumes, 1852).
- P. Griffiths, *To Guard My People: The History of the Indian Police* (1971).
- I.D. Gruber, *The Howe Brothers and the American Revolution* (Williamsburg, Va., 1972).
- J.I. Gurney, *A Warrior in the West Indies* (1840).
- J. Guy, 'A Note on Firearms in the Zulu Kingdom with special reference to the Anglo-Zulu War, 1879', *JAH*, 12 (1971).
- , *The Destruction of the Zulu Kingdom* (1979).
- D. Haglund, 'George C. Marshall', *JCom.H*, 15 (1988).
- A Handbook of the Anglo-Egyptian Sudan, 1922* (Naval Staff Intelligence Division, 1922).
- J.S. Handler and R.S. Corruccini, 'Plantation Slave Life in Barbados: A Physical Anthropological Approach', *JIDH*, 14 (1983).

- S. Hamid, *Disastrous Twilight: A Personal Record of the Partition of India* (1986).
- Lord Hankey, *The Supreme Command* (2 vols, 1961).
- G. Hanley, 'Bantu in Burma', *Spectator*, 19 January 1945.
- , 'Resettling the West African', *Army Quarterly*, 52 (1946).
- J.C. Hansard, *The Parliamentary History of England from the Earliest Period to the Year 1803* (36 volumes, 1806–1820).
- Hansard's Parliamentary Debates*.
- F. Harcourt, 'Disraeli and Imperialism, 1866–1868: A Question of Timing', *HJ*, 23 (1980).
- J.D. Hargreaves, *Decolonisation in Africa* (1988).
- J.H. Harris, 'Back to Slavery?', *Contemporary Review*, 120 (1921).
- J.P. Harris, 'British Military Intelligence and the Rise of German Mechanical Forces, 1929–1940', *Intelligence and National Security*, 6, ii (1991).
- B. Harrison, 'For Church, Queen and Family: The Girls Friendly Society, 1874–1920', *PP*, 61 (November 1973).
- R. Hart, *Slaves who Abolished Slavery. II (Blacks in Rebellion)* (Kingston, Jamaica, 1955).
- The Political Diaries of Oliver Harvey, 1937–1940*, ed. J. Harvey (1970).
- The Wartime Diaries of Oliver Harvey, 1937–1940*, ed. J. Harvey (1978).
- B. Hasluck, *The Government and the People 1939–1941* (Australia in the War of 1939–1945, Series 4, 1) (Canberra, 1956 ed.).
- R.G. Haycock, 'The "Myth" of Imperial Defence: Australian and Canadian Bilateral Military Cooperation, 1942', *WS* 2.1 (1984).
- S. Heap, 'The Development of Motor Transport in the Gold Coast, 1900–1939', *JTH*, 11 (1990).
- R. Heber, *Narrative of a Journey through the Upper Provinces of India* (2 vols, 1849).
- M.H. Heikal, *Cutting the Lion's Tail: Suez Through Egyptian Eyes* (1986).
- M.A. Henniker, 'Early Days in Pakistan', *RUSI*, 93 (1948).
- P. Hennessy, *Never Again* (1993 ed.).
- A. Hilgruber, 'England's Place in Hitler's Plans for World Domination', *JCont.H*, 9 (1974).
- ed. F. Hinsley and others, *History of the Second World War: British Intelligence in the Second World War* (5 vols, 1979–86).
- HMC, *Reports on the Manuscripts of Reginald Raudon Hastings Esquire* vols III (1903) and IV (1947).
- HMC, *Reports on the Manuscripts of Mrs Stopford-Sackville* (2 vols, 1904–10).
- HMC, *Reports on the Manuscripts of Earl Bathurst preserved at Cirencester Park* (1923).
- The History and Proceedings of the House of Commons from the Restoration to the Present Day* (14 vols, 1742–44).
- The History of the Bermudas or Summer Islands*, ed. J.H. le Froy (Hakluyt Society, 1882).
- E.J. Hobsbawm, *The Age of Empire* (1986).
- C. Hollis, 'Chamberlain's Policy', *Review of Politics*, 1 (1939).
- P.M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan, 1881–1898* (Oxford, 1958).
- H.D. Hooper, *Leading Sinners: National Development and Missionary Education in Kenya Colony* (1921).
- A.G. Hopkins, 'The Victorians and Africa: A Reconsideration of the Occupation of Egypt', *JAH*, 27 (1986).
- D. Hopwood, *Tales of Empire: The British and the Middle East, 1880–1952* (1989).
- A. Horne, *Macmillan, 1884–1956* (1988).
- , *Macmillan, 1957–1986* (1989).

- S. Hornstein, *The Deployment of the Navy in Peacetime, 1674-1688* (Leiden, 1986).
- House of Commons Sessional Papers of the Eighteenth Century, (George III: Quebec and New South Wales, 1791-1792) ed. Lambert (Wilnington, Delaware, 1975).
- G. Howe, *Conflict of Loyalty* (1994).
- I.C.Y. Hsü, *The Rise of Modern China* (Oxford, 1990 ed.).
- Hudson's Bay Company, *Letters Outward, 1688-1969*, Hudson's Bay Company Record Society, 20 (1957).
- Hudson's Bay Miscellany, 1670-1870, Hudson's Bay Company Record Society, 30 (1975).
- R. Hyam, 'Empire and Sexual Opportunity', *JICH*, 15 (1985).
- , 'The Political Consequences of Seretse Khama: Britain, the Bangwato and South Africa', *Hj*, 29 (1986).
- , *Empire and Sexuality* (Manchester, 1990).
- Lord Ironside ed., *High Road to Command: The Diaries of Major-General Sir Edmund Ironside, 1920-1922* (1972).
- R. Isaacs, *The Transformation of Virginia, 1740-1790* (Chapel Hill, North Carolina, 1982).
- C.L.R. James, 'A Century of Freedom', *The Listener*, 31 May 1933.
- L. James, *Mutiny* (1985).
- , *Imperial Rearguard* (1988).
- , *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia* (1990).
- , *Imperial Warrior: The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby* (1993).
- S.V. James, *Colonial Rhode Island: A History* (New York, 1975).
- A. Jayal, 'Towards the Baghdad Pact: South Asia and the Middle East Defence in the Cold War, 1947-1955', *Int. HR*, 11 (1989).
- K. Jeffrey, *The British Army and the Crisis of Empire* (Manchester, 1984).
- E.H. Jenkins, *A History of the French Navy* (1973).
- D.W. Jones, *War and Economy in the Age of William III and Marlborough* (Oxford, 1988).
- T. Jones, *Whitehall Diaries III* (Ireland, 1918-1925), ed K. Middlemas (1971).
- D.H. Johnson, 'The Death of General Gordon: A Victorian Myth', *JICH*, 10 (1982).
- H.J.M. Johnston, *British Emigration Policy, 1815- 1830* (Oxford, 1972).
- W.D. Jordan, *White Over Black: American Attitudes to the Negro, 1580-1812* (Williamsburg, North Carolina, 1968).
- R. Kaplan, 'The Hidden Hand: British Intelligence Operations during the American Revolution', *HAIQ*, 47 (1990).
- J.W. Kaye, *Lives of the Indian Officers* (2 vols, 1867).
- J.E. Kendall, *The Colonial and Imperial Conferences, 1887-1911* (1987).
- P. Kennedy, *The Rise and Fall of British Naval Mastery* (1976).
- , *The Rise of Anglo-German Antagonism, 1860-1914* (1982 ed.).
- , *The Rise and Fall of the Great Powers* (1988).
- L. Kennet, *French Forces in America, 1780-1763* (Westport, Conn., 1977).
- M. Kent ed., *The Great Powers and the End of the Ottoman Empire* (1984).
- Iman Khomeini, *Islam in Revolution* (Berkeley, Calif., 1981).
- I. Klein, 'British Intervention in the Persian Revolution, 1905-1908', *Hj* 15 (1972).
- H. Knatchbull-Hugessen, *Diplomat in Peace and War* (1949).

- D. Killingray, 'Repercussions of World War I in the Gold Coast', *JAH*, 19 (1978).
 ———, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast', *JMAS*, 21 (1983).
 ———, 'A Swift Agent of Colonial Government: Air Power in British Colonial Africa', *JAH*, 25 (1984).
 ———, 'Labour Exploitation for Military Campaigns in British Colonial Africa, 1870–1945', *JCont.H*, 24 (1989).
 R.J. King, 'Ports of Shelter, and Refreshment . . . Botany Bay and Norfolk Island in British Military Strategy, 1786–1808', *AHS*, 22 (1986).
 K.O. Kupperman, 'The Puzzle of the American Climate in the Early Colonial Period', *AHR*, 87 (1982).
 ———, 'Fear of Hot Climates in the Anglo-American Colonial Experience', *WMQ*, 41 (1984).
 M. Lake, 'Identifying the Masculine Context', *AHS*, 22 (1986).
 I.K. Lamb, *The Navy and German Power Politics* (1984).
 J.D. Lang, *A Historical and Statistical Account of New South Wales* (2 vols, 1834).
 S.M. Lawler, 'Ireland from Truce to Treaty: War or Peace? July to October 1921', *IHS* 22 (1980–81).
 T.E. Lawrence, *Letters*, ed. D. Garnett (1938).
 F.H. Lawson, 'The Iranian Crisis of 1945–1946 and the Spiral Model of International Conflict', *IJMES*, 21 (1989).
 ———, *Fur: A Study in English Mercantilism, 1700–1775* (Toronto, 1943).
 League of Nations: Permanent Mandates Commission Minutes (vols 1–4, Geneva, 1921–23).
 D.E. Leach, *The Northern Colonial Frontier, 1607–1763* (New York, 1966).
 M.P. Leffler, *A Preponderance of Power: National Security and the Truman Administration in the Cold War* (Stanford, 1992).
 J.D. Legge, *Britain in Fiji* (1958).
 J. Lemisch, 'Jack Tar in the Streets: Merchant Seamen in the Politics of Revolutionary America', *WMQ*, 25 (1968).
 M.G. Lewis, *Journal of a West India Proprietor, 1815–1817*, ed. C.M. Wilson (1929).
 D. Livingstone, *A Popular Account of Missionary Travels and Researches in Southern Africa* (1861).
 Lord Lloyd, *Egypt Since Cromer* (2 vols, 1934).
 S. Lloyd, *Suez, 1956* (1980 ed.).
 W.R. Louis, *Imperialism at Bay, 1941–1945: The United States and the Decolonisation of the British Empire* (Oxford, 1977).
 ———, *The British Empire in the Middle East* (Oxford, 1984).
 C.R. Low, *The Life and Correspondence of Field-Marshal Sir George Pollock* (1873).
 D.A. Low ed., *Congress and the Raj: Facets of the Indian Struggle, 1917–1947* (1977).
 P.L. Lovejoy and J.S. Hagendorn, 'Revolutionary Mahdism and Resistance to Colonial Rule in the Sokoto Caliphate, 1905–06', *JAH*, 31 (1990).
 F.D. Lugard, *The Rise of our East African Empire* (2 vols, 1893).
 R.H. MacDonald, 'Reproducing the Middle-Class Boy: From Purity to Patriotism in the Boys' Magazines, 1892–1914', *JCont.H*, 24 (1989).
 J.M. Mackenzie, *Propaganda and Empire: The Manipulation of British Public Opinion, 1880–1960* (Manchester, 1984).
 H. Macmillan, *War Diaries: The Mediterranean Diaries, 1943–1945* (1984).
 N. Macready, *Memoirs of an Active Life* (2 vols, 1927).
 ———, *The Life and Correspondence of Sir John Malcolm*, ed. J.W. Kaye (2 vols, 1856).

- N. Malcolm, 'On Service in Uganda', *Blackwoods Magazine* 166 (November 1899).
- E.P. Malone, 'The New Zealand Journal and the Imperial Ideology', *NZJH*, 7 (1973).
- J. Mangan, *The Games Ethic and Imperialism* (1986).
- M. Mann, *China, 1860* (1989).
- G.J. Marcus, *A Naval History of England, 1: The Formative Years* (1961).
- ed. A.J. Marder, *Fear God and Dread Nought: The Correspondence of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone, II: The Years of Power, 1904-1914* (1956).
- A.J. Marder, *From the Dardanelles to Oran: Studies in the Royal Navy in War and Peace* (Oxford, 1974).
- , *Old Friends, New Enemies: The Royal Navy and the Imperial Japanese Navy, Strategic Illusions, 1936-1941* (Oxford, 1981).
- , M. Jacobson and J. Horsfield, *Old Friends and New Enemies: The Royal Navy and the Imperial Japanese Navy, The Pacific War, 1942-1945* (Oxford, 1991).
- P.J. Marshall, 'British Expansion in India in the Eighteenth Century: A History Revision', *History*, 60 (1975).
- G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes on British Policy towards India during the First World War', *JCont.H*, 24 (1989).
- N. Martin, 'A Different Kind of Courage: The French Military and the Canadian Irregular Soldiers during the Seven Years War', *JCH*, 70 (1986).
- A.H. Mason, *Expeditions against the Black Mountain Tribes* (Simla, 1899).
- , *Expedition against the Hasanzai and Azakai Tribes of the Black Mountain, 1891* (Simla, 1894).
- H.L. Maw, *Memoir of the Early Operations of the Burmese War* (1832).
- T. Mboya, *Freedom and After* (1963).
- R. Matthew Bray, 'Fighting as an Ally: The English-Canadian Patriotic Response to the Great War', *CHR*, 61 (1980).
- L. McCardell, *Ill-Starred General: Braddock of the Coldstream Guards* (Pittsburgh, 1958).
- J.M. McCarthy, 'Australia and Imperial Defence: Cooperation and Conflict, 1918-1939', *AJPH*, 17 (1971).
- R.I. McCormack, 'Imperial Mission: The Air Route to Cape Town, 1918-1932', *JCont.H*, 9 (1974).
- , 'Missed Opportunities: Winston Churchill and the Air Ministry in Africa', *Int.HR*, 11 (1989).
- J. McCracken, 'Coercion and Control in Nyasaland: Aspects of the History of the Colonial Police Force', *JAH*, 27 (1986).
- G. McGhee, *Envoy to the Middle World* (New York, 1983).
- W.D. McIntyre, *The Imperial Frontier in the Tropics, 1865-1875* (1967).
- B.T.C. McKercher, 'Our Most Dangerous Enemy: Great Britain's Pre-eminence in the 1930s', *Int.HR*, 13 (1991).
- J.R. McNeil, *Atlantic Empires of France and Spain: Louisbourg and Havana* (1985).
- R. Meinertzhagen, *Kenya Diary* (1957).
- The Life and Correspondence of Charles, Lord Metcalfe*, ed. J.W. Kaye (1854).
- K.A. Miller, *Emigrants and Exiles: Ireland and the Irish Exodus to North America* (Oxford, 1985).
- Lord Milner, *England and Egypt* (2 vols, 1892).
- Lord Milner, *The Nation and the Empire: being a collection of Speeches and Addresses* (1913).
- A.F. Mockler-Ferryman, *Up the Niger: Narrative of Major Claude Macdonald's Mission*

- to the Niger and Benue Rivers (1892).
- The *Naval Tracts of Sir William Monson*, ed. M. Oppenheim (2 vols, Navy Records Society, 1902).
- J. Montgomery, *The West Indies* (1809).
- M. de Moraes Ruchsen, 'Operation "Ajax" Revisited', *MES*, 29 (1993).
- Lord Moran, *Winston Churchill: The Struggle for Survival, 1940-1965* (1968 ed.).
- K.O. Morgan, *Kerr Hardie, Radical and Socialist* (1975).
- S.E. Morison, *The Rising Sun in the Pacific 1931-April 1942* (History of United States Naval Operations in World War II, vol 3) (Oxford, 1948).
- J. Morris, *Pax Britannica* (1968).
- _____, *At Heaven's Command: An Imperial Progress* (1973).
- _____, *Farewell the Trumpets* (1978).
- R. Morris, *The Royal Dockyards during the Revolutionary and Napoleonic Wars* (Leicester, 1983).
- L. Morsy, 'The Military Clauses of the Anglo-Egyptian Treaty of Friendship and Alliance, 1936', *IJMES*, 16 (1984).
- _____, 'Britain's Wartime Policy in Egypt, 1940-42', *MES*, 25 (1989).
- _____, 'The Role of the United States in the Anglo-Egyptian Agreements of 1956', *MES*, 29 (1993).
- W.M. Mumford, 'Education and Social Adjustment of the Primitive People of Africa to European Culture', *Africa*, 2 (1929).
- T. Mun, *England's Benefit and Advantage by Foreign Trade* (1698 ed.).
- M.H. Murielt, 'Living in the Past: A Critical Re-examination of the Singapore Naval Strategy, 1918-1941', *IJS*, 11, 1 (1993).
- R. Murphy, 'Walter Long and the Making of the Government of Ireland Act', *IHS*, 25 (1986-87).
- G.C. Nammack, *Fraud, Politics and the Dispossession of the Indians: The Iroquois Land Frontier in the Colonial Period* (Norman, Oklahoma, 1969).
- W.P.F. Napier, *The Conquest of Sindh* (1846).
- A.G. Nasser, *The Philosophy of Revolution* (Cairo, n.d.).
- Naval Documents of the American Revolution*, 1, ed. W.B. Clark (Washington, DC, 1964).
- M.S. Navias, 'Terminating Conscription? The British National Service Controversy, 1955-56', *JCont.H.*, 24 (1989).
- _____, *Nuclear Weapons and British Strategic Planning* (Oxford, 1991).
- H. Nearby, 'C.J.W. Smith, an Eighteenth-Century Whig Imperialist', *CHR*, 27 (1947).
- C.W. Newbury and A.S. Kanya-Forstner, 'French Policy and the Origins of the Scramble for West Africa', *JAH*, 10 (1969).
- H. Nicolson, *Letters and Diaries, 1945-1961*, ed. N. Nicolson (1968).
- R. Nixon, *The Memoirs of Richard M. Nixon* (New York, 1990 ed.).
- K. Nkrumah, *The Autobiography of Kwame Nkrumah* (1957).
- D. Norman ed., *Nehru. The First Sixty Years* (2 volumes, 1965).
- D. Norms, 'Caspian Naval Expedition, 1918-1919', *JRCAS*, 10 (1923).
- B.B. O'Brian, 'Empire v. National Interests in Australian-British Relations during the 1930s', *AHS*, 22 (1986-89).
- P.K. O'Brian, 'Public Finance and the War with France', in ed. Dickinson, *Britain and the French Revolution*.

- J. Ochterlony, *The Chinese War* (1844).
- M. O'Dwyer, *India as I Knew It* (1926 ed.).
- Official History of Operations in Somaliland, 1901-1904* (2 vols, 1907).
- Oh Canada: A Medley of Stories, Verses, Pictures and Music Contributed by Members of the Canadian Expeditionary Force* (1916).
- The Old World and the New Society* (Labour Party, 1942).
- R. Oliver, 'The Two Miss Perhams', *JICH*, 19 (1991).
- Orderly Books of the Fourth New York Regiment, 1778-1780 and the Second New York Regiment, 1780-1783* (Albany, NY, 1932).
- R. Orme, *A History of the Military Transactions of the British Nation in Indostan from the Year MDCCXLV* (2 vols, 1763).
- G. Orwell, *Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell*, III, *As I Please, 1943-1945*, ed. S. Orwell and I. Angus (1968).
- R. Ovendale ed., *The Foreign Policy of the British Labour Governments, 1945-1951* (Leicester, 1984).
- M. Page, 'The War of Thangata: Nyasaland in the East African Campaign, 1914-1918', *JAH*, 19 (1978).
- T. Pakenham, *The Scramble for Africa* (1991).
- A. Palmer, 'Black American Soldiers in Trinidad, 1942-44: Wartime Politics in a Colonial Society', *JICH*, 14 (1986).
- R. Pares, *A West India Fortune* (1950).
- M. Pawson and D. Bussett, *Port Royal, Jamaica* (Oxford, 1975).
- R.H. Pearce, *Savagism and Civilisation: A Study of the Indian and the American Mind* (Baltimore, 1977).
- G. Pearson, *Hooligan: A History of Respectable Fears* (1983).
- J.B. Peires, '"Soft" Believers and "Hard" Unbelievers in Xhosa Cattle-Killing', *JAH*, 27 (1986).
- M. Perham, *Lugard: The Years of Adventure, 1858-1898* (1956).
- F.W. Perry, *The Commonwealth Armies: Manpower and Organisation in two World Wars* (Manchester, 1988).
- M. Peters, *Pitt and Popularity: The Prime Minister and London Opinion during the Seven Years War* (Oxford, 1980).
- J.M. Phillips, *Jamaica: its Past and Present* (1843).
- T. Phillips, 'The New Africa: The Need for New Forms of Government', *Nineteenth Century and After*, 182 (1937).
- J.W. Pickersill, *The Mackenzie King Record, 1 (1939-1944)* (Chicago, 1960).
- B. Pimlott, *Harold Wilson* (1992).
- D.C.M. Platt, 'Economic Factors and British Policy during the "New Imperialism"', *PP*, 32 (1968).
- W. Platt, 'East African Forces in the War and their Future', *RL'SI*, 93 (1948).
- A.W. Pollock, 'The Government and the Army', *Fortnightly Review*, New Series, 95 (January-June, 1914).
- C. Ponting, *1940: Myth and Reality* (1990).
- A. Porter, 'The South African War (1899-1902): Context and Motive Reconsidered', *JAH*, 31 (1990).
- P. Porter, 'The Exotic as Erotic: Captain Cook in Tahiti', in ed. G.S. Rousseau and R. Porter, *Exoticism in the Enlightenment*.
- B. Prasad, *Defence of India: Policy and Plans* (Cawnpore, 1965) (Official History of the Indian Armed Forces in the Second World War, 1939-1945).

- N. Pronay and D.W. Spring ed., *Propaganda, Politics and Film, 1918-1945* (1982).
- N. Pronay, 'The Political Censorship of Films in Britain before the War', in ed. Pronay and Spring, *Propaganda, Politics and Film, 1918-1945*.
- V. Purcell, *The Boxer Uprising: A Background Study* (Cambridge, 1963).
- A. Al-Qazzaz, 'The Iraqi-British War of 1941', *IJMES*, 7 (1976).
- D.B. Quinault, 'Churchill and Australia: The Military Relationship, 1899-1945', *H'S*, 6 (1988).
- D.B. Quinn, 'James I and the Beginnings of Empire', *JICH*, 2 (1974).
- Sir Walter Raleigh, *The Discovery of the Large, Rich and Beautiful Empire of Guiana*, ed. R.H. Schomburg (Hakluyt Society, 1848).
- D. Read ed., *The Great War and Canadian Society* (Toronto, 1978).
- The Records of the Virginia Company of London*, ed. S.M. Kingsbury (3 vols, Washington DC, 1933).
- Report of the Select Committee on Ceylon and British Guiana* (1849).
- Report of the Jamaica Royal Commission, 1866* (1866).
- J. Richards, *The Age of the Dream Palace: Cinema and Society in Britain, 1930-1939* (1984).
- J. Richards and A. Aldgate, *Best of British: Cinema and Society 1930-1970* (Oxford, 1983).
- G. Rizvi, *Linlithgow and India: A Study of British Policy and the Political Impasse in India, 1936-1943* (1978).
- W.R. Rock, *Chamberlain and Roosevelt: British Foreign Policy and the United States, 1937-1940* (Columbia, Ohio, 1988).
- Lord Ronaldshay, *The Life of Lord Curzon* (3 vols, 1928).
- N.A.M. Rodger, *The Wooden World: An Anatomy of the Georgian Navy* (1986).
- S. Roskill, *Naval Policy Between the Wars* (2 vols, 1976).
- J.H.S. Ross, *Royal New Zealand Air Force* (Official History of New Zealand in the Second World War) (Auckland, 1955).
- P.T. Ross, *A Yeoman's Letters* (Hastings, 1901).
- R.I. Rotberg, 'Resistance and Rebellion in British Nyasaland and German East Africa, 1888-1915', in ed. Gifford and Louis, *Britain and Germany in Africa*.
- G.S. Rousseau and R. Porter, *Exoticism in the Enlightenment* (Manchester, 1988).
- T. Royle, *The Last Days of the Raj* (1989).
- D. Rule, *The Pursuit of Progress: A Study of the Intellectual Development of Romesh Chander Dutt, 1848-1888* (Calcutta, 1977).
- S. Runciman, *The White Rajahs: A History of Sarawak from 1841 to 1946* (Cambridge, 1960).
- B. Sacks, *J. Ramsay MacDonald in Thought and Action* (Albuquerque, 1952).
- A. Al-Sadat, *In Search of an Identity: An Autobiography* (1978).
- P.M. Salek, 'W. H. Hughes and the Chanak Crisis of 1922', *AJPH* 17 (1971).
- J. Salmon, 'The Air Force in Iraq', *RUSI*, 70 (1925).
- S. Sandber, 'Homefront Battlefront: Racial Disturbances in the Zone of the Interior, 1941-1945', *H'S*, 11, ii (1993).
- G.N. Sanderton, 'The Origins and Significance of the Anglo-French Confrontation at Fashoda, 1898', in ed. Gifford and Louis, *Britain and France in Africa*.
- J.E. Seely, *Adventures* (1930).
- The Crisis of British Power: The Imperial and Naval Papers of the Second Earl of Selbourne*,

- 1885–1910, ed. D.G. Boyne (1990).
- F. Selous, *Sunshine and Storm in Rhodesia* (1896).
- Y. Shaffy, 'Unconcern at Dawn, Surprise at Sunset: Egyptian Intelligence Appreciation before the Sinai Campaign, 1956', *Intelligence and National Security*, 5 (1990).
- J. Sherer, *The Gold-Finder in Australia: How he went, how he fared and how he made his Fortune* (1853).
- R.B. Sheridan, 'The Jamaica Slave Insurrection Scare of 1776 and the American Revolution', *Journal of Negro History*, 3 (1978).
- E. Shuckburgh, *Descent to Suez: Diaries, 1951–1956* (1986).
- L. Simon, *Journal of a Tour and Residence in Great Britain during the years 1810 and 1811* (2 vols, Edinburgh, 1815).
- G. Smith, *The Empire: A Series of Letters Published in 'The Daily News', 1862, 1863* (1863).
- R. Smith, *14,000 Miles Through the Air* (1922).
- R. Smith, 'Britain's African Colonies and British Propaganda during the Second World War', *JICH*, 14 (1985).
- Historic Memoirs from 12 July 1776 to 25 July 1778 of William Smith*, ed. W.H.W. Sabine (New York, 1958).
- T. Smollett, *Continuation of the Complete History of England* (5 vols, 1763–67).
- The Letters of Tobias Smollett*, ed. L.M. Knapp (Oxford, 1970).
- Selections from the Papers of Jan Smuts*, ed. J. v. der Poel, 6 (Cambridge, 1973).
- D. Souden, 'Rogues, Whores and Vagabonds? Indentured Servant Emigrants to North America and the Case of Mid-Eighteenth-Century Bristol', *JSH*, 3 (1978).
- D. Spadadora, *The Idea of Progress in Eighteenth-Century Britain* (Yale, 1990).
- E.M. Spiers, *The Army and Society, 1815–1914* (1980).
- D. Spinney, *Rodney* (1969).
- , 'Rodney and the Saintes: A Re-assessment', *MM*, 68 (1982).
- J.O. Springhall, 'Lord Meath, Youth and Empire', *JCont.H*, 5 (1970).
- , 'Baden-Powell and the Scout Movement before 1920: Citizen Training and Soldiers of the Future', *EHR*, 102 (1987).
- Statistics of the Military Effort of the British Empire during the Great War, 1914–1920* (1922).
- A.G. Steel and R.H. Lyttleton, *Cricket* (Badminton Library, 1888).
- R. Stephens, *Nasser: A Political Biography* (1971).
- H. Stewart, *The New Zealand Divisions, 1916–1919* (Auckland, 1921).
- E. Stirling, *Some Considerations of the Political State of the Intermediate Countries between Persia and India* (1835).
- E. Stokes, *The English Utilitarians and India* (Oxford, 1959).
- , *The Peasant Armed: The Indian Revolt of 1857* (Oxford, 1986).
- A. Sumners, 'Militarism in Britain before the Great War', *History Workshop*, 2 (1976).
- , 'Scouts, Guides, and VADs: A note in reply to Allen Warren', *EHR*, 102 (1987).
- R. Swinhoe, *Narrative of the North China Campaign of 1860* (1861).
- D. Syrett, 'The Methodology of British Amphibious Operations during the Seven Years and American Wars', *MM*, 58 (1972).
- Viscount Templewood (Sir Samuel Hoare), *Empire of the Air: The Advent of the Air*

- Age, 1922-1929 (1957).
- J.J. Terry, *The Waid, 1919-1952* (1982).
- M. Thatcher, *The Downing Street Years* (1993).
- G. Thayer, *The British Political Fringe* (1965).
- J. Thomson, *Through Masai Land* (1885).
- M. Thomson, 'A Year Round in Northern Nigeria', *Blackwoods Magazine*, 175 (May 1909).
- C. Thorne, *Allies of a Kind: The United States, Britain and the War against Japan* (Oxford, 1978 ed.).
- R.L. Tignor, 'Decolonisation and Business: The Case of Egypt', *JMI*, 59 (1987).
- H. Tinker, 'India in the First World War and After', *JCont.H*, 4 (1968).
- M.E. Townsend, *The Rise and Fall of Germany's Colonial Empire, 1884-1914* (New York, 1966).
- N. Townsend, 'Moulding Minds: The School Paper in Queensland, 1905 to 1920', *JRAHS*, 75 (1989-90).
- C. Townshend, *The British Campaign in Ireland, 1919-1921: The Developments of Political and Military Policies* (Oxford, 1975).
- , 'Martial Law: Legal and Administrative Problems of Civil Emergencies in Britain and the Empire', *Hj*, 25 (1982).
- , 'The Defence of Palestine: Insurrection and Public Security, 1936-1939', *EHR*, 103 (1988).
- N. Tracy, 'British Assessments of French and Spanish Naval Reconstruction', *MM*, 61 (1975).
- , *Navies, Deterrence and American Independence: British Seapower in the 1760s and 1770s* (Vancouver, 1988).
- B.G. Trigger, 'Early Native American Response to European Contact: Romantic versus Rationalistic Interpretation', *Journal of American History*, 77 (1990-91).
- A. Trotter, *Britain and East Asia, 1933-1937* (Cambridge, 1975).
- J.S. Tucker ed., *Memoirs of Admiral the Right Honourable, the Earl of St Vincent* (2 vols. 1844).
- J. Turner, *British Politics and the Great War: Coalition and Conflict, 1915-1918* (1992).
- G. Vancouver, *A Voyage of Discovery to the North Pacific Ocean and Round the World, 1791-1795*, ed. W. Kaye Lamb (Hakluyt Society, 4 vols, 1984).
- C. Van Onselen, 'The 1912 Wankie Colliery Strike', *JAH*, 15 (1974).
- R. Vansittart, *The Mist Procession: The Autobiography of Lord Vansittart* (1958).
- The Narrative of General Venables*, ed. C.H. Firth (Camden Society, 1900).
- A. Vinogradov, 'The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered: the role of Tribes and National Politics', *IJMES*, 3 (1972).
- M. Volodarsky, 'Persia's Foreign Policy between the two Herat Crises', *MES*, 21 (1985).
- F.B. Vrooman, 'The Imperial Idea: From the Point of View of Vancouver', *Nineteenth Century and After*, 73 (1913).
- F. Waite, *The New Zealanders at Gallipoli* (Official History of New Zealand's Effort in the War) (Auckland, 1921).
- A.J. Ward, *Ireland in Anglo-American Relations, 1899-1922* (1969).
- F.R. Ward, *British West Indian Slavery: The Process of Amelioration* (Oxford, 1989).
- A. Warren, 'Sir Robert Baden-Powell, the Scout Movement and Citizen Training in Britain, 1900-1920', *EHR*, 101 (1986).

- B. Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe, 1939-1945* (Oxford, 1979).
- F. Watson, 'India Returned', *Life and Letters*, 49 (1946).
- D. Cameron Watt, 'Britain, the United States and the Opening of the Cold War', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments, 1945-1951*.
- I. Watts, *The Psalms and Hymns of the Reverend Isaac Watts*, DD ed. E. Williams (Doncaster, 1805).
- Lord Wavell, *The Viceroy's Journal* (1973).
- S.S. Webb, 'William Blathwayt, Imperial Fixer: From Popish Plot to Glorious Revolution', *WMQ*, 25 (1968).
- _____, 'Army and Empire: English Garrison Government in Britain and the Americas, 1569 to 1763', *WMQ*, 34 (1977).
- S. Webb, 'Lord Rosebery's Escape from Houndsditch', *Nineteenth Century and After*, 50 (1901).
- D. Wellesley, *Sir George Goldie: Founder of Nigeria* (1934).
- We Shall Win Through* (Conservative Party, 1952).
- J. Wells, *Stewart of Lovedale: The Life of James Stewart* (1901).
- West India Colonies and Mauritius: Immigration, I: British Guiana, Jamaica and Trinidad* (House of Commons Papers, 1859).
- A. Carton de Wiart, *Happy Odyssey* (1950).
- G.R. Wilkinson, 'Soldiers by Instinct and Training: The *Daily Mail* and the Image of the Warrior, 1899-1914', *Newspaper and Periodical Society*, 8 (1992).
- B.P. Willan, 'The South African Native Labour Contingent', *JAH*, 19 (1978).
- H. Williamson, *Donkey Boy* (1962).
- B. Wilson, *The Life and Letters of James Wolfe* (1909).
- K.M. Wilson, *Empire and Conflict: Studies in British Foreign Policy from the 1880s to the First World War* (1987).
- _____, 'The Anglo-Japanese Alliance of August 1905 and the Defending of India: A Case of the Worst Scenario', *JICH*, 21 (1993).
- The Papers of Woodrow Wilson* 45 (1917-1918) (Princeton, NJ, 1984).
- J.M. Winter, 'The Webbs and the Non-White World: a Case of Socialist Racism', *JCont.H*, 9 (1974).
- L.B. Wright, *Religion and Empire: The Alliance between Piety and Commerce in English Expansion, 1558-1625* (Chapel Hill, North Carolina, 1943).
- P. Wright, *Spycatcher* (New York, 1987).
- H.F. Wyatt, 'The Cause of National Insecurity', *Nineteenth Century and After*, 71 (1912).
- Lord Wylloughby de Broke, 'National Toryism', *National Review*, 59 (1912).
- A.C. Yate, 'Britain's Buffer States in the East', *JRCAS*, 5 (1918).
- P.J. Yearwood, 'Great Britain and the Repartition of Africa', *JICH*, 18 (1990).
- G. Younghusband, *Forty Years a Soldier* (1923).
- P. Ziegler, *Mountbatten* (1985).
- _____, *King Edward VIII: The Official Biography* (1990).

المؤلف فى سطور:

لورانس جيمس:

ولد فى باث بإنجلترا، عام ١٩٤٣.

درس التاريخ واللغة الإنجليزية فى جامعة يورك، وحصل على منحة دراسية من جامعة ميرتون بجامعة أكسفورد، وأصبح مدرّساً.

تفرغ لورانس للكتابة التاريخية فى عام ١٩٨٥، وقد ألف سبعة كتب نقدية وتاريخية، ويقطن فى سانت أندورس فى أسكتلندا مع زوجته واثنتين من أبنائه، وتعمل زوجته مديرة مدرسة سانت ليونارد.

ومن مؤلفاته: القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦): الحرب مع روسيا فى صور معاصرة، والحرب البربرية: الحملة البريطانية فى أفريقيا من (١٨٧٠ - ١٩٢٠)، وأعمال التمرد فى القوات البريطانية والكومنولث (١٧٩٧ - ١٩٥٦)، وأيضاً الحروب الإمبراطورية الأخيرة، والمحارب الذهبى: حياة وأسطورة لورانس العرب، والدوق الحديدى: حياة الدوق ولنجتون العسكرية، والمحارب الإمبراطورى: حياة وزمن المشير أفسكونت اللنبى.

المترجم فى سطور:

عبد الله عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحوث والدراسات الإفريقية الأسبق.

حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغة الإنجليزية عام ١٩٦٢
وليسانس الآداب فى التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراسات الإفريقية
عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢..

تدرج فى الوظائف الجامعية حتى صار أستاذًا للتاريخ الحديث
والمعاصر، وتولى وكالة المعهد لشئون الدراسات العليا والبحوث حتى عام
١٩٩٩، وبعدها صار أستاذًا متفرغًا بقسم التاريخ.

أعير إلى جامعة قطر فى الفترة من ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٢، شارك
فى أكثر من سبعين مؤتمرًا علميًا فى الداخل والخارج، وأشرف على عدد
كبير من الرسائل الجامعية فى مصر والدول الخارجية.

ألف أكثر من خمسة وعشرين كتابًا أكاديميا، ونال جائزة الفنجري فى
الدراسات الإسلامية.

ترجم عددًا من الكتب نشرها المجلس الأعلى للثقافة مثل: تراث الهند
وتمبكت العجيبة، كما شارك فى مراجعة كتب المجلس الأعلى للترجمة مثل
المشرق العربى والمشرق الأقصى فى العهود الإغريقية الرومانية
والإيرانية العربية.

المراجع فى سطور:

شوقى عطا الله الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية-
جامعة القاهرة.

- تولى رئاسة قسم التاريخ فترة طويلة لعدم وجود أساتذة، وأعير إلى
المملكة المغربية، ألف العديد من الكتب الجامعية والتاريخية.

- قدم للمكتبة العربية العديد من المراجع التاريخية مثل: تاريخ كشف
أفريقيا واستعمارها، والمغرب العربى الكبير، وسودان وادى النيل، وتاريخ
غرب أفريقيا، وتاريخ شرق وجنوب أفريقيا، وقضية روديسيا.

- شارك فى أكثر من خمسين مؤتمراً علمياً فى الداخل والخارج، كما
أشرف على العديد من الرسائل العلمية.

- راجع عددا من كتب المجلس الأعلى للثقافة مثل: رحلة كشف شمال
أفريقيا وغرب أفريقيا، وتمبكت العجيبة، والحضارة الأفريقية، وحركات
التحرر الوطنى فى القارة الأفريقية.

التصحيح اللغوي: وجيه فاروق

الإشراف الفني: حسن كامل